

البؤساء

الروايةُ كاملةً
في خمسة مجلدات



البؤساء

لشاعر فرنسية العظيم
فيكتور هيجو

١

نقله إلى العربية
مُنِير العَبَّاسِي

دار العلم للملايين

بيروت

البُؤْسَاءُ

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

مَقْدِمَةٌ

إذا كانت «البؤساء» قد حظيت حين نشرها ، ولا تزال تحظى الى اليوم ، في فرنسا والديار الأوروبية والأميركية ، بمكانة أدبية تكاد لا ندانيها عند جمهور القراء أيما مكانة لأيما رائعة من الروائع الانسانية الخالدة ، فليس من شك في انها تُعتبر أعظم الحوادث الكلاسيكية الغربية شهرة في العالم العربي ايضاً ، لا استثنى من ذلك حتى مسرحيات شكسبير نفسها . وآية هذا ان من النادر ان تجد انساناً في العرب اليوم لم يسمع باسم «البؤساء» لفكتور هيجو أو لم يقرأ عنها ، أو يطالع مختصراً من مختصراتها الكثيرة التي صدرت بالعربية في عشرات الطبعات ، أو لم يشاهدها على الشاشة البيضاء . فمنذ ان اصدر شاعر مصر البائس ، حافظ ابراهيم ، بضعة فصول من الرواية في جزئين صغيرين لا يبلغان عشر الاصل ، أو اقل من ذلك قليلاً ، وشخصية «جان فالجان» الخالدة حية في مخيلة الناشئة العربية جيلاً بعد جيل ، فهي تحبها وتأسى لها وتكبر فيها خيرية الانسان القاهرة شرور المجتمع كلها ، الخارجة من اتون تلك الشرور وهي اصفى جوهرأ ، وخير صقلاً . ومن هنا كان في ميسورنا ان نقول ان «البؤساء» خالطت الوجدان العربي ، وعملت على إيقاظه «مسهمة» في خلق الوعي الاجتماعي

الجديد الذي ننعم به اليوم في ارض العرب من اقصاها الى اقصاها .
ومن أسف ان يكون اطلاق الاجيال العربية على « البؤساء » منذ
عهد حافظ ابراهيم حتى هذه الساعة ، اطلاقاً منقوصاً مشوهاً لم يَسَلَمْ
معه من تلك الملحمة الانسانية الراسخة رسوخ الاطواد غير هيكلها
المجرد ، واحداثها العاطفية المثيرة . اما التحليل النفسي ، واما التعبير
الشعري الذي يغلف كل صفحة من صفحات الكتاب ، واما التصوير
الفني البارع الذي اشتهر به هيجو ، واما اللوحات التاريخية التي انتشرت
في حنايا الاثر ، فقد « كَتَبَ » على ذلك كله أن يُسَحَقَ ويُزاح من
الطريق لكي يكون في الامكان « حَفَظُ » ألفين وخمسة صفحة من القطع
الكبير في ثلاثة او اربعة صفحة صغيرة ليس غير ! ذلك لأن اياً من
الاقلام العربية لم يجرؤ - برغم نشاط حركة الترجمة نشاطاً متعاضداً -
على ان ينقل الى العربية هذا الاثر الادبي الخالد نقلاً كاملاً لا حذف فيه
ولا تشويه ، وذلك لأن اياً من النashرين العرب لم يجرؤ - برغم نشاط
حركة النشر نشاطاً متعاضداً ايضاً - على التفكير في عمل كهذا وإخراجه
للناس . لكانه « قَدَّرَ » على القاريء العربي ان ينتظر الذكرى السبعينية *
لوفاء شاعر فرنسة العظيم حتى يَنْعَمَ لأول مرة بقراءة « البؤساء » كاملة
غير منقوصة .

وأياً ما كان فقد تطورت منذ عهد هيجو مقاييس الفن الروائي
واختلفت مفاهيمه ومذاهبه ، ولكن تطوّر المقاييس واختلاف المفاهيم
وحدهما لا يصلحان ذريعةً لأغفال الخوالات الادبية وتجاوزها الى النماذج
الحديثة دون غيرها ، لأن الاثر الادبي الممتاز يترد على هذه القواعد
ويزري بها لما يَضِجُ به من حياة باقية على الدهر ، ومن قيمة ذاتية هي
فوق القوالب والاساليب . وهل غَضَّ تطوّر المفاهيم الفنية والمقاييس

* تصانف هذا العام ذكرى انقضاء مئتين سنة على وفاة هيجو (٢٢ نوار ١٨٨٥) .
ومن محاسن المصادفات ان يصدر الجزء الاول من هذه الترجمة في يوم الذكرى بالذات ايضاً .

النقدية من ادب العربي ، وديكنز ، وبلازاك ، وتولستوي ، ومكسيم غوركي ، وذمبَ يحدته ؟ إن الآثار الادبية الانسانية كالآثار المعمارية والفنية لا تزاد مع الايام الا 'حرمة' ونفاة" بل واشراقاً في بعض الاحيان . وانما يتأكد هذا المعنى اكثر حين نكون القضايا التي يعالجها الاثر الخالد مطروحة ، ما يزال ، في بلادنا ، سواء على الصعيد النظري او على الصعيد العملي ، او على الصعيدين النظري والعملي جميعاً . ومن هنا ندرك حاجتنا الماسة الى ترجمة صحيحة للبؤساء -- ولو بعد قرابة مئة سنة من نشرها -- بالاضافة الى انه لا يجوز ان تخلو المكتبة العربية وحدها بين مكتبات الامم الحية كلها من ترجمة كاملة للبؤساء ، بل لا يجوز ان تخلو من اي اثر ادبي خالد من آثار الفكر الانساني المجرد انه عتيق . وعلى أية حال فالبؤساء ابعد ما تكون عن العتق او الشيفوخة . ألم يقل هيجو في الاسطر القليلة التي قدم لها بها :

« ... ما دامت مشكلات العصر الثلاث - الحطة من قدر الرجل
« بالفقر ، وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل -
« لما 'نخل' بعد ؛ ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في
« بعض البقاع ... ما دام على ظهر هذه الارض جهل وبؤس ،
« فان كتباً مثل هذا الكتاب لا يمكن ان تكون غير ذات غناء »

وبعد ، فمن الخير ان نقدم الى القراء الآن كلمة موجزة في حياة المؤلف وآثاره .



حياته

ولد فيكتور هيجو في بيزاندون ، عاصمة الـ « فرانش كوتيه » ، شرقي فرنسا ، في ٢٧ شباط سنة ١٨٠٢ من أب كان ضابطاً في جيش الامبراطورية ثم غدا جنرالاً . وانتقل هيجو الفتى مع أبيه الى ايطالية ،

وكورسيكة ، وجزيرة ألبا ، ثم الى اسبانية (سنة ١٨١١) حيث قضى عاماً واحداً مع أخيه اوجين في كلية النبلاء بمدرسة . وفي عام ١٨١٢ رجع الى باريس حيث تلقى العلم على د أمير وعلى كاهن عجوز وحديقة ، ثم التحق بمدرسة البوليتكنيك *Polytechnique* . ولكن المهوم الأدبية مثلته في سن مبكرة ، فاستترك في مسابقة نظمها الاكاديمية الفرنسية ، وهو بعد في الخامسة عشرة من العمر ، ففاز بجائزة شعرية لقصيدته « حسنات الدراسة » . وفي اواخر سنة ١٨١٩ أسس مع اخويه ، وبمساعدة « سوميه » و « فيني » صحيفة « المحافظ الادبي » *Conservateur littéraire* ، فلم تعيش غير سنة ، وقد كتب هو فيها ٢٧٢ مقالة . وفي سنة ١٨٢٢ أجرى عليه لويس الثامن عشر راتباً بعد نشر ديوانه الاول الموسوم بـ « نشائد » *Odes* وفي هذه الفترة تزوج من آديل فوشيه فأنجبت له اربعة اولاد ، ثم توفيت سنة ١٨٦٨ .

وابتداء من عام ١٨٢٧ الذي صدرت فيه مسرحيته التاريخية « كرومويل » *Cromwell* بمقدمتها الشهيرة التي سنّ فيها حرباً لا هوادة فيها على المفاهيم المسرحية الكلاسيكية اعتير هيجو زعيم الحركة الرومانتيكية . وتعدّ هذه الفترة التي امتدت حتى عام ١٨٤٣ اخصب عهوده بالانتاج الادبي اذ وضع فيها مقطوعاته « الشرقيات » *Les Orientales* ، ومسرحية « هيرناني » *Hernani* وقصة « نوتر دام دو باري » *Notre . Dame de Paris* حتى اذا كان عام ١٨٤١ انتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية بعد أن أخفق في ذلك أربع مرات متعاقبات . وطوال العشر السنوات التي قلت انصرف هيجو الى النضال السياسي ، مجتهداً نفسه في خدمة الافكار الديمقراطية والجمهورية . وبعد ثورة ١٨٤٨ انتخب عضواً في الجمعية التأسيسية ، ثم في الجمعية التشريعية . وفي تلك الفترة شرع في كتابة روايته الكبرى « البؤساء » . حتى اذا تم انقلاب كانون الاول سنة ١٨٥١ ، وأطاح نابوليون الثالث بالجمهورية ليعلم في العام التالي

Qui lui sera impossible, en toi, c'est le bonheur ?
 Tu n'en don pas pour moi ! cherche en vain l'orgueil !
~~J'y ai mis la main à l'œuvre~~
~~l'œuvre, j'y ai mis la main ! c'est la main !~~
 Qu'en le Dieu !

S. Sol.

Donc le z'irais par assés !
~~Je le dis de mon cœur~~
~~Je le dis de mon cœur~~
 Ah ! l'en a à l'âme plus

Hermann

Et ! me avec en son cœur,
 C'est toi ! l'âme
 C'est toi ! a m'en l'en par de lui, de adieu !

S. Sol.

J. a l'en l'en par. l'âme, j'en m'en.

Hermann.

He ! pour qui ? pour qui ? de pour il que le m'en
 L'en a par ?

S. Sol. l'âme
 l'âme de l'âme.

منة من سرية « هيراني » لفكتور هيجو بخط يده .

قيام الامبراطورية الثانية ، وقف فيكتور هيجو في صفوف المعارضة ، فنُفي الى بروكسل ، ومنها انتقل الى جيرزي واخيراً الى غورنبي وما جزيرتان من الجزائر الانكليزية النورماندية * وأكسب النفي عبقرية الشعرية رحابة وقوة جديدتين فمهر الادب في هذه الفترة باروع آثاره : « التأملات » (١٨٥٦) *Les Contemplations* ، والقسم الاول من « خواقفة العصور » (١٨٥٩) *La Légende des Siècles* « والبؤساء » (١٨٦٢) *Les Misérables* وفي ٥ ايلول سنة ١٨٧٠ رجع الى باريس فشهد احوال الحرب وذل الهزيمة ، ثم انتخب عضواً في الجمعية الوطنية ، عام ١٨٧١ ، فعضواً في مجلس الشيوخ ، عام ١٨٧٦ . ذلك كان عهد الشيخوخة ، ولقد ظلّ خصباً حافلاً . وفي سنة ١٨٨٢ احتفلت الامة الفرنسية احتفالاً مهيباً ببلوغه الثمانين من العمر . وما هي الا سنوات معدودات حتى قضى نحبه (٢٢ نوار سنة ١٨٨٥) فأقامت له باريس مأثماً عظيماً . وفي نوار - حزيران من عام ١٩٣٥ احتفلت فرنسا بالذكورى الخمسينية لوفاته احتفالاً يعزّ نظيره .

عبقرية

يجمع النقاد ، او يكادون ، على ان فيكتور هيجو أعظم شاعر غنائي فرنسي ، وواحد من اعظم شعراء العالم في مختلف العصور . ورأس مواهب هيجو قوة خارقة على الخيال الموضوعي ، وبراعة عجيبة في التصوير ترددها قدرة فريدة على السمو بالكلمة حتى لتصبح نغماً . وقد لا تكون حساسيته الشعرية على مثل العمق الذي يميز الحساسية الشعرية عند لامرتين ، او على مثل الجيشان الذي يطبع الحساسية الشعرية عند ألفرد دو موسيه ، ولكنها تتمتع برحابة او بسعة اعظم بكثير . إنما تبدى نابضة بالحياة ، مشوبة بخاصة حين توجه نحو الاطفال * هي مجموعة من الجزر الانكليزية القائمة على الشاطئ الوردندي .

والمستضعفين من الناس . *

ولئن لم يتشم تفكير هيجو بأحالة الخلق وعمق الابتداع فليس من ريب في انه امدّ انتاجه الشعري بغذاء من الافكار غني . انه لم 'يجرّ القلم قطّ على قرطاس إلا ليجد افكاراً عظيمة ، أو ليدافع عن افكار عظيمة . وما الشاعر ، عنده ، إلا المنارة التي يتعين عليها ان ترشد الجماهير وتهدئهم سواء السبيل ، والصوت المقدّس الذي يحمل اليهم انجيلهم . ** ومن هنا أثار عدداً كبيراً من المشكلات الاخلاقية والاجتماعية التي يتناظر فيها الفلاسفة : الخير والشر ، والانسان والله ، والله والخلق ، والحكمة والعلم ، والجهل والشر ، والرزيلة والبؤس ، والسعادة والتقدم ، معبراً عن ذلك كله في صور قوية ساحطة .

شعره

كان هيجو شاعراً غنائياً في المحل الاول . ولكن غنائه كانت دون غنائية لارنتين عفوية وصحيبة ، وان تكن اكثر منها تنوعاً . والحق ان هيجو وصف نفسه فقال إنه « نفّس من البلور » و « صدى مرثان » ، يعني أنه قد عكس ، ورجّع ، وكثّر ، وافرغ في نظام أوركستريّ جميع الاغراض الغنائية . لقد غنى ، قبل كل شيء ، جميع انطباعات عصره فكان روح القرن التاسع عشر الشعرية نجماً في قصائده من جديد . وغنّى جميع العواطف الانسانية ، من مثل الحب النبوي ، والحب الأبوي ، والآمال ، والاحزان ، والامرة ، والوطن . ثم اضاف الى هذا كله الألم الفلسفي ، والتطور الديني ، ولغز الموت والمجهول ، وتوق الانسان الى الجمال والخير ، والتألم للعدالة ، وإيمانه بمستقبل قوامه الحرية والتقدم . وعلى الجملة ، فقد كانت أشبه بموسوعة

* راجع . Quillet ; Dictionnaire Encyclopédique p. 2282.

** المصدر السابق نعه .

غنائية للعصر الذي عاش فيه . *
 واشهر آثاره الغنائية « نشاند » (١٨٢٢) Odes ، و « نشاند
 جديدة » (١٨٢٤) Odes Nouvelles ، و « الشرقيات » (١٨٢٩)
 Les Orientales ، و « أوراق الخريف » (١٨٣١) Les Feuilles d'automne ،
 و « الاصوات الداخلية » (١٨٣٧) Les Voix Intérieures ، و « الاشعة
 والظلال » (١٨٤٠) Les Rayons et les Ombres ، و « التأملات »
 Les Contemplations (١٨٥٦) .

وكان كذلك شاعراً ملحمياً أعطى الادب العالمي لوحات تاريخية
 خالدة هي أشبه ما تكون بملحة في الانسانية تمثل لنا العصور الغابرة ،
 والحقة المعاصرة ، وحروب القرن التاسع عشر الكبرى . وهذا التراث
 الضخم تنتظمه كله فكرة التقدم ، وتصعيد البشرية البطيء نحو النور
 عبر الصراع الخوف بين الخير والشر . وما هذه الملحة غير « اسطورة
 العصور » La Légende des Siècles ، وقد نشرت في ثلاثة اجزاء متعاقبة
 (سنة ١٨٥٩ ، و ١٨٧٧ ، و ١٨٨٣) .

مسير حياته

واقترح هيجو ميدان التأليف المسرحي بدرامه « كرومويل »
 التي عُدّت مقدمتها الشهيرة بمثابة « البيان » أو « المانيفيستو » للمدرسة
 المسرحية الناشئة التي نادى بضرورة الأخذ بشكل مسرحي أكثر حرية .
 ولكن هيجو لم يوفق على العموم في هذا الميدان ، فشخصه « غنائون »
 أكثر مما ينبغي . وبسبب من أنهم غنائون لم يكن في ميورهم ان
 يكونوا « مسرحيين » . انهم ليسوا ارادات تعمل ، ولكن احاميس
 تتلاعب بها الظروف الخارجية وكأنها دمية من الدمي .

وأياماً ما كان ناشر مسرحيات هيجو « كرومويل » ، وهي شعرية (١٨٢٧) ، و « هيرناني » وهي شعرية (١٨٣٠) ، و « الملك يلهو » وهي شعرية أيضاً (١٨٣٢) *Le Roi s'amuse* ، و « ولوكريس بورجيا » وهي نثرية (١٨٣٣) *Lucrèce Borgia* ، و « ماري تبودور » وهي نثرية (١٨٣٣) *Marie Tudor* .

رواياته : « البؤساء »

واعطى هيجو روايات عديدة منها « فوتر دام دو باري » (١٨٣١) و « الرجل الذي يضحك » (١٨٦٩) *L'Homme qui rit* ، و « ثلاثة وتسعون » (١٨٧٢) *Quatre - vingt - treize* . اما اعظم رواياته جميعاً وأبقاها على الدهر فهي « البؤساء » ، وقد شرع في كتابتها ، كما رأينا ، قبل عام ١٨٥٠ ولم ينجزها الا عام ١٨٦٢ . وإنما وضع هيجو روايته هذه تحت تأثير التعاليم الانسانية والاشتراكية التي نادى بها « كايه » * و « برودون » ** فدافع فيها عن قضية جميع اولئك الذين يحترق المجتمع ، والذين ينبغي ان تعزى جرائمهم الى فساد ذلك المجتمع نفسه .

والواقع ان « البؤساء » هي في المثل الاول رواية اجتماعية قصد بها هيجو الى التنبيه على المظالم التي يزرع تحت عبثها المعذبون في الارض باسم النظام حيناً ، وباسم العدالة حيناً ، وباسم الاخلاق حيناً ، وباسم

* Cabet مفكر فرنسي (١٧٨٨ - ١٨٥٦) غيّل مدينة فاضلة اشتراكية في كتابه « رحلة في ايكاري » *Voyage en Icarie* . ولقد حاول ان يحقق نظرياته من طريق انشاء مدينة نموذجية في تكساس ، ثم في ايلينويس ، ولكنه اخفق .

** Proudhon اشتراكي فرنسي (١٨٠٩ - ١٨٦٥) وضع نظريات مشهورة في الملكية الشخصية ، وحاول ان يوفق ما بين البورجوازية والبروليتاريا لكي ينشئ منها طبقة وسطى . ومن مؤلفاته : « ما الملكية الشخصية ؟ » و « تناقضات اقتصادية » .

الشعب دائماً . ورواية تاريخية ارادها صاحبها معرضاً لأفكاره الديمقراطية ونزعاته التحررية ، فزّينها - على حساب الفن القصصي أحياناً - بلوحات قلمية جدد فيها تاريخ فرنسا في حقبة من أخطر الحقب لا في حياة ذلك البلد فعسب ، بل في حياة أوروبا كلها ، أعني تلك الحقبة المنسجبة على عهدي نابوليون بوناپرت ولويس فيليب بما حفل به من انتفاضات ثورية وانتكاسات رجعية ... وهي الى هذا وذلك - قارورة طيب ، ووعاء فلسفة ، وملحمة نضال . انها بكلمة ، نشيد الحرية ، وأنجيل العدالة الاجتماعية ، وسيمفونية التقدم البشري - عبر العرق والدمع والدم - نحو الغاية التي عمل من أجلها المصلحون في جميع العصور : تحقيق إنسانية الانسان وإقامة المجتمع الأمثل . ولعل أروع صفحاتها تلك التي صور فيها شخصية الاسقف ميربيل ، وآلام فانتين ، وفرار جان فالجان ، ومعركة واترلو ، وثورة عام ١٨٣٢ . بل لعل أروع ما فيها قلب هيجو الكبير النابض من وراء كل كلمة من كلماتها ، وكل فكرة من فكراتها ، وشاعريته العارمة الخيرة التي تتخطى الحدود والحدود ، ولا تعرف هدفاً غير المحبة ، والعدل ، والخير العام .



وبعد ، فبسعدينا ان نؤف الى القراء الكرام في سلسلة « خوالد التراث الكلاسيكي » هذه أول ترجمة صحيحة كاملة للبؤساء ، راجين ان يكون في صنعنا هذا « مد» لبعض النقص الذي ما تزال مكتبتنا الحديثة تعانيه من دون سائر مكنتبات الشعوب الحية ، أعني حاجتها الى نسخة عربية كاملة عن كل اثر من الآثار الانسانية الشائعة التي ابدعها الفكر البشري في قديم الايام وحديثها .

بيروت ، ٥ نوار ١٩٥٥

منير البعلبكي

« وفي ترجمتنا النص الكامل لرائمة تشاولز ديكنز « قصة مدينتين » التي تؤلف الحلقة الاولى من هذه السلسلة .

كلمة أولى

ما دام غمة ، بسبب من القانون والعرف ، هلاك اجتماعي
يخلق 'صناعياً' ، وعلى مرأى من الحضارة وسمع ، ضروباً من
البحيم على الأرض ، ويعتقد في قضاء بشري محتوم مصيرا هو الذي
ما دامت مشكلات العصر الثلاث - الخط من قدر الرجل بالفقر ،
وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل - لما تحل
بعد ، ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في بعض البقاع ؛
وبكلمة اخوى ، ومن وجهة نظر ارحب واعم ايضاً ، ما دام على
ظهر هذه الأرض جهل ويؤس ، فان كتباً مثل هذا الكتاب
لا يمكن ان تكون غير ذات غناء .

هونفيل هاوس ، ١٨٦٢

فيكتور هيجو

القِسْمُ الأوَّل

فانتين

الكتاب الأول

رَجُلٌ مُسْتَقِيمٌ

١

مسيو ميريل

في عام ١٨١٥ كان صاحب السيادة شارل فرانسوا بينفينو ميريل هو
أسقف د... * كان رجلاً في الحامة والسبعين ، وكان قد شغل اسقفية د...
منذ عام ١٨٠٦ .

وبرغم ان بعض التفاصيل لا تمس بطريقة ما اساس القصة التي سنرويها ، فليس
من غير المفيد — ولو من اجل الدقة في الاشياء جميعاً على الاقل — ان نشير هنا
الى الاقاويل والاشاعات التي نشأت على حسابه منذ ان وفد الى الابوشية .

* يقصد مدينة ديني Digne حاضرة احدى المقاطعات الفرنسية الواقعة في اقصى الجنوب الشرقي
على بعد ٧٦٤ كيلومتراً جنوبي شرقي باريس .

وسواء أكان ما يُقال عن الرجال صدقاً أم كذباً فإنه كثيراً ما يترك في حيواتهم ، وفي مصائرهم بخافة ، أثراً اعظم من ذلك الذي تتركه أفعالهم . كان مسيو ميريل ابن مسنار لبرلمان إيكس * فهو يتمتع بشرف النبالة الذي كان يُخلع على رجال القانون . وإذا أحب الأب أن يخلفه ابنه في منصبه ذاك ، فقد عمد الى تزويجه في سن مبكرة جداً - في الثامنة عشرة ، او العشرين - وفقاً لعرف سائد عند الأسر البرلمانية . ولقد قيل ان شارل ميريل كان ، برغم زواجه ، موضوع اهتمام القوم واحاديثهم . كان شخصه مُفرغاً في قالب رائع . وكان على الرغم من قصر قامته أنيقاً ، كيتساً ، ظريفاً . لقد وقف الشطر الاول من حياته ، كله ، على الحياة الاجتماعية وملذاتها . ثم جاءت الثورة ، وتعاقبت الاحداث سراعا ؛ وتشتت الأسر البرلمانية ، بعد ان قُتل منها خلقٌ كثيرٌ ، وبعد ان طوردت ولوحقت . وعند اندلاع الثورة ، هاجر مسيو شارل ميريل الى ايطالية . وهناك ، توفيت زوجته من علة في الرئتين طالما تهددت حياتها بالخطر . ولم تخلّف ايما ولد . ولكن ايّ جديد طرأ على مصائر مسيو ميريل بعد ذلك ؟ هل اثار تفنُّع المجتمع الفرنسي القديم ، وسقوط أمرته نفسها ، ومشاهد عام ١٧٩٣ الفاجعة ، التي كانت أشد فظاعة في اعين المهاجرين الذين رأوها من بعيد وقد ضخمتها الذعر - هل اثار ذلك كله افكاراً تدعو الى الاعتزال وقهر الذات ؟ هل اصاب فجأة ، وسط موجة من موجات الانفعال وشرود الذهن التي استغرقت حياته آنذاك ، بوحدة من تلك الضربات الرهيبة الغامضة التي تصرع احياناً - بطعنة في القلب الرجل الذي عجزت الكوارث العمومية عن زعزعته ، بأن تسدّد بُجع كفها الى حياته او قدّره ؟ ذلك ما لم يكن احد بقادر على الاجابة عنه . كل ما عرفه الناس انه حين رجع من ايطالية كان يرتدي ثوب الكهنوت .

وفي سنة ١٨٠٤ كان مسيو ميريل كاهن بـ ... (برينشول) ** . كان

* Aix عاصمة « البروفانس » القديمة ، وتقع على بعد ٢٨ كيلومتراً عن مرسيليا .

** Brignolles بلدة صغيرة من اعمال مقاطعة فار (وعاصمتها تولون) على الساحل الجنوبي الشرقي من فرنسا .

آنذاك رجلاً عجوزاً ، وكان يجيأ في عزلة مطلقة .

وحوالي عهد التتويج * دعت مسألة صغيرة متصلة بوظيفته الدينية - ولم يبقَ في الامكان معرفة تلك المسألة الآن - الى ان يقصد الى باريس .
وهناك زار الكاردينال فيش فيمن زارهم من رجال السلطان خدمة لبعض مصالح رعيته .

وذاث يوم ، حين وفدَ الامبراطور لزيارة عمه ، التقى في طريقه بالكاهن الجليل ، الذي كان في غرفة الانتظار . وإذا لاحظ نابوليون ان الرجل العجوز نظر اليه في شيء من الفضول ، استدار وتساءل في خشونة : « من هذا الرجل الساذج الذي ينظر اليّ ؟ »

فقال مسيو ميريل : « مولاي ، إنك لترى الى رجل ساذج ، وإني لأرى الى رجل عظيم . وفي ميور كل منا ان يفيد من ذلك . »

وتلك الليلة سأل الامبراطورُ عمه الكاردينال ما اسم الكاهن . وبعد فترة وجيزة فمر الدهش مسيو ميريل إذ عرف أنه عُيِّن اسقفًا لمدينة د ...

وفيما عدا ذلك ، لم يعلم أحدٌ ايّ قدر من الصحة كانت تنطوي عليه تلك الحكايات التي سارت بين الناس ، والتي تتصل بالشرط الاول من حياة مسيو ميريل . ولكنَّ أسراً قليلة كانت تعرف أسرة ميريل قبل الثورة .

وتعبن على مسيو ميريل ان يذعن للقدَر الذي يُلمَّ بكلِّ وافد جديد الى مدينة صغيرة ، حيث توجد ألسنٌ كثيرة تتكلم ، ووؤوس قليلة تفكر . لقد تعبَن عليه أن يذعن برغم انه كان أسفياً ، ولأنه كان أسفياً . وعلى أية حال ، فقد كانت الاقاويل المتصلة باسمه مجرد أقاويل ليس غير : لفظي ، وحديث ، وكلمات ، بل اقلَّ من كلمات : *palabres* كما يعتبر اهل الجنوب في لغتهم العنيفة .

ومها يكن من أمر ، فبعد نع سنوات من نهوضه بأعباء الاسقفية وإقامته في د ... نضالت جميع تلك الحكايات وموضوعات اللغو ، التي تشغلُ ،

* اي تتويج نابوليون بوناپرت امبراطوراً ، في ١٨ نوار سنة ١٨٠٤ .

باديه الأمر ، المدن الصغيرة والناس الصغار ، وغرقت في نسيان مميت . إن
أحداً ما عاد يجروء على ان يتحدث عنها ، بل إن أحداً ما عاد يجروء على ان
يتذكرها .

وحين وفد مسيو ميريل على مدينة د... كانت تصعبه عانس تدعى الآنسة
بابتيستين . وكانت هذه العانس هي أخته ، وكانت اصغر منه بعشر سنوات .
وكانت خادمتهما الوحيدة امرأة في مثل سن الآنسة بابتيستين تدعى السيدة
ماغلوار . وبعد ان كانت هذه السيدة تعرف من قبل بـ « خادم السيد الكاهن »
غدت الآن تحمل هذا اللقب المزدوج : وصيفة الآنسة ، ومدبرة منزل صاحب
السيادة .

وكانت الآنسة بابتيستين مخلوقة طويلة القامة ، شاحبة الوجه ، مهزولة
الجسم ، رفيقة الحاشية . كانت تحقيقاً للصورة المثالية التي تعتبر عنها لفظة
« محترمة » ؛ إذ يبدو وكأن من الضروري ان تكون المرأة أمّاً لكي تكون
جليلة . إنها لم تكن جميلة في يوم من الايام . وكانت حياتها كلها ، التي لم تكن
غير سلسلة موصولة من أعمال التقى ، قد خلعت عليها ضرباً من البياض الشفاف ،
حتى اذا شاخت اكتسبت ما يمكن ان ندعوه جمال الصلاح . إن ما كان في صباها
هزلاً انتهى الى ان يصبح في كهولتها شفافية ؛ وهذه الاثيرة كانت تمكن
الناظر اليها من أن يرى الملاك الذي في ذات نفسها . كانت روحاً اكثر منها
عذراء فانية . كان شخصها أشبه بالطيف ، فليس فيها من الجسد ما يكفي لأن
يوقع في نفس المرء فكرة الجنس — قليل من المادة ينطوي على شرارة — عيان
واسعتان مطرقتان الى الارض ابدأ ؛ ذريعة تتخذها الروح للبقاء على هذه
الارض .

أما السيدة ماغلوار فكانت امرأة عجوزاً ضئيلة الجسم ، بيضاء البشرة ،
بدينّة ، شيطنة ، مشغولة على نحو مطرد . كانت دائماً مبهورة منقطعة
النفس ، بسبب من نشاطها الموصول ، أولاً ، وبسبب من داء الربو الذي
نشكو منه ثانياً .

وكان مسيو ميريل ، لدن وصوله الى المدينة ، قد أنزل في قصره الاسقفى ،
 محوطاً بآيات الأجلال المنصوص عليها في المراسم الامبراطورية التي تجمع
 الاسقف في رتبة تلي رتبة قائد الجيش مباشرة* . كان العمدة والرئيس يقومات
 بزيارته قبل زيارتها أيما شخصية اخرى في المدينة ، وكان هو بدور - يخلع الشرف
 نفسه على الجنرال والمحافظ .
 حتى اذا استقر في قصره ، غدت المدينة مشوقة الى ان ترى اسقفها ينصرف
 الى العمل .

٢

مسيو ميريل يصبح مونسينيور* بينفينو

كان قصر الاسقف في مدينة د ... محاذياً للمسنقى : كان صرحاً رجباً
 جميلاً ، شيد من الحجارة ، في اوائل القرن الماضي صاحب الياذة هنري بوجيه
 وكان دكتوراً في اللاهوت من جامعة باريس ، ورئيس دير سيمور - الذي
 غدا اسقف د ... في عام ١٧١٢ . كان ذلك القصر ، في الحق ، تزيلاً أميرياً
 فخماً ، وكانت سيما الأبهة تغلب على كل شيء فيه : حجرات الاسقف ، والاباء ،
 والغرف ، وقاعة الشرف - التي كانت رحبة جداً تحيط بها ردهات ذات اقواس
 رفعت على الطراز البندقي** العتيق - والحديقة الزاهية بضروب الاشجار الرائعة .
 وفي قاعة الطعام كان رواق طريل فخيم مستور مع سطح الارض ، منفتح
 على الحديقة . وكان صاحب السيادة هنري بوجيه قد اقام مأدبة كبرى ، في ٢٩
 تموز سنة ١٧١٤ ، لصاحب السيادة شارل بولاردو جيليز ، كبير اساقفة
 ايمرون ، وأنطوان دو ميسغرينسي الكبوشي ، أسقف غراس ، وفيليب دو

* او صاحب السيادة ، وهو اللقب الخاص بالاساقفة .

** أو : الفلورنسي .

فاندوم ، كبير رؤساء الاديار في فرنسا ، ورئيس دير سان اونورية دو ليرين ،
وفرانسوا دو برتون دو غريون ، رئيس اساقفة قنس ، وسيزار دو سابرات
دوفوركالكيبه ، رئيس اساقفة غلانديف ، وجان سوانسين ، كاهن كنيسة
الأوراتوار ، وواعظ الملك ، ورئيس اساقفه سينز . وكانت صور هؤلاء الرجال
السبعة الموقرين تزين القاعة ، وكان هذا اليوم التاريخي ، يوم ٢٩ تموز سنة ١٧١٩ ،
منقوشاً بأحرف من ذهب على لوحة رخامية بيضاء .

أما المستشفى فكان بناء منخفضاً ضيقاً ، ذا دور واحد ، وحديقة صغيرة .
وبعد ثلاثة ايام من وصول الاسقف الى المدينة ، زار المستشفى . حتى اذا
تمت الزيارة دعا المدير الى ان يفد عليه في قصره .

وقال لمدير المستشفى : « كم مريضاً عندك ، يا سيدي ؟ »

— « ستة وعشرون ، يا صاحب السيادة . »

فقال الاسقف : « أي كما عدّدتهم أنا . »

فتابع المدير : « ان اجنحة المستشفى تفصل بالسرور التي حشرت فيها
حشراً . »

— « لقد لاحظت ذلك . »

— « وليست الاجنحة غير غرف صغيرة ، غرف ليس في الامكان تهويتها
بسهولة . »

— « هذا ما يبدو لي . »

— « وفوق ذلك ، فعين تومل الشمس اشعتها الدافئة تضيق الجنبنة الصغيرة
بالناقين . »

— « ذلك ما كنت افكر فيه . »

— « ومن الاوبئة عرفنا التيفوس هذا العام . ومنذ سنتين كان عندنا الحمى
العسكرية ، وبلغ عدد مرضاها المئة . اننا لا ندري ما الذي ينبغي ان نصنعه . »
— « ذلك ما خطر لي تماماً . »

فقال مدير المستشفى : « اي شيء نستطيع ان نصنعه ، يا صاحب السيادة ؟ »

يجب ان نفوض أمرنا الى الله . »

وانما دارت هذه المحادثة في قاعة الطعام من الدور الارضي .

وصمت الاسقف بضع لحظات . ثم التفت فجأة الى مدير المستشفى .

وقال : « كم سريراً تستطيع هذه القاعة وحدها ان تضم يا سيدي ؟ »

فصاح المدير مشدوهاً : « قاعة طعام صاحب السيادة ! »

وأجال الأسقف عينيه في القاعة ، وبدأ وكأنه يقيس طولها وعرضها

ويحسب .

وقال مخاطباً نفسه : « انها تسع لعشرين سريراً . » ثم رفع صوته وقال :

« إسمع ، يا سيدي المدير ، الى ما سأقوله . إن هنا خطأ من غير شك . انتم ستة

وعشرون شخصاً تشغلون خمس غرف اوست غرف صغيرة . ونحن ثلاثة فقط ،

ومع ذلك فنحن نحتل مكاناً يتسع لستين . اقول لك ان هناك خطأ . انتم

تحتلون بيتي وانا احتل بيتكم . أعيدوا بيتي الى . وانزلوا هنا في هذا المكان ،

فهو لكم . »

وفي اليوم التالي 'نقل المرضى البائدون الستة والعشرون الى قصر الاسقف

وانتقل الاسقف الى المستشفى .

ولم يكن صاحب السيادة ميريل يملك ثروة " ما ، بعد أن دمرت الثروة أسرته .

كان لاخته ملك " تتصرف به طوال حياتها ولا يحق لها ان تنزل عنه لاحد ، ولكن

هذا الملك ما كان يعود عليها باكثر من خمسةة فرنك ، كانت - قبل ان يغدو

آخرها اسقفاً - تسد نفقاتها الشخصية . حتى اذا رفع مسيو ميريل الى مقام

الاسقفية تقاضى من الحكومة راتباً مقداره خمسة عشر الف فرنك . ويوم انتقال

الى بيته الجديد في بناية المستشفى اعتزم ان يقف هذا المبلغ ، مرة " الى الابد ،

على الاغراض التالية . وهما نحن اولاء ننقل ههنا هذا الثبت الذي كتبه هو

بخط يده .

ثبت بتنظيم نفقاتي المنزلية

- المعهد الاكاديمي الصغير الف وخمسة ليرة .
- رهبانية الارشالية مئة ليرة .
- لعاذاري مونديديه مئة ليرة .
- معهد الارشاليات الاجنبية في باريس مئتا ليرة .
- رهبانية الروح القدس مئة وخمسون ليرة .
- المؤسسات الدينية في الارض المقدسة مئة ليرة .
- الجمعيات الخيرية التي ترعى الأمومة ثلاثمئة ليرة .
- علاوة جمعية آول المهنة بالامومة خمسون ليرة .
- لتحسين الاوضاع في السجون اربعمئة ليرة .
- لاصناف السجناء واطلاق سراحهم خمسمئة ليرة .
- لتحرير ارباب الاسر المسجونين بسبب الديون الف ليرة .
- علاوات على رواتب مدرسي الابريشية الفقراء ألفا ليرة .
- غزن الحبوب الشهي في مقاطعة الالب العليا مئة ليرة .
- جمعية سيدات د . . . ومانوسك وسيتيرون لتعليم الفتيات المهدمات بالبحان، الف وخمسمئة ليرة .
- للفقراء ستة آلاف ليرة .
- نفقات الشخصية الف ليرة .
- اجموع خمسة عشر الف ليرة .

ولم يحدث مسيو ميرويل ايما تغيير في هذه الخطة طوال المسدة التي تولت خلالها أسقفية د . . . كان يدعوها ، كما نرى ، « تنظيم نفقاته المنزلية » .

وتقبلت الآنة بابيتين هذا التدبير في إذعان مطلق . فقد كان ميو ميريل هو أخاها واسقفا في آن معاً ؛ كان حديقها برابطة الدم ، ورئيسها بحكم السلطة الاكليريكية . كانت تحبه وتحترمه في غير تكلف . فاداً ما تكلم ، أنصت ، واذا ما عمل منحنه تعاونها . اما السيدة ماغلوار ، خادمتها ، فكانت تدمر بعض الشيء . وكان الأسقف ، كما رأينا ، قد احتفظ لنفسه بألف فرنك ليس غير ، فاذا أضيف هذا المبلغ الى دخل الآنة بابيتين أمسى ألفاً وخمسة فرنك سنوياً . وهذه الالف والخمسة فرنك تعين على هؤلاء المعجائر الثلاثة ان يعيشوا .

ومع ذلك فقد كان في ميسور الاسقف ان يحسن وفادة ائما كاهن من كهان القرى يَفِدُ على د ... وإنما يرجع الفضل في هذا الى اقتصاد السيدة ماغلوار الصارم ، وحسن تدبير الآنة بابيتين .

و ذات يوم - وكان قد انقضى نحو من ثلاثة اشهر على مقامه في د ... - قال الاسقف : « ومع هذا كله أجدني في ضائقة مالية شديدة . »

فصاحت السيدة ماغلوار : « نأظن ذلك ايضاً . ان صاحب السعادة لم يطالب حكومة المقاطعة حتى بنفقات مركبته في البلدة ، ونفقاتها اثناء جولاته في الابرشية . لقد كان جميع الاساقفة السابقين يفيدون من هذه التخصصات . »

فقال الاسقف : « أجل ! أنت على صواب ، ايها السيدة ماغلوار . »
وطالب بحقه ذلك .

وبعد برهة أقر مجلس المقاطعة العام مطلب الاسقف ، وصوت على قرار بمنحه تعويضاً سنوياً مقداره ثلاثة آلاف فرنك تحت هذا العنوان : « تعويض للأسقف يسد به نفقات عربته ، ونفقات جولاته الرعائية في ارجاء الابرشية . » واثار ذلك بورجوازي البلدة اثاره بالغة . ولهذا المناسبة كتب احد شيوخ الامبراطورية - وكان من قبل عضواً في مجلس الخمسة * ، ومناصراً لحركة

* Conseil des Cinq - Cents وكان يتألف من خمسة عضو ويشكل ، هو « مجلس القدماء » السلطة التشريعية وفقاً لمستور السنة الثالثة من الجمهورية . وقد حلها نابليون في ١٨ برومير .

١٨ برومير * ، وكان يُقيم الآن في مقرّ له فخم قرب ... - كتب الى السيد
بيغو بريامينو ، وزير العقائد ، رسالةً مهتاجة وسريّة تقتطف منها الفقرة
التالية :

« نفقات عربية ! وما حاجته اليها في بلدة يقلّ عدد سكانها عن اربعة آلاف ؟
نفقات زيارات رعائيّة ! واميّ فائدة لهذه الزيارات ، في المحل الاول ؟ وفوق
ذلك ، كيف السبيل الى التجوّل بركبة البريد في هذه المنطقة الجبلية ؟ ليس ثمة
طرق . وليس في ميسور المرء أن يقصد الى هناك إلا على صهوة الجواد . وحتى
الجسر القائم فوق الـ « دورانس » عند شاتو آرنو لا يكاد يحمل عربات الثيران إلا
بشق النفس . ان هؤلاء الكهان هم هكذا دائماً : طماعون أشعاع . ولقد قام هذا
الكاهن بدور الرسول الصالح بُعيد وصوله ؛ وها هو ذا الآن يملك ملك
الآخرين . إنه يريد عربية وسركبة أجرة . إنه ينتهي التوف مثل الاساقفة
السابقين . اوه ! تباً لهذا الكهنوت كله ! سيدي الكونت ، إن الاحوال لن
تقدو خيراً بما هي إلا اذا أنقذنا الامبراطور من كهان المكرونة هؤلاء ،
فليسقط البابا ! (كانت العلاقات قد ساءت مع رومة) أما من ناحيتي ، فأنا
أقصر وحده الخ . الخ . »

وسرّ الطلب الذي تقدّم به الاسقف الى مجلس المقاطعة العام السيدة ماغلوار ،
من ناحية ثانية ، سروراً عظيماً فقالت للآنسة بابيتستين : « لقد استهلّ صاحب
السيادة أعماله بالتفكير في الآخرين ؛ ولكنه وجد آخر الامر ان عليه ان ينتهي
بالاهتمام بنفسه . لقد سوّى مهامه الحيوية كلها ، وها قد حصلنا على ثلاثة آلاف
فرنك خالصة لنا ، في النهاية . »

* برومير Brumaire هو الشهر الثاني من التقويم الذي اصطنعه الجمهوريون بعد الثورة
الفرنسية ، وهو يقع ما بين ٢٣ تشرين الاول و ٢١ تشرين الثاني . اما يوم ١٨ برومير فهو
اليوم الذي اطاح فيه نابوليون بونابرت - اثر عودته من مصر - بحكومة الادارة يعاونه
« فوشيه » و « سيس » واخوه لوسيان بونابرت (٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، في السنة الثامنة من
الجمهورية .)

وفي الليلة نفسها كتب الاسقف مذكرة ضمّتها الكلمات التالية وقدمها الى شقيقته :

نفقات العربية والتجول

لتقديم مرق اللحم الى مرضى المستشفى الف وخمسة ليرة
 - لجمبة « ايكس » الخيرية الممنوعة بالامومة مئتان وخمسون ليرة
 - لجمبة « دراغوبنيان » الخيرية الممنوعة بالامومة مئتان وخمسون ليرة
 - للقطاء خمسة ليرة
 - للثامى خمسة ليرة
 المجموع ثلاثة آلاف فرنك

تلك كانت ميزانية الاسقف ميريل .

اما دخل الاسقفية من إجازات الزواج ، والاعفاء من بعض أحكام الدين ، والتعميد الحصوصي ، والعظات ، ومنح البركة للكنائس والمعابد ، وإجراء مراسيم الزواج الخ . فكان الاسقف يجمعه من الاغنياء بمثل الضبط والدقة اللذين كانت يوزعهما على الفقراء .

وما هي الا برهة حتى تدفقت التقدّمات والهبات . وشرع الاغنياء والفقراء يقرعون باب الاسقف ؛ كان بعضهم يُقبل ليقدّم الصدقات ، وكان بعضهم الآخر يُقبل ليفوز بها . وفي اقل من سنة غدا الاسقف خازناً لفاعلي الخير جميعاً ، وما نحتاجاً للحتاجين جميعاً . لقد مرت بين يديه مبالغ من المال ضخمة . ومع ذلك ، فلم يغير قط طريقته في الحياة ، ولم يُضِفْ اقل الترف الى الكفاف الذي يحيا عليه .

على العكس . فما دام في الطبقات الدنيا دائماً فقراً يزيد على ما عند الطبقات العليا من إنسانية ، فقد كان كل ما يُقدّم يوّزّع ، اذا جاز التعبير ، قبل ان

يُسْتَلَم ، لكأنه الماء فوق ارض عطشى . وكان من الخير ان يتدفق المال عليه ،
لانه ما كان يحتفظ بشيء منه . والى هذا ، فقد كان مجرم نفسه وبسلبها .
واذ كان العرف يقضي بأن يتوَّح جميع الاساقفة اوامرهم ورسائلهم الرعائية
باسماء معموديتهم فقد اختار اهل المنطقة الفقراء من بين اسماء الاسقف - بدافع
من ضرب من الغريزة الودود - ذلك الاسم الذي كان اقرب عندهم دلالة ، فهم
ينادونه دائماً ، مونسينيور بينفينو . * ولوف نقتفي اثرهم ونسبه هكذا
منذ اليوم . والى هذا ، فقد كان ذلك الصنيع يوقع الجبور في قلبه ، فهو يقول :
« اني احب هذا الاسم . ان « بينفينو » تصحح « مونسينيور » وتوازنها . »
ونحن لا نزع من الصورة التي رسمها هنا صورة حقيقة . ان في ميسورنا ان
نقول إنها تشبهه ، ليس غير .

٣

اسقف صالح - اسقفية جافية

ولم ينقطع الاسقف ، بعد ان حوّل عربته الى صدقات ، عن القيام بجولاته
الرعائية النظامية ولم يطفئها ؛ ولقد كان ذلك الصنيع ، في ابرشية د ... ، عملاً
مرهقاً . كانت الاراضي السهلية قليلة جداً ، وكانت المرتفعات الجبلية كثيرة
جداً ، ولم يكن ثمة طرق ، تقريباً ، من غير شك . كان في الابرشية اثنان
وثلاثون مركزاً كهنوتياً ، واحد واربعون نيابة اسقفية ، ومثتان وخمسة
وثلاثون مركزاً كهنوتياً فرعياً . وكان في زيارة هذه المراتن كلها نصب بالغ ،
ولكن الاسقف نهض بهذا العبء الثقيل . كان يمشي على قدميه حين يكون
المكان الذي يقصد اليه مجاوراً ، وبصطنع عربية صغيرة حقيرة ذات عجلتين
ومظلة ، في السهل ، على حين بصطنع في الجبال سلة مزدوجة ملقاة على متن احد

* Bienvenu وتفيد معنى « الفائز بمن القبول . »

البغال . وكانت المراتان المعوزان ترافقانه عادة . فاذا اتفق ان كانت الرحلة شاقة اكثر مما ينبغي فعندئذ كان يمضي منفرداً .

و ذات يوم بلغ سينيز ، وكانت من قبل مركز اسقفية ، متمطياً حماراً . كان كبس دراهمه قاروغاً جداً في ذلك الحين ، فهو لا يمكنه من اصطناع وسيلة افضل ، من وسائل النقل . وخرج عمدة المدينة لاستقباله عند باب المقر الاسقفي ، فلم يكدر يري اليه يترجل عن حماره حتى اخذه الدهش المنطوي على الحية . وضحك بعض البورجوازيين من حوله . فقال الاسقف : « سيدي العمدة ، سادتي البورجوازيين . انا ادري ما الذي يحملكم على الدهش . انكم تعتقدون ان من الغرور البالغ ان يركب كاهن مسكين المطية عينها التي ركبها يسوع المسيح . فانا اؤكد لكم اني اتخذتها بحكم الضرورة ، لا زهواً وُعجباً . »

وكان في جولاته تلك تسليحاً سهلاً الخليفة ، وكان يعظ أهلها بما يتحدث . ولم يكن يضع أيما فضيلة في طبق لا سبيل الى بلوغه ؛ أو يورد أسباباً وأمثلة متكلفة غير مألوفة . كان يجعل من منطقة ما مثلاً يضربه لأبناء منطقة أخرى مجاورة . ففي الاقضية التي يُعامل فيها المعوزون بقسوة كان يقول : « انظروا الى أبناء بريانسون . لقد منحروا الفقراء والارامل واليتامى الحق في ان يحصلوا مروجهم قبل ثلاثة ايام من سائر القوم . واذا ما خربت بيوت اولئك البائسين جدّدوا بناءها لهم من غير ان يتقاضوا منهم فلساً . وهكذا فهي ارض باركها الرب . وطوال قرن كامل من الزمان لم تعرف تلك الديار قاتلاً واحداً . »

وفي القرى التي تعصف شهوة الربح بسكانها في ايام الحصاد ، كان يقول : « انظروا الى ييمبون . اذا ادرك موسم الحصاد رب أسرة فيها بعد ان التحق اولاده بالجيش واستغلت بناته في المدينة ، وكان هو مريضاً ، اوصى به الكاهن في مواعظه ، فما إن تطلع شمس الاحد ، وينتهي القداس ، حتى يندفع سكان القرية كلهم ، رجالاً ونساءً واطفالاً ، نحو حقول الرجل البائس ، ويحصلون له محصوله ، ويحملوا التبن والحطة الى مخزن حبوبه . » وللأسر المتنازعة على مسائل الملك والأرث كان يقول : « انظروا الى جبيلي ديفولني ، وهو اقليم موحش

الى درجة تجعل العندليب لا يُسمع في ارجائه مرة كل خمسين عاماً . حين يموت ربّ الاسرة في تلك الديار ينطلق اولاده الذكور ساعين في طلب الرزق ، ويتروكون ممتلكاته للبنات لكي يكون في ميسورهن أن يقرّرن بأزواج . وفي تلك الاقضية المولع اهلها بالدعوى القضائية ، حيث يشتري المزارعون الحراب والافلاس بالاوراق المثقلة بالطوابع كان يقول : « انظروا الى فلاحي وادي كيراس . إن عددهم لا يتجاوز الثلاثة الآلاف . يا الهي ، لكنهم يعيشون في جمهورية صغيرة ! إنهم لا يعرفون لا القاضي ولا حاجب المحكمة . والعمدة هناك ينهض بجميع الأعباء . إنه يقسّط الحراج ، ويفرض الضريبة على كلِّ وفقاً لما يحكم به الضمير ، ويقضي في المنازعات بالجمان ، ويقسم التركات بينهم من غير أجر ، ويصدر الاحكام من غير ان يتقاضى رسوماً ، وهم بطبعونه لانه رجل عادل بين رجال بسطاء . » وفي القرى التي يعوزها المدرّسون كانت يضرب مثل وادي كيراس ايضاً ، فيقول : « اتدرون ماذا يفعلون ؟ لما كانت المنطقة الصغيرة المؤلفة من اثني عشر بيتاً أو خمسة عشر بيتاً لا تقوى دائماً على النهوض بنفقة مدرّس فان اهل الرادي جميعاً يتعاونون على دفع رواتب المعلمين ، فينتقل هؤلاء من قرية الى قرية ، مُنفقين اسبوعاً هنا ، وعشرة ايام هناك ، حيث يدورّسون الناشئة . وكان هؤلاء المعلمون يشهدون الاسراق العامة ، حيث رأيتهم بعيني . وهم يُعرفون بربش الكتابة الذي يعلّقونه بمصائب قبعاتهم . فأما الذين يعلمون القراءة وحسب فيعملون وبشة واحدة ، وأما الذين يعلمون القراءة والحساب فيعملون وبشتين اثنتين . وأما الذين يعلمون القراءة والحساب واللاتينية فيعملون ثلاث أرباش . وكان دوو الارياش الثلاث هؤلاء علماء كباراً . ولكن ما أسنع العار الذي يلحقه الجهل بالمرء ! اعملوا مثل ابناء كيراس ! »

هكذا كان يتكلم ، في وقار وجرس أبوي . واذا ما دم الامثلة اخترع القصص الرمزية ، مقتحماً موضعه افتحاماً مباشراً ، في عبارات قليلة ، وصور كثيرة . وهل كانت بلاغة يسوع المسيح المقنعة المفهمة شيئاً غير ذلك ؟

الاعمال تتكافأ مع الاقوال

كان حديثه أنيساً عذياً . لقد كيّف نفسه وفقاً لمدارك العجوزين اللتين تعيشان معه . وإذا ما ضحك كان ضحكه أشبه بضحك تلميذ من التلاميذ .

وكانت السيدة ماغلوار تخاطبه ، عادة ، بقولها « يا صاحب العظيمة ! » وذات يوم نهض عن كرسيه ذي الذراعين ومضى الى مكتبته التامساً لكتاب ما . وكان ذلك الكتاب على احد الرفوف العالية . واد كان الاسقف أميل الى القِصَر فقد عجز عن ان يبلغه . فقال : « أيتها السيدة ماغلوار . ايتيني بكرسي . ان عظمتي لا تمتد الى هذا الرف ! »

وكانت الكونتس دولر ، وهي سيدة يربطها به نسب غير قريب ، قادراً ما تدع الفرصة ترمّ من غير ان تعدّد في حضرته ما دعت « آمال » ابنائها الثلاثة . ذلك بأنه كان لها عدة أنساب يبلغوا من السنّ مبلغاً عالياً وغدوا على شفا الموت : انساب كان اولادها هم وارثهم الشرعيين . فاما اصغر الثلاثة فكان مقدراً له ان يفوز من عمه ابيه بدخل سنري مقداره مئة الف ليرة . واما ثانيهم فكان مقدراً له ان يرث لقب « دوق » من عمه . واما اكبرهم سناً فسوف يرث رتبة الامارة الاقطاعية من جده . وكان من ذاب الاسقف ان يسمع في صمت لهذا التباهي الأمومي البريء الجدير به ان يُغتفر . بيد انه بدا ، ذات يوم ، اشدّ استرسالاً في التفكير الخالم منه في اياما وقت سلف ، وكانت السيدة دولر تصيد تفصيل هذه الموارث جميعاً ، وهذه « الآمال » جميعاً . فما كان منها الا ان كفت عن الكلام ، فجأةً ، وصاحت في شيء من البرم ونقاد الصبر : « يا الهي ! ولكن ما الذي تفكر فيه ، يا ابن العم ؟ » فأجابها الاسقف : « اني افكر في شيء غريب وردّ في ما اعتقد عند القديس اوغسطين : « ضعوا آمالكم في ذلك الذي لن يُورث ابداً ! »

وفي مناسبة اخرى تلقى نعي شريف من اشراف البلاد أدرجت فيه لائحة

طويلة لم تنتظم رتب الفقيد فماسب بل ألقاب أنسابه، جميع أنسابه، الاقطاعية. فصاح : « ما اقوى ظهر الموت ! اي رحل رائع من الألقاب سوف يحمله في ابتهاج ! وما اعظم الظرف الذي ينبغي ان يتحلى به الانسان حتى يتخذ من شاهد القبر وسيلة لاشباع غروره ! »

وكان يرسل بين الفينة والفينة بعض السخرات العذبة المنطوية دائماً ، تقريباً ، على فكرة جديدة . وذات يوم ، في اثناء الصوم الكبير ، وفد نائب اسهمي شاب على د... وألقى عظة في الكاتدرائية . كان على جانب من الفصاحة غير يسير . وكان موضوع عظته الاحسان . لقد دعا الاغنياء الى ان يجودوا بالصدقات على الفقراء اذا ما رغبوا في اجتناب عذاب السعير ، الذي صورّه تصويراً مروّعاً الى ابعد الحدود ، وبالفوز بالجنة التي صورّها بهيجة فائقة . وكان بين المصلين تاجر غني متقاعد ، نصرّف الى الاشتغال بالربا بعض الشيء ، يدعى السيد جيبوران ، وكان قد جمع نصف مليون ليرة من صنع الجوخ ، والنسيج الصوفي الغليظ ، والاقمشة الصوفية الضيقة الخفيفة ، والطرايش الفرنسية . ولم يتصدق السيد جيبوران ، طوال حياته ، بشيء ما ، على فقير بائس . ولكن الناس لاحظوا ، بعد هذه العظة ، انه شرع يعطي كل يوم احد ، على نحو مطّرد ، جزءاً من عشرين من الفرنك للشحاذات العجائز القائرات عند باب الكاتدرائية . وكانت عددهن ستاً يفترض فيهن ان يتوزعن هذه الفلوس القليلة في ما بينهن . واتفق ان رآه الاسقف ، ذات يوم ، يجود بصدقته هذه ، هابئسم وقال لآخنه : « ها هو السيد جيبوران يشتري من الجنة ما قيمته جزء من عشرين من الفرنك ! »

وكان اذا التمس العون لعمل خيري ما لا يقنيه الرخص ولا يشبط همته . وما كانت الكلمات التي تحمل السامعين على التفكير لتعوزه بحال . كان يجمع الصدقات للفقراء ، ذات يوم ، في أحد أهباء المدينة . وكان في ذلك البهو المراكز دو سانتيرسيميه ، وهو تزيّ عجوز شديد الشج ، اكتشف البيل الى ان يكون ملكياً متطرفاً وفولتيرياً متطرفاً في آن معاً . ولم يكن هو الممثل الاوحد لهذه

الفئة من الرجال ، في ذلك العهد . فما ان انتهى الاسقف اليه ، حتى مسّ ذراعه وقال : « يا حضرة الماركيز ، ينبغي ان تعطيني شيئاً . » فالتفت اليه الماركيز وقال في جفاف : « مونسينيور ، إن عندي فقراي . » فقال الاسقف : « أعطني إياهم . »

وذات يوم ألقى هذه العظة في الكاتدرائية :

« اخوتي الاثريين عليّ ، واصدقائي الطيبين ! إن في فرنسا مليوناً وثلاثمائة وعشرين ألفاً من أكواخ الفلاحين ليس لها غير ثلاث فتحات ، ومليوناً وثمانمائة وسبعة عشر ألف كوخ لها فتحتان : الباب ونافذة واحدة ، واخذوا ثلاثمائة وستة واربعين ألف كوخ ليس لها غير فتحة واحدة : الباب . وما ذاك إلا نتيجة لما بدّعونه الضريبة على الابواب والنوافذ . وفي هذه الاسر الفقيرة ، بين الندوة العجائز والاطفال الصغار الساكنين في هذه الأكواخ ، ليس أكثر من الحمايات والامراض ! وآسفاً ! إن الله يعطي النور للناس ثم يأتي القانون فيبيعه . أنا لا ألوم القانون ، ولكنني أبارك الله . ففي إيزر ، وفي ثار ، وفي اقليم الألب الاعلى والادنى ليس عند الفلاحين حتى العجلات الصغيرة ذات الدولاب الواحد فهم ينقلون الزبل على ظهورهم ، وليس عندهم شموع فهم يشعلون اكواز الصنوبر وقطعاً من الجبال مغموسة بصمغ البطم . والشيء نفسه يصحّ في الجزء الاعلى من دوفينه برمته . إنهم يعجنون الدقيق مرة كل سنة اشهر ، ويخزونه على زبل البقر الجاف . وفي الشتاء يتصلب هذا الجبز الى درجة نحلهم على ان يكسّروه بالفأس ، وينقعوه بالماء ، اربعاً وعشرين ساعة لكي يصبح في ميسورهم ان يأكلوه . ايها الاخوة ، كونوا رحماء ! انظروا كم يقامي الناس من حولكم ! »

واذ كان من موليد بروفانس فقد ألف في يسر جميع لهجات الجنوب ، من مثل لهجة لانغدوك السفلى ، ولهجة منطقة الالب الدنيا ، ودوفينه العليا . وكان هذا يبهج الناس كثيراً ، ويمهد له السبيل الى اقتداهم . كان يشعر في الكوخ والجبل وكأنه في بيته . وكان يعرف كيف يقول أرفع الاشياء في تعابير عامية

الى ابعاد الحدود . واذ كان يتكلم اللهجات كلها ، فقد نفذ الى النفوس كلها .
والى هذا فقد كان مسلكه مع الاغنياء هو عين مسلكه مع الفقراء .
لانه لم يشجب شيئاً من غير روية ، ومن غير ان يأخذ بعين الاعتبار مختلف
الظروف والملاسات . وكان من دأبه ان يقول : « لننظر اى طريق سلكه »
الذنب او الخطأ .

واذ كان - كما وصف نفسه وهو يتسم - آثماً سابقاً فلم يكن على شيء من
وعورة المتزمتين . وكان يعلن في كثير من الجراءة حتى تحت ابصار المتمصين
الشرسين المغضبة - مذهباً يمكن ان يصاغ في الكلمات التالية تقريباً : -
« إن للانسان جسداً هو عبء عليه وأداة إغواء له في آنٍ معاً . إنه يجره
حيثا ذهب ، ويدعنه له .

« يجب على الانسان ان يراقب ذلك الجسد ، ويكبح جماحه ، ويكبته ،
ولا يطيعه إلا في اقصى حالات الضك والشدة . وقد يكون من الأثم ان يطيع
المرء جسده حتى في تلك الحال ، ولكنه يكون عندئذ أثماً عريضاً وخطيئة غير
مبينة . إنه سقوط ، ولكنه سقوط على الركبتين قد ينتهي بصاحبه الى الصلاة .
« إن كون المرء قديساً هو الشذوذ . وإن كونه مستقيماً هو القاعدة . ثم
على وجهك ، وتردّد ، والأثم ، ولكن كن مستقيماً .

« إن اعتراف اقل قدر ممكن من الآثام هو القانون البشري . اما الحياة
من غير إثم فحلّم ملاك من الملائكة . وكل ما هو أرضي عرضة للآثم . ان الآثم
ضرب من الجاذبية .

وكان اذا ما سمع الناس جميعاً يصيحون ويعبثون عن اعظم الخط يتسم
قائلاً : « اوه ! اوه ! يبدو ان هذه جريمة ضخمة اقترفها الناس جميعاً . عجباً للرياء
المروّع كيف يسارع الى الدفاع عن نفسه ، والاختفاء تحت أثام حجاب ! »
كان سمحاً مع النساء ، ومع الفقراء الذين تقع على عاتقهم اكثر من غيرهم ،
انقال المجتمع البشري . وكان يقول : « إن خطيئات النساء ، والاطفال ،
والخدم ، والضعفاء ، والفقراء ، والجهلة هي خطيئات ازواجهن ، وآبائهم ،

وأسيادهم ، وخطيئات الاقوياء ، والاغنياء ، والعلماء . »

ويقول : « علّم الجاهل ما وسعك التعليم . إن لمجتمع ليُجرّم حين لا يزود كل امرئ بالعلم المجاني . انه لمسؤول عن الظلام الذي يجذبه . وحين تترك النفس في الظلام ، فعندئذ تُفتَرَفُ الآثام . والمجرم ليس ذلك الذي يقف الآثم ، ولكنه ذلك الذي يحدث الظلام . »

وهكذا نرى أنه كانت له طريقة غريبة وخصوصية في النظر الى الاشياء . وأحسب انه اكتسب طريقته تلك من الانجيل .

سمع ذات مرة ، في احد الصالونات ، حديثاً عن قضية جنائية كانت المحكمة على وشك النظر فيها . وتتخلص هذه القضية في ان رجلاً بالساً اغراه حبه لاحدى النساء وللولد الذي انجبته له ، بأن يعبد الى تزييف النقد بعد ان نصبت موارده وسُدّت في وجهه اسباب العيش . وكان الموت لا يزال هو عقاب المزيّف في ذلك العهد . والقي القبض على المرأة وهي تروج اول قطعة نقدية زبقتها الرجل . وزُجّ بها في غياهب السجن ، ولكن لم يكن ثمة أي دليل ضد عشيقها . كانت هي وحدها القادرة على ان تشهد عليه ، وان تدينه باعترافها . وأنكرت ان يكون هو المجرم . وأصرّوا . ولكنها كانت عنيدة في إنكارها . وعندئذ دخلت للنائب العام الملكي فكرة . لقد صور لها ان صاحبها غير مخلص لها ؛ ومن طريق بضعة اجزاء من رسائل ضمّ بعضها الى بعض في براعة وفُتق الى ان يُقتنع المرأة المسكينة بأن لها منافسة ، وأن هذا الرجل قد خدعها . حتى اذا عصفت بها الفيرة ، وشّت بعشيقها ، واعترفت بكل شيء ، مقيمة الدليل على إجرامه . وكان متوقعاً ان يحاكم في إنكس ، بعد بضعة أيام ، مع شريكته في الجريمة ، وكانت إدانته مؤكدة . ولم يكدر القوم يستمعون الى القصة حتى أخذهم الذهول لبراعة النائب العام . إن أعماله الفيرة مكّنه من ان يكشف عن الحقيقة من طريق الغضب ، وبذلك انبجست العدالة من الانتقام . وأصاخ الاسقف الى ذلك كله في صمت حتى اذا سكّ القوم تساءل :

— « اين سيخاطم هذا الرجل وهذه المرأة ؟ »

« في محكمة الجنايات . »

« والنائب العام الملكي ، اين سيعاكم ؟ »

ووقعت في د حادثة فاجعة . لقد صدر الحكم على رجلٍ بالموت لاقتوافه جريمة القتل . وكان ذلك المسكين على ثقافة هزيلة ، ولكنه لم يكن جاهلاً بالكلية . كان يسلي الناس ببعض ألعاب القوة والرشاقة في الاسواق الموسمية ، ويعمل كاتباً عموماً . واستأثرت المحاكمة باهتمام اهل المدينة . وقبل اربع وعشرين ساعة من الموعد المفروب لأنفاذ حكم الموت في الرجل مريضاً واعطى السجن . فنشأت الحاجة الى رجل دين يرافق السجين في لحظاته الاخيرة . واستدعي الكاهن ، ولكنه رفض ان يذهب قائلاً : « هذا أمر لا علاقة لي به . وما صلتني بهذه السُّخرة ، أو بذلك المشعوذ ؟ والى هذا ، فانا مريض ايضاً . وفارق ذلك كله ، فليس ذاك المكان مكاني . » وحين نُقِلَ هذا الجواب الى الاسقف قال : « إن الكاهن على صواب . ذلك المكان ليس مكانه . إنه مكاني ! »

ومضى ، لتوّه ، الى السجن ، وهبط الى محبس « المشعوذ » المظلم وناداه باسمه ، وأمسك بيده ، وانشأ محدثه . لقد قضى الى جانبه النهار كله ، والليل كله ، نائماً الطعام والرقاد ، مصلياً الى الله من اجل روح الرجل المحكوم عليه بالموت ، حاضاً هذا الرجل على ان يشاركه في الصلاة . لقد حدثه حديث الحقائق الفضلى ، التي هي اكثر الحقائق بساطة . كان أباً ، واخاً ، وصديقاً ؛ ولم يكن أسقفاً إلا لكي يباركه وحسب . لقد علمته كل شيء ، بأن شجعه وأوقع العزاء في قلبه . ذلك بأن هذا الرجل كان على وشك ان يموت يائساً . فقد كان الموت ، في نظره ، أشبه بهاوية . واذا وقف مرتعد الاوصال أمام هذه العتبة المروعة ، ارتد الى الوراء وقد عصف به عاصف من الذعر . انه لم يكن جاهلاً الى درجة تسلحه بلامبالاة مطلقة . وكانت الصدمة الفظيعة التي اصيب بها إثر صدور الحكم عليه بالموت قد مزّقت بمعنى من المعاني ، ههنا وههناك ، ذلك الحاجز الذي يفصلنا عن سر الاشياء ، والذي ندعوه الحياة . ومن خلال تلك الثغرات المشوومة

راح ينظر الى ما وراء هذا العالم نظراً موصولاً فلم يوفق الى رؤية شيء غير
الظلام . لقد أراه الاسقف النور .

وفي اليوم التالي ، حين وفدوا ليستاقوا الرجل البائس الى الموت ، كانت
الاسقف هناك . ومضى في أثره . وبرز امام أعين الحشد بردائه البنفسجي القصير
الذي يغطي الصدر ، والصليب الاسقفي بطوق جيده ، ووقف جنباً الى جنب
مع ذلك المخلوق البائس الموثق بالحبال .

وامتنى العربة معه ، وصعد الى المشنقة معه . فاذا بوجه الرجل الذي كان
مكفهرأ مذعوراً في المساء يندو الآن مشرقاً بالامل . لقد أحس بأن نفسه قد
أرضيت ، وهو عظيم الرجاء بالله . وعانقه الاسقف ؛ وفي اللحظة التي اوشت
فيها السكين ان تحتوت عنقه قال له : « ان النفس التي يرهقها الانسان يعيدها الله
الى الحياة . ومن يطرده إخوته يجد الله أمامه . صل ، آمن ، أدخل الى الحياة !
ان الرب هناك ! » وحين غادر المشنقة كان في سيا وجهه ما جعل الناس يرتدون
الى الوراء . ومن العسير ان نقول أيها كان أروع : شعوبه ام طمأنينته . حتى
اذا دخل المنزل المتواضع الذي كان يسميه ، وهو يتسم ، قصره ، قال لأخته :
« كنت احتفل بقداس حبري ! »

واذ كانت الاشياء الاكثر مموأ هي في الوقت نفسه الاشياء التي تغطي من
الناس بأقل الفهم ، فقد وجد في المدينة من يقول تعليقاً على ملك الاسقف
هذا : « ذلك تصنع . » ولكن مثل هذه الافكار كانت مقصورة على الطبقات
العليا . اما أبناء الشعب الذين لا يبحثون عن الدوافع الخبيثة في الاعمال الدينية
فقد قابلوا ذلك باعجاب وإشفاق .

وأما الاسقف فقد أوقع مشهد المفصلة صدمة في نفسه لم ينبج من آثارها إلا
بعد فترة طويلة .

والحق ان للمشنقة حين تُعد وتُنصب أثرأ في النفس كأثر الهلوسة أو الوهم .
فقد لا نبالي بعقوبة الموت كثيراً او قليلاً ، وقد لا نعلن عن رأينا قائدين نعم و
لا ، ما دمنا لا نشهد مفصلة ما بأعيننا . ولكن ما إن نرى الى واحدة حتى

تعصف بنا صدمة هي من العنف بحيث نحملنا على ان نفرّر وننتخذ موقفاً إما مع تلك العقوبة وإما ضدها . ان بعض الناس ، مثل دو ميتز ، ليستدحونها ، وان بعضهم ، مثل بيكاريا * ، ليشجبونها . إن المقصلة هي تختصر القانون ، وهي تدعى المنتقمة . انها غير حيادية ، ولا تسمح لك بأن تظل حيادياً . وكل امرئ يراها يُزلزل بالتجافات ليس اعجب منها ولا اسدّ غموضاً . ان جميع القضايا الاجتماعية لتطرح علامات استفهامها حول هذه الفأس . المشتقة خيال . المشتقة ليست مجرد هيكل منجور ؛ المشتقة ليست ما كينة ؛ المشتقة ليست آلة ميكانيكية جامدة لا حياة فيها ، مصنوعة من خشب ، ومن حديد ، ومن حبال . انها تبدو كائناتاً من نوع ما ، ذا اصل مظلم لا نعرف عنه شيئاً ؛ وفي ميسور المرء ان يقول ان هذا الهيكل المنجور يرى ، ان هذه الماكينة تسمع ، ان هذه الآلة الميكانيكية تفهم ، ان لهذا الخشب ، ولهذا الحديد ، ولهذا الحبال ، ارادة . وفي الهواجس المروعة التي يقذف مشهدها بالنفس الانسانية الى خضبتها ، تبدو المشتقة فظيعة ، وبتمزجة بصنيعها الرهيب . المشتقة شريكة الجلاد في الاثم . انها تقتوس ؛ انها تأكل اللحم ؛ انها تشرب الدم . المشتقة غول من ضرب ما ، يصنعه القاضي والتجار . انها شبح يبدو وكأنه يحيا بضرب من الحياة راعب ، مستبد من كل الموت الذي سببته .

وكانت الانطباعة خفيفة وعميقة ايضاً . ففي صبيحة الاعدام ، وطوال عدة ايام بعدها ، بدا الاسقف مفتتاً واهناً . كانت الطمأنينة الموشكة ان تكون عنيفة ، والتي طفت على حياء في اللحظة المشؤومة ، قد زابلته ، ليستبد به منذ ذلك الحين طيف العدالة الاجتماعية . لقد أمسى - وهو الذي كان يلتفت في العادة الى جميع أعماله في رضا بالغ الاشراق - امسى الآن موضوع توبيخ ذاتي .

* de Maistre مفكر فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٢١) وضع عدة مؤلفات في القضايا الدينية والسياسية ، مدافعاً عن مبادئ الحكم المطلق ، مناهضاً الثورة الفرنسية .

** César de Beccaria فيلسوف ايطالي (١٧٣٨ - ١٧٩٤) ، وضع مؤلفاً شهيراً في الجرائم والعقوبات شجّع فيه الغائمة السرية ، وتمذيب المتهمين ، وعدم تساوي العقوبات بين شخص وشخص ، ووحشية العقوبات .

وانشأ مخاطب نفسه بين الفينة والفينة ، ويتم في مسرعة بِنَاجاة ذاتية فاجعة .
و ذات مساء سمعته اخته ، اتفاقاً ، وهو مخاطب نفسه فالتقطت قوله : « انا لم
أعتقد انها ستكون فظيعة الى هذا الحد . من الخطأ ان يستغرق المرء في القانون
الديني الى درجة نجعله يعنى عن القانون الاساسي . ان الموت ملك الله وحده .
فبأي حق يمس الناس هذا الشيء المجهول ؟ »

ومع الايام ، كُتِبَتْ هذه الانطباعات ، ولعلها ان تكون انمعت . ومع
ذلك ، فقد لوحظ ان الاسقف اجتنب ، منذ ذلك الحين ، المرور بساحة
الاعدام .

كان في ميسور القوم ان يدعوا مونسنيور ميربيل ، في ايام ساعة من
الساعات ، الى سرور المرضى والمحترمين . كان يعرف جيداً ان واجبه الاسمي
وعمله الاعظم هما ، في الحق ، هناك . ولم تكن الأسر المرملة او الميتة في
حاجة الى أن تدعوه لزيارتها . كان هو يضي اليها بنفسه . كان يعرف كيف يجلس
صامتاً ، طوال ساعات وساعات ، الى جانب الرجل الذي فقد الزوجة التي
يحب ، او الى جانب الأم التي احتسبت ولدها . وكما عرف متى ينبغي له ان
يصمت ، كذلك عرف متى ينبغي له ان يتكلم . ليه ، ايها المعزّي الرائع ! لانه ما
كان يعنى الى محو الالم بالنسيان ، بل الى تعظيمه وتشريفه بالأمل . فهو
يقول : « احترس من الطريقة التي تفكر فيها بالأموال . لا تفكر بالذي بسلي
وفسد . أنظر ملياً ، نجد الاشرار الحية الذي كان لفقيدك الاثر على قلبك في
اعماق السماء . » كان يعرف ان الأيمان صحي . وكان يعنى الى ان ينصح الرجل
القائظ ويوقع الهدوء في نفسه بان يربيه الرجل الراضي بمشيئة الله ، ويعمل على
ان ينجي الساكنين من الالم الذي يحدق الى القبر ، بان يريهم الالم الذي يحدق
الى النجم .

كيف جعل مونسنيور بينفينو ثوبه الكهنوتي يعمر طويلاً

كانت حياة مسيو ميريل الخاصة حافلة بمثل الافكار المألوفة حياته العامة .
والواقع ان الفقر الاختياري الذي عاش في غمرته اسقف .. خليق به
ان يكون مشهداً خطيراً نقدر ما هو فائق ، في نظر من استطاع ان يرى
اليه عن كتب .

ومثل جميع الشيوخ ، ومثل معظم المفكرين ، لم يكن ينام الاعراداً .
ولكن نومه القصير ذاك كان عميقاً . كان يقضي ساعة من ساعات الصباح في
التأمل ، ليتلو بعد ذلك قداسه ، سواء في الكاتدرائية او في منزله هو . حتى اذا
تم له ذلك أفطر على خبز الجاودار مغموساً في حليب بقراته ؛ وانصرف الى
العمل .

والاساقفة رجال مشغولون جداً . إن على الواحد منهم ان يستقبل كل
يوم أمين الابرشية ، وهو عادة كاهن قانوني ، وان يستقبل وكلاء الكبار
كل يوم تقريباً . ان ثمة أخويات يتعين عليه ان يديرها ، وإجازات يجب ان
يمنعها ، وكتباً اكليركية كثيرة ينبغي له ان ينظر فيها قبل ان تباع - بعضها
كتب صلوات ، وبعضها كتب في التعليم المسيحي لآباء الابرشية ، وبعضها
كتب في أقسام القرض الكنائسي - ورسائل رعائية يجب ان يكتبها ،
وعظات ينبغي ان تُتَاجَز ، وكهناً ومُهدأ يتعين عليه أن يُصلح ما بينهم ،
ومراسلات اكليركية ، ومراسلات ادارية . مع الحكومة من ناحية ، ومع
السدة الرسولية من ناحية اخرى - وآلافاً من المائل .

فاذا ما تركت له هذه المائل كلها وقداسته الاحتفالية وكتاب قرض
الكهنة فراغاً ما ، قدّمه قبل كل شيء الى المهوزين ، والمرضى ، والمكروبين .

فاذا ترك له المكروبون والمرضى والمعوزون بقية من ذلك الفراغ أنفقه في العمل . كان يعزق الارض في حديقته احياناً ، وكان يقرأ ويكتب احياناً . ولم تكن عنده غير كلمة واحدة لهذين الضريين من العمل . كان يدعوهما « بستنة » . وكان يقول : « الروح بستان » .

وبعيد الظهيرة ، من ايام الصحو ، كان ينطلق من منزله فيمشى في الحقول ، او في المدينة ، طارفاً في كثير من الاحيان ابواب الاكواخ والمساكن الحقيمة . كان الناس كثيراً ما يرونه بمشي وحده متناقلاً ، مستغرقاً في افكاره ، مطرق الرأس ، متوكئاً على عصاه الطويلة ، مرتدياً بُردَ الشتوي البنفسجي ، المبطن الكثير الدفء ، وجوربه البنفسجي ، وحذاءه الثقيل ، وقبعته المطبوعة التي تدلت من زواياها الثلاث ثلاثة ازرار ذهبية على شكل بزور نبات الاسباناخ . كانت الفرحة تحل حيناً برز . وفي ميسور المرء ان يقول انه كان يوزع الدفء والضياء في طريقه . فقد كان الشيوخ والاطفال يخرجون الى عتبات بيوتهم التاماً للاسقف كما يخرجون اليها التاماً للشمس . كانت يبارك الناس ، فيباركه الناس بدورهم . وكان اصحاب الحاجات كلهم يُرشدون الى بيته . وبين الفينة والفينة ، كان يقف ويتحدث الى الصبية والصبايا ، ويتسم لاهياتهم . كان يزور الفقراء حين تكون جيوبه مملوءة بالمال . اما حين تفرغ فكان يزور الاغنياء .

واذ قد اطل في عمر ثوبه الكهنوتي دهرآ ليس بالقصير ، وما كان ليؤغب في ان يراه الناس على جسده ، فانه لم يقصد الى المدينة قط الا ببرد البنفسجي المبطن . وكان ذلك يضايقه بعض الشيء ، في الصيف .

حتى اذا عاد ، تناول طعام الغداء . وكان غداؤه مثل فطوره ، سواء بسواء . وفي الساعة الثامنة والنصف مساء كان يتعشى مع اخته ، وقد وقفت السيدة ماغلوار خلفهما ، في انتظار القيام بأيا خدمة يسألانها اياها . وليس في ميسور شيء ان يكون اكثر نقشاً من هذا العشاء وأمعن في الزهد . اما حين يكون احد كهنته مدعوآ الى تناول العشاء على مائدته فعندئذ كان من دأب السيدة ماغلوار

ان تغتنم هذه الفرصة لكي تعدّ للمونسينيور بعض سمكات البحيرة الممتازة ، او بعض طرائد الجبل اللطاف . كان كل كاهن ذريعة لتتخذ لاعداد مائدة جيدة ، وما كان الاسقف ليعترض على هذا . وفي ما عدا ذلك ، لم تكن مائدته العادية لتتألف من غير الحضر المسلوقة ، او الحساء المعدة بالزيت . وهكذا سار بين ابناء المدينة هذا القول : « حين لا يكرم الاسقف وفادة كاهن ، يكرم وفادة راهب من الرهبان التوابسين . » *

وبعد العشاء ، كان من دأبه ان يتحدث نصف ساعة مع الآنسة بابتيستين والسيدة ماغلوار ، ليعضي إثر ذلك الى غرفته ويكتب ، على قصاصات من الورق مستقلة احياناً ، وعلى هوامش بعض كتبه الكبيرة احياناً . كان حسن الثقافة ، بل كان عالماً الى حد ما . لقد خلّف خمس مخطوطات او ست مخطوطات غريبة . وكان بينها بحث حول هذه الآية من سفر التكوين : « في البدء كانت روح الله يرفّ على وجه المياه . » وهو يقابلها بنصوص ثلاثة : النص العربي الذي يقول : « كانت رياح الله تهبّ » ، ونصّ فلاقوس جوزيف ** الذي يقول : « إن ريحاً من الاعالي هبطت على الارض » ، وترجمة اونكيلوس الكلدانية التي تقول : « ان ريحاً من لدن الله هبت على وجه المياه . » وفي بحث آخر يدرس آثار هوغو ، اسقف بتولجايس ، اللاهوتية - وهو احد انساب مؤلف هذا الكتاب الابدعين - ويثبت ان مختلف المصنفات الموجزة التي نشرت في القرن الماضي تحت اسم « بارليكور » المتعار ينبغي ان تعزى الى هذا الاسقف .

وفي بعض الاحيان كان يستغرق فُجاءةً - وهو في غمرة من مطالعته ، أباً ما كان الكتاب الذي بين يديه - في تأمل عميق لا يكاد يخرج منه حتى يدون بضعة اسطر على صفحات الكتاب نفسها . وكثيراً ما لا تكون لهذه الاسطر

* Trappist وهي رتبة أسسها في القرن السابع عشر الراهب دو رانس في سوليسني لا تراب Soligny . La . Trappe في فرنسا . واشتهر رجالها بالصمت والتقشف .
 ** مؤرخ يهودي ، ولد في القدس نحو سنة ٣٧ ونوفي نحو سنة ١٠٠ وعمل في خدمة الرومان .

علاقة ما بالكتاب الذي دوت على حواشيه . ونحت عيننا الآن ملاحظة كتبها على احد هوامش كتاب من قطع الربع عنوانه « مراسلات اللورد جيرمين مع الجنرالين كلينتون وكورنواليس واميرالات المستعمرة الاميركية . يباع في فرواي بمكتبة بوانسو ، وفي باريس بمكتبة بيتو ، وصيف الاوغوسطينيين . »

وهذه هي الملاحظة :

« يا به ، أهذا الذي في السموات !

« إن سفر الجامعة يدعوك الكلي القدرة ؛ واسفار المكابيين تدعوك الخالق ؛ ورسالة بولس الرسول الى اهل افسس تدعوك الحرية ؛ وباروخ * يدعوك السعة التي لا حدة لها ؛ والمزامير تدعوك الحكمة والحق ؛ وسفر يوحنا يدعوك النور ؛ وسفر الملوك يدعوك السيد ؛ وسفر الخروج يدعوك العنساية ؛ وسفر اللاويين يدعوك القداسة ؛ وسفر عزرا يدعوك العدالة ؛ وسفر التكوين يدعوك الرب الاله ؛ وابن البشر ** يدعوك الاب ؛ ولكن سليمان يسميك المترجمة ؛ وهذا هو اجل اسمائك جميعاً . »

وكان من عادة الامرائين ان تأوبا، حوالى الساعة التاسعة مساءً، الى غرفتيها في الدور الثاني ، تاركين اباه وحده ، حتى الصباح ، في الدور الاول . وهنا من الضروري ان نعطي فكرة دقيقة عن منزل اسقف د ...

٦

كيف كان يحمي بيته

كان المنزل الذي احتله يتألف ، كما سلف منا القول ، من طابق ارضي ودور ثانٍ : ثلاث غرف في الطابق الارضي ، وثلاث في الدور الثاني ، وعلية فوقها .

* هو باروخ بن نيريا الذي دون نبوءات ارميا (سنة ٦٠٠ ق . م .)

** اي السيد المسيح .

ووراء المنزل انبسطت حديقة مساحتها نحو من ربع أكر . وكانت الامراتان تحتلان الدور الاعلى ، على حين كان الاسقف يجيأ في الطابق الارضي . وكانت الغرفة الاولى ، المنفتحة على الشارع ، هي غرفة طعامه ، والثانية هي مبهجته ، والثالثة هي مصلاته . ولم يكن في ميسورك ان تغادر هذا المصلى من غير ان تجتاز بالمهجع ، وان تغادر المهجع من غير ان تجتاز بغرفة الطعام . وكان في اقصى المصلى 'مخدع' * موصل بنطوي على سرير للضيف ، فيرقد فيه الكهان الريفيون كلما دعتهم شؤون ابرشيتهم وحاجاتها الى ان يفدوا على د ...

وكانت صيدلية المستشفى ، وهي بناء صغير مجاذي المنزل ويمتد الى الحديقة ، قد 'حوّلت' الى مطبخ وبيت للمؤونة .

وكان في الحديقة ايضاً اصطبل ، كان في ما سلف مطبخ المستشفى ، أنزل فيه الاسقف بقرتين . وكان من عادة الاسقف ان يُرسل ، كل صباح ، نصف ما تجودان به من لبن ، بالغاً ما بلغ ، الى مرضى المستشفى . وكان يقول : «اني ادفع عشوري» .

كانت غرفته رحة جداً ، وكانت تدفئتها عسيرة جداً في ايام الشتاء . واذا كان الحطب غالياً جداً في د ... فقد خطر له ان يقطع من مأوى البقرتين غرفة موصدة ذات حاجز خشبي ، فهو 'يمضي' فيها لياليه حين يكون الجو قارساً جداً . وكان يدعو تلك الغرفة «صالونه الشتوي» .

ولم يكن في الصالون الشتوي هذا ، شأن غرفة الطعام ، غير طاولة خشبية بيضاء مربعة ، واربعة كراسي من القش . يبعد ان غرفة الطعام كانت تحتوي ، فوق ذلك ، على خزانة قديمة للآنية وادوات الطعام مصبوعة باللون الازهر . ومن خزانة بمائلة بحلّة على نحو ملائم بغطاء كتاني ابيض ووشى زائف ، اتخذ الاسقف المذبح الذي زان مصلاه .

وكان ثأبوه الاغنياء ونسوة د ... الورعات كثيراً ما يتبرعون بالمال لاقامة

* المخدع ، في المعاجم ، بيت داخل البيت الكبير . وقد اسطغناها هنا لتؤدي معنى التبرؤف الذي 'يجمل' في جدار الغرفة ويوضع فيه سرير ، او ما يقابل كلمة alcove الفرنجية .

مذبح جديد جميل لمصلى صاحب السيادة . ولكنه كان يأخذ المال ، كل مرة ،
ويوزعه على الفقراء . وكان يقول : « خير مذبح على وجه الارض روح رجل
بأثس نعمت بالعمارة وتوجهت الى الله بالشكر . »

وفي مصلاه كان كرميان قشيان من كرامي التبعيد ، على حين كانت في
مهبجه كرمي ذو ذراعين مصنوع من القش ايضاً . فاذا اتفق ان ضم منزلة
سبعة زوار او ثمانية زوار في آن معاً : المحافظ ، او الجنرال ، او قائد الحامية ،
او بعض التلاميذ من المعهد الاكبركي الصغير ، اضطر الاسقف الى ان يضي الى
الاصطبل التماساً لكرامي الصالون التتوي ، والى المصلى التماساً لكرامي
التبعيد ، والى المهجع التماساً للكرمي ذي الذراعين . وهكذا كان في ميسوره ان
يجمع احد عشر مقعداً لزيارته . وعند كل زيارة جديدة ، كانت احدى الغرف
تُجرّد من أثاثها .

وقد يتفق في بعض الاحيان ان يبلغ عدد الزائرين اثني عشر شخصاً .
وعندئذ كان الاسقف يخفي تحرج الموقف بان يلتزم الوقوف امام نار الموقد
اذا كان الفصل شتاء ، وبان يقترح القيام بجولة في الحديقة اذا كانت
الفصل صيفاً .

وكان في مخدع الضيوف الموحد كرمي اضافي ، ولكنه فاقد نصف قشه .
ليس هذا فحسب ، بل لم تكن لهذا الكرسي غير قوائم ثلاث ، فليس في
المنطاق استعماله الا مُسنداً الى الجدار . وكان في غرفة الآنسة بابيتسين ايضاً
كرمي موحد ضخيم جداً ، مصنوع من الخشب ، كان من قبل مذهباً ومغطى
بحرير مزدان برسوم الزهور . ولكن لما كانوا قد اضطروا الى ان يدخلوا هذا
الكرمي ، اول مرة ، من خلال النافذة ، بسبب ضيق السلم اكثر مما ينبغي ، فلم
يكن في وسعهم ان يعدّوه في جملة الأثاث المنقول .

وكانت الآنسة بابيتسين ترجو دائماً ان تسكن ذات يوم من شراء
اثاث صالون موحد بمخمل او ترخت الاصفر المزدان بالزهور ، على ان يكون
خشب الماهوغاني على شكل أعناق البجع ، مع أريكة . ولكن ذلك كان

خليقاً به ان يكلفها خمسة فرنك على الاقل . حتى اذا وجدت انها لم توفق الى ان تقتصد لهذا الغرض غير اثنين واربعين فرنكاً ونصف فرنك طوال خمس سنوات ، اضطرت الى ان تنخلي عن مطعمها ذاك . ولكن من ذا الذي يوفق دائماً الى تحقيق مثله الأعلى ؟

وليس في إمكان شيء ان يكون أيسر على التصور من مهجع الاسقف : نافذة ، هي في الوقت نفسه باب ، تطل على الحديقة . وتجاه هذه النافذة كان السرير ، وهو حديدي من سرر المستشفيات تحيط به سُرَجٌ خضر من نسيج صوفي غليظ . وفي ظل السرير ، خلف إحدى الستائر ، كانت ادوات الزينة لا تزال تتم عن المعاداة اللينة التي ألغها الرجل المتوف . وكان للفرقة بابان أحدهما قرب المستوفد ، ويؤدي الى المصلى ، والآخر قرب المكتبة ، ويفتح على غرفة الطعام . وكانت المكتبة ، وهي خزانة ضخمة مزججة ، مملأة بالكتب . اما المستوفد المغطى بخشب دهن بلون الرخام فكان خلواً من النار ، في العادة . وفي المستوفد كان منصبان حديديان مزدانان بزهرتين نقش عليهما اكاليل وخطوط طليت ذات يوم بالفضة على نحو كان في ذلك العهد ضرباً من التوف الاسقي . وفوق المستوفد في الناحية التي توضع فيها المرأة عادة نهض تمثال المصلوب نحاسي زايله الطلاء الفضي ، مركّز على قطعة من الحمل الاسود البالي يحيط بها إطار من خشب نصل طلاؤه الذهبي . وقرب النافذة كانت طاولة عريضة عليها دواة ، وقد أثقلت بالاوراق المبعثرة والمجلدات الضخام . وتجاه الطاولة كان الكرسي القشبي ذو الذراعين . وتجاه السرير كان كرسي تعبدي منسعار من المصلى .

وكانت لوحتان في اطارين بيضيين الشكل تتدليان على الجدار عند جانبي السرير . وكانت بعض الخطوط الصغيرة المذهبة المرقومة على خلفية القماش الحرة الى جانب الصورتين تشير الى ان إحدى اللوحتين تمثل الراهب دو ساليو ، اسقف سان كلود ، على حين تمثل الاخرى الراهب نورتو ، نائب « آجد » الاسقي العام ، ورئيس دير « غران شان » ، للرهبانية البنتوونة ، في أبرشية

شارتر . وإنما وجد الاسقف هاتين الصورتين حين خلف مرضى المستشفى في هذه الغرفة ، فتركهما حيث هما . كانا كاهنين ، ولعلهما ان يكونا من جادوا على المستشفى بالهبات وهما مبيان بحملانه على احترامهما . وكل ما عرفه عن هاتين الشخصيتين ان الملك عيّنهما - الاول في اسقفية ، والثاني في منصبه الديني ذي العائدات - في يوم واحد ، هو اليوم السابع والعشرون من نيسان سنة ١٧٨٥ . ذلك ان السيدة ماغوار تزعت الصورتين ، ذات يوم ، لكي ينفذ القبار ، فاذا بالاسقف يجد هذه الواقعة مدونة بجبر ناصل اللوث على قصاصة من الورق صغيرة مربعة أحالت الايام لونها الى الصفرة ، وقد ألصقت بأربع برشامات خلف الصورة التي تمثل رئيس دير و غران شان .

وكانت على نافذته ستارة عتيقة من قماش صوفي غليظ انتهت الى ان تصبح بالية الى درجة اضطرت السيدة ماغوار ، لكي تجتنب شراء ستارة جديدة ، الى ان ترقعها رقعة ضخمة في وسطها تماماً . وكانت هذه الرقعة على شكل صليب ، وكان الاسقف كثيراً ما يلفت النظر اليها ويقول : « ما احسن الاثر الذي يتركه هذا في النفس ! »

وكانت جميع غرف المنزل ، في الطابق الارضي والدور الثاني ، من غير ما استثناء ، مبيّخة بجاء الكلس ، وفقاً للعُرف الشائع في الثكنات والمستشفيات . بيد ان السيدة ماغوار وجدت في السنوات الاخيرة ، تحت ورق الجدار ، كما سنرى بعد ، رسوماً زينت غرفة الآنسة بابتيسنين . ذلك بان هذا المنزل كان قبل ان يُتخذ مستشفى ، ديواناً يجتمع فيه المواطنون البروجوازيون ، ومن هنا هذه الرسوم . وكانت ارض الغرف مرصوفة بأجر أحمر يُنظف كل اسبوع ، وقد نُشرت جدائل القش امام القُرُش . والحق ان هذا المنزل ، وقد تولت امره سيدتان ، كان ينعم بنظافة بمتازة من اعلاه الى اسفله . وكان ذلك هو الترف الوحيد الذي صمّم به الاسقف ، قائلاً : « ان هذا لا يسلب الفقراء شيئاً . »

ومع ذلك فينبغي ان نعتزف بأنه ظل يحتفظ بما كان يملكه من قبل بستة

اطباق فضية وملعقة حساء فضية ضخمة كانت السيدة ماغلوار تتأملها كل يوم في ابتهاج جديد ، وقد تألفت فوق غطاء المائدة الكتاني الابيض الحشن . واذا كنا نصور ههنا اسقف د... كما كان ، فيتعين علينا ان نضيف انه قال غير مرة : « من العير علي ان أفلح عن تناول الطعام بآنية الفضة . »

وينبغي أن يُضاف الى هذه الآنية الفضية شمعدانان فضيان ضخمان ورثهما من اخت جدته . وكان هذان الشمعدانان يحملان شمعتين ، وكنا ينهضان عادة فوق مستوقد الأسقف . فاذا اتفق أن تناول طعام الغداء مع الاسقف ضيف ما فعندئذ كانت السيدة ماغلوار تشعل الشمعتين ، وتضع الشمعدانين على المائدة .

وكانت في غرفة الاسقف ، عند رأس مريره ، خزانة جدارية صغيرة تعودت السيدة ماغلوار ان تضع فيها كل مساء الاطباق الفضية الستة والملعقة الكبيرة . ولكن يتعين علينا ان نقول ان المفتاح لم يُنزع من تلك الخزانة قط .

أما الحديقة التي أفسدها بعض الشيء تلك المنشآت القبيحة التي نحدثنا عنها من قبل ، فكانت تتألف من اربعة ماسر متصالبة عند بالوعة تتوسط الحديقة . وكان ثمة بمشي آخر يمتدّ حول الحديقة في محاذاة الجدار الابيض الذي يطوقها . وكانت هذه الماشي تترك في ما بينها اربعة مربعات يهدبها شجر البفس . * وفي ثلاثة من هذه المربعات زرعت السيدة ماغلوار شيئاً من الحضر . وفي رابعها زرع الاسقف بعض الازهار . وكانت تقوم ههنا وهناك بضع أشجار مشرة .

وذاث يوم قالت له السيدة ماغلوار في ضرب من اللوم الرفيق : « مونسينيور ، أنت تحرص دائماً على ان تفيد من كل شيء ، ومع ذلك فههنا رقعة من الارض قد أهملت فليس فيها غناء . ولقد كان من الخير لنا لو جعلنا فيها سلطنة بدل باقات الزهور . » فأجابها الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار : انت غطتة . ليس الجبل اقل غناءً من المفيد . » وسكت لحظة ثم أضاف : « بل لعله اكثر منه غناء . »

وكان هذا المربع ، المؤلف من ثلاث ماسكب او أربع ، يشغل الاسقف

* البفس : شجر كالآس ورقاً وجباً .

بقدر ما نشغله كتيبه تقريباً . كان من دأبه ان يقضي ثلثة ساعة او ساعتين ، مقلماً الاغصان ، مستأصلاً الاعشاب ، حافراً ههنا وههناك ثقبواً يفرس فيها البذور . إنه لم يكن معادياً للحشرات عدا البستاني لها . وما كان ليُدعي شيئاً من المعرفة في علم النبات ، جاهلاً الفصائل واسباب الامراض . كان لا يبالي اقل ما تكون المبالاة بأن يفاضل بين تورنفور * والطريقة الطبيعية . ولم يكن يتعصب للحويصلات على الفلِكَات ، ولا لـ « جوسيو » ** على « لينى » *** . إنه لم يدرس النباتات ؛ ولكنه احب الازهار . كان عظيم الاحترام للعلماء ، ولكن احترامه للجهلة كان اعظم . ومن غير ان يُعوزه هذان الاحترامان كان يقي مآكبه كل ليلة من ليالي الصيف بِمرثة صفيحة دهنت بلون أخضر .

ولم يكن لا يما باب من ابواب المنزل قفل . والواقع ان باب غرفة الطعام المنفتح ، كما أسلفنا ، على اراضي الكاتدوائية كان من قبل مُثَقلاً بالمعالق والمزالج مثل ابواب السجون . فأصدوا الاسقف أمره بنزع هذا الحديد كله ، فاذا بالباب لا يُقفل ، في الليل وفي النهار سواء بسواء ، الا بسقطة . وكان في ميسور عابر السبيل ، في ايما ساعة من ساعات اليوم ، ان يفتحها بمجرد دفعه دفعاً رقيقاً . وفي بادئ الامر عصف القلق بالامرأتين بسبب من هذا الباب الذي لا يُقفل ابداً . ولكن اسقف قال لهما : « ضعوا القضبان الحديدية على ابواب غرفكما ، اذا راق لكما ذلك » . ولكنهما انتهتا الى ان تشاركاه ثمنه ، آخر الامر ، او الى ان تسلكا وكنهما تشاوكانه هذه الثقة ، على الاقل . بيد ان السيِّدة ماغلوار وحدها كانت تصاب بنوبات دعر طارئة . اما فيما ينصل بالاسقف ، ففي ميسورنا

* Tournefort نباتي ورحالة فرنسي (١٦٥٦ - ١٧٠٨) كان له فضل كبير في تصنيف المملكة النباتية .

** انطوان لوران جوسيو Jussieu نباتي فرنسي شهير وله في ليون ومات في باريس (١٧٤٨ - ١٨٣٦) وكان صاحب نظام طبيعي في تصنيف النباتات ادى الى إلغاء طريقة العالم لينى .

*** شاول دولين Linné نباتي سويدي شهير (١٧٠٧ - ١٧٧٨) صنف النباتات اربعة وعشرين صنفاً على اساس الصفات المنتزعة من عدد الانسجة وانتظامها .

ان نجد فكرته مشروحة ، او مشاراً اليها على الأقل ، في هذه الاسطر الثلاثة التي خطها بقلمه على هامش نسخة من الكتاب المقدس : « هذا هو ظلُّ المعنى : إن باب الطبيب يجب ان لا يُفلق ابداً . وإن باب الاسقف يجب ان يظل مفتوحاً ابداً . »

وفي كتاب آخر موسوم بـ « فلسفة العلم الطبي » دونَ هذه الملاحظة أيضاً : « ألتُ طبيباً مثلهم ؟ إن عندي ، انا ايضاً ، مرضي . عندي أولاً رضام الذين يدعونهم معتلي الاجسام ، وعندي بعد ذلك مرضي الذين أدعوم المساكين . »

وكتب أيضاً في موضع آخر : « لا تَسْ ذلك الذي يلتبس منك فراشاً يأوي اليه عن امه ما هو . لان الرجل الذي يُثقله اسمه وبضايقه هو أشد الناس حاجة الى المأوى . »

ولقد خطر لكاهن جليل لست أدري بعدُ أكان كاهن كولوبرو أم كاهن بومبييري ان يسأله ذات يوم ، ولعله فعل هذا بتحريض من السيدة ماغلوار ، ألا يظن سيادته ان ثمة شيئاً من الحطل في ترك بابه ، ليلاً ونهاراً ، تحت رحمة ائما راغب في الدخول ؟ ألا يخاف آخر الامر ان تحل مصيبة ما يمثل هذا البيت الذي لا يتمتع بأقل الحراسة ؟ فوضع الاسقف يده على كتفه ، في رفق وقال :

• Nisi Dominus custodierit domum . in vanum vigilant qui custodiunt eam •

ثم انتقل الى الكلام في موضوع آخر .

وكثيراً ما كان يقول : « للكاهن شجاعته ، كما أن لقائد سلاح الفرسان شجاعته . » ثم يضيف : « ولكن شجاعتنا ينبغي أن تكون هادئة . »

٧

كرافات

هذا هو المكان الملائم لذكر حادثة ينبغي ان لا تُنفلها ، لأنها احدى تلك

• قول لاتني مناه . « اذا لم يصر الاله بيتاً من البيوت صفاً يحرسه حراسه » .

الحوادث التي تربينا بها أكثر ما يكون من الوضوح أي رجل كان اسقف ...
بعد ان قضى على عصاة غاسبار بيس التي عانت فساداً في مخارم اوليفول ، فزع
احد قادتها ، واسمه كراقات ، الى الجبال . لقد توارى عن العيان فترة من
الزمن ، مع قطاع طرقه وهم فلول قوات غاسبار بيس ، في ولاية نيس ، ثم
اتخذ سبيله الى بييدمونت ليعاود الظهور في فرنسه ، قرب افليم بارسولونيت .
لقد رثي اول الامر في جوزيه ، ثم في تويل . لقد اختبأ في كهوف جونغ
دوليفل ، ومن هناك كان يبط الى الدساكر والقرى عبر وادي « اوباي »
و « اوباييت » . بل لقد تجرأ على ان يندفع حتى ابيرون ؛ واقنهم ذات ليلة
الكاتدرائية وسلب مخزن الامتعة المقدسة . وخربت غاراته تلك الديار ودعت
سكانها الى هجرها . وجردت عليه سرايا الدرك ، ولكن عبثاً . كان يفر دائماً ،
وفي بعض الاحيان إثر مقاومة عنيفة . كان بائساً جريء الفؤاد . وفي غمرة من
هذا المزل كله وصل الاسقف . كان يقوم بجولة الرعائية . وفي سانتيلاراقبل
العمدة للقاءه وحضه على العودة . فقد كان كراقات يسيط سلطاناً على الجبال
حتى آرش وما وراها . وثمة خطر على الاسقف حتى ولو كان يحوطاً بحرس .
وقد يعرض ذلك حياة ثلاثة او اربعة من رجال الدرك الساكنين للهلاك ، على
غير طائل .

قال الاسقف : « وهكذا فانا اعتزم ان امضي من غير حرس . »

فصاح العمدة : « اتفكر بشيء مثل هذا ، يا صاحب اليادة ؟ »

— « اني افكر في ذلك الى حد يجعلني على ان ارفض حراسة الدرك رفضاً

باتاً ، وعلى ان انطلق بعد ساعة . »

— « تنطلق ؟ »

« اجل ، أنطلق . »

— « وحده ؟ »

— « وحدي . »

« مونسيور ، انك لن تقدم على ذلك . »

فأجاب الاسقف : « إن هناك في الجبل جماعة صغيرة حقيرة لم أرها منذ ثلاث سنوات . إن أفرادها من اصدقائي الخلق ، وهم فلاحيون أمناء دؤوب وداعة . إنهم يملكون شاة واحدة من ثلاثين يرعونها . وهم يصنعون خيوطاً صوفية جميلة ذات ألوان متعددة ، ويعزفون الحانهم الجبلية على زمامير صغيرة في كل زمار منها ستة ثقوب . وهم في حاجة الى من يمدّهم ، بين القينة والقينة ، عن رحمة الله . وما الذي سوف يقولونه في اسقف يُسلم به الخوف ؟ ما الذي سوف يقولونه اذا لم أفدّ عليهم ؟ »

« وقطاع الطرق ، يا صاحب البادية ؟ واذا التقيت بقطاع الطرق ؟ »
فقال الاسقف : « صحيح . أنا لم أفكر في هذا . انت على صواب . قد التقي بهم . لا ريب أنهم هم ايضاً في حاجة الى من يمدّهم عن رحمة الله . »

« مونسنيور ، ولكنها عصابة ! إنها قطع من الذئاب ! »
« لعل يسوع قد جعلني راعي ذلك القطيع بالذات ، يا سيدي العمدة . من ذا الذي يعرف اساليب العناية الالهية ؟ »
« ولكنهم سوف يسرقونك ، يا صاحب البادية . »
« ليس معي شيء . »

« اذن ، فسوف يقتلونك . »
« يقتلون كاهناً عجوزاً بسيطاً يضي لسبيله متمتماً بصلواته ؟ لا ، لا ، اي نفع يكسبونه من ذلك ؟ »

« آه ، يا الهي ! افرض انك التقيت بهم ! »
« عندئذ اسألهم صدقة لفقرائي . »

« مونسنيور ، لا تذهب ، بحق السماء ! إنك تعرض حياتك للخطر . »
فقال الاسقف : « وهو كذلك ، يا سيدي العمدة . أنا لم أوجد في هذا العالم لكي اصون حياتي ، ولكن لكي اصون نفوس الناس . »

ولم يكن في ميسور العمدة ان يذنب عما اعتزم . فانطلق ولبس يصحبه غير غلام تطوّع ان يكون له دليلًا . كان عناده حديث المقاطعة ، ولقد خشي القوم

كلهم عواقبه .

ولم يشأ ان يسطحب لا اخيه ولا السيدة ماغلوار . واجتاز الجبل على متن بغل ، ولم يلتق انساناً ما ، وانتهى آمناً سالماً الى « اصدقائه الخلص » الرعاة . واقام هناك خمسة عشر يوماً ، واعطاً ، مانحاً الاسرار الدينية ، معلماً ، مندواً . حتى اذا اوشك على مفارقتهم اعتزم ان ينشد « تسبحة الشكر » على نحو احتفالي . وتحدث الى الكاهن في ذلك . ولكن كيف السبيل الى إنفاذه ؟ لم يكن ثمة « حلال » اسقفية . ولم يكن في مستطاعهم ان يقدموا اليه غير مخزف حقيق من مخازن الامتعة المقدسة القروية ، وبضع حلل كهنوتية عتيقة من دمقس مهجري . مزدانة بأشرطة حريرية زائفة .

وقال الاسقف : « لا بأس . ايها الكاهن المحترم ، اعلن في الموعظة اننا سوف نؤدي تسبحة الشكر . ولا بد ان يسوي الامر 'نفسه' بنفسه . »
وجشوا في الكنائس المجاورة ، ولكن كل الامتعة المترفة التي جمعت من هذه الابريشيات المتواضعة على اختلافها لم تكن كافية لالباس منشد كاندراثي واحد على نحو ملائم .

وبما هم في غمرة من هذا الحرج حل فارمان مجهولان صندوقاً ضخماً الى دار الكاهن وتركاه هناك من اجل الاسقف ، ثم غادرا الدار في الحال . وفتح الصندوق ؛ فاذا فيه غفارة * من جوخ مذهب ، وتاج اسقفي مزدان بالماس ، و صليب من الصلبان التي يحملها رؤساء الاساقفة ، وعصا اسقفية فضة ، وجميع الملابس الاحتفالية التي سُرقت منذ شهر من كاندراثية ايمبرون . وكانت في الصندوق ورقة 'كنست' عليها هذه الكلمات : « من حكايات الى مونسنيور بيينفينو » .

وقال الاسقف : « لقد قلت ان الامر سرف يسوي نفسه بنفسه . » ثم اضاف في ابهامه : « ان من يقنع بقميص الكاهن الخارجي يرسل الله اليه غفارة رئيس اساقفة . »

* الغفارة وداء يلبسه ابحار الكنيسة في الكنيسة .

وعنهم الكاهن وهو يز رأسه ويبتسم : « مونيڤيور ، الله أو الشيطان . »

ونظر الاسقف الى الكاهن نظراً موصولاً ، وقال في قوة : « الله ! »
حتى اذا انقلب الى شاستيلر احتشد الناس على طول الطريق مجدوم الفضول
الى رؤيته . وفي دار الكاهن هناك ، وجد الآنة بابتيستين والسيدة ماغلوار
تنتظرانه ، فقال لأخته :

« واخيراً ، ألم اكن على صواب ؟ لقد قصد الكاهن الفقير صفر اليدين الى هؤلاء
الجبليين الفقراء ، ثم رجع مليء اليدين . لقد مضيت متسكلاً على الله وحده ،
وها قد عدت حاملاً كنوز كاندراثة بكاملها . »

وفي المساء اضاف ، قبل ان يزوي الى فراشه : « لا يأخذكم الخوف من
الصوص والفئاك ابدأ . مثل هذه المخاطر خارجية ، وهي اصغر المخاطر واطناً
شأناً . يجب ان نخشى انفسنا . إن الضمائر هي هي الصوص ، وإن الرذائل هي
هي الفئاك . ان الاخطار العظمى كامنة في داخلك . واني بأس في ان تتعرض
رؤوسنا او اكيام نفودنا للخطر ؟ ينبغي ان لا نفكر الا بما يهدد
نفوسنا . »

ثم التفت الى اخته وقال : « ابنتها الاخوت ، يتعين على الكاهن ان لا يتخذ
أبماً وقاية ضد جاره . إن ما يفعله جاره بسمع به الله . فلنتصبر على الصلاة لله حين
يرى الى الخطر يتهددنا . فلنتضرع اليه ، لا من اجل ذواتنا ، بل لكي لا
يتورط أخ لنا في الالم ، بسبب منا . »

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الاحداث تاديرة في حياته ، وانما نقص ههنا
ما نعرفه منها . ولكنه كان ينفق حياته ، عادة ، بأن يفعل الاشياء في اللحظات
نفسها . كان الشهر من سنته يشبه الساعة من يومه .

أما ما حل به كنوز ، كاندراثة ايمرون فذلك ما يربكنا أن نسأل عنه
الآن . كانت بينها اشياء كثيرة فاتتة جداً ، مغربة جداً ، صالحة جداً لأن
تسرق لمصلحة الساكنين . لقد سبق لآخرين ان سرقوها من قبل . ولقد تم

نصف المغامرة ؛ فلم يبقَ الا أن تُغيّر وجهة السرقه ، وأن نحول الى ناحية
 الفقراء . وليس في ميسورنا ان نقول شيئاً اكثر في هذا الموضوع . كل ما
 نستطيع ان ننصّ عليه أنه وجدت بين اوراق الاسقف مذكرة شديدة الغموض
 لعلها تتصل بهذه المألة ، وهي تقول : « إن السؤال هو هذا : أيفيى ان
 نعاد هذه الى الكاتدرائية أم الى المستشفى ؟ »

٨

فلسفة ما بعد الغداء

كان عضو مجلس الشيوخ الذي اشرنا اليه من قبل رجلاً ذكياً شقّ طريقه في
 الحياة في استواء هدف لم يبال البتة بجميع تلك العقبات التي تعترض سبيل
 الناس ، والتي ندعوها الضمير ، والوفاء المعزّز بقسَم ، والعدل ، والواجب .
 لقد اندفع نحو هدفه اندفاعاً مستقيماً من غير ان يحيد ذات مرة عن جادة
 تقدّمه ومصلحته . كان في ما مضى وكبلاً قضائياً ، لأنه النجاح ، ولم يكن
 رجلاً رديئاً بحال . وكان يقدم جميع الخدمات الصغيرة التي تقدّر عليها الى
 ابنائه ، وأصهاره ، وانسبائه على وجه العموم ، وحتى الى اصدقائه ، متخيّراً في
 حكمة جاب الحياة البهيج ، مفيداً من جميع فرصها المتاحة الطيبة . أما ما عدا
 ذلك فكان يبدو في عينيه عملاً معنّاً في الحق . كان مريحاً طروباً ، وكان على
 قدر من العلم كافٍ لان يجعله بحسب نفسه تلميذاً من تلاميذ أبيقور ، في حين
 أنه لم يكن . في ما يبدو اكثر من ثرة من ثرات بينغولويران * . كان
 يضحك في غنوة واستمتاع من أشياء خطيرة وأولية ، ومن الكلام الباطل الذي
 ينطق به الاسقف الطيّب . « وكان يضحك منها أحياناً ، وعلى وجهه سجا الرجل

* Pigault - Lebrun كاتب فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٣٥) وضع عدّة روايات داعرة خلية

المتنازل ، في حضرة الاسقف نفسه الذي كان يُصفي .
ولست أدري في أيّ من الحفلات نصف الرسمية تناول الكونت . . (وهر
عضو مجلس الشيوخ هذا) وصاحب السيادة ميربيل طعام الغداء في منزل المحافظ .
وحين قدّمت الفاكهة صاح الشيخ وقد استخفّه التملّ بعض الشيء ، وإنّ لم
تفارقه سبب الوقار :

— « ربّك يا سيدي الاسقف ، دعنا نتحدث . إن من العسير أن يلتقي
اسقف وعضو في مجلس الشيوخ من غير أن يتغامزا . نحن عرّافان . وإن عندي
اعترافاً أريد أن أدلي به اليك ؛ إنّي لي فلسفتي الخاصة . »
فأجابه الاسقف : « أنت على صواب . كما يضع المرء فلسفته ، كذلك
يرقد . أنت ترفد على فراش ارجواني ، يا سيدي الشيخ . »
ووجد الشيخ في ذلك ما شجعه ، فأضاف :

— « لكن ولدين صالحين . »
فقال الاسقف : « بل عفريتين صالحين أيضاً . »
فتابع عضو مجلس الشيوخ : « اؤكد لك ان المركيز دارجيان * ،
وبيرتون ، ** وهوبس ، *** والسيد نيجون **** ليسوا اوغاداً . إن
جميع فلاسفتي مذهب الحوافي في خزانة كتي . »
فقاطعه الاسقف : « مثلك أنت ، يا سيدي الكونت . »
وتابع عضو مجلس الشيوخ قائلاً :

— « انا اكره ديدرو . إنه ايدبولوجي ، غوغاڠي ، توري ، مؤمن في قرارة

* Marquis d'Argens اديب فرنسي (١٧٠٤ - ١٧٧١) وضع آثاراً عديدة يرشح بعضها
بالتك في الله .

** Pyrrhon اول الشكوكيين الاغريق الكبار في القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان يصرّح
ان يكون بلوغ الحقيقة في ميور الانسان .

*** Hobbes فيلسوف انكليزي (١٥٨٨ - ١٦٧٩) ، وكان يتنادي — في حفل الفلسفة
بالمادية ، وفي حفل الاخلاق بقلة المصلحة الانانية ، وفي حفل الباسة بالطغيان .

**** Naigeon اديب فرنسي (١٧٣٨ - ١٨١٠) عُرف بتفكيره الماديّ الالحادي .

نفسه بالله ، وأشدّ تعصباً من ثولتير . لقد سخر فولتير من يدهام * ولم يكن في هذا مصيباً . ذلك بأن أنقليسات *** يدهام تثبت ان الله غير ذي غناه . إن نقطة من الحل في ملعة من العجين قد سدّت مدّة *fac lux* *** . ولنقرض ان النقطة كانت اكبر وان الملعة كانت أضخم ، وعندئذ يتمّ لنا هذا الكون . إن الانسان هو الانقليس . واذن فأنيّ فائدة للأب الازليّ ، بعد ذلك ؟ ان فرضية *يهوه* **** تعني ، بامسدي الاسقف . انها لا تصلح لشيء غير انتاج اناس مهزولي الاجسام فارغي الرووس . فليست هذا « الكلي » ، الكبير الذي يرعجي ويقض مضجعي ! وليحي « الصر » الذي يورثني الراحة والطأنينة ! وبيني وبينك ، ولكي أفضي بسريرة نفسي ، وأعترف لكاهني ، كما ينبغي لي ، سوف اقرّ بأن عندي حصاة . انا لست مجنوناً يسوعك الذي يبشر عند كل حفل بالنسك والتضحية . تلك نصيحة البخيل للشحاذين . النفسك ! لماذا ؟ التضحية ! من اجل ماذا ؟ انا لا ارى غير ذنب يضحي بنفسه من اجل سعادة ذنب آخر . فلنلزم الطبيعة اذن . نحن في القمة ، ولكن لنا فلسفة اسمى . وماذا بعدنا تربّعنا في القمة اذا لم نستطع ان نرى الى ابعد من أنوف الآخرين ؟ لنعش في مرج وابتهاج ، فالحياة هي كل ما غلك . أما القول بأن للانسان حياة ثانية ، في مكان آخر ، فوق ، تحت ، في أيما مكان - فزعم لا اصدق كلمة واحدة منه . آه ، انهم يوصونني بالتضحية ، والنسك ، وبأن الزم الحذر في كل ما عمله ، وبأن احطّم رأسي في التفكير بالخير والشر ، والعدل والظلم ، والحلال والحرام . لماذا ؟ لأن عليّ ان اقدم حساباً عن أعمالي . متى ؟ بعد الموت . أيّ حلم جميل ! انني

• Needham طبيب انكليزي ولد في لندن وتوفي في برزكل (١٧١٣ - ١٧٨١)
 وفد دارت بينه وبين فولتير مساجلات عنيفة .

• الانقليس او الحنكليس : ضرب من السمك معروف .

*** في اللاتينية ، ومنها « ليكن نور ! » . وفي ذلك اشارة الى ما جاء في سفر التكوين :
 « وقال الله ليكن نور فكان نور . » وقد انتهى هذا الاصطلاح الى ان يفيد معنى الخلق او الانداع من عدم .

• اسم الله في العهد القديم (التوراة) .

بعد ان اموت لفي حاجة الى اصابع ناعمة لكي تلتقطني . وكما انني لو اري يداً من الظل تلتقط حقنة من الرماد . لنقل الحقيقة ، فمن الذين اطلعنا على الامرار ورفضنا تنورة ايزيس : ليس ثمة خير ولا شر . ليس ثمة غير وجود جسدي فحسب ، فلنلتبس الحقيقة . فلنلبش كل شيء . فلنذهب الى الاعماق . ينبغي ان نستروح الحقيقة ، ان نحفر الارض التماساً لها ، ونضع يداً عليها . وعندئذ نضعنا الحقيقة مباحج عذاباً ، وعندئذ نغدو اقرباء . انا مقتنع ، أوطد الاقتناع ، ياسيدي الاسقف ، بأن خلود الانسان مراب . أوه ، يا للوعد الفاتن ! توكل عليه اذا شئت ! تلك رسالة التوصية التي كانت لآدم ! إن لنا ارواحاً ، وانما سوف نصبح ملائكة ، وان اجنحة زرقاء سوف تنمو عند اكتافنا . قل لي ، الآن ، أليس ترتوليان * هو الذي يقول ان السعداء الطوباويين سوف يذهبون من كوكب الى آخر ؟ حسناً ، واذن ف سوف نصبح جراد السماوات . وعندئذ سنرى الله . هي ، هي ، هي ! سخيقة هذه الجنات كلها . وليس الله غير اسطورة هائلة . انا لن اقول ذلك في صحيفة « مونيتر » طبعاً ، ولكني اهمس به بين اصدقائي . *Inter pocula* ** ولأن بضحي المرء بالارض من اجل الجنة اشبه شيء بالتخلي عن القرية للتعليق بالظل . انا لست مفقلاً بحيث تخدعني للالتهابة . انا لا شيء . انا ادعو نفسي الكونت لا شيء ، عضو مجلس الشيوخ هل وجدت قبل ولادتي ؟ لا . هل سأوجد بعد موتي ؟ لا . اي شيء انا ؟ قليل من القبار ركة جسم عصري . ما الذي ينبغي لي ان افعله على سطح هذه الارض ؟ انا مختارين واحد من اثنين : ان أكابد أو ان استمتع . الى اين تقودني المكابدة ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد كابدت . الى اين يقودني الاستمتاع ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد استمتعت . لقد اخترت سبيلي . يجب ان آكل أو أن أؤكل . وأنا اختر ان آكل . انا اوثر ان اكون السن لا العشب . تلك هي فلسفتي . وبعدها ، كما اقول لك ، يجيء حفار القبور ... البانتيون ***

* Tertullien لاهوتي نصراني من ابناء شمال افريقية . (١٥٠ ؟ - ٢٤٠ م)

** اصطلاح لاطيني معناه : بين الاتحاد أو في مجلس الحر .

*** Pantheon الاثر الباريسي الشهير حيث يرقد نفر من عظماء الرجال الفرنسيين .

بالسبة اليانمحـنـ ولكنا كلانا سقط في الهوة العظيمة النهائية ، النصفية الكاملة . هذه هي نقطة الثلاثي . إن الموت مثبت . صدقي . انا اسحر من الفكرة الفائلة بأن ثمة كائناً ما عنده شيء ، بقوله لي . ذلك من اختراع المرصعات : الفزاعة * للاطفال ، ويتهووه الرجال . لا ؛ إن عدنا ظلام . وليس وراء القبر غير أعدام ** متساوية . لقد كنت ساردانابال *** او كنت فنان دو بول **** - لا فرق . تلك هي الحقيقة . فلنعش ، إذن ، فوق كل شيء . إستعمل شخصيتك ما دمت مالكاً لها . في الحق ، اقول لك ياسيدي الاسقف ، إن لي فلسفي وإن لي فلاسفي . انا لا اسمح لنفسي بأن اقع في شرك الهذر والمراء . ولكن من الضروري ان يكون ثمة شيء لمن هم دوننا من الناس ، للعباة ، لشاحذي السكاكين ، للبؤساء . نحن نقدم اليهم الحرافات ، والالوهام ، والروح ، والخلود ، والجنة ، والنجوم لكي يتلهموها . انهم يخفون ذلك . انهم ينشرونه على خبزهم الجاف . فمن عدم كل شيء ، لم يعدم الله الخير ذلك اقل ما يستطيع ان يفوز به من خير . انا لا اعترض على ذلك ، ولكني احتفظ بالسيد نيجون لنفسي . إن الله الخير لا يصلح إلا للشعب . »

وصحق الاسقف ، وصاح : « ذلك هو الرأي . هذه المادية شيء . ممتاز ، شيء رائع حقاً ، فليرفضها من اراد . آه ! حين تم هذه المادية لامري ، فعندئذ لا

« ما يخوف به ، وما ينصب في المزرعة تخويفاً للوحش .

« جمع عدم .

*** ساردانابال : شخصية خرافية تزعم الاساطير القديمة انها ملك اشوري حكم من سنة ٨٣٦ الى سنة ٨١٧ ق . م . وكان آخر من تصدر عن الملكة الاسطورية سميراميس . ولا يزال ساردانابال الى اليوم رمزاً للامبر الفاجر المحت

**** St. Vincent de Paul مصلح فرنسي كاثوليكي (١٥٧٦ - ١٦٦٠) رمع الى مقام القديسين .

يبقى غرّاً مخدوعاً ، ولا يسمع لنفسه ، في بلاهة بأن يُنفى مثل كاتو * او يُرجم بالحجارة مثل اسطفان **، او يُحرق حياً مثل جان دارك . إن أولئك الذين فازوا بهذه المادية الرائعة يسعدون بالشعور بأنهم غير مسؤولين ، وبالتفكير في ان باستطاعتهم ان يلتهموا كل شيء في طائنة : الاماكن ، والمناصب التي تُجري على اصحابها الرواتب من غير ان تقتضيهم عملاً ما ، والرتب ، والسلطان سواء اكتسب بالاساليب الحيرة او الاساليب الشريرة ، وضروب الانكار المُرعبة ، والحيات المفيدة ، وتخفيف الضيق على نحو عذب لذيد ، وانهم سوف يدخلون قبورهم وقد اتموا واجبه المضمي . ما اجل هذا وما احبه الى النفس ! انا لا اقول ذلك من اجلك ، يا سيدي الشيخ . ومع هذا ، فليس في ميسوري الا ان اهنك . إن لكم ايها السادة الكبار ، كما تقول ، فلسفة خاصة بكم ، جعلت لمنفعتكم الذاتية - فلسفة بمنازة ، رفيعة ، لبست في تناول احد غير الاغنياء ؛ فلسفة تصلح في جميع الاحوال ، وتضيف التوابل لإضافة رائعة ، الى ملذات الحياة . هذه فلسفة يُفصص عليها في الاعماق البعيدة ، ولا يفوز بها إلا باحثون مخصوصون . ولكنكم امراء طيبون ، ولستم تجدون ضرراً ما في ان يكون الايمان بالله الحَيُّ هو فلسفة الشعب ، كما ان الاول بالكسنة هو ديك الفقراء الرومي المطبوخ مع الكماة ، على وجه التقريب .

٩

الاخ كما تصوره الاخت

ولو اردنا ان نقدم صورة عن حياة اسقف د ... المنزلية ، وكيف أخضعت

* Caio زعيم وخطيب روماني (٢٣٢ - ١٤٧ ق.م) اشتهر بترمته وبعادته الشديد لقرطاجة ، وهو صاحب الكلمة المشهورة « يجب ان تدهر قرطاجة » .
 ** القديس اسطمان : اول شهداء النصرانية ، وقد وُجِم بالحجارة في بيت القدس .

هاتان المرأتان الطيبتان اهما ، وافكارهما ، بل وغرائزها الذوية التي يسهل
ترويعها ، لمادات الاسقف ومقاصده من غير ان يحشم نفسه مجرد الكلام
للتصوير عنها ، فلن نجد خيراً من ان ننسخ رسالة كتبناها الآنسة بانيتين الى
رفيقة صباها السيدة الفيكونتيس دو بواشيفرون . ان هذه الرسالة بين ايدينا .

..... ١٦ كانون الاول سنة ١٨

« سيدتي الطيبة . لا ينقضي يوم إلا وتحدث عنك . لقد غدا ذلك عادة من
عادتنا ، ولكن لدينا الآن سبباً اضافياً . هل تصدقين ان السيدة ماغلوار
اكتشفت بعض الاكتشافات وهي تغسل السقوف والجدران وتنفض عنها
الغبار ؟ ان غرفتنا المغطاة جدرانها بالورق العتيق المبيض بماء الكلس ما عادتا
تشوّهان قصراً مشيداً على طراز قصر ك . لقد نزعَت السيدة ماغلوار ذلك
الورق كله ، فاذا بها تجد أشياء خلفه . ان صالوني العاطل عن الاثاث والذي
نحطّعه لنشر الملابس المفسولة حتى تجف ، يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدماً ، ويبلغ
كل من طوله وعرضه ثمانية عشر قدماً ، وله سقف ازدان في ما مضى بالتصاوير
المذهبة ، سقف ذو عوارض خشبية كالتي في منزلك . وكان ذلك مغطى بنسيج
الكتب منذ ان كان منزلنا مستشفى . واخيراً ، هناك البطانة الخشبية التي ترقى
الى عهد جدانا . ولكن غرفتي الخاصة هي التي ينبغي لك ان تزيها . لقد
اكتشفت السيدة ماغلوار ، تحت عشر طبقات من الورق على الاقل ، بعض
الصور التي قد لا تكون جيدة ، ولكنها مقبولة . فصورة تمثل تيلباك* على صهوة
جواده ، ومينيرفا تقبله . واخرى تمثل في الحداثى - لقد نسبت اسمها .
وثالثة تصوّر المكان الذي آوت اليه السيدات الرومانيات ليلة ليس غير . اي
شيء اقول لك بعد ؟ ان عندي رومانيات ورومانين (هنا كلمة غير مقروءة)
وحاشيتهم كلها . لقد نظفت السيدة ماغلوار ذلك كله ، وسوف تصلع خلال

* Télémaque ابن اوليس وبينلوب . كان طفلاً حين قصد ابوه الى طروادة ، ولقد اطلق
هو في ما بعد البحث عنه تقوده مينيرفا ، الآهة الحكمة والفنون .

هذا الصيف بعض العيوب الصغيرة ، ونعيد صقل الرسوم كلها ، وعندئذ تصح
غرفتي منعفاً حقيقياً . كذلك وجدت في إحدى زوايا العليسة منضدتي بهو
منحني القوائم من الضرب الذي يُسند الى الحائط . ولقد اقتضانا أهل الصناعة
دينارين فضين من ذوات الست ليرات لاعادة تذهيبها ، ولكن من الحيوان
نقدم ذلك الى الفقراء . والى هذا ، فيها قبيحتان جدآ ، وانا أؤثر عليها منضدة
مستديرة من خشب الماهوغاني .

« انا سعيدة » دائماً . إن اخي طيب جدآ . إنه يقدم كل ما يملك الى الفقراء
والمرضى . نحن جد متضايقين . فالجور قارس جدآ في الشتاء ، ويتعفن على المرء
أن يُسدي خدمة ما الى المعوزين . نحن على الاقل نتمتع بالدفء والنور ،
وانت تعرفين أن الدفء والنور منعمتان كبيرتان .

« إن لأخي عاداته الغريبة . وهو حين يتحدث يقول ان الاسقف ينبغي ان
يكون هكذا . تصوري أن باب المنزل ليس يُغلق أبداً . ان ايا امرئ
يستطيع ان يدخله ، فاذا هو في الحال ضيف اخي . إنه لا يخشى شيئاً ، حتى في
الليل . وهو يقول ان هذه هي شجاعته الخاصة .

« إنه يرد أن لا يأخذني الخوف عليه ، وأن لا يستبد الجزع بالسيدة ماغلوار
ايضاً . وهو يعرض نفسه لضروب المخاطر جميعاً ، ويؤثر ان لا يبدو وكأننا
نعني ذلك بمجرد وعي . ان على المرء ان يعرف كيف يفهمه .
« إنه ينطلق تحت المطر ، ويجوّض في الماء ، ويطوف في البلاد إبان الشتاء .
إنه لا يخشى الليل ، او الطرق الخطرة ، او أولئك الذين قد يلتقيهم .

« في العام الماضي قصد وحده الى منطقة بيعث فيها اللصوص فساداً . انه لم يشأن
يصطحبنا . لقد ظل خمسة عشر يوماً غائباً عن البيت . حتى اذا آب من رحلته ، وكنا
نظنه قد مات ، كان في حال جيدة لم يُصبه شيء ما . وقال : « انظرا ، كيف
سرقوني ! » وفتح صندوقاً مليئاً بجواهر كاتدرائية ابيرون التي قدّمها اللصوص اليه .
« وفي تلك المناسبة ، لدن عودته ، وكنت قد ذهبت لاستقباله على مبعدة فرسخين
اثنين مع طائفة من اصدقائه ، لم اتمكن عن ان ألومه بعض الشيء ، محاذرة ان أنكلم إلا

حين كانت العربية 'تحدث ضجة'، لكي لا يكون في ميسر وأياما متخص آخر ان يسمع .
 « في البدء كنت اقول لنفسي : انه لا يبالي بيما خطر . ذلك شيء فطيع .
 أما الآن فقد ألفت ذلك . اني اومئى الى السيدة ماغلوار لكي لا تعارضه ،
 فهو يركب متن المغامرة كما يجلوله . وعندئذ أستدعي السيدة ماغلوار ، وآوي
 الى غرفتي ، فأصلي من أجله ، وأنام أنا مطمئنة ، لاني اعلم جيداً انه اذا ما ألم
 به اذى فعندئذ تحين منيتي . عندئذ يتعين علي ان أمضي الى الرب الرحيم مع
 اخي واسقفي . ولقد وجدت السيدة ماغلوار عسراً اكثر في ان تروض نفسها على
 ان تألف هذا الذي تدعوه نهوتره وعدم تبصره . اما الان فقد تعودنا ذلك .
 نحن نصلي معاً ، ونحن نروّع معاً . ثم نأوي الى الرقاد . ولو قد أراد الشيطان
 نفسه ان يقد على المنزل ، اذن لما اعترض احد سبيله . وائياً ما كان ، فأني شيء
 يدعو الى الخوف في ذلك المنزل ؟ ان معنا دائماً من هو أشد بأساً من كل أحد .
 ان الشيطان قد يُلمّ بدارنا ، ولكن الرب يسكنها .

« أحسي هذا المقدار . لم يعد اخي في حاجة الى ان يتلق بكلمة واحدة .
 أنا أفهمه من غير ان يتكلم ، ونحن نسلم نفسي الى العناية الالهية .

« وكذلك ينبغي ان يكون الامر مع وجل نبيل الروح الى هذا الحد .
 « لقد سألت اخي ان يُبدي اليّ بالمعلومات التي طلبتها عن اسرة دو فو .
 انت تعرفين مدى اطلاعه البعيد في هذا الميدان وغزارة ذكرياته ، اذ كان
 دائماً ملكياً صميماً ، وهذه اسرة نورماندية عريقة من مقاطعة «كان» . إن عمّة
 خمسة عام من سلالة راوول دو فو ، وجان دو هو ، وتوماس دو فو ، الذين
 كانوا من الاشراف ، وكان احدهم سيد روشفور . اما آخرهم فكان غي ايتيين
 ألكسندر الذي كان قائداً عسكرياً ، وكان يحتل رتبة ما في سلاح الفرسان في
 بروناتشي . ولقد تزوجت ابنته ماري لويز من آندريان شارل دو غرامون نجل
 الدوق لويس دو غرامون ، احد نبلاء فرنسا الكبار ، وقائد الحرس الفرنسي ،
 وأحد ضباط الجيش المقدّمين . واسم هذه الاسرة يرسم على وجوه مختلفات :

، Fauque و Fauq و Faux

« عسى ان نسألي نسيبك القدسي ، السيد الكاردينال ، أن يصلي من أجلنا
 ياسيدي العزيزة . اما غايتك سيلفاني فقد احسنت صنعاً إذ لم تضع اللحظات
 القصار التي تقضيها الى جانبك في الكتابة اليّ . انها في خير ، كما تقولين ، وهي
 تعمل وفقاً لمشيئتك ، وما تزال تحبني . ذلك كل ما أطمع فيه . لقد تلقيتُ
 التذكار الذي بعثت به اليّ ، من طريقك ، واني لسعيدة بذلك . انت صحي
 لست سبّة جداً ، ومع ذلك فانا ازداد هزالاً يوماً بعد يوم .
 وداعاً . لقد طفعت ورتقي ، فيتعين عليّ ان اكف عن الكتابة . وتقبلي
 الفأ من التمنيات الطيبة .

« بانديستين

« حاشية - ان السيدة زوجة أخيك هي هنا دائماً مع أسرنا الفنية . وان
 حفيد أخيك لفانن حقاً . هل تعرفين انه سوف يبلغ الخامسة من عمره وشيكاً ؟
 لقد مر به ، امس ، جواد وضعت له رُكبيبات * فصاح : « ما هذا الذي علي
 رُكبي ؟ انه غلام لطيف جداً ، وان اخاه الصغير ليسحب مكنسة عتيقة في
 الغرفة وكأنها عربية ، ويقول : هي ! »

وهكذا نرى ، من هذه الرسالة ، ان هاتين المرأتين عرفنا كيف تشكيتان
 وفق اسلوب الاسقف في الحياة ، بتلك العبقرية النسوية التي تفهم الرجل خيراً مما
 يستطيع الرجل ان يفهم نفسه . والواقع ان اسقف د... كاث يقوم في بعض
 الاحيان ، تحت هذه الانطباع العذبة البيضاء القلب التي لم تتغير قط ، بأعمال
 عظيمة ، جريئة ، رائعة ، من غير ان يبدو وكأنه يعي ما يفعل . كانتا ترتعدان
 ولكنهما لم تتدخلتا . وكانت السيدة ماغلوار تحاول في بعض الاحيان ان
 تحذره قبل ان يقدم على عمل ما ، ولكنها ما كانت لتفعل ذلك وهو يقوم به ،
 او بعد ان يقوم به على الاطلاق . ان احداً لم يحاول ، في يوم ، ان يزعجه بكلمة
 او بإشارة حول عمل استهله . وفي بعض الاحوال ، حين لا يكون في حاجة الى

« الرُكبية كلة وضمتها لتقال كلمة genouillère الفرنسية وكلمة knee-cap الانكليزية
 ونمى غطاء الركبة .

ان يقول ذلك ، او لعله حين يكون على غير وعي له ، كانت بساطته كاملة الى درجة تجعلها تحس ان احساساً غامضاً انه يعمل كأسقف ؛ وعندئذ ما كانتا لتزيدا على كونها مجرد ظلين في البيت . كانتا تخدمانه من غير اعتراض ، حتى اذا قضت الطاعة بالاختفاء ، اختفتا . لقد ادركنا ، بركة غوزية رائعة ، أن بعض ضروب العناية المحبة المشفقة خليفة بان ترعجه . فيها - حتى حين يبدو لها انه في خطر - تفهمان طبيعته ، ولا أقول فكرة ، الى درجة تحملهما على الكف عن رعايته والسهر عليه . كانتا تسلمان أمره الى الله .
والى هذا ، فقد قالت بانيستين ، كما رأينا ، أت موت أخيها يعني موتها . اما السيدة ماغوار فلم تقل ذلك ، ولكنها عرفت .

١٠

الاسقف في حضرة ضياء مجهول

وقبيل تاريخ الرسالة التي أثبتناها في الصفحات السابقة قام الاسقف بعمل اعتقدت البلدة كلها انه اشد نهوياً وأخطر بالخطر من رحلته عبر الجبال التي يهيمن عليها قطاع الطرق .

ففي الريف المجاور لبلدة د ... كان رجل "يحيا في عزلة" . وكان هذا الرجل - وانتقل الكلمة الضخمة المذهلة من غير ما مقدمة - عضواً في «المؤتمر الوطني» . * كان يدعى ج ...

وفي عالم د ... الصغير كان الناس يتحدثون عن عضو «المؤتمر الوطني» هذا في ضرب من الرعب . عضو في «المؤتمر الوطني» ، هل تتصور ذلك ؟ إن هذا

* Convention Nationale البرلمان الثوري الذي حلف «الجمعية التشريعية» في ٢٠ ايلول ١٧٩٢ وحكم فرنسا حتى ٢٦ تشرين الاول ١٧٩٥ . ومن أعماله أنه أعلن الجمهورية ، وأدان لويس السادس عشر . وكان يتألف نادي الامر من احزاب ثلاثة : الجيرونديين ، وحزب الجبل Montagnards وحزب السهل la Plaine .

يرقى الى ذلك العهد الذي كان الناس يتخاطبون فيه بضمير المفرد (tu) ويقولون :
« أيها المواطن ! » لقد كاد ذلك الرجل ، أن يغدو 'هولة' * أو غولاً . إنه لم
يصوت مع إعدام الملك ، ولكنه أوشك أن يفعل . كان نصف قاتلٍ من قسلة
الملوك ؛ وكان فظيلاً . وإلا فكيف جاز أن لا يُدعى هذا الرجل ، لدنّ عودة
الامراء الشرعيين ، الى المثول أمام محكمة عسكرية ؟ ومن يدري ، فلعلّ تلك
المحكمة ما كانت خليقةً بأن تصدر حكماً يقطع رأسه ، ولكن حتى لو أخذ
القضاة بأسباب الشفقة إذن لكانوا خليقين بأن يحكموا عليه بالنفي مدى الحياة .
والواقع أنها كانت جذيرةً بأن تجعل منه آخر الامر امثولة لأميريه ، الخ . الخ .
والى هذا فقد كان زنديقاً ، شأن أولئك القوم جميعاً - ثروة إوز ضدّ السر .
ولكن هل كان ج ... هذا نسراً ؟ نعم ، اذا كان للمرء أن يجيب على أساس
من وحشية عزائه . ذلك بأنه وقد أحجم عن التصويت لقتل الملك لم تشمله
أحكام النفي ، فهو قادرٌ على البقاء في فرنسا .

كان يجيا على مسيرة ثلاثة ارباع الساعة من البلدة ، بعيداً عن اية دسكرة أو
طريق ، في أخذود منعزل من أخاديد واديٍ موحش جداً . لقد قيل إنه كان له
هناك ضربٌ من القبر ، أو قل كان له هناك 'جحر' أو كهف . فلا جيران ، بل
لا عابري سبيل . فمذ ان أقام في هذا الوادي الضيق غمر العشب الطريق المؤدية
الى مأواه ذاك ، وطفق الناس يتحدثون عن ذلك الموضع وكأنه بيت 'جلاد' .
ومع ذلك ، وبين الفينة والفينة ، كان الاسقف يلتفت مفكراً نحو الافق
حيث كانت احدى الفياض تنتصب شاهداً على وادي البرلماني العجوز ، ويقول :
« هناك تعيش نفسٌ متوحدة . »

وفي اعماق تفكيره كان يضيف : « انا مدين له بزيارة . »
بيد انه يتعين علينا ان نعترف بان تلك الفكرة ، برغم انها بدت طبيعية أول
الأمر ، ما لبثت ان تراءت له بعد لحظة من التأمل غريبةً ، متعذرة ، بل
وكرية تنقرز منها النفس أو تكاد . ذلك بأنه كان في أعماق ذاته يشارك القوم
* الهولة : العجب . يقال : وجهه 'هولة' من الخوَل .

انطباعهم عن عضو المؤتمر الوطني « هذا ، وكان الرجل المعجوز يوقع في نفسه ، من غير ان يدوى كيف ، تلك العاطفة التي هي فتح الكراهية ، والتي تعتبر عنها لفظة الاشتمزاز احسن تعبير .

ولكن الراعي ينبغي أن لا يحفّو الحروف المريض . آه ، ولكن ايّ حروف !

وستبدّ الارنباك بالاسقف الصالح : لقد مشى أحياناً في ذلك الانجاء ، ثم انقلب على عقبيه .

وأخيراً سرى ذات يوم ، في البلدة ، نبأ يقول بأن فتىً من الرعاة كان يخدم عضو المؤتمر الوطني ، ج . . . في مأواه البري قد وفد على المدينة التماساً لطبيب . وان الأثيم المعجوز 'يحتضر' ، وان الشلل قد ألمّ به ، فليس في استطاعته ان يعيش حتى مطلع الفجر . واذاف بعض القوم : « شكر الله ! »

واخذ الأسقف صولجانه ، وارتدى معطفه ، لان ثوبه الكهنوتي كان بالياً جداً ، كما سبق منا القول ، ولأن ربح المساء كانت على وسك ان تهب ، وانطلق .

كانت الشمس تبحج للغييب ، وكانت قد مست الافق أو كادت عندما انتهى الاسقف الى البقعة اللعينة المحترمة . واستشعر بعض السرعة في النبض فيما هو يقف من الجُمُحُر . ووثب فوق حفرة ، وازال بعض الأشواك المعترضة . وشق طريقه عبر سياج من الاغصان الملتفة ، فاذا به يجد نفسه في وسط جُنيّة خربة . ثم انه تقدّم في جراءة خلال الارض الموات فاكتشف فجأة ، خلف دغل عال ، مغارة الرجل المعجوز .

كانت كوخاً خفيضاً حقيراً ، كوخاً صغيراً نظيفاً قام عند واجهته عريش 'مستمر' .

وامام الباب ، وفي كرسي عتيق ذي دواليب ، جلس رجل أشيب ، وأنشأ يحدّق الى الشمس المحتضرة في نظرة باسمة .

والى جانب المعجوز الجالس في كرسيه وقف غلام غضّ العود ، هو الراعي

الصغير . لقد قدّم الى العجوز وعاء من اللبن .

وفيما الاسقف ينظر ، رفع العجوز صوته :

« شكراً . انا لن احتاج بعد الى شيء . »

وفارقت ابنتامته الشمس لكي تستقرّ على الغلام .

وتقدّم الاسقف الى امام . وحدثت خطواته بعض الضجة ، فقتل الرجل

العجوز رأسه ، وعبر بحياه عن اعظم مقدار من الدهش يمكن لا مريء ان يعرفه بعد حياة طويلة .

وقال : « هذه اول مرة يزورني فيها زائر منذ أن أتت هنا . من انت ،

يا سيدي ؟ »

فأجاب الاسقف : « انا أدعى بينفينو ميريل . »

« بينفينو ميريل ؟ لقد سمعت هذا الاسم من قبل . أأنت ذلك الذي

يدعوه الناس مونسينيور بينفينو ؟ »

« انا هو . »

واضاف الرجل العجوز بنصف ابتسامة : « إذن ، فأنت أسقي ؟ »

« جاز . »

« أدخل ، يا سيدي . »

وبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده الى الاسقف ، ولكنه لم يمسه . لقد

اكتفى بالقول :

« انا سعيد بأن أجد أنهم قد خدعوني . إنك لا تبدو في عيني مريضاً

حفاً . »

فأجاب الرجل العجوز : « سوف أشفى عما قريب . »

ونهل لحظة ثم قال : « سوف أموت في مدة لا تتجاوز ثلاث ساعات . »

وبعد ذلك اضاف :

« انا طيب الى حد ما . انا اعرف الخطوات التي يقترب الموت بها . أمس

كانت رجلاي وحدهما باردتين . أما اليوم فقد زحف البرد الى ركبتي . وها انا

أحسنّ به الآن يتقدّم حتى الحصر ، وحين يسّ القلب ، فعندئذ أنتهي . إن
الشمس جميلة ، أليس كذلك ؟ لقد كرّرتُ كرسّي هذا بنفسّي لكي ألقى
نظرةً أخيرةً على الطبيعة . في استطاعتك ان تتحدث اليّ . إن ذلك لن يُتعبني .
لقد احسنتُ صنعاً ببعيئك لترى رجلاً في الزرع الأخير . فمن الجميل ان يشهد
هذه اللحظات بعضُ الشهود . ان لكل منا اطواره القريبة ؛ فانا أودّ لو اعيش
حتى يرتفع الضحى ، ولكنني أعلم أن الاجل لن يمتدّ في اكثر من ثلاث ساعات
على وجه التكرير . وعندئذ سوف يهبط الظلام . ولكن ايتّ بأس في ذلك ! إن
الانتهاء مسألة هيّنة . والمروء لا يحتاج في هذا الى صباح . ليكن الامر كذلك .
سوف أموت في ضوء النجوم . »

والنفت الرجل المعجوز الى الراعي الحدث :

« اذهب الى الفراش ايها الغلام الصغير . لقد سهرت الليلة البارحة . انت

منعّب . »

ودخل الغلام الكوخ .

وانتبعهُ الرجل المعجوز نظرةً و اضاف وكأنه يخاطب نفسه : « فيها هو ناظم ،
سوف أسلم الروح . وهكذا يكون في ميسور الرقادين ان يتجاوزا بحجارة
حسنة . »

ولم يغلب التأثر على الاسقف بقدر ما كان منتظراً . فهو ما كان يعتقد بأن
في ميسور المروء ان يتروح عقب الله بالموت على هذه الشاكلة . والحق ان علينا
ان نقول كل شيء ، فالتناقضات الصغيرة التي تتردّي فيها القلوب الكبيرة يجب
ان يُنصّ عليها . ومن هنا يتعيّن علينا ان نذكر انه هو الذي طالما ضحكك
ضحكاً قليلاً من لقب « صاحب العظمة » أصيب بعض الشيء بصدمة حين لم
يُدعَ موسيبيور او صاحب السيادة ، وكان على وشك ان يُغري بالردة فيخاطب
ذلك الرجل المعجوز بقوله : « ايها المواطن ! » لقد استشعر رغبة في اصطناع تلك
الدالة الفظة الشكّة المألوفة عند الاطباء والكهنة ، والتي لم يتعوّدها هو . فقد
سبق لهذا الرجل ، على اية حال - هذا العضو القديم في « المؤتمر الوطني » ، هذا

النائب عن الشعب - أن كان قوة على هذه الأرض . ولعلها أول مرة استشعر الاسقف فيها نزعة الى ان يكون قاسياً .

ومع ذلك فقد عامله عضو المؤتمر الوطني « في احترام ومودة محتشمة ربما كان في ميسور المرء ان يلمح فيها تلك الوداعة التي تليق بمن كان على مثل هذا القرب من توسد التراب .

اما الأسقف فلم يستطع - برغم احترامه على العموم من سلطات الفضول الذي كان في اعتقاده محاذياً للعدوان - ان يجتنب مراقبة عضو المؤتمر الوطني « في انتباه كان ضميره خليقاً بأن يؤنبه عليه - بوصفه غير منبثق عن العطف والمشاركة الوجدانية - لو تكشف عن مثله نحو ايما رجل آخر . بيد انه كانت ينظر الى عضو في « المؤتمر الوطني » نظرتة الى خارج على القانون ، حتى على قانون المحبة .

كان ج . . . برباطة جأشه ، وجلسه التي توسك ان تكون منتصبه ، وصوته المتهدد ، واحداً من اوائك المعترين ذوي الوجوه النسيه ، البالغين سن الثمانين ، والمثيرين دهش علماء الفيزيولوجيا ، والواقع ان الثورة قد انجبت كثيراً من هؤلاء الرجال المتكافئين وتلك الحفبة . إن المرء ليحسّ ههنا انه امام رجل تمرس بالتجاوب . لقد احتفظ بمظاهر الصعّة كلها ، رغم انه أمسى من الموت قاب قوسين أو ادنى . ولقد بدت نظراته المشرقة ، ولهجته الحازمة ، وحركات كتفيه القوية وكأنها تكاد تبليبل الموت وتحيره . والحق ان عزرائيل ، ملاك الموت عند المسلمين ، كان خليقاً بأن ينكص على عقبيه ظاناً انه قد أخطأ الباب . لقد بدا ج . . . وكأنما يموت لانه اراد ان يموت . كان ثمة حربة في نزعه الاخير . كانت ساقاه وحدهما مشلولتين . لقد تشبث به الظلمات من هناك . كانت قدماه ميتتين باردتين ، ولكن رأسه عاش بقوة الحياة بكاملها ، وبدأ مشرقاً يحف به النور . لقد بدا ج . . . في تلك اللحظة المهيبة اشبه شيء بذلك الملك الذي زحمت الحكاية الشرقية ان نصفه الاعلى كان من لحم ، ونصفه الادنى كان من رخام . وكان ثمة حجر ، فجلس عليه الاسقف . وكان استهلال الحطاب فجائياً ومن

غير ما مقدمة .

قال الاسقف في جرس مؤنب : « إني اهتاك . انت على الاقل لم توافق على إعدام الملك . »

ولم يبدُ ان عضو « المؤتمر الوطني » قد لاحظ التوكيد المبرر الكامن في كلمتي « على الاقل » . فأجاب ، وقد فارق الابتسام كله وجهه :
« لا تهني اكثر مما ينبغي ، يا سيدي . لقد أعطيت صوتي لتعطيم الطاغية . »

كانت هي لهجة الصرامة تواجه لهجة القسرة .
وسأله الاسقف : « ماذا تعني ؟ »

« اريد ان اقول ان للانسان طاغية ، هو الجهل . لقد أعطيت صوتي لاقضاء على هذا الطاغية . لقد واد هذا الطاغية الملكية ، وهي السلطة المنبثقة من الزيف في حين ان العلم هو السلطة المنبثقة من الحقيقة . ينبغي ان لا يحكم إلا بسلطان العلم . »

« والضمير . » كذلك اصاف الاسقف .

« لا فرق . إن الضمير هو العلم القطري الذي في ذات نفوسنا . »
وأصمى مونسبور وبينفينو ، دهشاً بعض الشيء ، لهذه اللغة التي لم يسمع مثلها من قبل .

ونابح عضو « المؤتمر الوطني » كلامه :

« في ما يتعلق بلويس السادس عشر : لقد قلت ' لا ' . انا لا اعتقد ان لي الحق في ان اقتل إنساناً ؛ ولكنني اشعر ان من الواجب عليّ ان استأصل الشر .
لقد أعطيت صوتي لأسقاط الطاغية . يعني لانقاذ المرأة من البغاء ، والرجل من العبودية ، والطفل من الجهل . لقد أعطيت صوتي لهذا ، حين أعطيته للجمهورية .
لقد صوتت للمساواة ، للوفاق ، للنور . لقد ساعدت على إسقاط الاحقاد والاختفاء . إن انهيار الاختفاء والاحقاد يبعث النور . لقد قرأنا دعائم العالم القديم ؛ حتى اذا انقلب ذلك العالم ، وهو إناؤه من الشقاء ، على الجنس البشري ،

غدا قارورة من الابتهاج . »

فقال الاسقف : « إنه ابتهاج مشوب ، غير صاف . »

- « في استطاعتك ان تقول : ابتهاج كدر . والان ، بعد عودة الماضي المشؤومة التي ندعوها ١٨١٤ * ولى الابتهاج . وأسفاه ! انا اقر بان العمل كان منقوصاً . لقد هدمنا النظام القديم في الاعمال ، ولكننا لم نستطع ان نقضي عليه قضاء كاملاً في الافكار . إن تخطيم الفساد وحده لا يكفي ؛ يتعين علينا ان نغير العادات . لقد ذهبت الطاحونة الهوائية ، ولكن الريح ما تزال هناك . »

- « لقد هدمتم . إن المدم قد يكون مفيداً ، ولكنني لا أثق بهدم يمازجه الغضب . »

- « إن للعدالة غضبها ، يا سيدي الاسقف . وغضب العدالة عامل من عوامل التقدم . وعلى الرغم من جميع المزاغم فإن الثورة الفرنسية هي اعظم خطوة خطاها الجنس البشري ، في ميدان التقدم ، منذ مجيء المسيح . قد تكون غير كاملة ، ولكنها سامية رفيعة الذرى . لقد حلت جميع روابط المجتمع السرية . لقد رقت جميع القلوب . لقد سكنت ، وهدأت ، وأناوت . لقد جعلت امواج المدنية تجري على وجه الارض . لقد كانت طيبة . الثورة الفرنسية ... إنها تكريس الانسانية . »

ولم يستطع الاسقف إلا ان يتم : « أجل ، ٩٣ ! » **

فرفع عضو « المؤتمر الوطني » نفسه ، في كرسيه ، بجلال يكاد يكون فاجعاً ، وصاح على قدر ما يستطيع محتضراً ان يصيح :

- « آه ، لقد وصلت ! عام ٩٣ ! لقد كنت اتوقع ذلك . سحابة تشكلت طوال الف وخمسة سنة ، وعند نهاية تلك القرون الخمسة عشر انفجرت . وإنك

* هو العام الذي شهد سقوط نابوليون ونفيه الى جزيرة ألبا (٢٠ نيسان ١٨١٤)

** يقصد عام ١٧٩٣ الذي زرعت فيه فرنسة الجمهورية تحت وطأة « الهول » Terreur ابتداء من سقوط الجيرونديين (٣١ نوار ١٧٩٣) الى سقوط روبسبير (٢٧ ثوز ١٧٩٤) وقد تم بالبنود المطلق الذي تم للجنة السلامة العمومية في باريس ، ونشر « قانون المشوهين » ، وإعدام المواطنين بأعداد كبيرة .

تدنين الصاعقة . »

واستشعر الأسقف ، وربما من غير ان يعترف بذلك ، أن شيئاً في ذات نفسه قد أودى . ولكنه تقبل الامر في صبر وأجاب :

- « ان القاضي يتكلم بلسان العدالة ؛ أما الكاهن فيتكلم بلسان الرحمة ، التي لا تعدو ان تكون عدالة أسمى وأرفع . إن الصاعقة ينبغي أن لا تخطيء . »
قال هذا ثم اضاف محققاً الى عضو « المؤتمر الوطني » :

- « ولويس السابع عشر ؟ »

فبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده وأمسك بذراع الاسقف .

- « لويس السابع عشر . دعنا نرى ! على من تبكي ؟ على الطفل البريء ؟
ليكن ذلك اذن . انا ابكي معك . على الطفل الملوكي ؟ انا اطلب مهلة للتفكير .
ذلك بأنني اعتقد ان اخا كارنوش * ، وهو طفل بريء ، علق بحبل وُضع تحت
ذراعيه في ساحة « غريف » حتى مات ، وكل جريمته انه اخو كارنوش ، ليس اقل
اثارة للشجن من حفيد لويس الخامس عشر ، وهو طفل بريء قُتل في برج
« تامل » وكل جريمته انه حفيد لويس الخامس عشر . »

فقال الاسقف : « انا اكره هذا الربط بين الاسماء ، يا سيدي . »

- « كارنوش أم لويس الخامس عشر ؟ على ايها المتعوض ؟ »

وران الصمت لحظة . وكاد الاسقف أن يندم على مجيئه . ومع ذلك ، فقد
استشعر ان عاطفة الشفقة قد اتيت فيه على نحو غامض لا سبيل الى تفسيره .
واردف عضو « المؤتمر الوطني » :

- « اوه ، يا سيدي الكاهن ! أنت لانتخب قسوة الحق ، ولكن المسيح أحبها .
لقد تناول سوطاً وطهر الهيكل . ولقد كان سوطه البارق ناطقاً خناً
بالحقائق ؛ وهو حين قال « دعوا الاولاد يأتون الي » لم يميز بين الاطفال . انه لم

* Cartouche زعيم عصاة من اللصوص ، ولد في باريس ، وأميت على دولاب التذويب في

ساحة غريف . (١٦٩٣ - ١٧٢١)

يتألم للجمع ما بين ابن باراباس * البكر وبين ابن هيرودس * * البكر . ان
البراءة هي تاجها عينه ، يا سيدي ، وليس البراءة الا ان تعمل حتى تعدو نبيلة !
انها فضيلة في الاسمال البالية بقدر ما هي فضيلة في الغلائل الموشاة بازهار
السوسن ! »

فقال الاسقف في جرس خفيض : « هذا صحيح . »
فتابع الرجل المعجوز : « اكرر . لقد ذكرت لويس السابع عشر . دعنا
نبكي معاً جميع الابرياء ، جميع الشهداء ، جميع الاطفال ، سواء منهم من كان
وضيعاً أو من كان رقيقاً . أنا واحد منهم . ولكن عندئذ ، كما سبق ان قلت
لك ، بتعين علينا ان نرجع الى ما قبل عام ٩٣ ، وبتعين على دموعنا ان تبدأ قبل
لويس السابع عشر . أنا مستعد لأن أبكي أولاد الملوك معك ، اذا بكيت معي
أبناء الشعب الصغار ! »

فقال الاسقف : « انا أبكيهم جميعاً . »
فصاح ج ... : « على قدم المساواة ! واذا رجعت كفة الميزان فليكن
بكاؤك في جانب الشعب . لأن أبناء الشعب قاسوا الآلام . منذ عهد أبعد
بكثير . »

وروان الصمت ، كرة اخرى ، ليقطعه آخر الامر عضو « المؤتمر الوطني » . لقد
رفع نفسه على احد مرافقيه ، وحصر جزءاً من خدته بين ابهامه وسبابته المثنية كما
يفعل المرء على نحو ميكانيكي حين يستجوب أو يحاكم ، ووجهه الخطاب الى الاسقف
في نظرة حافلة بطاقات الغزع الاخير كلها . وكاد كلامه ذاك ان يكون انفجاراً .
— « اجل يا سيدي ، لقد قاسى الشعب الآلام منذ عهد أبعد بكثير .
وليس هذا ، بعد ، هو كل شيء . لماذا جئت نتطقي وتحذثني عن لويس

* باراباس يهودي كان قد القى به في السجن ، حين سيق يسرع الى والي « اليهودية »
بيلاطس البنطي ، بتهمة القتل . حتى اذا خير بيلاطس اليهود ، لثابة الفصح ، بين اطلاق سراح
باراباس واطلاق سراح المسيح آثروا المجرم ، على البريء . ولا يزال الاوروبيون يقولون في
امثالهم الى اليوم : « فلان يفضل باراباس على يسوع . »
* * ملك « اليهودية » من عام ٣٩ الى عام ٤٠ ق . م .

السابع عشر ؟ انا لا أعرفك . منذ ان وفدت على هذا الاقليم وأنا أعيش وحيداً ضمن هذه الجدران ، غير منطلق الى ما وراءها البتة ، غير مشاهد احداً غير هذا الطفل الذي يساعدني . صحيح أن اسمك قد انتهى اليّ على نحوٍ مختلطٍ غامض ، وان يكن ، كما ينبغي ان أقول ، محدوداً بعض الشيء ، ولكن هذا لا يغير من الامر شيئاً . ان للمهرة من الناس اساليب كثيرة لمخادعة هذا الشعب البسيط الطيب . فانا ، مثلاً ، لم أسمع بجلبة مركبتك . ولا ريب في انك قد غادرتها خلف الغابة ، هناك عند مفترق الطريق . لقد قلت لي انك كنت اسقي ، ولكن هذا لا يعطيني اياً فكرة عن شخصيتك الحقيقية . وعلى اية حال ، فانا اكرر سؤالي : من أنت ؟ انت اسقف ، أمير من امراء الكنيسة ، واحد من اولئك الرجال الثقيلين بالذهب ، وأشعرة الشرف ، * والثروة ، الفاترين بدخل ضخمة - دار أسقفية د ، خمسة عشر الف فرنك ثابتة ، وعشرة آلاف فرنك عارضة ، تبلغ في مجموعها خمسة وعشرين الف فرنك - واحد من اولئك الرجال الذين ينعمون بمطابخ ، وبخدم وأتباع ، والذين يولون الولاثم الجيدة ، ويأكلون دجاج الماء يوم الجمعة ، والذين يتبخثون في مركباتهم المزخرفة ، كالطواويس ، بتقديم الخدم من أمام ، ويتبهم الخدم من وراء ، والذين يسكنون القصور ، ويتطلقون في العربات باسم يسوع المسيح الذي كان يمشي حافياً ! أنت كبر من الاحبار . عائدات سنوية ، وقصور ، وجياد ، وخدم ، وموائد شهية ، وجميع ملذات الحياة الحسية - كل ذلك تملكه كما يملكه غيرك من الناس ، وكل ذلك تستمتع به كما يستمتع به غيرك من الناس . حسن جداً ، ولكن هذا ينطق باكثر مما ينبغي ، أو بـ اهر دون الكفاية . انه لا يلقي ضوءاً على قيمتك الذاتية والجوهرية ، انت الذي لا تستبعد ان تكون قد جئت الى هنا بدعوى تزويدي بالحكمة . مع من أتحدث ؟ من انت ؟

* جمع شمار .

وحنى الاسقف رأسه وأجاب : *Vermas sumi* .

فغمغم عضو المؤتمر الوطني : « دودة ارض في عربة ! »

لقد جاء دور الرجل العجوز في الصلّاف ، ودور الاسقف في التواضع .

واجاب الاسقف في دمائه :

« ليكون ذلك ياسيدي . ولكن اشرح لي كيف نستطيع عربتي الواقعة

على بضع خطرات وراء الاشجار ، ومائتني الحافلة ، ودجاج الماء الذي

أطعمته يوم الجمعة ، ودخلي البالغ خمسة وعشرين الف ليرة ، وقصري ،

وخدي - كيف يستطيع هذا كله أن يقيم الدليل على أن الشفقة ليست فضيلة ،

وأن الحلم ليس واجباً ، وإن عام ٩٣ لم يكن خلواً من الرحمة ؟ »

وأمر عضو المؤتمر الوطني يده عبر جبينه ، وكأنه يطرد سحابة .

وقال : « قبل ان اجيبك ، ألتمس منك العفو . لقد ارتكبت خطأ ، يا

سيدي . أنت في منزلي ، أنت ضيفي . ان لك عليّ حق اللطف والبشاشة . إنك

تناقش آرائي ، فمن الخير ان اقصر نفسي على دحض حججك . إن ثروتك

ومناورك هي أشياء تقوّي مركزي في مناظرتك ، ولكن حسن الذوق يقضي

بأن لا أفيد منها . انا اعدك بأن لا اصطنعها كرة اخرى . »

فقال الاسقف : « أشكرك . »

وتابع ج : « لنعد الى الشرح الذي سألتني إياه . اين كنا ؟ ما الذي

كنت تقوله لي ؟ ان عام ٩٣ كان خلواً من الرحمة ؟ »

فقال الاسقف : « اجل ، خلواً من الرحمة . ما قولك في مارا *** يصفق لدى

المفصلة ؟ »

— « وما قولك في بوسوويه *** 'ينشد نسيحة الشكر فوق مجازر

» تعبير لاتيني مناه : أنا دودة .

*** Marat احد زعماء الثورة الفرنسية . كان عضواً في « المؤتمر الوطني » شديد الوطأة على

الجيرونديين ، وعلى الملك لويس السادس عشر يوم محاكمته . مات قتلاً بطلقة سددها اليه شارلوت

كورداي . (١٧٤٣ - ١٧٩٣)

*** Bossuet اسقف فرنسي اشتهر بمواقفه التي تعتبر آية في البلاغة . (١٦٢٧ - ١٧٠٤)

كان الجواب قاسياً ولكنه اصاب هدفه بثقل مضاعف الخنجر . وارتعد الاسقف ، ولم يجر جواباً . ولكن صدّمة الحديث عن بوسوييه على هذه الشاكلة . والواقع ان لأكرم الناس او ثائهم التي يعبدونها ، وانهم يشعرون في بعض الاحيان ان قلة الاحترام التي يبديها المنطق نحو تلك الاصنام تكاد تحققهم حقاً .

وشرع عضو المؤتمر الوطني ، يلهث . كان 'بهر' النزع الذي يمتزج بالنفس الاخير قد جعل صوته متقطعاً خافتاً . ومع ذلك فقد كانت عيناه ما تزالان تؤذنان بصحور كامل . وتابع :

— « لنقل بضع كلمات اخرى في هذا الموضوع او ذاك — انا ارغب في ذلك . ففي خارج الثورة التي كانت ، اذا نظر اليها ككل ، توحيدها انسانياً ضخماً ، يعتبر عام ٩٣ ، وأسفاه ، هو الجواب الاخير . انت تعتبره خلواً من الرحمة ، ولكن ما قولك في الملكية كلها ، يا سيدي ؟ لقد كان كارييه ** قاطع طريق ، ولكن اي اسم تطلقه على مونتروفيل ؟ وكان فوكيه تينفيل *** صعلوكاً ، ولكن ما رأيك في لاموانيون بافيل ؟ **** وكانت مابار ***** مروعة ،

* لفظ يطلق على حركة الاضطهاد التي انزلت بروتستانت فرقة الجنوبية قبل براءة « ثانت » وبعدها ، والتي نظمتها فرسان الملك المرفوفون بالـ « دراغون » dragons ، ومعناها في الاصل التين . (١٦٨١ - ١٦٨٥)

** Carrier احد اعضاء « المؤتمر الوطني » . ارتكب فطائع مروعة في ثانت . وقد اعدم عام ١٧٩٤ .

*** Fouquier - Tinville هو النائب العام في المحكمة الثورية . وكان يزود القسلة ، في عهد الارهاب ، بيل من الضحايا لا ينضب . اعدم سنة ١٧٩٥ .

**** Lamoignon Baviile محافظ مونبيليه ، اشتهر بقسوته في اضطهاد البروتستانت (١٦٤٨ - ١٧٢٤)

***** Stanislas - Marie Maillard ثرة فرنسية شهيرة شاركت في الاستيلاء على الباستيل وفي مجازر ايلول . (١٧٦٣ - ١٧٩٤)

ولكن اي شيء تقوله في سولكس نافان * من فضلك ؟ وكان « الاب
دوشين » *** ضارياً ، ولكن اي صفة يمكن ان نخلعها على « الاب لوتيليه » ؟ ***
وكان جوردان قاطع الرؤوس *** غولاً ، ولكنه كان دون المراكز
دو لوقوا **** وحشية . ياسيدي ، ياسيدي ، أنا أرتي لما ري أنطوانيت ،
بوصفها كبيرة الدوقات وملكة ، ولكني أرتي ايضاً لتلك المرأة
الهورغونوتية ***** البائسة التي جردت من ثيابها حتى الحصر ، ياسيدي ، سنة
١٦٨٥ ، وفي عهد لويس الكبير ***** ، وشدت الى وند وقد حمل
رضيعها على مسافة منها ، وتفجع ثديها لبناً ، وتقطر قلبها أمى . حتى اذا
وقعت عينا الرضيع ، الجائع الشاحب ، على الثدي ، بكى بكاء شديداً . فقال
الجلاد للمرأة ، للأم المرضعة : « ارتدي عن دينك ! » تخيراً اياها بين موت طفلها
وموت ضميرها . ما قولك في هذا التعذيب التاتالي ***** يُنزل بأم ؟
ياسيدي ، لا ننس هذا : إن للثورة الفرنسية اسبابها . إن المستقبل سوف يغفر لها
غضبها . أما نتيجتها ، فهي العالم الافضل . ومن ضرباتها الأشد فظاعة تنبثق

* Saulx Tavannes مارشال لمرسة (١٥٠٩ - ١٥٧٣) وكان من منظمي
مذبحة القديس برتيلماوس الشهيرة والوحيد بها .

** Le Père Duchesne هو الاسم المستعار لـ « هير » احد زعماء الثورة الفرنسية
وكان يصدر بهذا الاسم صحيفة امتازت بنمائها الثال في . (١٧٥٧ - ١٧٩٤)
*** Le Tellier كاهن يسوعي كان آخر مرشد للويس الرابع عشر (١٦٤٨ -
١٧١٩) .

**** Jourdan Coupe - Tête احد ادهاني « البروفانس » البارزين . وقد أعدم
سنة ١٧٩٤ .

***** de Louvois سياسي فرنسي نظم جيش لويس الرابع عشر وانزل بالبروتستانت
الافطع الاضطهاد . (١٦٤١ - ١٦٩١)
***** يقصد بالهورغونوت Huguenote بروتستانت مرسة .

***** لويس الرابع عشر ، وقد حكم مرسة من سنة ١٦٤٣ الى سنة ١٧١٥
***** نسبة الى « قاتال » أو تانتالوس Tantalus ، وهو في الميثولوجيا الاغريقية
ملك فني ، ابن زيوس وابو « بيلوبس » و « نبوب » . وعقاباً له على امتثاله امرارزيوس
مخطئ حتى ذقه في الماء وقد لدت فوق رأسه النار البائسة ولكن كلاً من الماء والفاكهة كان يمر
منه كلما حاول ان يشوقه .

ملاطفة الجنس البشري . يجب ان اوجز . يجب ان اصمت . لقد صنعت لي
فرصة ملائمة لذلك . اني اموت . »
واذ كف الرجل العجوز عن النظر الى الاسقف ، أتم فكرته بهذه الكلمات
القليلة الهادئة :

« - أجل ، إن فظائع التقدم تدعى ثورات . حتى اذا انتهت ادركنا هذا :
أن الجنس البشري قد عومل في قوة ، ولكنه تقدم شوطاً
الى أمام . »

ولم يشك عضو المؤتمر الوطني في أنه ذلك حصون الاسقف الداخلية كلها ،
واحداً اثر واحد . بيد انه بقي ثمة حصن مفرد ؛ ومن هذا الحصن الذي كان
مصدر المقاومة الرئيسي عند هونسينيور بينفينو ، انطلقت هذه الكلمات التي
برزت فيها من جديد قوة الاستهلال كلها تقريباً :

« - يتمتع على التقدم ان يؤمن بالله . والخير لا يمكن ان ينهض به رجل
ملحد . إن الكافر قائد وديء للجنس البشري . »

ولم يجب يمثل الشعب العجوز . كان يرتعد . كان يرنو الى السماء . وشيثاً
بعد شيء تجمعت في عينه دمة . حتى اذا امتلأ الجفن تدرجت الدمعة على
خده الازرق الضارب الى السواد ، وقال في ما بينه وبين نفسه بصوت خفيض
يكاد يكون متلعججاً ، وقد ناهت عينه في الأعماق :

« - ايه أنت ! أيها المثل الأعلى ! أنت وحدك الموجود ! »

واستشعر الاسقف ضرباً من الانفعال الذي لا يُعبر عنه .

وبعد صمت قصير رفع الرجل العجوز احدى اصابعه الى السماء وقال :

« - اللانهاية موجودة . إنها هناك . واذا لم يكن للانهاية « انا » ، فعندئذ

تكون الـ « انا » تخفّفها ؛ وعندئذ لا تكون لانهاية . وبكلمة اخرى ، إنها لا

تكون موجودة . ولكنها موجودة . وإذن فإن لها « انا » . و « انا » اللانهاية

هذه هي الله . »

لقد نطق الرجل المحتضر بهذه الكلمات الاخيرة في صوت عالٍ ، وفي رعدة

الغيبوبة وكأنما كان يرى أحداً . حتى اذا فرغ من قولها اغتمضت عيناه . كانت الجهد قد أنكمه . وكان واضحاً أنه عاش في دقيقة واحدة تلك الساعات القليلة التي بقيت له . كان الكلام الذي نطق به قد قرّبه الى عالم الموت . لقد حانت اللحظة الاخيرة .

وادرِك الاسقف ذلك ؛ وزَحَمَتُهُ اللحظة . لقد أقبل الى هنا بوصفه كاهناً . وكان قد انتقل شيئاً بعد شيء من أقصى البرود الى أقصى الانفعال . ورنّا الى تلك العينين المغمضتين ، وأمسك بتلك اليد المنفضة التاجية وانحنى نحو الرجل المحتضر .

« هذه الساعة هي ساعة الله . ألا تظن أن من دواعي الاسف أن يُقدَّر لقائنا ان يكون عبثاً لا طائل تحته ؟ »

وفتح عضو « المزمّر الوطني » عينيه ككرة أخرى . كانت الرصانة قد انطبعت على بحياه حيث خيمت سحابة من قبل .

وقال في مهمل لعله نشأ عن كبرياه نفسه أكثر بما نشأ عن خوار في القوى :
« يا سيدي الاسقف ، لقد قضيت حياتي في التفكير ، والدرس ، والتأمل .

ولقد كنت في السنين من عمري حين دعيتي بلادي وأمرتني بان اشارك في شؤونها . ولقد امتلئت الأمر . كان ثمة مساوىء ، فحاربتها . وكان ثمة ضروب من الطغيان ، فدعمتها . وكان ثمة حقوق ومبادئ ، فأعلنيتها وصرتُ باعترادي بها . لقد غزيت الارض الفرنسية ، فدافعتُ عنها . لقد هددت فرنسا بالخطر ، فقدمتُ لها صدري . أنا لم اكن غنياً ؛ أنا فقير . لقد كنتُ واحداً من المهيمنين على مقاليد الدولة ، وكانت آقية المصرف مثقلة بالاموال بحيث تعين علينا ان ندعم الجدران وإلا سقطت تحت وطأة الذهب والفضة . كنت اتناول طعام الغداء في شارع دو لاربر سيك باثنين وعشرين « سو » * للوجبة الواحدة . لقد أغنتُ المظلومين ، وواسيتُ المعذّبين . لقد مزقتُ غطاء المذبح ، هذا صحيح ، ولكنني فعلتُ ذلك لكي أضمّد جراحات الوطن . لقد أيدتُ ابداً

* ال « سو » sou جزء من عشرين من الفرنك .

سير الجنس البشري نحو النور، وقاومت'، في بعض الاحيان، تقدماً لا ينطوي على رحمة. لقد أسبغت حمايتي، في بعض المناسبات، على اعدائي انفسهم، يعني على اصدقائك. وفي بيتيفهام من اعمال الفلاندر، في ذلك المكان عينه الذي نهض فيه قصر الملوك الميرفنجيين * الصيفي، يقوم دير الاوربانيين - دير القديس كلير في بوليو الذي أنقذته عام ١٧٩٣. لقد قمتُ بواجبي على قدر طاقتي وقدّر الخير الذي وفقت اليه. وبعد ذلك طوردت'، ولوحفت'، واضططبت'، وطمعن علي'، وهزري بي، وأهينت علي نحو علني، ولعنت، ونبتت. ومنذ سنوات عديدة، وبعد ان اشتعل رأسي شيباً، وانا احس بأن كثيراً من الناس يؤمنون بأن لهم الحق في احتقاري، وان الجماهير الفقيرة الجاهلة ترى في وجهي وجهاً أميناً، ومع ذلك فقد ارتضيت - غير مبغض انساناً ما - عزلة البغض. وها انا اذا الآن في السادسة والثمانين. اني على وشك ان أموت. فما الذي جئت تسألني اياه؟

فقال لاسقف: «جئت اسألك بركتك!»

وركع على ركبتيه.

وحين رفع الاسقف رأسه، كان وجه الرجل العجوز قد غدا جليلاً. لقد قضى نحبه.

وانقلب الاسقف الى داره مستغرقاً في التفكير، ف قضى الليل كله وهو يصلي. وفي اليوم التالي حاول بعض الفضوليين الجسورين ان يجدّوه حديث عضو «المؤتمر الوطني» ج... فاكتمى بأن أشار الى السماء.

ومنذ تلك اللحظة ضاعف حنانه ووجه الاخوي للمستضعفين والمعذبين.

كانت كل اشارة الى «ج... ذلك الوعد العجوز» تلقاه في خضم من القلق العجيب. وما كان في ميسور احد ان يقول ان صعود تلك الروح الى بارئها قبل روحه هو، وانعكاس ذلك الضمير العظيم على صميره هو، لم يكن لهما اثر في

* السلالة الميرفنجية Mérovingien هي اول سلالة مالكة حكمت في فرنسا، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة الى ملك المرعة ميرويه Mérovée (وقد حكم من عام ٤٤٨ الى عام ٤٥٨) وكان آخر ملوكها تشيلدريك الثالث الذي حلع عن العرش سنة ٧٥٢ للميلاد.

اقترابه من الكمال .

وكانت « الزيارة الرعائية » ، طبعاً ، مناسبة متلائمة مكنت الدسائس الصغار من النقد والتعريض .

« أبليق بأسقف ان يجلس الى جانب فراش رجلٍ مثل هذا ؟ انه ما كان ليتوقع أن يردّ ذلك الرجل الى الايمان ، طبعاً . ان جميع هؤلاء الثوريين ساقطون وقعوا في المهرطقة مرة ثانية . واذن ، فأنيّ فائدة في الذهاب الى هناك ؟ ايّ شيء كان ينبغي ان يراه هناك ؟ لا شك في انه كان شديد الفضول الى ان يرى كيف يتخطّف الشيطان روحاً من الارواح ! »

وذاث يوم وجهت اليه ارملةٌ موسرة من ذلك النوع الذي يظنّ في نفسه الظرفَ وخفة الروح ، هذه الدعاية : « إن الناس ليتساءلون ، متى ستعتمر سيادتكم قلنسوة حمراء ؟ » فأجاب الاسقف : « أوه ! أوه ! هذا لون رفيع . ومن حسن الطالع ان اولئك الذين يزددرونه في قلنسوة ، 'يجلّونه في قبة ! »

١١

تحفظ

'نخدع كثيراً اذا استأنهنا من هذا ان مونسينيور بينفينو كان « فيلسوفاً أسقفاً » أو « وطنياً كاهناً » . إن اجتماعه بعضو « المؤتمر الوطني » - الذي كان ضرباً من الشراكة الروحية تقريباً - تركه في حال من الذهول زادته رقة وحباً للخير . هذا كل ما هنالك .

وعلى الرغم من ان مونسينيور بينفينو كان أياً شيء إلا رجلاً من رجال السياسة ، فلعل من الخير هنا ان نحدد ، في ايجاز كثير ، موقفه من احداث

« كانت القلنسوة الحمراء هي عطاء الرأس الذي اعتمر به أنصار النورة الفرنسية الملقدمون ، وكانت تعتبر رمز الحرية .

العصر، اذا كان لنا ان نفترض ان مونسنبور بينفينو فكر في ايام يوم من الايام بأن يكون له موقف من تلك الاحداث .

من اجل ذلك يتعين علينا ان نرجع بضع سنوات الى الوراء .

لم تنقض فترة قصيرة على رفع مسيو ميريل الى مقام الاسقفية حتى جعله الامبراطور باروناً من بارونات الامبراطورية، كما جعل عدداً آخر من الاساقفة في الوقت نفسه . وتم القاء القبض على البابا ، كما هو معروف ، ليلة السادس من تموز سنة ١٨٠٩ . ولهذه المناسبة دعا نابوليون مسيو ميريل الى مجمع اساقفة فرنسة وايطالية في باريس ، وعقد المجمع في كاندراثة نوتودام ، وافتتحت اعماله في الخامس عشر من حزيران سنة ١٨١١ برئاسة الكاردينال فيش . كان مسيو ميريل واحداً من الاساقفة الحمة والتسعين الذين شهدوا المجمع . ولكنه لم يشارك إلا في جلسة واحدة ، وفي ثلاثة او اربعة من الاجتماعات الخاصة . كان اسقف ابرشية جبلية ، وكان يجيأ على مقربة من الطبيعة في غمرة الحشوة والأملق . من اجل ذلك بدا وكأنه يحمل بين هاته الشخصيات الساطعة افكاراً غيرت حرارة المجمع . فما كان منه الا ان انقلب وشكراً الى د وحين مثل عن هذه العودة المفاجئة أجاب :

« لقد ازعجتهم . ان الهواء الطلق دخل الى مجعهم حين دخلت . لقد تركت فيهم الاثر نفسه الذي يتركه الباب المنفوح . »
وفي مرة اخرى قال :

« ماذا تريدون ؟ هؤلاء الاساقفة امراء . أما انا فلست غير اسقف ويغي

فغير . »

والحق انهم كانوا يبغضونه . وكان من بين الاسباب الغريبة التي حملتهم على ذلك أنه لم يتالك عن ان يقول ذات ليلة لدعي فيها الى منزل احد زملائه من أولي لمكانة العليا :

« يا لها من ساعات جدارية رائعة ! يا له من سجاد رائع ! يا لها من ثياب خدم رائعة ! ينبغي ان يكون هذا كله أنقى للرفه والسعادة ! اوه ! ما أشد نفوري

من ان املك هذه الكماليات كلها ، التي تصرخ ابدآ في اذنيّ : إن هناك انساناً
يجوعون ! إن هناك انساناً يرتجفون من البرد ! إن هناك فقراء ! إن هناك
فقراء ! ،

وينبغي ان نقول ، بالمناسبة ، ان بعض الترف ليس بغضاً حقيقياً . إنه ينطوي
على كراهية للفنون . ومع ذلك فالترف جريمة عند رجال الدين ، خارج طقوسهم
واحترافاتهم . إنه يبدو وكأننا يكشف عن عادات ليست خيرية حقاً . إن
الكاهن الموسر هو في ذاته تناقض . ان عليه ان يظل قريباً من الفقير ؛ ومن ذا
الذي يستطيع ان يحبك آثاء الليل واطراف النهار بضروب الشقاء كلها ، وضروب
البؤس كلها ، وضروب الحرمان كلها من غير ان يعلق به قليل من ذلك الفقر
المقدس ، وكأنه غبار العمل ؟ هل تستطيع ان تتخيل رجلاً يجلس الى النار ثم لا
يُحسّ بالدفء ؟ هل تستطيع ان تتخيل عاملاً يشتغل على نحو موصول امام قرن
من الافران ولم تحترق شعرة من شعره ، او يسود ظفر من اظفاره ، او تتدحرج
على خده قطرة من عرق ، أو تعمل وجهه ذرة من رماد ؟ ان اول البراهين على
تمتع كاهن ما ، او اسقف ما على وجه الخصوص ، بالحب ، هو الفقر .
وليس من شك في ان اسقف د... . كل من ينظر الى الاشياء على
هذا الضوء .

بيد أنه يتعين علينا ان لا نحسب ان الاسقف شارك في المسائل الدقيقة التي
يمكن ان تدعى «فكرات العصر» . إنه ما كان ليتدخل الا قليلاً بمنازعات
الساعة اللاهوتية ؛ وكان يلتزم الصمت في كل مسألة تنتهي فيها الدولة والكنيسة
الى تسوية . أما اذا ألححت عليه الحاجةً شديداً فعندئذ كنت تجدده ايطالياً *
اكثر منه غليكانياً **

وإذ كنا نرسم هنا صورةً فنية لشخص ، وليس في نيتنا أن نحفي شيئاً ما ،
فنحن مضطرون الى ان نضيف أنه كان بارداً نحو نابليون يوم جنح نجهه الى

* المراد بالاطالي ما الذي يدين بالولاء للبابوية .

** Gallican وهو من ينادي بالولاء لكنيسة فرنة .

الافول . وابتداء من عام ١٨١٣ أخذ يشايع جميع المظاهرات العدائية او يصفق لها . لقد رفض ان يراه في طريق عودته من جزيرة ألبا * ، واحجم عن أن يصدر الأمر في ابرشته بإقامة الصلوات العامة من أجل الامبراطور خلال «الايام المنة» **

وكان له الى جانب أخيه الآنة باتيستين أخوان اثنان ، أحدهما جنرال ، والآخر محافظ . وكان يكتب الى كل منهما بين الفينة والفينة . لقد استشر شيئاً من القصور نحو الاول ، لأنه كان يتولى قيادة قوة من الجيش في بروفانس ، يوم اقتحم نابوليون البر الفرنسي عند «كان» ، فما كان من الجنرال إلا ان وضع نفسه على رأس الف ومئتي مقاتل وتعقب الامبراطور وكأنه راغب في ان يفسح له في مجال الحرب . أما رسائله الى اخيه الآخر ، المحافظ السابق ، وكان رجلاً شجاعاً فاضلاً يحيا بعزل عن الناس في شارع كاسيت بباريس ، فكانت أحفل بالموودة والعاطفة .

وحق مونسينيور بينفينو غلبت عليه آنذاك النزعة الحزبية ، وكانت له أحزانه وغيمه . لقد طاف ظلُّ أهواء الساعة وشهواتها بهذا القلب الكبير الرقيق المنصرف الى الاشياء الازلية . وليس من ريب في ان رجلاً مثل هذا خليقٌ به ان يتجرّد عن الآراء السياسية . ولا يُسيئ أحدٌ فكرتنا . فنحن لا نخلط ما بين هذا الذي يدعى «آراء سياسية» وبين الطموح العارم الى التقدم ، والامانة الوطني الديمقراطي الانساني الرفيع الذي ينبغي ان يكون في ايماننا هذه أس كل ذكاء سخي . ومن غير ان نتعمق مسائل لائس موضوع هذا الكتاب إلا متّاداوراً نقول بكل بساطة : كان خيراً لمونسينيور بينفينو لو

* هي جزيرة ايطالية صغيرة في البحر الابيض المتوسط ، وتقع شرقي كورسيكا . وكان نابوليون قد نفى اليها عام ١٨١٢

** Les Cent jours هي الفترة الممتدة ما بين ٢٠ آذار سنة ١٨١٥ ، يوم رجع نابوليون الى باريس ، و ٢٢ حزيران من العام نفسه يوم تنازل عن العرش للمرة الثانية . وقد تميزت هذه الفترة بالدسور الجديد ذي النزعات المتحررة الذي اعلنه نابوليون في مستهلها ، وبحملة باجيك . وهزيمة وانزله .

انه لم يكن ملكي الهوى ، ولو ان عينيه لم تنصرفا قط لحظة واحدة عن ذلك التأمل الساجي حيث نرى في وضوح ، فوق او هام هذا العالم واحقاده ، فوق مدّة الشؤن البشرية وجزرها ، هذه الكواكب الثلاثة الصافية ، المرصلة إشعاعاتها على نحو موصول : الحق ، والعدل ، والمحبة .

ومع أننا نقرّ بأن الله لم يخلق مونسنيور بينفينو لمهمة سياسية فقد كانت خليقاً بنا ان نفهم ونكبر احتجاجاً يُطلقه باسم الحق والحرية ، ومعارضة ضاربة ومقاومة عادلة وخطرة يوجهها الى نابوليون بوم كان كلي القدرة . ولكنّ ما يرضينا إزاء أولئك الراغبين سلّم الهد يكون أقلّ إرضاءً لنا إزاء أولئك الساقطين عن تلك السلّم . إننا لا نعجب بالقتال حين لا يكون ثمة خطر ، وفي مختلف الاحوال فإن مقاتلي الساعة الاولى لهم وحدهم الحق في ان يكونوا هم المهلكين في الساعة الاخيرة . ومن لم يكن منيهاً ضارباً اثناء الرضاء يجب ان يصمت عند الانهيار . إن ذلك الذي يشجب النصر في إبانته له وحده الحق في ان يعلن عدالة السقوط . أما نحن فحين تدخلت العناية الالهية وضربت ضربتها فقد احببنا عن القيام بأي عمل . إن سنة ١٨١٢ بدأت في تجريدنا من السلاح . وفي سنة ١٨١٣ لم يكن قطع جبل السكوت الجبان من قبل تلك الهيئة التشريعية الصموت التي شدّت الكوارث من عزائنها - لم يكن ذلك الصنيع جديراً بشيء غير السخط ، وكان من الائم التصفيق له . وفي سنة ١٨١٤ ، أمام هؤلاء المارشالات الحونة ، وامام مجلس الشيوخ داك المتنقل من خسارة الى خسارة ، لاعناً بعد أن قدّس وأتّه ، وامام عابدي الاصنام هؤلاء ، المرتدين على اعقابهم ، الباصقين على آلهتهم ، كان واجباً على المرء أن يشج بوجهه في استهزاز . وفي سنة ١٨١٥ حين كان الجوّ عابقاً بالنكبات النهائية ، وحين كانت فرسة نستشعر قشعريرة اقترابها المشؤوم ، وحين كان في امكان المرء ان يرى على نحو ضبابي ساحة واترلو تنبسط امام نابوليون ، فإن ما وجهه الجيش والتعب من دعاء مورع الى من اصدر القدر حكمه عليه لم يكن ينطوي على شيء مصحك . ومع إبداء مختلف ضروب التحفظات في ما يتصل بالطاغية ، فلعلّ قلباً مثل قلب استيف د ...

ما كان ينبغي له أن ينكر كل ما هو جليل ومؤثر - عند شفير الهاوية - في
العناق الأخير بين أمة عظيمة ورجل عظيم .

وعلى الجملة ، فقد كان ابدآ وفي كل شيء ، منصفاً ، صادقاً ، عادلاً ، ذكياً ،
متواضعاً ، فاضلاً ، جواداً ، عطوفاً ، وما العطف غير ضرب من الجود . كان
كاهناً ، وحكياً ، ورجلاً . وهنا ينمّين علينا ان نقول إنه حتى في تلك الآراء
السياسية ، التي انتقدناها آنفاً والتي نجد أنفسنا عرضةً لأن ندينها في عنف
تقريباً ، كان متسامحاً سهل الخليفة ، ولعل حظه من هاتين الحصلتين ان يكون
اوفر من حظنا نحن ، الذين نتحدث الآن . كان بواب « القاعة البلدية » قد أقيم
هناك بأمر من الامبراطور . كان ملازماً قديماً في « الحرس القديم » ، وحاملاً
وسام جوقه الشرف لابلان في موقعة اوسترليتز * بلاءً حسناً ، وبوناوبرتيا صيباً
كائنسر . وكانت تندّ من هذا الرجل المسكين في بعض الاحيان ، من غير ما
تفكير ، أقوال كان القانون يعتبرها في ذلك الحين تحريضاً على الفتنة والعصيان .
ومنذ ان غاب وجه الامبراطور الجانبي عن وسام جوقه الشرف كفّ عن تزيين
صدره بذلك الوسام لكي لا يُضطر ، كما قال ، ان يحمل صليبه . وبدافع من
ولائه ازال هو نفسه الرسم الامبراطوري عن الصليب الذي منحه نابوليون إله .
ولقد احدث ذلك فجوةً في الوسام ، ولكنه أبى ان يضع شيئاً مكانه . كان
يقول : « انا اؤثر ان أموت على ان أحمل الضئاع الثلاث فوق قلبي » . وكان
يسخر دائماً ، وعلى نحو علني ، من لويس الثامن عشر . فهو يقول : « ذلك
العجوز المبتل بداء المفاصل وساقبته الانكليزيتين ! دعه يذهب الى بروسيه
يلعبته المشبهة نبات حية التيس ! » - بعيداً بأن يجمع في السخرية الواحدة بين
الشيئين اللذين كانا أبغض الاشياء إلى نفسه : بروسيه وانكلترة . ولقد أكثر من
مثل هذا الكلام حتى خسر وظيفته . فاذا هو جائع الى الحبز ، طريق الشارع

* Austerlitz الموقعة الشهيرة التي دارت رحاها في هذه المدينة من مدن مورافيا (٢ كانون

الاول سنة ١٨٠٥) والتي هزم فيها نابوليون جيوش السويين والروس . وقد دعت معركة
اوسترليتز « معركة الإفطرة الثلاثة » لان الإفطرة فرقة ، وانمسا ، والروسيا اشتركوا فيها
جياً .

مع زوجته وأولاده . فما كان من الاسقف إلا ان دعاه ، فوجده بعض الشيء ، وجعله بواباً للكاتدرائية .

لقد كان مسيو ميريل في الابرشية هو الراعي الحق . كان صديقاً للجميع ، وفي مدى تسع سنوات ، وبفضل سلسلة موصولة من العمل الصالح والخلق الرفيع ، وفق مونسنيور بينفينو الى ان يملأ مدينة د . . . بضرب من التوفيق البنوي الرقيق . حتى موقفه من نابوليون لقي قبولاً ومعدرة لدى الناس ، وهم قطع طيب مستضعف يعبد امبراطوره ، ولكنه يحب أسقفه .

١٢

عزلة مونسنيور بينفينو

يكاد يجتمع حول أيما اسقف جمهور من الرهبان الشباب كما تجتمع حول أيما جنرال كوكبة من الضباط الشباب . إنهم أولئك الذين دعاهم القديس فرانسوا دو سال * الفاتح ، في مكان ما ، والكهنة الأغرار . ذلك بأن ثمة في كل مهنة أو سلك فئة من الطامحين تحوم حول أولئك الذين انتموا الى القمة . فليس من سلطة إلا ولها بطانتها ، وليس من ثروة إلا ولها بلاطها . والباحثون عن استقلال يسبحون في ذلك الحاضر الزاهي . ولكل عاصمة ، شأن كل فئات عسكري كبير ، أركان حربها . كذلك لكل اسقف ذي سلطان عسكري من طلاب المعاهد الكهنوتية : كروبيون ** يطوفون هنا وهناك ويقرّون النظام في القصر الاسقفي ، ويجرسون ابتسامة صاحب السيادة . إن الفوز برضا الاسقف قدّم في الركاب الموصل الى مرتبة نائب شماس . وان على

* de Sales اسقف جنيف (١٥٦٧ - ١٦٢٢) ومؤلف « مقدمة الى حياة القوى » و « رسالة في الحب الالهي » . وقد اسس مع القديس جان دو شالون « رهبانية زيارة العذراء » .

** الكروبيون سادة الملائكة او المقربون منهم . واحدم كروب .

المراء ان يشق طريقه بنفسه . إن الدعوة الرسولية لا تتخف أبداً بتصب الكاهن القانوني .

وكما ان في بعض المواطن الاخرى أعياناً أولي سلطان ، كذلك نجد في الكنيسة مطارين ذوي تيجان . إنهم الاساقفة المتأنقون المقبولون على الدنيا ، الاغنياء ذوو الموارد ، اللبقون ، الفاترون برضا المجتمع الراقي ، الذين يعرفون كيف يصدون - من غير شك - ولكنهم يعرفون ايضاً كيف يسألون الناس ان يسدوا اليهم يداً ؛ الجاعلون من أنفسهم بلا تردد قنطرة التقديم في أبرشية بكاملها ، وصلة الوصل بين الموهف * والديبلوماسية . إنهم رؤساء أديار اكثر منهم كهناً ، وأخبار اكثر منهم اساقفة . ومعيد هو الشخص الذي يوفق الى الاقتراب نحوهم . وبوصفهم رجالاً ذوي سلطان ، فأنهم يطرون أهلهم ودوي الخطوة عندهم وجميع اولئك الشبان الذين يوقعون الرضا في نفوسهم أبرشيات بدينة ، ورواتب ، ورثاسات شمامسة ، ومهام كاتدرائية ، وكلها خطوات نحو المراتب الاسقفية . وهم اذ يتقدمون في معارج الرقي بقدموت الكواكب الدائرة في فلكهم ؛ ذلك نظام شمسي كامل بمعن في الدوران . إن اشعة مجدهم تصبغ حاشيتهم بلون الارجوان . وإن رخاءهم يوزع فئاته على القائمين خلف الكواليس ، على شكل ترقيات صغيرة مستلحمة . وكلما كانت أبرشية الولي اعظم كانت وظيفة المس المسندة الى واحد من المقرئين اعظم وأخطر . واخيراً فهناك رومة . ذلك بأن الاسقف الذي يعرف كيف يصبح رئيس اساقفة ، ورئيس الاساقفة الذي يعرف كيف يصبح كاودينالاً يستطيع ان يقوداك الى مجمع الكرادلة . ** إنك تدخل الى الرونة ، *** وترتدي الباليوم ، **** وإذا بك في عداد النظارة ، وإذا بك حاجباً من حجاب البابا ،

* الموهف (السكرتيا) الفرمة الخاصة بالاوني والانواب الكنيسة .

** الذي يتعهد لانتخاب البابا .

*** Rota أو ل Sacra Romana Rota (الرونة الرومانية القدسة) وهي محكمة

الكبرى في رومة .

**** الباليوم طبدان الاساقفة .

وإذا بك مونسنيور ؛ وليس بين « الياذة » و « النياقة » * غير خطوة واحدة ،
وليس بين « النياقة » و « القداسة » ** غير دخان اقتراع . إن كل قلنسوة
تستطيع ان تحلم بتاج البابوية . والكاهن هو الرجل الوحيد ، في إيماننا هذه ،
القادر على ان يصبح بصورة نظامية ملكاً . واي ملك ! الملك الاعظم ! وإذا
فأعظم بالمعاهد الاكبر كية مفارس للطامح . فما أكثر غلمان الكورس الجبلين ،
وما أكثر الكهان الشباب الحاملين على رؤوسهم اناء ييوت *** الحافل باللبن !
ومن يدري ؟ فما أبسر ما يحتاجه الطموح خلف الحياة الرهبانية ، وقد يكون
ذلك عن حسن نية ، ويجدع نفسه معها تظاهر بالتقى والورع !

والحق ان مونسنيور بينفينيو ، المتواضع ، الفقير ، ذا المسالك الغريبة ، ما
كان ليعدّ من المطارين المتوجين . وإذا كان ذلك واضحاً من عدم تخلق الكهان
الشباب حوله . ولقد رأينا من قبل ان بضاعته لم تَرُج في باريس . ان ايما
مستقبل زاهر لم يفكر ذات يوم في ان يلحق نفسه بالاتصال بهذا المعجوز المتوحد .
ولم يكن ثمة طموح غص العود هو من الحماقة بحيث يلتمس النضج في ظله . كان

* « صاحب النياقة » هو لقب الكاردينال . والمراد انه ليس بين الاسقف
والكاردينال غير خطوة واحدة .

** « صاحب القداسة » هو لقب البابا .

*** Perrette هو الاسم الذي اطلقه لافوتتين على بطة مثله fable : « الخلافة
واناء اللبن . » التي قصت الى المدينة ، حاملة إناءها على رأسها وأنشأت تفكر
بشمن اللبن ، ولحلم بالثروة . وبأنها سوف تشتري مئة بيضة ، وحزيراً تريسه .
ثم يبيعه من جديد ، وتشتري بقرة . . . وفضاءً زلت بها القدم ، وُسُفح اللبن على
الارض ، وتبددت الاحلام . ولا يزال اسم « بيريت » الى اليوم علماً على الحالمين
و « بناء القصور في اسبانية » الذين يرون الى مشاريعهم تنهار لافل حادث . وهي
تذكر في ادبنا العربي بحكاية الناسك الذي كان يمرى عليه من رجل عاجز ، في كل يوم ،
رزق من السمن والعلل ، فكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويمسكه في جرة ،
فيعلقها في وده ، في فاحية البيت ، حتى امتلأت . . . الخ الخ . . . وقد رواها ابن
القفق في « كيلة ودمنة » وقد تكون هي الاصل لثل لافوتتين هذا .

كهانه القانونيون ونوابه الاستقفيون كلهم رجالاً صاعين عالي السن ، أجيالاً بعض الشيء مثله ، مطوّقين مثله مجدّران تلك الابرشية التي كانت خلواً من طريق تؤدي الى مقام الكاردينالية . وكانوا يشبهون اسقفهم ، مع هذا الفارق ، وهو انهم انتهوا ، على حين انه اكتمل . وكانت استراحة التوقي في ظل مونسينيور بينفينو واضحة الى حد جعل الثبان الذين رسمهم هولاً يكادون يعادرون المعبد الاكليريكي حتى يلتزموا توصية الى رئيس اساقفة ايكس ، او رئيس اساقفة اوش ، وينطلقوا على جناح السرعة ليقدموها اليها . ذلك بأن الرجال ونكروا ذلك - مجبون الارتقاء في سلم الوظيفة . والقديس المعلن في انكار الذات لا يبدو ان يكون جاراً خطراً . انه قد ينقل اليك من طريق العدوى ، فقراً لا براء منه ، وتحشّباً في المفاصل الضرورية للتقدم . وعلى الجملة فقد ينقل اليك مقداراً من الزهد اكثر مما ترغب فيه . فقير عجيب ان يفر الرجال بأنفسهم من هذه الفضيلة المعديّة . ومن هنا هذه العزلة التي وصفت حياة مونسينيور بينفينو . اننا نعيش في مجتمع كثيب . « إنجح » ، تلك هي النصيحة التي تسقط فطرة إثر فطرة من الفساد التحميم علينا .

وفي ميسورنا ان نقول ، بالمناسبة ، ان النجاح شيء بشع مخوف . ان ما بينه وبين الكفاءة من شبه زائف خليق به ان يخذع الناس عن أنفسهم . وعند الجمهور يتخذ النجاح صورة التفوق نفسها تقريباً . وللنجاح - ذلك التوأم الشديد الشبه بالوهبة - احقّه المحدثون : التاريخ . ان جوفينال * وتاسيت ** وحدهما يرضانه ويتذمران منه . وفي ايامنا انضوت تحت لوائه فلسفة تكاد تكون رسمية ، فهي ترتدي ثوب الخادم الملحق به ، وهي تنتظر اوامره في الغرفة الملاصقة لديوانه . النجاح ، تلك هي النظرية . ان الازدهار يفترض القدرة . اربح ورقة

* Juvénal شاعر لاتيني هبّاء (٤٢ - ١٢٥ ؟) تنبأ لنا في احاجيه الاربع عشرة نغمته على الحياة في رومة وضيقه بماؤها .

** Tacite مؤرخ لاتيني شهير (٥٥ ؟ - ١٢٠ ؟) امتازت مؤلفاته بالرمزية والقفوة والايماز ، كما امتاز هو بالحيال وباللدرة على تجريد شخصياته من أردبتها الخارجية . وكان يغالي في التشاؤم اجاباً ، وينزع الى ان يلتمس للاحداث اسباباً عميقة .

في اليانصيب تصبغ رجلاً حاذقاً . ومن ينصرف فذلك هو الذي يحظى بالاجلال والتعظيم . ايكن نجمك ، يوم الولادة ، ذا يمن وسعد تجدد الدنيا كلها بين يديك . كن حسن الطالع ليس غير تقفز بسائر الاشياء . كن سعيداً بحسبك الناس عظيماً . ففيما عدا المستشفيات العظيمة التي لا يزيد عددها على الحمة او الستة ، والتي هي اعجوبة عصرها ، لا يعدو الاعجاب المعاصر ان يكون ضرباً من قصر البصر . ان الطلاء الذهبي هو في نظر الناس ذهب خالص . وليس يفيد المرء عندهم ان يكون ابن الحظ شريطة ان يوفق الى تحمين حظوظه . ان العامة ترسيس عجز * بعيد نفسه ، ويصنف لكل ما هو شعبي . والواقع ان العبقرية الجبارة التي تجعل من المرء موسى ، او اسيل ** او داني او ميكال آنجلو ، او نابليون انما تخلعها الجمهور ، في الحال وفي تحليل ، على كل من يوفق الى بلوغ غايته ، مهما تكن تلك الغاية . دع كاتباً عدلاً يلمع حتى يصبح نائباً في البرلمان ؛ دع كورني *** زائماً يضع مسرحية « تيريدات » **** ؛ دع خصياً يملك « حريماً » ؛ دع « برودوم » ***** عسكرياً يكسب بالمصادفة

* في الميثولوجيا اليونانية ان ترسيس كان على جبال باهر أسر به القلوب جميعاً ولكنه ازدرى حب الحان له . كان يمشق نفسه ، وبينما هو يديم النظر الى وجه الجميل في امرأة بنوع صاف زلت به القدم ، فاستحال الى الزهرة التي تحمل اسمه « ترسيس » أو الترجس . وتطلق لفظة « الترجية » اليوم على الظاهرة البكولوجية التي تجعل من المرء عاشق ذاته .

** ابو التراجيديا اليونانية (٥٢٥ - ٤٥٦ ق . م) ويمتبر من أعظم شعراء العالم في مختلف العصور .

*** Gorneille ابو التراجيديا الفرنسية . واشهر مسرحياته « هوراس » ، « الببد » ، « ميناء » و « بولوكس » . وهو يمتبر عند الفرنسيين خالق الفن التشبلي الغامض على اساس التحليل البكولوجي . (١٦٠٦ - ١٦٨١) .

**** Tiridate تيريدات الاول ، ملك ارمينية وأخو فسولوجيس الاول ملك البارثيين وقد قهره القائد الروماني كوريليون . وتوفي تيريدات عام ٧٣ للميلاد .

***** Prudhomme نموذج عصري للسخر وعدم الكفاية وللابتذال الكامل التي ارزها هنري مونييه في كتابه « مشاهد شبيهة » (١٨٣٠) و « مذكرات جوزيف برودوم » (١٨٥٧) .

المحركة الحاصية في حقبة برمتها ؛ دع صيدلياً يخترع نهالاً من الورق المقوى لاحتذية الجيش ، ويجني من وراء ذلك الكروتوت المبيع بدلاً من الجلد لقوات « السامبر والميز » * دخلاً مقداره اربعمئة الف ليرة ؛ دع بائعاً متجولاً يتزوج الربا ويقود عروسه الى فراش من سبعة ملايين او ثمانية ملايين ، فراش هو أبوه وهي أمه ؛ دع واعظاً يصبح اسقفاً بالكلم من أنفه ، دع مدبراً احسد المنازل الطبية يسي لدى تركه الخدمة غنياً الى درجة تجعل منه بعد ذلك وزيراً للمالية فراسة - تجمد الناس يدعون ذلك عبقرية ، غاماً كما يدعون وجهه موسكوتوت جمالاً ، وتغطرس كاود عظمة وجلالاً . إنهم لا يميزون كواكب السماء من النجوم التي تحدثها اقدام البط في الوحل !

١٣ معتقداته

لسنا في حاجة الى ان نسر أسقف د... من وجهة النظر الارثوذكسية * ففي حضرة نفس كهذه لا نستشعر شيئاً غير الاحترام . إن ضمير الرجل المستقيم ينبغي ان يُعتبر شيئاً مفروغاً منه . والى هذا ففي استطاعتنا ، وقد مُنحنا طبائع معينة أن نلتم بامكانية نشوء جمالات الفضائل الانسانية كلها في معتقد مختلف عن معتقدنا .

أي شيء كان رأيه في هذه العقيدة الاساسية ، او تلك الغامضة من غوامض الدين ؟ هذا سر من اسرار الايمان الباطني التي لا تُعرف إلا في القبر حيث تدخل الأرواح عارية . ولكننا واثقون من ان مصاعب الايمان لم تنته به قط الى الزندقة . إن فساداً ما لا يمكن ان يتطرق الى الماس . لقد آمنَ ما وسعهُ

* Sambre . et - Meuse مديرية فرنسية من مديريات الامبراطورية الاولى .
** المصود بالارثوذكسية هنا صفة المتقيد والموافقة للدين الحقيقي ، او المستقيم ، كما تفهمه النصوص ، او كما فهمه اصحابه الاولون .

الايان . كان يهتف دائماً *Credo in Patrem* * والى هذا فقد كان يستمد من اعماله الصالحة ذلك المقدار من الارتياح الذي يوضي الضمير ، والذي يهمس في أذن المرء : « انت مع الله » .

ونعتقد ان من واجبتنا ان ننص هنا على ان فؤاد الاسقف كان عامراً خارج نطاق ايمانه ، اذا جاز التعبير ، ووراء ذلك الايمان - بفِرْطٍ من الحب . وبسبب من هذا ، *quia nullum amavit* ** ، اعتبر قابلاً للتقد والتجريح عند « الرجال الجديين » ، و « الاشخاص الوفورين » ، واصحاب العقول الرشيدة » ، وهي تعابير أثيرة في عالمنا الحزين حيث تتلقى الانانية كلمة السر من التظاهر بالعلم والمعرفة . ولكن اي شيء كان فرط الحب هذا ؟ كان لطفاً راقياً يغمر الرجال كما سبق منا القول ، ويمتد في بعض الاحيان الى الاشياء . لقد عاش من غير ازدراء واستخفاف . كان متيقناً على خلق الله . والحق ان لدى كل امرئ ، مهما يكن فاضلاً ، خشونة طائشة يحفظ بها ، من باب الاحتياط ، للحيوانات . ولكن اسقف د ... كان خلواً من هذه الخشونة التي تميز معظم الكهنة . انه لم يذهب الى حد البراهمة *** ولكن يبدو انه تفكير كثير في هذه الكلمات من « سفر الجامعة » : « من ذا الذي يعرف الى اين تمضي روح البهيمة ؟ » إن بشاعة المظهر ، وقباحة الغريزة لم تقلقاه ولم تسخطاه قط . كانتا تحركان فيه عاطفة الشفقة وتوقعان في ذات نفسه مزيداً من اللين والرفقة . لقد بدا وكأنه يبحث ، وراء الحياة الظاهرية ، في روية وتفكير ، عن السبب ، والتفسير ، أو العذر . بل لقد بدا وكأنه يلتمس من الله ، في بعض الاحيان ، تلطيفاً لعقاب الآثمين . كانت يدرس من غير انفعال ، وبعين اللغوي الذي يفك رموز رقة قديم أزيلت الكتابة الأصلية عنه ليكتب عليه من جديد ، مقدار الاختلاط والتشوش اللذين لا يزالان في الطبيعة . وكان هذا الاستغراق في التفكير ينتزع منه في بعض الاحيان كلمات عجيبة . فذات صباح كان يتمشى في حديقته ؛ لقد حسب

* في اللاتينية ، ومنها : اؤمن بالآب .

** في اللاتينية ايضاً ، ومنها : لانه أحب كثيراً .

*** جمع برهمي ، وهو احد امراء الطقة الكهنوتية اعلى الطبقات الوراثية الأربع في المجتمع الهندوسي .

نفسه منفرداً . ولكن أخته كانت تمشي خلفه من غير ان يراها . وفجأة كف
عن السير ، ونظر الى شيء ما فوق وجه الارض . كانت وتيلاء سوداء ، شعراء ،
رابعة . وسمعت أخته يقول :

« يا من هجمة مسكينة ! الذنب ليس ذنبها ! »

ولم لا نتحدث عن طفلية الطيبة هذه التي تكاد تكون الهمية ؟ انها قد
تكون شيئاً صيانياً ، ولكن هذه الاشياء الصبانية الرفيعة هي التي عُرف بها
القديس فرانسوا الأسيسي * ، وماركوس اوريليوس ** وذات يوم آثر
ان يلتوي مفصله على ان يسحق غلة .

كذلك عاش هذا الرجل المستقيم . كان يقصد الى جنينته ، بعض الاحيان ،
لينام فيها ؛ وعندئذ لم يكن ثمة شيء ادعى الى التوقير والاحترام .

كان مونسنيور بينفينو من قبل ، وفقاً للروايات المتصلة بصبا بل وبصدر
شبابه ، رجلاً شديد الانفعال ؛ وقد لا نخطيء اذا قلنا انه كان رجلاً عنيفاً .
ومن هنا لم يكن حلمه الشامل غريزة طبيعية بقدر ما كان ثمرة يقين واسع فطر ،
من خلال الحياة ، الى فؤاده ، متاقطاً في مهل ، فكرة إثر فكرة . ذلك
بان قطرات الماء قادرة على ان تحدث في الشخصية حقراً كالتى نحدثها في وجه
الصخر سواء بسواء . ومثل هذه التجاويف غير قابلة للمحو . إنها تمنع على الزوال .

لقد بلغ عام ١٨١٥ ، كما نحسب اننا أسلفنا القول ، سنة السادسة والسبعين ،
ولكنه كان يبدو وكأنه لما يتجاوز الستين . إنه لم يكن طويل القامة ؛ وكان
بديناً بعض الشيء ، فهو كثيراً ما يأخذ بأسباب المشي الطويل ابتغاء التغلب على
هذه البدانة . كان ثابت الخطو ، ولم يكن ظهره محدودباً الا قليلاً ؛ وهي ظاهرة

* Francois D'Assise مؤسس رهبانية الفرنسيسكان . وقد اشتهر بعطفه على الفقراء ورفعته
بالمستضعف من الحيوان . (١١٨٢ - ١٢٢٦)

** Marcus Aurelius اكثر الاباطرة الرومان صلاحاً ، تول الحكم من عام ١٦١ الى عام
١٨٠ وخاض غمار حرب طويلة ظائرة ضد البرابرة المهددين للامبراطورية ، واشتهر بحكمته
الرواقية ، واعتداله ، وحبه للفلسفة والادب .

لا نعتزم ان نخلص منها الى استنتاجٍ ما . فقد كان غريغوار السادس عشر * ، في سنّ الثمانين ، منتصب القامة باسمًا ، ولم يمنعه ذلك من ان يكون اسقفًا رديفًا . وكان لمونسنيور بيينفينو ما يدعوه الناس « عقلًا راجعًا » ولكنه كان أنيسًا الى حدّ يُنسبك أنه ذو عقل راجح .

فاذا ما تحدّث بذلك الابتهاج الطفليّ الذي كان مظهرًا من مظاهر اللطف عنده ، والذي سبق منا الكلام عليه ، استشعر كل امرئ الارتياح في حضرته ، وبدا الحبور وكأنه يشعّ من شخصه كله . كانت بشرته النضرة المتوردة ، وأسنانه البيضاء المحتفظة بسلامتها والتي كانت سُفّاته تتكشف عنها حين يضحك ، تخلع عليه تلك السّما الصريحة الدمثة التي تجعلنا نقول عن الرجل : إنه ولد طيب ؛ وعن الرجل العجوز : إنه رجل طيب . كان ذلك ، كما نذكر ، هو الاثر الذي تركه في نفس نابوليون . فللهزيمة الاولى ، وبالنسبة الى من يراه اول مرة ، لم يكن مونسنيور بيينفينو اكثر من رجل طيب . ولكن ما إن يُنطق المرء بضع ساعات معه ويرى اليه مستغرقًا في التفكير حتى تتحول تلك الصورة شيئًا بعد شيء ، فتغدو ناضجة بالملابة . كان جيده العريض الجديّ الذي جعله شعره الاشيب أثيلًا يبدو أثيلًا كذلك لحظة التأمل والتفكير . وكان الجلال ينبثق من هذه الطيبة ، من غير ان تكفّ الطيبة عن الاشراق ؛ فيستشعر المرء شيئًا من تلك الهزة التي تعروه اذا ما رأى ملاكًا باسمًا ينشر جناحيه في بطاء من غير ان يكفّ عن الابتسام . كان الاحترام — الاحترام الذي يعجز البيان عن وصفه — خليقًا به ان يداخلك تدريجيًا ، وان يتخذ سبيله الى فؤادك ، فتحسّ انك امام نفس من تلك النفوس القوية ، المجرّبة ، المنساجة ، حيث الفكر هو من العظمة بحيث لا يستطيع إلا ان يكون رفيقًا لطيفًا .

وكما رأينا من قبل ، فقد كانت الصلاة ، والنهوض بأعباء الخدمات الدينية ، والتصدّق على الفقراء ، ومواساة المحزونين ، وزراعة زاوية من الارض ، والاخاء ، والزهد ، وقري الضيف ، وقهر النفس ، والثقة ، والدّرس ، والعمل

تُفعم كل يوم من أيام حياته . اجل ، « تفعم » هي الكلمة الملائمة تماماً . وفي الحق ، إن يوم الاسقف كان مفعماً حتى الشفة بالافكار الطيبة ، والكلمات الطيبة ، والاعمال الطيبة . ومع ذلك فإنه ما كان ليكتمل اذا حال البارد او المطر بينه وبين قضاء ساعة او اثنتين من ساعات الليل - بعد ان تؤوي المرأتان الى فراشها - في حديثه قبل أن يسلم لبرقاد . لقد بدا وكأن الاستعداد للنوم من طريق التأمل أمام مشهد السماء الداجية الناضج بالمعظمة كان ضرباً من الطقس الدينيّ عنده . وفي بعض الاحيان ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، كانت العائنان تسامانه ، إذا ما أطلتا السور ، يتمشى وتبدأ في ممرات الحديقة . كان يخلو هناك الى نفسه ، هادئاً ، رابط الجأش ، عابداً ، مقارناً ما بين صفاء قلبه وصفاء الاثير - وقد حرك عواطفه في الدجّة بهاء الكواكب المنظور وبهاء الله غير المنظور - باسطاً روحه للفكرات التي تهبط من لمجهول . وفي مثل هذه اللحظات ، حين كان يقرب قلبه قرباناً لله في تلك الساعة التي تنفث فيها ازاهير الليل عبرها ، وحين كان يبدو مضاءً مثل مصباح في جوف الليل ذي النجوم ، ساطعاً في جندل وسط اشماع الكون الكليّ ، لم يكن في ميوره هو نفسه ان يقول اي شيء كان يدور في خلده . لقد أحس بشيء يزايله ، وبشيء يهبط عليه . مبادلات عجيبة بين أعماق النفس وأعماق الكون .

كان يتفكّر في عظمة الله ، وفي وجود الله ؛ في أبدية المستقبل ، وهي لغز عجيب ؛ في أزلية الماضي ، وهي لغز اعجب ، وفي جميع اللانهايات المحتجبة من حوله في كل انجاه ؛ ومن غير ان يجاول فهم ما لا سبيل الى فهمه كان يراها . إنه لم يدرس الله ؛ كان يبهره التفكير في ذلك . لقد تأمل في الاتحادات البهية التي تجمع ما بين الذرات ، والتي تخلع على الطبيعة اشكالاً منظورة ، كاشفة عن القوى من طريق إشاشها ، خالقة الفرديات في الوحدة ، والنسب في الامتداد ، واللامعدود في اللانهاية ؛ مولدة الجمال من خلال النور . ولما تنعقد هذه الاتحادات وتنحل في غير انقطاع . ومن هنا الحياة والموت .

كان يجلس على مقعد خشبيّ مستند الى عريشة مكسورة ، وينظر الى النجوم

من خلال أشباح شجراته المثمرة ، المهزولة الكسيفة . فقد كانت هذه الفلذة من الارض ، البالغة مساحتها ربع أكر ، والمزروعة اسوأ زراعة ، والمتقلة بالحرب والانقاض ، أثيرةً لديه ؛ وكانت تكفيه .

واي شيء أكثر من هذا كان يحتاج اليه ذلك الرجل العجوز الذي وزّع ساعات فراغه ، وما كان اندرها واقظها ، بين البستنة في النهار ، والتأمل في الليل ؟ ألم تكن هذه الحظيرة الضيقة ، التي تؤلف السموات سمكتها ، كافيةً لأن تمكّنه من عبادة الله ، بالتناوب ، في مستلذاته الاكثر جمالاً ، وفي مخلوقاته الاكثر سمواً ؟ اليس هذا كل شيء ، في الواقع ؟ واي شيء ينبغي وراء ذلك ؟ 'جنة' يتمشى خلالها ، وفضاء يتأمل فيه . فعند قدميه شيء يمكن ان يُزرع ويحني ، وفوق رأسه شيء يمكن ان يُدرس ويطلق سراح التأمل فيه ؛ بضع زهرات على الارض ، وجميع الكواكب في السماء .

١٤

افكاره

بقيت كلمة اخيرة .

لما كانت هذه التفاصيل - وبخاصة في العصر الذي نعيش فيه ، ولكي نطنع تعبيراً هو اليرمزيّ شائع - خليفةً بأن تخلع على اسقف ... سيّاه « بانتيبيستية » * ما ، وتوقع في النفس - سواء أأدّى ذلك الى لومه او الى تمجيده - انه كان يدين بأحدى هذه الفلسفات الشخصية التي يميز بها عصرنا ، والتي تنجم أحياناً في العنول المتوحدة وتنو وتصحّد حتى تحلّ محلّ الدين - لما كانت هذه التفاصيل

* الـ Panthéisme وحدة الوجود ، او الوهية الكرون ، وهو مذهب ملني يقول بان الله والكون واحد ، اي ان الله حال في كل شيء ، ومن هنا جاز ان يطلق الله على كل شيء .

خلقة بأن توهمنا بهذا كله فالتنا نصر على القول إن أأءاً ممن عرفوا مونسينور بينفينو ما كان ليجيز لنفسه أن يزعم هذا الزعم . لقد كان القلب هو الذي أثار بصيرة هذا الرجل . كانت حكمتة مكونة من النور المنبعث من هناك .

لم تكن له طرائق ونظم ، ولكن كانت له أعمال كثيرة . إن البحوث النظرية العويصة تورث الصءاع ، ولم يكن ثمة ما يؤذن بأنه سوف يعرض عقله للمخاطر من طريق الرؤى الصوفية التي تمت للقديس يوحنا الانجيلي واحدة منها . إن في إمكان الرسول أن يكون مقءاماً ، اما الاسقف فينبغي أن يكون هيأباً . ولعله كان يتردد في أن يسبر غور بعض المسائل التي يقتصر الخوض فيها بطريقة ما ، على العقول الكبيرة الخفيفة . أن ثمة رعباً مقدساً يكتنف الطريق الى الالغاز الصوفية . إن بعض الفجوات القائمة لتفقر فاها هناك ، ولكن شيئاً يقول لك فيما أنت تقترب من شفير الموت : لا تدخل ! الويل لمن يدخل !

إن هناك عباقرة يرفعون أفكارهم الى الله ، وهم في غمرة من التجريد الذي لا تُسبر أغواره ومن التأمل المحض ، فكانهم ، اذا جاز التعبير ، فوق العقائد الدينية جميعاً . أن صلاتهم لتعرض ، في جراءة ، نقاشاً ما . وإن عبادتهم لتتجوب . ذلك هو الدين المباشر المقعم بالقلق والمسؤولية عند من يتسلى جدرانه .

ليس للفكر البشري حدود . انه محلل ويشرح ، على مؤولينه ، انهياره هو . وفي ميسورنا أن نذهب الى القول إنه ، بطريقة من الرجوع الرائع ، يبهز الطبيعة ؛ فالعالم الحفي الغامض الذي يحيط بنا يُعبد ما يتلقى ؛ ومن الجائز أن يكون المتأملون هم أنفسهم موضوع تأمل . وأياً ما كان ، فعلى ظهر الارض رجال - هل هم رجال وحسب ؟ - يستطيعون أن يهجووا بوضوح ، في أفق تأملاتهم ، قم المطلق الشائعة ، وبماكون الرؤيا المروعة للجبل اللانهاي . إن مونسينور بينفينو لم يكن واحداً من هؤلاء الرجال ؛ إنه لم يكن عبقرى . كان خليفاً به أن يرهب هذه الذرى التي انزلت منها رجال ، بعضهم عظيم جداً ،

مثل سويدينبورغ* وباسكال**، نحو الجنون الكامل. وليس من شك في ان لهذا الاستغراق في التفكير الحالم مائدته الاخلاقية ؛ ومن هذه الطرق الوعرة يستطيع المرء ان يدنو من الكمال المثالي . أما هو فسلك السبيل المستقيمة ، التي هي قصيرة : الانجيل .

انه لم يحاول ان يجعل حلة القداس التي يرتديها تتخذ ثنيات وداء ايليا . *** وما كان ليلقي أيما شعاع من أشعة المستقبل على تقلب الاحداث المظلم . انه لم يسع قط الى ان يركز وميض الاشياء حتى يغدو شعلة . لم يكن فيه شيء من النبي أو شيء من الساحر . كانت نفسه المتواضعة تحب ؛ هذا كل ما هنالك . أما أنه بسط صلاته حتى تبلغ مطيحاً فوق بشري ، فهذا مرجح . ولكن الغلو في الصلاة كالغلو في الحب ، غير محمود . واذا كان من الزندقة ان يصلي المرء خارج النصوص فعندئذ تكون القديسة تيريزا **** والقديس جيروم ***** زنديقين .

* Swedenborg فيلسوف متصوف سويدي ، ولد في ستوكهولم وتوفي في لندن (١٦٨٨ - ١٧٧٢) وكان يزعم انه على اتصال بالعالم الروحي وانه يوحى اليه منه . وكان له مريدون كثير .

** Pascal هو الرياضي ، الفيزيائي ، والفيلسوف الفرنسي (١٦٢٣ - ١٦٦٢) وقد اتجه اثر حادثة وقت له ، انجماً دينياً ، ومات في ريمان شبابه قبل ان يتم دفاعاً عن النيرانية كان قد شرع في وضعه ثم نشرت اجزاء منه بعنوان « خواطر » *Pensées* . وانما يشير فيكتور هيجو هنا الى ما رواه الكاهن برالو - وهو ما لم يؤيده شاهد آخر - من ان باسكال اصيب في آخر أيامه بهلوسة جعلته يرى في كثير من الاحيان وكأن هاوية تقفز فاها غير بعيد عنه لكي تبثله .

*** هو نبي يهودي تذكر التوراة انه دعا شعبه الى نبذ عبادة بعل وعشترت وقام بمميزات كبيرة . وفي التوراة ايضاً انه رفع الى السماء على عربة من نار ، وانه عهد الى أحد تلاميذه في كتابة رسالة تاركاً له رداءه لكي يتسكن من أن يأتي بتل الاعاجيب التي اتى بها هو . ويرمز الفرنسيون بـ « رداء ايليا » الى ان شخصاً ما قد ورث موهبة ما عن استاذ أو ميده .

**** مصلحة اسبانية اشتهرت برواها وتصرفها . (١٥١٥ - ١٥٨٢)

***** احد آباء الكنيسة اللاتينية ، وهو الذي قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية

(٣٤٠ - ٤٢٠ م)

كان يجذب على الهزوين والتائبين . لقد بدا الكون في نظره وكأنه داء ضخم عريض . كان يتروح الحمى في كل مكان ، وبصبح الى الآلام في كل مكان ؛ ومن غير ان يحاول حل اللغز سعى الى ان يضمد الجرح . لقد أوقع مشهد المخلوقات الرهيب رقة في نفسه ولطفاً . وكان منهمكاً دائماً في ان يبعث لنفسه - ويوحى الى الآخرين - عن افضل الطرق الى العطف والمواساة . فقد كان العالم كله ، عند هذا الكاهن الصالح النادر المثال ، موضوع حزن سرمدى ، فهو يلتبس المواساة أبداً .

ان ثمة رجالاً يجهدون بسبيل استخراج الذهب ؛ أما هو فكان يجهد بسبيل استدرار المرحمة . وكان الشقاء الشامل هو منجبه ، ولم يكن الالم المتقشفي في كل مكان غير مناسبة للعمل الصالح مستمرة . أحبوا بعضهم بعضاً ؛ لقد اعتبر ذلك عنوان الكمال . إنه ما كان يتمنى شيئاً اضافياً ، فقد كانت هذه الكلمات تؤلف عقيدته كلها . وذات يوم قال ذلك الرجل الذي عدّ نفسه « فيلوفاً » - عضو الشيوخ الذي أشرنا اليه سابقاً - قال للاسقف :

« ولكن انظر الى مشهد العالم . ان كل امرئ من الناس ليقاقل الناس جميعاً ، وإن أقوى الناس هو افضل الناس . وليست آيتك القائلة « أحبوا بعضهم بعضاً » اكثر من حماقة . »

فأجابه مونسينيور بينفينو من غير ما مناقشة :

« حسن . اذا كانت حماقة فيتعين على النفس أن تحتجب فيها كما تحتجب اللؤلؤة في الحمار . »

واحتجب هو فيها ، وعاش فيها ، واكتفى بها اكتفاء مطلقاً ، مطّرحاً المسائل الخفية العجيبة التي تجذب وتزعج ، وأغوار التجريد التي لا تُبهر ، ومبادئ الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة - مهماً كل هذه الغوامض التي تنصب عند الرسول ، على الله ، وعند الملحد ، على العدم : - القدر ، والخير ، والشر ، وتناحر المخلوقات ، وضمير الرجل ، واحلام الحيوان التي تجاور التفكير ، والتحول الذي يتم بالموت ، ومراجعة الحيوانات الناقية في القبر ، وتلقح الأنا

المستمرة بالاهواء المتعاقبة تلقعاً لا سبيل الى فهمه ، والجوهر ، والمادة ،
واللاشئية ، والشيئية ، والنفس ، والطبيعة ، والحرية ، والضرورة ؛ مسائل
عويصة ، وأعماق كالحلح يُجذب نحوها « رؤساء ملائكة » الجنس البشري الضخام ؛
وهوى * رابعة يتفكر فيها لو كرينديوس ** وعائز *** والقديس بولس ،
ودانتي ، بتلك العين الساطعة التي تبدو ، اذ تحدّق الى اللانهاية تحديقاً موصولاً ،
وكأنها تضرع النار في النجوم نفسها .

كان مونسينيور بينفينو مجرد رجل تقبّل هذه المسائل الغامضة من غير ان
يتعمّقها ، ومن غير ان يثيرها ، ومن غير ان يُقلق عقله بها ؛ رجل يُكنّى في
ذات نفسه احتراماً عميقاً للسرّ الذي يكتنفها .

* جمع 'هوتة .

** Lucretius شاعر روماني (حوال ٩٥ - حوال ٥٣ هـ ق . م) نادى بمادية ابيقور في
نصيدة له مشهورة غنية بالفكر الرعب . ومات منتحراً .
*** Manou أو Mānava - bharma - Càstra احد الكتب الهندية المقدسة التي تبسط العقيدة
البرهية . وتطلق هذه اللفظة ، في ما تطلق ، على أنصاف الآلهة الاربعة عشر التي تحكم العالم
- حسب المعتقد البرهمي - على التعاقب .

الكتاب الثاني

السقوط

١

بعد مسيرة يوم بكامله

قبل المغيب بساعة تقريباً ، من احد الايام الاولى من شهر تشرين الاول ، سنة ١٨٩٥ ، دخل رجل مترحّل على قدميه مدينة د... الصغيرة . فما كان من النفر القلائل من ابناء البلدة الذين كانوا واقفين في تلك اللحظة الى نوافذ بيوتهم أو على عتبات ابوابها إلا ان نظروا الى هذا المسافر في ضرب من الفلق . فقد كانت من العسير ان تقع العين على عابر سبيل ذي مظهر اشدّ بؤساً . كان ربعة في الطول ، بدينياً ، جلدأ على الصعاب ، وفي عنقوان العمر ؛ ولعله ان يكون قد بلغ السادسة والاربعين او السابعة والاربعين . كانت ثلثه جلدية 'مالة' الى

جانب تخفي ، نصف إخفاء ، وجهه الذي برزته * الشمس والرياح ، وسال منه العرق . كان صدره الاشعث بادياً من خلال القميص الاصفر الحشن المشدود حول الرقبة يثبت فني صغير . وكان يرتدي ربطة عنق مفتولة كالجبل ، وينطلقاً كذائياً ازرق خشناً ، منبرثاً بالياً ، ابيضت احدي ركبتيه وتناثرت الثقوب في ركبتيه الاخرى ؛ وصدره رمادية عتيقة رثة رُفعت عند احد جوانبها بقطعة من القماش الاخضر بواسطة خيط من قُتب . وعلى ظهره كان كيس من أكياس العساكر ، مُحكم الربط ، جديد بالكلية ، وفي يده كان يحمل عصا هائلة ذات عُقد : كانت قدماه غير المجزبتين تتعلان حذاء رُصف بالمسامير ، وكان شعره مجزوراً ، وكانت لحية طويلة .

واضاف العرق ، والحرارة ، والسير الطويل ، والغبار قذارة تمتنع عن الوصف الى هذا المظهر الحربي .

كان شعره حليقاً حتى الجلد ، ولكنه مع ذلك قاسٍ خشن . ذلك بأنه كان قد شرع ينمو بعض الشيء ، وبدا وكأنه لم يخلق منذ مدة قصيرة .

إن احداً لم يعرفه . كان واضحاً أنه عابر سبيل ليس غير . من اين أقبل ؟ من الجنوب ، وربما من شاطئ البحر . ذلك بأنه دخل بلدة د ... من الطريق نفسها التي سلكها الامبراطور نابوليون ، قبل سبعة اشهر ، من « كانت » الى باريس . ولا بد ان يكون هذا الرجل قد سلخ سحابة يومه وهو يسعى على قدميه ، فقد بدا شديد الالقاء . لقد بضرت به بعض نوة البلدة العتيقة القائمة في الجزء الادنى من المدينة وقد وقف تحت شجرات جادة غاساندي وانثا يشرب من الينبوع المتدفق عند اقصى المنزه . ولا بد انه كان شديد الظمأ ، ذلك بأن بعض الصبية الذين تعقبوه رأوه يقف كرة اخرى ، ولما يتقدم متي خطوة اضافية ، ليعاود الشرب من الفؤارة التي في السوق العامة .

وحين بلغ زاوية شارع بواشوفير انعطفت يسرة ، ومضى الى مكتب العمدة . ودخل المكتب ؛ ثم غادره بعد ربع ساعة . كان احد رجال الدرك جالاً قرب

الباب على المقعد الحجري الذي ارتقاه الجوال درووه * ، في ١ آذار ، لينلو على ابناء د... المروعين إعلان غولف جوان ** فرفع الرجل قنصوته وحيثا الدركي في ذلة .

ومن غير ان يرّد التحية ، نظر الدركي اليه في انتباه ، وأتبعه عنبه فترة ما ثم دخل دار البلدية .

وكان في د... فندق حسن يدعى « لا كروا دو كولبا » ، وكانت يتولى ادارته فتدقي اسمه جا كان لابار* ، وهو رجل كان له بعض الاعتبار في المدينة بسبب من صلة النسب التي تربطه بـ « لابار* » آخر يدرفندقا في غرينوبل يدعى « تروا دوفين » ، وقد سبق له ان خدم في كتائب الحرس . ومنذ أن وطىء الامبراطور *** الارض الفرنسية ثار في البلاد لفظ كثير حول فندق الـ « تروا دوفين » هذا . لقد قبل إن الجنرال بروتان رحل الى هناك عدة مرات ، خلال كانون الثاني ، متشكراً بزي سائق عربية ، ووزع اوسمة « صليب الشرف » على الجنود ، وحفئات من الليرات المعروفة بـ « نابوليون » على جماعة من البورجوازيين . والحقيقة ان الامبراطور رفض ، يوم دخل غرينوبل ، أن ينزل في دار المحافظ قائلاً له بعد ان شكره : « سوف امضي الى بيت رجل شجاع لي به معرفة . » ثم شخص الى فندق الـ « تروا دوفين » . وانعكس هذا المجد الذي حظي به « لابار » صاحب فندق الـ « تروا دوفين » - انعكس عبر نخة وعشرين فرسخاً على « لابار » صاحب فندق « لا كروا دو كولبا » . وتحدث الناس عنه ، في البلدة ، فقالوا : « إنه ابن عم الرجل الغوينوبلي ! »

وولى ابن السبيل وجهه قبل هذا الفندق ، الذي كان احسن فنادق الاقليم كلها ، ودخل اتوه الى المطبخ المنفتح على الشارع . كانت جميع وجاقاته موقدة ،

* Drouot قائد مرسي (١٧٧٤ - ١٨٤٧) ، ابل بلاء حسناً في موقعة واغرام ، وموقعة لوتزن ، وموقعة واترلو .

** Golfe - Juan من اعمال « اقليم الالب البحري » حيث هبط نابوليون الارس الفرنسية عند عودته من منفاه في جزيرة ألبا .

*** نابوليون ، إثر عودته من ألبا .

وكانت نار عظيمة تضطرم رشيقة في الموقد . وكان صاحب النزل ، الذي كان في الوقت نفسه كبير الطهارة ، ينتقل من الموقد الى القدور المعدنية ذوات المقابض ، منهمكاً في إعداد عشاء ممتاز لبعض سائقي العربات الذين كانوا يضحكون ضحكاً مدوياً ويتحدثون احاديث صاخبة في الغرفة المجاورة . وكل من قدر له ان يسافر يعرف ان احداً لا يحيا أحسن مما يحيا سائقو العربات . كان مرموط مسمين * يحيط به حجلان * * * بيض واوز ، يدور على سفود طويل حول النار . وعلى الوجاقات تضج شبوطان * * * ضفخان من بحيرة لوزيه ، وتروقة * * * من بحيرة آلوز .

وقال صاحب النزل ، وقد سمع الباب يُفتح ، ويدخل قادم جديد ، ولكن من غير ان يرفع عينيه عن الوجاقات :

« ما الذي يريدك السيد ؟ »

« اريد أن آكل وانام . »

فقال صاحب النزل : « ليس ثمة شيء اسهل من ذلك . »

حتى اذا ادار وجهه ، والقى نظرة على المسافرين أضاف : « لقاء أجرة . »

وسحب الرجل من جيبه كيس نقود جليداً كبيراً وأجاب :

« عندي مال . »

فقال صاحب النزل : « اذن ، أنا في خدمتك . »

واعاد الرجل كيس نقوده الى جيبه . وفي جهد أنزل الكيس العسكري عن ظهره ، قرب الباب ، وجلس على كرسي منخفض ، الى جانب النار ، مسمكاً

عصاه بيده . ذلك بان بلدة ... جبلية ، وليالي تشرين الاول قارسة فيها .

واباً ما كان فقد أبقي صاحب النزل في غدوة ورواحه عيناً حذرة على المسافر .

وقال الرجل : « هل العشاء جاهز ؟ »

* حيوان من ذوات الاربع في حجم الاوتب تقريباً وفي مثل هيئة إلا أن ذنبه أقصر .

* * * جمع حجل .

* * * الشبوط ضرب من مأكلة الماء الحلو .

* * * من مأكلة الماء الحلو ايضاً .

فأجاب صاحب الفندق : « سيكون جاهزاً في الحال . »
وفيما الوافد الجديد يتدفأ ، مديراً ظهره ، أخرج صاحب النزل الفاضل ،
جاكاً كان لا يارت ، فلماً من جيبه ثم مزق زاوية صحيفة عتيقة سحبها من طاولة صغيرة
كانت قائمة قرب النافذة . وعلى هامش القصاصة الأبيض خطاً سطرأ أو سطرين ،
وطواها من غير ان يضعها في ظرف ، ودفعها الى غلام بدا وكأنه يعمل في خدمته
مساعد طاهٍ وخادماً في آن معاً . وهمس صاحب الفندق بكلمة في أذن الغلام ،
فانطلق نحو مكتب العمدة .

ولم ير المسافر شيئاً من ذلك .

وتساءل كره أخرى :

« هل الطعام جاهز ؟ »

فأجاب صاحب المنزل :

« سيكون جاهزاً في الحال . »

ورجع الغلام ، حاملاً قصاصة الورق . ونشرها صاحب المنزل على عجل ،
فعمل من يتوقع جواباً . وبدا وكأنه يقرأ في انتباه ، ثم فكّر لحظة طارحاً
رأسه الى جانب . واخيراً تقدّم خطوة نحو المسافر الذي بدا مستغرقاً في تفكير
مشوّش كدير .

وقال : « انا لا استطيع ان استقبلك ، يا سيدي ! »

ونمض المسافر عن مقعده نصف نهضة .

– « لماذا؟ أتخاف ان لا ادفع اليك الثمن ، أم انك تريدني ان أدفعه مقدّماً؟ »

« ان عندي مالاً ، أقول لك . »

– « ليس هذا هو السبب . »

– « ما السبب إذن ؟ »

– « إن عندك مالاً ... »

فقال الرجل : « نعم . »

فاردف صاحب النزل : « ولكن ليس عندي غرفة . »

- فأجابه الرجل في هدوء :
- « ضعني في الاسطبل . »
- « لا أستطيع . »
- « لماذا ؟ »
- « لأن الحيل نحتل المكان كله . »
- فسارع الرجل الى القول :
- « حسن . زاوية في العلبة . حزمة من القش . سوف ننظر في هذه المسألة بعد العشاء . »
- « انا لا أستطيع ان اقدم اليك عشاء . »
- وبدا هذا الاعلان ، المفرغ في جرس موقع ولكنه جازم ، خطيراً في نظر الرجل الغريب . فنهض .
- « آه ياد ! ولكنني أموت من الجوع . لقد مشيت منذ مطلع الشمس ؛ لقد قطعت اثني عشر فرسخاً . سوف ادفع . أريد ان آكل ! »
- فقال صاحب المنزل : « ليس عندي شيء . »
- وانفجر الرجل ضاحكاً ، واستدار نحو الموقد والوجاقات .
- « لا شيء ! وهذا كله ؟ »
- « إنه طعام مجبوز . »
- « ومن الذي حبزه ؟ »
- « هؤلاء السادة سائقو العربات . »
- « وما عددهم ؟ »
- « اثنا عشر . »
- « إن ثمة طعاماً يكفي عشرين . »
- « لقد حبزو الطعام ودفعوا ثمنه كله مقدماً . »
- وعاود الرجل الجلوس وقال من غير ان يرفع صوته :
- « الفرسخ : اربعة كيلومترات . »

— « انا في الفندق . إنني جائع ، وسوف ابقى . »
فانحنى صاحب النزول فوق أذنه وقال في صوت جعله يرتجف :
— « أخرج من هنا ! »

ولم يكده المسافر يسمع هذه الكلمات ، وكان منحنيًا يحرك بعض الجرات في النار بطرف عصاه المغلف بالحديد ، حتى استدار فجأة ، وفتح فاه ليخبر . فما كان من صاحب النزول ، الناظر اليه نظراً موصولاً ، إلا ان اضاف في الصوت الحقيض نفسه :

— « كفى . حذار ان تقول كلاماً كهذا بعد الآن ! أتريد أن أقول لك ما اسمك ؟ انت تدعى جان فالجان . والآن ، تريد ان أقول لك من أنت ؟ فنذا ان رأيتك تدخل ، ساورني الشك . فاتصلت بمكتب العمدة ، فكان هذا هو الجواب الذي جاني . هل تعرف القراءة ؟ »

واذ قال ذلك ، قدّم الى الرجل الغريب تلك الورقة المنشورة التي انطلقت من النزول الى مكتب العمدة ، ثم رجعت من مكتب العمدة الى النزول . والقى الرجل نظرة عليها . وبعد صمت ، استأنف صاحب الفندق كلامه :

« من عادتي ان اكون لطيفاً مع الناس جميعاً . اذهب ! »

وطأ الرجل رأسه ، ورفع كفيه عن الارض ، ومضى لسبيله .

واتخذ الطريق الرئيسية ، هائماً على وجهه ، محاذياً البيوت مثل رجل محزون تهين : إنه لم يلتفت مرة واحدة الى وراء . ولو قد فعل ، اذن لرأى صاحب فندق « لاكروا دو كولبا » واقفاً بباب نزله ، وقد احاط به زبائنه جميعاً ، واجتمع حوله غايرو السبيل كلهم ، متحدين في احتياج ، مشيراً اليه بأصبعه ؛ وإذن لأدرك من خلال نظرات الحذر والجزع التي تبادها القوم ، ان قدومه سوف يصبح مما قليل حديث البلدة برمتها .

إنه لم ير شيئاً من ذلك كله . فالناس الذين كتبهم الموم لا يلتفتون الى وراء . إنهم يعرفون معرفة يقينية ان النحس يلاحقهم .

وواصل سيره على هذه الشاكلة فترة ما ، هابطاً من غير ما قصد شوارع

مجهلها ، ناسياً التعب ، كالذي يقع في غمرة الحزن دائماً . وفجأة استشعر عضّة
الجوع . كان الليل على وشك ان يهبط فاجال طرفه في ما حوله باحثاً عن مأوى .
لقد أوصدت ابواب الفندق الطيب في وجهه . فلبتس الآن حانة متواضعة ،
أو قبواً حقيراً .

وفي تلك اللحظة التمع ضوء عند أقصى الشارع . لقد رأى غصن صنوبر معلقاً
بسنادٍ حديديّ ناتيء ، تحت سماء الغسق البيضاء . فمضى الى هناك .

وفي الحقي ، أنها كانت حانة . الحانة القائمة في شارع دوشوفتو .
ووقف المسافر لحظة ، ونظر من خلال النافذة الصغيرة الى قاعة الحانة
الحفيضة ، المضاءة بمصباح رُفع على إحدى الطاولات ، وبناور عظيمة تضطرم في
الموقد . كان بعض الرجال يعاقرون الحمر ؛ وكان صاحب الحانة يتدفاً . وكانت
قدر حديدية تتدلى من معلق المِرْجل ، فتحملها النار على الغليان .

وكان لهذه الحانة - وهي ضربٌ من المطاعم أيضاً - مدخلان اثنان ، أحدهما
منفتح على الشارع ، والآخر منفتح على فناء صغير مليء بالقاذورات .
ولم يجرؤ ابن السبيل على الدخول من الباب الاول . لقد انسل الى الفناء ،
ووقف ككرة أخرى ، ورفع المزلاج في خشية ، ودفع الباب .

وقال ربّ الحانة : « مَنْ هناك ؟ »

- « رجل يلتبس عشاء ومبيتاً . »

- « هذا حسن . في استطاعتك هنا ان تتعشى وتنام . »

ودخل الحانة ؛ فلم يَبْتَئِ احدٌ من الشرّب * إلا التفت نحووه . وأضاء
المصباح جانباً من وجهه ، وأضاءت النار الجانب الآخر . وتأمله القوم فترةً فيما
كان يحطّ كعبه عن ظهره .

وقال له صاحب الحانة : « هذه هي النار . إن العشاء يُنضج في القِدْر . تعال
وتدفاً يارفيقي . »

وجلس قرب المستوقد ، ونشر رجله نحو النار ، وقد كاد الأعياء يُميته .

* جماعة الشارين .

وانطلقت من القدر رائحة زكية . وكان كل ما بسدا من بحياه نحت قلنونه
المحالة ينم عن مظهر غبطة غامض يمتزج بتلك السبا المحزونة التي يجتمعها على المرء
تطاول العذاب الموصول .

كانت هيئته الجانبية قوية ، نشيطة ، حزينة . وكانت سباه تلك غريبة حقاً :
لقد بدت اول الأمر حقيرة ، ثم انتهت الى ان تبدو قاسية . والتمعت عينه تحت
حاجبيه وكأنها النار تحت عوسجة .

بيد أن رجلاً ممن انتظمتهم المائدة كان صياداً وضع جواده في الاسطبل
الملحق بفندق لا بار قبل ان يقد على الحانة القائمة في شارع دو شوفو . ولقد اتفق
أن لقني ، صباح ذلك اليوم نفسه ، هذا الرجل الغريب المشبه وهو يقطع
الطريق ما بين برا داس و ... (لقد نيت الاسم ، وأظن أنه ايسكوبلون .)
فسأله الرجل الغريب ، الذي هذه الأعياء ، ان يُرده على جواده ، فما كانت من
الصيد إلا ان أطلق العنان لجواده مضاعفاً من سرعته . وقبل نصف ساعة ، كان
الصيد بين الحشد الذي تحلق حول جا كان لا بار ، وكان قد روى خبر اجتماعه
البغيض به على مسامع القوم في « لاكروا دو كولبا » . وأوماً الى صاحب
الحانة ، خلسة ، أن يدنو منه ، ففعل . وتبادلا بضع كلمات في صوت خفيض .
كان المسافر قد استغرق في التفكير ككرة اخرى .

وانقلب صاحب الحانة الى النار ، ووضع يده في خشونة على كتف الرجل
الغريب ، وقال في فظاظة :

« ينبغي ان ترحل من هنا ! »

فاستدار الغريب وقال في رقة :

« آه ! هل تعرف ؟ ... »

« نعم . »

« لقد طردوني من ذلك الفندق . »

« ونحن نطردك من هذا . »

« والى اين تريد ان اذهب ؟ »

— الى مكان آخر . —

وتناول الرجل عصاه وكيهه ، ومضى لسبيله .

فلما وطئت رجلاه الطريق شرع نفر من الصبية يرشقونه بالحجارة — وكانوا قد نعقبوا أثره من « لاكروا دو كولا » ، وبدؤوا وكأنهم ينتظرونه . فالتفت اليهم مغضباً ، وتهددهم بعصاه ، فانفضوا من حوله مثل سرب من الطير .
وانتهى الى السجن . كانت سلسلة حديدية تتدلى من الباب مشدودة الى جرس . فأمسك بها وقرع .

وافتحت نافذة الباب .

وقال الرجل وهو يرفع قلنسوته احتراماً :

— « سيدي السجن ، هل لك ان تفتح الباب وتسمح لي بالمبيت هنا هذه الليلة ؟ »

فأجابه صوت :

— « السجن ليس فندقاً . إفعّل ما يجمل الشرطة على اعتقالك ، وعندئذ نفتح لك ! »

وأوصدت نافذة الباب .

ومضى الى شارع صغير حافل بالجنائن ؛ كان بعضها مسوّراً بأسياج ليس غير فهي ' تبهج الشارع . وبين تلك الحدائق بَصُرَ بيت صغير جميل ذي دور واحد ينبعث من نافذته نور . وحدّق من خلال الزجاج فعلمه حين بلغ الحانة من قبل ، فرأى غرفة رحبة بُيِّضَتْ بماء الكلس ، تحنوي على مرير مجلّال بالشيت المطبوع ، ومهد قائم في الزاوية ، وبضعة كراسي خشبية ، وبندقية ذات اسطوانتين معلقة على الجدار . وكانت في وسط تلك الغرفة طاولة ، وكان مصباح نحاسي يضيء غطاء الطاولة الابيض الحشن . والتسع ابريق صفيحي متّرع بالحر و كأنه الفضة ، وتساعد البخار من صحن الشورباه الأسمر . والى هذه المائدة كان يجلس رجل في نحو الاربعين ، بهيج الفؤاد منطلق الاساور ، يلعب على ركبتيه طفلاً صغيراً . وغير بعيد منه كانت امرأة شابة توضع طفلاً آخر . كان الوالد يضحك ، وكانت

الولد يضحك ، وكانت الأم تبسم .

وظل ابن السبيل لحظة يتأمل هذا المشهد المذب المهدي ، للاعصاب . ما الذي دار في تخليده ؟ كان هو وحده القادر على ان يجيب عن ذلك . ولعله قد مكثر بأن هذا البيت السعيد لا بد ان يكون مضافاً ، وبأنه قد يجد قليلاً من الشفقة حيث وقع بصره على هذه السعادة كلها .

ونقر على الزجاج النافذة نقرةً واهنة .

ولم يسمعه احد .

ونقر كرةً اخرى .

وسمع المرأة تقول لزوجها :

- « تخيل اليّ ان ثمة شخصاً يقرع النافذة . »

فأجاب الرجل : « لا »

ونقر على الزجاج مرةً ثالثة . فنهض الزوج ، وحمل المصباح ، وفتح الباب . كان رجلاً فارغ الطول ، نصفه فلاح ، ونصفه من اصحاب الصنائع . وكان يرتدي منيراً جلدياً رحباً ارتقى حتى كشفه اليسرى وشكّل جيباً مخدوي على مطرقة ، ومنديل احمر ، وقرون بارود ، ومختلف ضروب الاشياء التي ينتظمها الحزام . وادار رأسه الى وراء . فكشف قميصه الواسع المنتوح عن رقبة البيضاء العارية الشبيهة برقبة الثور . كان ذا حاجبين غليظين ، وشارين ضخمين سوداوين ، وعينين جاحظتين . وكان الجزء الادنى من وجهه محجوباً ، والى ذلك كله فقد كانت تغلب عليه سيا الرجل الآمن في بيته ، الآخذ اكبر قسط من الحرية والراحة ، وهي سيا لا سبيل الى وصفها البتة .

وقال المسافر : « سيدي ، ألمس عفوك : هل تستطيع ان تقدم اليّ ، لقاء مبلغ من المال ، صحناً من الحساء ، وزاوية في السقفة التي في حديقتك أنام فيها ؟ قل لي هل تستطيع ان تقدم اليّ ذلك ؟ لقاء مبلغ من المال أدفعه ؟ »

فأله صاحب الدار : « من أنت ؟ »

فأجاب الرجل : « لقد اقبلت من نوري مواسون ؟ لقد مشيت طوال النهار .

لقد قطعت اثني عشر فرسخاً . هل تستطيع ؟ اذا دفعت اليك مالا ؟
فقال الفلاح : « انا لا أرفض أن أؤوي أي رجل ملائم يدفع أجر ذلك .
ولكن لماذا لا تذهب الى الفندق ؟ »

- « ليس ثمة منسع . »

- « بآه ! هذا مستحيل . ليس اليوم موعد ممرض ولا سوق عامة . هل
قصدت الى تزل لا بآه ؟ »

- « نعم . »

- « ثم ماذا ؟ »

فأجاب المسافر في تردد :

- « لست ادري . لقد رفض ان يؤويني . »

- « هل قصدت الى ذلك المكان الذي في شارع دو شوفر ؟ »

فتعاطف ارتباك الرجل الغريب ، ونتم :

- « لقد رفضوا إيوائي هناك ايضاً . »

ورأته على وجه الفلاح انطباعة ارتياح . ونظر الى الوافد الجديد من
قمة رأسه الى اخمص قدميه ، ثم صاح فجأةً وقد استبدت به ضرب من الارتعاد :
- « أنت ذلك الرجل ؟ »

وعاود النظر الى الغريب ، وارتد الى الوراء ، فوضع المصباح على الطاولة ،
ونزع بندقيته عن الجدار .

ولم تكذ زوجته تسمع قوله : « أنت ذلك الرجل ؟ » حتى أجفلت ،
وضمت ولديها بين ذراعيها ، وسارعت الى الاحتماء خلف زوجها . ونظرت الى
الرجل الغريب في ذعر ، عارية العنق ، مشدوهة العينين ، وضغمت في صوت
خفيض :

- « Tre . maraude ! » *

« من كلام سكان مناطق الالب الفرنسية ، ومماها : هرة تهرق غلات الارض قبل ان تمجد ،
أو كما يسرق الجنود زمن الحرب . »

جرى ذلك كله في وقت اقصر من ذلك الذي يحتاج اليه المرء لكي يقرأ نبأه . وبعد ان تأمل الرجل كما يتأمل الانسان أفعى ، تقدم رب الدار الى الباب وقال :

« أخرج من هنا ! »

فقال الرجل : « باسم الشفقة ، أعطني جرعة ماء ! »

فأجابه الفلاح : « سوف اعطيك طلقاً نارياً ! »

ثم إنه اوصد الباب في عنف . وسمع الرجل مغلقين ثقيلين 'سحبان . وما هي الا لحظة حتى أغلقت النافذة الخشبية وقُضبت * بالحديد على نحو صاحب . وواصل الليل هبوطه . وهبت رياح الألب القارسة . وعلى ضوء النهار المحتضر لمح الرجل الغريب في احدى الجناح المواجهة للشارع - شبه كوخ هنيء من اللبن . وفي عزم ، اجتاز بسياج خشبي ، فألقى نفسه في الحديقة . ودنا من الكوخ . كان بابه كناية عن فتحة ضيقة شديدة الانخفاض ، وكان هو اشد شيء بتلك الاكوخ التي يقيمها معبدو الطرق لأغراضهم المؤقتة . ولقد ظن الرجل الغريب ، من غير شك ، انه كان في الواقع مأوى معبد طرق . وكانت يقاسي ألم البود والجوع جميعاً . ولقد أذعن للجوع واحتله ، ولكن هنا وقاية من البود على الاقل . وقد جرت العادة بأن يكون هذا الضرب من الاكوخ غير آهل في اثناء الليل . فانطرح على الارض وزحف الى الكوخ . كان الجو دافئاً هناك ، ولقد وجد ثمة فراشاً جيداً من قش . واستراح على هذا الفراش لحظة ، عجز خلالها عن ان يأتي بحركة لشدة ما ألم به من الاعياء . واذ أزعجه كيبه المشدود الى ظهره ، وإذا كان في ميسوره ان يتخذ من ذلك الكيس وسادة ، فقد شرع يفك احد سيوره . وفي تلك اللحظة طرق سمعه نباح ضارٍ ؛ فرفع عينيه فاذا به يرى عند وصيد الكوخ كلباً ضخماً الرأس والعنق .

كان ذلك المكان وجارٍ كلب !

* قضبه بالحديد : وضع أحدئناه ليفيد معنى : أحكم إغلاق الباب او غيره بالقضبان الحديدية .

وكان هو نفسه شديد اليأس راعباً ، فشهر عصاه ، واتخذ من كيسه
مجنّاً ، وغادر الجار على خير ما كان في وسعه ان يفعل ، وقد اتست خروق
ثيابه وتعاطت .

وغادر الحديقة أيضاً ، ولكن مرتدّاً الى الوراء ؛ وقد اضطرّ ، تمّتباً
للكتاب ، الى ان يصطنع بعصاه تلك المناورة التي يدعوها المتبرسون بلعبة السيف
والترس « الرودة المحجوبة » .

حتى اذا عاود الونوب ، في مشقة ، من فوق السياج ، ألقى نفسه وحيداً ،
كرة اخرى ، على قارعة الطريق ، من غير مرقد ، ومن غير سقف ، ومن
غير مأوى ؛ بل ألقى نفسه طريداً حتى من الفراش القشبي الذي وقع عليه في ذلك
الوجار الحفير . ثم انه طرح نفسه ولا نقول جلس -- على حجر ، وبدا وكأن
عابراً مرّ به سمعه يصيح :

— « أنا لست حتى كلباً ! »

ثم خض ، وأنشأ يتسكع من جديد ، متجهاً نحو ظاهر البلدة ، رجاء ان
يجد شجرة او ركناً ما في بعض الحقول حيث يستطيع ان يبيت ليلته تلك .
وواصل السير على هذا النحو ، فترة ما ، مطرق الرأس ابدأ . حتى اذا
خيل اليه انه أمسى بعيداً عن المنطقة الآهلة بالبشر رفع عينيه ، واجالها في ما
حوله مستطلعاً . كان في حقل من الحقول ؛ وكانت امامه احدى تلك التلال
المنخفضة المغطاة بقش الزرع المجزوز من أعقابه ، والتي تبدو بعد الحصاد اشبه
شيء برؤوس حليقة .

كان الافق قائماً مظلماً جداً ؛ ولم يكن ذلك بسبب من ظلمة الليل فعسب ،
ولكن بسبب من السحب الشديدة الانخفاض التي تراءت وكأنها تنكبيء على
الكثيب نفسه ، والتي ارتقت مغطية السماء برمتها . بيد ان بعض الغسق تباطأ في
ممت الرأس ؛ وإذا كان القمر على وشك ان يطلع فقد شكلت تلك السحب في
كبد السماء قوساً ضارباً الى البياض اتبعث منه فوق الارض بعض الضياء .
كانت الارض إذن أحفل بالنور من السماء ، وهي حال ترقع في النفس أثراً

مشووماً الى حد بعيد . وارنسم الكتيب ، الفقير الحفير ، باهتاً شاحباً على
الافق القاتم . وكان ذلك كله قبيحاً ، وضيقاً ، فاجعاً ، محدوداً . ولم يكن في
الحقل او على الكتيب غير شجرة شائخة - على بضع خطوات من المسافر - شجرة
واحدة بدت وكأنها تلوي نفسها وتنتشى .

وواضح ان هذا الرجل كان بعيداً جداً عن ان يملك تلك السجايا العقلية
والعاطفية الرقيقة التي تهب المرء حساسةً لمشاهد الطبيعة الممتعة على الفهم . ومع
ذلك فقد كان في تلك السماء ، وذلك الكتيب ، وهذا السهل ، وهذه الشجرة
شيء موحش الى درجة جعلت الرجل ينقلب على عقبيه ، بعد لحظة من الكون
والتأمل ، ويسارع الى الطريق العام . إن تلك لحظات تبدو الطبيعة خلالها مخاصمةً
معادية .

لقد ارتدت على آثاره . كانت ابواب د ... موصدة . ذلك بأن د ... التي
قاست ضروب الحصار اثناء الحروب الدينية كانت لا تزال محاطة ، سنة ١٨١٥ ،
بأسوار عتيقة تقوم على جنباتها ابواب مربعة نُحِرَّت منذ ذلك العهد . فما كانت
منه إلا ان عبر من خلال إحدى الثغرات ، ودخل البلدة .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساءً ، تقريباً . واذ لم يكن يعرف الشوارع ،
فقد عاود السير على غير هدى . وهكذا انتهى الى دار المحافظ ، ثم الى معهد
الكيركي . حتى اذا مرَّ بساحة الكاتدرائية هزَّ جمع كففه في وجه الكنيسة .
وكانت في زاوية هذه الساحة مطبعة . هناك كانت تُطبع ، اول مرة ،
بيانات الامبراطور والحرس الامبراطوري للجيش ، بعد أن يُبليها نابوليون
نفسه ، وتُحمل من جزيرة ألبا .

وإذ كان الاعياء قد أنهكه ، وإذ كان لا يطمع في شيء أفضل ، فقد استلقى
على مقعد حجري تجاه تلك المطبعة .

وفي تلك اللحظة بالذات خرجت من الكنيسة امرأة عجوز . فرأت هذا
الرجل مستلقياً في الظلام فقالت :

« ماذا تفعل هناك ، أيها الصديق ؟ »

فأجابها في قفظة والغضب بازج صوته :
- « انت ترين ، اينها المرأة الصالحة ، أني أزمع أن انام . »
وكانت المرأة الصالحة ، الجديرة بهذا الرصف حقاً ، هي مدام المركيز دو
و ...

وقالت : « على هذا المقعد ؟ »
فقال الرجل : « لقد سلطعتُ تسع عشرة سنة وأنا أنام على فراش خشبي .
أما الليلة فسأنام على فراش حجري . »
- « أكنت جندبياً ؟ »
- « نعم ، يا سيدتي الصالحة ، جندبياً . »
- « لم لا تذهب الى الفندق ؟ »
- « لأنه لا مالَ عندي . »
فقالت السيدة دو و ... : « وآسفاه ، ليس في محفظتي غير اربعة فلوس . »
- « امنحيني إياها . »

وأخذ الرجل الفلوس الاربعة . وتابعت مدام دو و ... كلامها :
- « هذه الفلوس المعدادات لن تمكّنك من المبيت في فندق . ولكن هل
حاولت ؟ إن من المتعذر عليك ان تقضي الليل هكذا . ولا بدّ انك تشكو
البرد والجوع . ينبغي ان يقدموا اليك مأوى تبيت فيه من غير ما مقابل .
يجب ان يفعلوا ذلك صدقةً وإحساناً . »
- « لقد طرقتُ كل باب . »
- « حسن ، ثم ماذا ؟ »
- « ولقد طردني كل إنسان ! »

ومست العجوز ذراع الرجل ودلّته الى بيت صغير منخفض قائم في الناحية
الاخرى من الساحة ، غير بعيد عن قصر الاسقف .
وقالت : « تقول انك طرقت كل باب ؟ »
- « نعم . »

— « هل طرقت الباب الذي هناك ؟ »

— « لا . »

— « أطرقه إذن ! »

٢

الفطنة تستسلم للحكمة

تلك الليلة ، مكث اسقف د... في غرفته - بعد أن قام بنزهته في البلدة - حتى ساعة متأخرة . كان منصرفاً الى العمل في مؤلفه الضخم عن « الواجبات » ، هذا المؤلف الذي لم يتم مع الاسف . لقد شرّح ، في عناية ، كل ما قاله آباء الكنيسة والثقات من رجال الدين في هذا الموضوع الخطير . وكان كتابه ينقسم قسمين : الاول ، في واجبات المجموع ؛ والثاني ، في واجبات كل واحد ، وفق الطبقة التي ينتمي اليها . وواجبات المجموع هي الواجبات الكبرى . وثمة أربعة من هذه الواجبات اشار اليها القديس متى ، وهي : واجبات نحو الله (متى ٦) ، وواجبات نحو انفسنا (متى ٥ آية ٢٩ ، ٣٠) وواجبات نحو جيراننا (متى ٧ آية ١٢) وواجبات نحو المخلوقات (متى ٦ آية ٢٠ ، ٢٥) . اما الواجبات الاخرى فقد ألفاها الاسقف محدّدة وموصوفة في مكان آخر . فواجبات الملوك والرعايا في « رسالة بولس الرسول الى اهل رومة » ، وواجبات الولاة ، والزوجات ، والامهات ، والشبان في « رسالتي بصرس الرسول الاولى والثانية » ، وواجبات الازواج ، والآباء ، والاولاد ، والخدم في « رسالة بولس الرسول الى اهل أفسس » ، وواجبات المؤمنين في « الرسالة الى العبرانيين » ، وواجبات العذارى في « رسالتي بولس الرسول الاولى والثانية الى اهل كورنثوس »

• الى هذه كلها من اسفار الانجيل او « العهد الجديد » .

وفي جهد شاق أفرغ هذه النصائح جميعها في كلِّ متناغم كان يودُّ ان يقدمه الى النفوس .

وكان لا يزال منصرفاً الى عمله ، في الساعة الثامنة ، يكتب في شيء من الانزعاج على قصاصات صغيرة من الورق ، واضعاً على ركبتيه كتاباً ضخماً مفتوحاً ، عندما اقبلت السيدة ماغلوار ، جريئاً على عاداتها ، تأخذ آنية الفضة من الخزانة الجدارية الصغيرة المجاورة للسريـر . وبعد لحظة اغلق الاسقف كتابه - وقد ادرك ان المائدة قد مُدَّت ، وأن أخته قد تكون في انتظاره - ومضى الى حجرة الطعام .

وكانت هذه الحجرة غرفةً مستطيلة ، ذات موقد ، وذات باب يتفتح على الشارع كما سبق منا القول ، وناغدة تطلّ على الحديقة . وكانت السيدة ماغلوار قد اتمت في الواقع وضع الاطباق . وفيما هي 'تعدّ' المائدة كانت تتحدث الى الآنسة بانيسـتين . وكان على المائدة مصباح . وكانت المائدة قرب الموقد ، حيث اضطربت نارٌ قوية .

وفي ميسور المرء ان يتخيّل ، في سهولة ، هاتين المرأتين اللتين تجاوزت كل منهما الستين من العمر : السيدة ماغلوار ، قصيرة ، بدنية ، نشيطة ، والآنسة بانيسـتين ، عذبة الروح مهزولة ، واهنة ، أطول بعض الشيء من أخيهما ، وترتدي ثوباً حريراً اسمر محمراً (وهو لون كان شائعاً عام ١٨٠٦) استرنه آنذاك في باريس ولا يزال يخدمها . ولكي نستعير زياً في التعبير يناز بقدرته على ان يقول بكلمة واحدة ما لا تعبّر عنه صفحة كاملة الا بشق النفس نصّ على ان السيدة ماغلوار كانت تبدو عليها سيما الفلاحة ، في حين ان الآنسة بانيسـتين كانت تبدو عليها سيما السيدة . وكانت السيدة ماغلوار تعتمر قلنسوة بيضاء ، قمعيّة الشكل ، ويطوّق عنقها صليبٌ ذهبي صغير كالذي يحمله اهل الاريف - وهي الحلية النسوبة الوحيدة في ذلك البيت - وترتدي منديلَ عنقٍ ناصع البياض ينبثق من ثوبها الصوفيّ الحشن الاسود ذي الردين الواسعين القصيرين ، ومثراً

من تماش قطني تزينه مربعات حمراء وخضراء معقوداً عند الحصر بعصابة خضراء ، و « كشكش » صدر من النوع نفسه ' مثبناً بدبوسين عند زاويتيهِ العلويتين ؛ وتنتعل حذاء غليظاً ، وجوربين صفراوين مثل نساء مرسيليا . اما ثوب الآنسة باتيستين فكان مفصلاً وفقاً لزيّ عام ١٨٠٦ - خصر قصير ، وهذب ضيق ، وردنان عالي الكتفين ، وعريّ وأزرار . وكانت تخفي شعرها الاشيب تحت لمّة مستعارة جمدة تدعى *à l'enfant* * وكانت تبدو على عجا السيدة ماغلوار أمارات الذكاء والنشاط والطيبة . وكانت زاويتا فمها المرتفعتان على غير نساوي ، وشفتها العليا التي تفوق شفتها السفلى ضخامةً ، تخلع عليها مـحة « نكدة » متعطّرة . كانت تتحدث الى الاسقف - ما اعتصم هو بالصمت - في عزم وفي مزيج من الاحترام والحربة ، ولكنه ما إن يفتح فمه ، كما قد رأينا ، حتى نذعن له من غير تردد ، مثل الآنسة باتيستين . اما الآنسة باتيستين فما كانت لتتكلم . لقد قصّرت نفسها على الطاعة والرغبة في الأرصاء . وحتى حين كانت صبيةً ، لم تكن جميلة . كان لها عينا زرقاوان كبيرتان جاحظتان الى حد بعيد ، وأنف طويل أعقف ، ولكن وجهها كله ، وشخصها كله ، كانا كما رأينا بتضوّعان بطيبة تمتنع على الوصف . لقد كانت مصطفاة ابدأ للوداعة ؛ ولكن الايمان ، والمحبة ، والامل - هذه الفضائل الثلاث التي تدفيء القلب في رفق - كانت قد سمّت بهذه الوداعة شيئاً بعد شيء حتى بلغت بها مستوى القداسة . لقد جعلتها الطبيعة سخلاً ، ثم جاء الدين فجعلها ملاكاً . مسكينة تلك المرأة القدسية ! إنها ذكرى عذبة ، ولكنها ضائعة !

وكانت الآنسة باتيستين قد أكتوت منذ ذلك الحين من رواية ما حدث في منزل الاسقف آنذاك الى درجة جعلت كثيراً من الناس الذين ما يزالون على قيد الحياة قادرين على ان يتذكروا أدق تفاصيله .

فلحظة دخل الاسقف ، كانت السيدة ماغلوار تتحدث في شيء من الحرارة . كانت تتحدث مع الانسة باتيستين في موضوع مألوف ، ثم ودّ الاسقف السماع

« أي : « على غرار الاطفال » .

اليه . كان حديثاً يدور حول وسائل إبعاد الباب الخارجي .
لقد بدا وكأن السيدة ماغلوار ، حين غادرت المنزل لتشتري الاغذية
الضرورية للعشاء ، سمعت انباء تروى في مواطن شتى . كان القوم يتحدثون عن متسكع
خبيث المنبت ، عن متشرّد مشبوه ، وقد على البلدة ، وكانوا يقولون انه انتهى
الآن من غير شك الى مكان ما منها . وإن بعض الاحداث الكريهة قد تصيب
اولئك الذين يرجعون الى بيوتهم في ساعة متأخرة من تلك الليلة . والى هذا ،
فقد كانت أداة الأمن رديئة ، لأن كلاً من المحافظ والعمدة يكره الآخر ويرجو
ان يسيء اليه بأحداث مشؤومة ذات خطر . وان من واجب الحكماء من الناس
ان يكونوا هم شرطة أنفسهم ، فيعملوا على حماية انفسهم بأنفسهم . وانه ينبغي
على كل امرئ ان يسطع الحذر فيقلل بيته وبوصده بالمنزلاج وبقضبه بالحديد ،
ويحكم اغلاق ابوابه .

وأطالت السيدة ماغلوار الوقوف عند هذه الكلمات الاخيرة ، ولكن
الاسقف أقبل من غرفته حيث وجد لذع البرد ، وجلس امام النار ، وانشأ
يتدفأ ، لينصرف بعد ذلك الى التفكير في شيء آخر . إنه لم يسمع كلمة من
الحديث الذي تساقط من على لسان السيدة ماغلوار . فأعادته كرة اخرى .
وعندئذ غامرت الانسة باتيستين ، وكانت تود أن تشفي غليل السيدة ماغلوار من
غير أن تعيظ اخاها ، فقالت على استحياء :

— « اخي ، هل سمعت ما قالته السيدة ماغلوار ؟ »

فأجاب الاسقف : « لقد سمعت بعضه ، على نحو غامض . »
ثم انه ادار كرسية نصف دورة ، ووضع يديه على ركبتيه ، وقال رافعاً نحو
الخادم العجوز وجهه الودود البشوش الذي اضاءه وهج النار :

— « حسن ، حسن ! ما المسألة ؟ هل نحن اذن في خطر عظيم ؟ »

عندئذ اعادت السيدة ماغلوار رواية الخبر من أوله ، مبالغة في ذلك بعض
الشيء على غير وعي منها . لقد بدا ان عجرباً حافي القدمين ، أو قل شحاذاً
خطراً ، قد ألمّ بالمدينة . لقد التمس المأوى في فندق لابرّ ، ولكنه ابى ان

يستقبله . ثم رُئي يدخل المدينة من جادة غاساندي ويهيم على وجهه في الشوارع عند الغسق . إنه رجل ذو كيس وحيل ، وإن له لوجهاً فظيماً .
فقال الاسقف : « حقاً ؟ »

ووجدت السيدة ماغلوار في سؤاله هذا ما شجعها . لقد بدا لها وكأنه يؤذن بأن الاسقف لم يكن في نجوة من الجزع . فتابعت كلامها في لهجة المنتصر .
— « أجل ، مونسينيور . ما أقوله صحيح . وسوف يقع شيء ما ، هذه الليلة في المدينة . إن الناس جميعاً يقولون ذلك . إن ادارة الشرطة فاسدة جداً (تكرأو مفيد) . تصور أننا نعيش في هذا الاقليم الجبلي ، وليس عندنا حتى مصاييح نضاء في الشوارع ليلاً ! فاذا ما غادر المرء بيته وجد نفسه في ظلمة كظلمة الجيب . واما اقول يا صاحب السيادة ، والآنة تقول معي ايضاً ... »
فقاطعتها الاخت : « انا ؟ أنا لا اقول شيئاً . كل ما يعمل أخيه هو عندي حسن . »

وتابعت السيدة ماغلوار كلامها وكأنها لم تسع هذا الاحتجاج :
— « نحن نقول ان هذا البيت ليس آمناً على الاطلاق . واذا سمح لي صاحب السيادة فعندئذ أمضي الى بولين موزبوا ، القفال ، وأدعوه لكي يعيد تسليح الباب بالمزالج القديمة . انها هناك ، ولن يستغرق ذلك كله غير دقيقة واحدة . اقول إن علينا ان نركب المزالج ، يا صاحب السيادة ، ولو من اجل هذه الليلة فعمسب . لأنني اعتقد ان الباب الذي يستطيع اول غابر ميل ان يفتحه من خارج بواسطة سقاطة ، هو غابة في الفضاء . وفوق هذا ، فان من دأب صاحب السيادة ان يقول دائماً : « أدخل ! » حتى في منتصف الليل . ولكن ، يا سيدي ! ليس ثمة حاجة الى التماس الأذن ... »

وفي تلك اللحظة قرع الباب في عنف ، فقال الاسقف :
— « أدخل ! »

بطولة الطاعة العمياء

وُفتح الباب .

'فتح في خفة' ، وعلى نحو واسع جداً ، وكأننا دفعه امرؤ ما في قوة وعزم .
ودخل رجل .

إنه رجل عرفناه من قبل . انه ابن السبيل الذي رأيناه منذ حين هائماً على وجهه يلتمس مكاناً يبيت فيه .

لقد دخل ، وخطا خطوة ، ثم تمهل ، تاركاً الباب وراءه مفتوحاً . كانت يحمل كيسه على كتفه ، ويمسك عصاه في يده ، وكانت ترين على عينيه سباً خشنة ، قاسية ، متعبة ، ضاربة ، كشفت عنها نار الموقد . كان راعباً . وكان طيقاً 'ينذر بالشؤم' .

ولم تجد السيدة ماغلوار حتى القوة على الصباح . لقد وقفت مرتعدة الاوصال ، فاغرة الفم .

واستدارت الانسة باتيسين ، فرأت الرجل يدخل ، فنهضت نصف مذعورة . ثم إنها ارتدت ، في بطة ، نحو نار الموقد ، ونظرت الى اخيها ، ففدا وجهها ساكناً جداً ، رائقاً جداً .

ونظر الاسقف الى الرجل بعينٍ مطمئنة .

وفيما هو يفتح فمه لكي يسأل الوافد الجديد - من غير شك اي شيء يريد اتكأ الرجل بيديه الاثنتين على عصاه ، ونقل طرفه من الرجل المعجوز الى كل من المرأتين . ومن غير ان ينتظر كلمة ما من الاسقف ، قال في صوت عال :
- « اسمع ! أنا أدعى جان فالجان . انا رجلٌ 'حكم عليه بالاشتغال الشاقة' .
لقد سلختُ تسعة عشر عاماً في سجن المحكومين بتلك الاشغال . ومنذ اربعة ايام أطلقت سراحى ، فمضيت لسبيلي في اتجاه بوتارليه ، التي أقصد اليها . وها

قد انقضى على مسيري من طولون اربعة ايام ، اجتزت خلالها اثني عشر فرسخاً .
وحين وصلت اليلة الى هذا البلد ، قصدت الى احد الفنادق ، فطردوني بسبب
من جوازي الاصفر الذي أبرزته في مكتب العمدة . لقد كان إبرازي الجواز
قرضاً واجباً . وشخصت الى فندق آخر فقالوا لي : « أخرج من هنا ! » لقد
وقفوا كلهم مني موقفاً واحداً . إن احداً لم يرحب بي . لقد قصدت الى السجن ،
فأبى البواب ان يفتح لي . وزحفت الى وِجار كلب ، فعضني الكلب ، وطردني
وكانه رجل ؛ لكننا كان هو ايضاً يعرف من أنا . ثم مضيت الى الحقول كي
انام تحت النجوم . فلم يكن ثمة نجوم . وحسبت ان المطر سوف يهطل ، ولم
يكن ثمة رب رحيم يحول دون انهاره ، وهكذا رجعت الى البلدة بحثاً عن سقف
يؤويني . وهناك في الساحة العامة انطرحت على حجر ، فدلتني امرأة صالحة على
بيتك وقالت : « اطرق ذلك الباب ! » وها قد طرقت . ما هذا المكان ؟ أهو
فندق ؟ إن لديّ مالاً ؛ إنه مجموع ما ادخرته . مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر
« سو » كبتها في السجن اثناء عملي طوال تسعة عشر عاماً . سوف ادفع . ماذا
يهمني ؟ ان لديّ مالاً . انا متعب جداً - اثنا عشر فرسخاً قطعتها على قدمي ،
وانا جائع جداً . هل يستطيع ان أبقى ؟ »

فقال الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار ، ضعي طبقاً آخر . »

وخطا الرجل ثلاث خطى ، واقترب من المصباح القائم على المائدة ، ثم صاح
وكانه لم يفهم جيداً :

-- « قف . ليس الامر كذلك . هل فهمتني ؟ انا رجل حُكِم عليه بالاشغال
الشاقة . مجرم خرج من السجن منذ فترة قصيرة . (وسحب من جيبه ورقة
كبيرة صفراء ونشرها .) هذا هو جوازي . إنه اصفر كما ترى . وهذا وحده
كاف لأن يطردني الناس من اي مكان أقصد اليه . أتحب ان تقرأ ؟ أنا أعرف
القراءة ؛ أجل أعرف . لقد تعلمتها في سجن المحكومين بالاشغال الشاقة . إن هناك
مدرسة يتعلم فيها من يرغب من السجناء . أنظر ، هذا ما كتبوه على الجواز :
« جان فالجان ، محكوم بالاشغال الشاقة أطلق سراحه . من مواليد ... » (انت

لا نبالي بهذا) سلخ في السجن تسع عشرة سنة . خمس سنوات لارتكابه جريمة السرقة مع الكسبر ؛ واربع عشرة سنة لمحاولة الفرار من السجن اربع مرات . إنه رجل خطرٌ جداً . « رأيت ! لقد طردني الناس جميعاً ، فهل تريد ، انت ، ان تستقبلي ؟ هل هذا فندق ؟ هل تستطيع ان تقدم اليّ شيئاً آكله ، ومكاناً انام فيه ! هل عندك إسطلج ؟ »

فقال الاسقف : « ايها السيدة ماغلوار ، ضعي بعض الاغطية البيضاء على سرير المُنخدع . »

لقد سبق لنا أن وصفنا نوع الطاعة التي غلبت على هاتين المراتين . والتفت الاسقف الى الرجل :

— « ايها السيد ، اجلس وتدفأ . سوف نتناول طعام العشاء بعد لحظة . وسوف 'يهيا' فراشك فيما انت تتعشى . »

واخيراً فهم الرجل جيداً . وطففت على وجهه الذي كانت انطباعه حتى الآن قائمة صارمة - طففت على وجهه هذا انطباعة من الذهول ، والشك ، والابتهاج ، وغداً غريباً حقاً . لقد أنشأ يتم مثل رجل معتوه .

« صحيح ؟ ماذا ؟ سوف تبقيني عندك ؟ انت لن تطردني ؟ محكوم عليه بالاشغال الشاقة ؟ انت تصاديني « ايها السيد » ! انت لا تخاطبني بضير المفرد ، ولا تقول لي « أخرج ، ايها الكلب ! » كما قال لي الناس دائماً . لقد حسيت انك ستطردني ، ولذلك قلت لك في الحال من أنا . أوه ! شكراً لتلك السيدة الطيبة التي هدتني الى هنا ! سوف اتناول عشاء ! وسوف انام في سرير ! سرير ذي فراش واغطية ! مثل سائر الناس ! لقد انقضت نزع عشرة سنة لم اتم خلاها في سرير ! اترغب حقاً في ان ابقي هنا ؟ أنتم أناس طيبون ! والى هذا ، فأنت عندي مالاً . سوف ادفع لكم بسطاء . ألتمس عفوك ، يا سيدي الفندق ، ما اسمك ؟ سوف ادفع كل ما تطلبه مني . انت رجل طيب . انت صاحب فندق ، اليس كذلك ؟ »

فقال الاسقف : « أنا كاهن يسكن هنا . »

فقال الرجل : « كاهن ! أوه ، كاهن نبيل ! واذن فأنت لن تتقاضاني شيئاً من المال ! انت القس ، اليس كذلك ؟ انت قس هذه الكنيسة الكبيرة ؟ أجل ، هذا صحيح . ما اشدّ بلاهتي ! أنا لم انتبه الى قلنسوتك ! »

وكان قد طرح ، فيما هو يتكلم ، كلاً من كبسه وعصاه في إحدى الزوايا ، ثم أعاد جوازه الى جيبه ، وجلس . ورنّت اليه الآنسة باتيستين في ابتهاج . وتابع كلامه :

— « انت شقوق ، يا سيدي القس . انت لا تحتقرني . إن الكاهن الطيب شيء عظيم . واذن فأنت لا تريد مني ان ادفع اليك اجراً . »
فقال الاسقف : « لا . احتفظ بمالك . كم معك ؟ لقد قلت مئة وتسعة فرنكات ، اليس كذلك ؟ »

فأضاف الرجل : « وخمسة عشر سو . »

— « مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر سو . وما المدة التي احتجت اليها حتى تكسب هذا المبلغ ؟ »

— « تسع عشرة سنة . »

— « تسع عشرة سنة ! »

وتنهّد الاسقف تنهداً عميقاً .

وتابع الرجل حديثه :

— « أنا لا ازال احتفظ بمالي كله . فمئذ اربعة ايام لم أنفق غير خمسة وعشرين

«سو» كسبتها من تقريغ العربات في غراس . ولما كنت كاهناً ، فيتعين عليّ أن اخبرك أنه كان عندما مرشد في سجن المحكومين بالاشغال الشاقة . وذات يوم رأيت أسقفًا . كانوا يتنادونه مونسينيور . وكان اسقف ماجور ، في مرسيليا . إنه الكاهن الذي يرأس جميع الكهنة . انت ترى — وألتمس منك العفو — كيف أنلعم في رواية ذلك ، ولكن هذا امسى الآن قديم العهد جداً بالنسبة اليّ . لقد

أقام قداساً في وسط السجن ، على مذبح . وكان يضع على رأسه شيئاً ذهبياً
محددًا والتسع هذا الشيء في وجه الشمس ، فقد كان ذلك عند الظهيرة . وكما
قد وقفنا صفًا ، في جهات ثلاث . والمدافع وذبالات المصابيح المشعلة أمامنا .
إننا لم نستطع ان نراه جيداً . لقد تحدث الينا ، ولكنه كان بعيداً جداً عنا .
إننا لم نفهمه . هذا هو ما ندعوه الاسقف .

وفيا هو يتكلم أغلق الاسقف الباب ، وكان مشرعاً على مداه .
وجاءت السيدة ماغلوار بطبق ، فوضعت على المائدة .
وقال الاسقف : « ايها السيدة ماغلوار ضعي هذا الطبق اقرب ما تستطيعين
الى النار . » ثم التفت الى ضيفه وأضاف :

- « إن رياح الليل قاسية في الألب . لا بد أنك تشكو البرد : يا سيدي . »
كانت اسارير الرجل تشرق كلما قال الاسقف بصوته الوقور الرفيق ، وبجس
وفادته وصدقها ، هذه الكلمة : « سيدي » . إن لفظة « سيدي » تقال لرجل
خارج من سجن الاشغال اشبه شيء بكوب ماء يقدم الى رجل يموت
ظماً في عرض البحر . إن الحزي ليتعطش الى الاحترام .

وقال الاسقف : « هذا المصباح لا يُوسل غير ضوء واهن جداً . »
وفهمت السيدة ماغلوار . فمضت الى حجرة نومه ، ورفعت الشمعدانين
الفضيين عن الموقد ، ثم وضعتها على المائدة بعد ان أضاءت الشمعتين .

وقال الرجل : « سيدي القس » ، أنت رجل صالح . انت لا تحترقني . أنت
ترحب بي في منزلك . انت تضيء شموعك من اجلي . مع اني لم أخف عليك من
ابن أقيمت ، وأي بائس أنا . »

وفي رفق ، مس الكاهن يده . وكان يجلس قريباً منه - وقال : « كان في
إمكانك ان لا تخبرني من انت . هذا ليس بيتي . إنه بيت يسوع المسيح . إن
هذا الباب لا يسأل الداخل ما اذا كان له اسم ، ولكن يسأله ما اذا كان ذا ألم .
أنت تتعذب . انت جائع عطشان . اهلاً بك . ولا تشكرني . لا تقس لي اني
استقبلك في بيتي . إن هذا البيت ليس بيت احد ، ما خلا ذلك الذي يلتمس

مفزعاً . اني أقول لك ، انت يا عابر السبيل ، إن هذا البيت هو بيتك اكنو منه
بيتي . وكل شيء هنا ، هو لك . فما حاجتي الى ان أعرف اسمك ؟ والى هذا ،
فقد عرفت اسمك قبل ان تعلمني به . »

وفتح الرجل عينيه في دهش .

— « حقاً ؟ أكنت تعرف اسمي من قبل ؟ »

فأجاب الاسقف : « أجل ، أنت تدعى أخي . »

فصاح الرجل : « قف ، قف ، يا سيدي القس . لقد كان الجوع يعضني حين
دخلت هذا البيت ، ولكنك كريم الى درجة تجعلني لا ادري ، الان ، ما لي .
لقد زابلني ذلك كله . »

ونظر اليه الاسقف ، كرة اخرى ، وقال :

— « هل تعذبت كثيراً ؟ »

— « أوه ، القبيص الاحمر ، وكرة الحديد المشدودة الى القدم ، ولوح

الحشب الذي نمت عليه ، والحر ، والبود ، والشغل ، وجاعة السجناء المحكومين
بالاشغال الشاقة ، والضرب بالعصي ! السلسلة المزدوجة من أجمل لا شيء .
والحبس في حجيرة مظلمة عقاباً على كلمة . والسلسلة حتى في حالات المرض
والانطراح في الفراش . ان الكلاب ، الكلاب ، هم اكثر سعادة ! تسع عشرة
سنة ! وأنا في السادسة والاربعين . والان ، هذا الجواز الأصفر !
ذلك كل شيء . »

فقال الاسقف : « أجل ، لقد فارقت موطن بلاه وعذاب . ولكن اسمع .

ان السماء لتبتهج للدموع التي يسفحها آثم تائب ، اكثر مما تبتهج لمئة بُرد أبيض
يرتديها مئة رجل صالح . فاذا غادرت ذلك المكان الأليم وكراهية الناس
والحقد عليهم يقفان قلبك فأنت تستحق الشفقة . واذا غادرته والمحبة
واللطف والسلام نعمة فؤادك فعندئذ تكون خيراً من اي امرئ منا . »
وكانت السيدة ماغلوار قد هيأت ، في غضون ذلك ، طعام العشاء . كان يتألف
من حساء أعدت بالماء ، وزيت ، وخبز ، وملح ، وقليل من شحم الخنزير ، وقطعة

من لحم الضأن ، وشيء من التبن ، وقطعة من الجبن الطازج ، ورغيف ضخم من خبز الجاودار . وكانت قد اضافت الى مائدة الاسقف العادية ، من غير ان يُطلب اليها ذلك ، زجاجة من خمر موف المعتقة .

وأشرق بحيا الاسقف بسيا الابتهاج تلك التي تميّز اصحاب النفوس المضيفة . وقال في نشاط :

— « الى المائدة ! »

وأجلس الرجل الى يمينه ، وفقاً لعادته كلما اتفق ان تناول طعام العشاء على مائدة ضيف ما . واتخذت الآنسة باتيستين مكانها ، هادئة جداً ، طبيعية جداً ، الى يساره .

وتلا الاسقف صلاة البدء بالطعام ، ثم سكب الحساء بنفسه ، وفقاً للآلوف عاداته . وشرع الرجل يأكل في نهم .

وفجأة قال الاسقف : « يبدو لي ان شيئاً ما ، يُعوز هذه المائدة . »

وفي الحق ، ان السيدة ماغلوار لم تضع على المائدة غير الاطباق الثلاثة الضرورية جداً . وكان العرف يقضي في هذا البيت بأن تُعرض الاطباق الفضية الستة كلها عرضاً بريئاً فوق المائدة ، كلما شارك الاسقف عشاءه ضيف ما . وكان مظهر النرف اللطيف هذا ضرباً من الصيانية حافلاً بالفتنة في هذا البيت الوداع القاسي الذي رفع الفقر الى مقام الشرف .

وفهمت السيدة ماغلوار الملاحظة ؛ وغادرت الحجرة من غير أن تقول كلمة . وبعد لحظة كانت الاطباق الثلاثة التي طالب بها الاسقف تومض على غطاء المائدة ، وقد رُتبت على نحو متناسق أمام كلٍّ من المشاركين في تناول العشاء .

تفاصيل حول مجابن * بونتارليه

ولسنا نرى ، لكي نعطي فكرة عما دار على هذه المائدة ، خيراً من أن ندرج هنا جزءاً من رسالة بعثت بها الآنسة باتيستين الى السيدة دو بواشيفرون راوية الحديث الذي جرى بين المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وبين الاسقف في ندقيتي سادج .

(... ولم يلتق هذا الرجل بالآ الى أحد . لقد أكل في شراهة رجل جائع . بيد أنه قال بعد العشاء :

- « سيدي أسقف الرب » ، ان هذا كله يكاد يكون اكثر مما أستحق . ولكن يتعين علي أن أقول ان سائقي العربات ، الذين لم يجيزوا لي ان آكل معهم ، يحيون حياةً اكثر ترفاً من حياتك . « وفي ما بيننا ، أقول لك ان تلك الملاحظة صدمتني بعض الشيء . « ولقد اجاب اخي قائلاً :

- « إنهم يتعبون اكثر مما أتعب . « فقال هذا الرجل : « لا ، إن لديهم مالاً اكثر . أنت فقير . أنا ألاحظ ذلك . لعلك لست حتى كاهناً . هل أنت كاهن وحسب ؟ آه ، اذا كن الرب عادلاً فعندئذ تستحق أن تكون كاهناً من غير ريب . « فقال اخي : « إن الرب اكثر من عادل . « وبعد لحظة أضاف :

* جمع بحية ، وهي مكان يبيع الجبن .

- « مسيو جان فالجان ، انت ذاهب الى بونتارليه ؟ »

- « إنها رحلة إلزامية . »

أنا واثقة تماماً ان ذلك هو التعبير الذي استعمله الرجل . ثم إنه أضاف :

- « ينبغي ان ابدأ المسير فجرّ غد . إنها رحلة شاقة . اذا كان الليل بارداً ، فالنهار حارّ . »

فقال اخي : « انت ذاهب إلى بلد طيب . ففي اثناء الثورة ، حين نكبت امرتي ، لجأتُ أولاً الى الـ « فرائش كوتيه » وأقمْتُ أودي هناك ببعض العمل اليدوي . كانت لديّ الشجاعة . لقد وجدتُ عملاً كثيراً ، ولم يكن عليّ إلا ان أختار . كانت مَصانِع ورق ، ومدايع ، ومعامل تقطير ، ومعامل زيت ، ومنشآت ضخمة لصنع الساعات ، ومصانع فولاذ ، ومسابك نحاس ، وعشرون مسبكاً للعديد على الاقل كانت اربعة منها - وهي كبيرة جداً - في لود ، وشاتيون ، وأودينكور ، وبور . »

أحسب اني غير محطّنة ، وان هذه هي الاسماء التي ذكرها اخي . ثم إنه قاطع نفسه ووجه الخطاب اليّ :

- « اينها الاخت العزيزة ، أليس لنا أنساب في تلك الديار ؟ » فأجبت :

- « كان لنا انساب . ومن هؤلاء مسيو لوسينه الذي كان « كابتين الابواب » في بونتارليه في العهد القديم . »

فأجاب أخى : « أجل ، ولكن في عام ٩٣ لم يعد لأحد انساب . كان كل امرئ يعتمد على يديه . لقد كدحت . إن عندهم في منطقة بونتارليه - حيث تعزم ان تذهب ، يا مسيو فالجان - صناعة مهمة جداً ، وساحرة جداً ، اينها الأخت . وانما اعني بجانبهم التي يدعونها . *Frustières* »

« ومنها في الاصل : الثمرات .

وعندئذ شرع اخي ، فيما يخدم هذا الرجل - على المائدة ، يشرح له في تفصيل ماعية بجانب بونتارليه هذه ، قائلاً إنها على نوعين متميزين : الاهراء الكبيرة التي يملكها الاغنياء ، وهي تحتوي على اربعين او خمسين بقرة ، وتنتج سبعة آلاف او ثمانية آلاف قطعة جبن خلال الصيف . والمجان المتشاركة التي يملكها الفقراء ؛ وفيها يضع فلاحو الجبل الاوسط ابقارهم على نحوٍ مشترك ويقتسمون نتاجها . وانهم يتأجرون جبّاناً يدعونه *Le grurin* ، وهذا الجبان ينسلم اللبن من المشاركين ثلاث مرات في اليوم الواحد ، ويدون المقادير في سجل ذي نسختين . ولما يبدأ عمل المجان في وخر نيسان ؛ وحوالي منتصف حزيران يسوق الجبّانوت ابقارهم الى الجبل .

واستعاد الرجل نشاطه فيما هو ياكل . وقدّم اليه اخي شيئاً من خمر موف الجيدة التي لا يشربها هو ، لانها غالية كما يقول . ووسط اخي له جميع هذه التفاصيل بذلك الابتهاج الدمث الذي تعهده فيه مازجاً حديثه ببعض المجاملات الموجهة لي . ولقد اطنب في الكلام على حالة الـ *Grurin* وكأنما كان يرغب في ان يفهم هذا الرجل ، من غير ان ينصحه بذلك مباشرة ومن غير ما تهيد ، أنه سوف يجسد في ذلك مَفْزَعاً يفي اليه . إن شيئاً أثر في . لقد كان هذا الرجل ما ذكرته لك ومع ذلك فإن اخي لم ينطق ، خلال العشاء ، وطوال السهرة ، في ما عدا بضع كلمات عن يسوع تلتقط بها حين دخل - أقول إن اخي لم ينطق بكلمة واحدة تستطيع ان تذكر هذا الرجل من هو ، او تذكره من هو اخي . لقد كانت ، في الظاهر ، فرصة ممتازة للاقاء عظة صغيرة ، ولرفع الاسقف فوق الجرم المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لسكي يتوك في ذهنه انطباعه . ولقد كان غيره خليقاً بأن يحسب ان من واجبه ، وقد وجد هذا الرجل التعس بين يديه ، أن يغذي روحه فيما

هو يغذي جسده ، وان يوجه اليه لوماً موشحاً بعبرة ونصيحة ، او على الاقل شيئاً من الرأفة المصحوبة بتعريضه على ان يسلك في المستقبل مسلكاً أفضل . إن اخي لم يسأله لا عن بلده ولا عن تاريخه . ذلك بأن جريمته كامنة في تاريخه ، ولقد بدا اخي وكأنه يجتنب كل ما يمكن ان يذكره بها . وذات لحظة ، فيما كان اخي يتحدث عن جبلي بونتارليه الذين يقومون بعمل بهيج قرب السماء والذين اضاف قائلاً : انهم سعداء لانهم ابرياء ، كفّ فجأة عن الكلام خشية ان يكون في هذه اللفظة التي نددت منه شيء يمكن أن يجرح مشاعر هذا الرجل . وبعد التفكير ، أحسب اني فهمت أي شيء كان يدور في خلد اخي . لقد فكّر ، من غير شك ، ان هذا الرجل ، الذي يدعي جان فالجان ، كان يستل بؤسه باكثر مما ينبغي ، وان من الخير أن يسلبه عن هذا البؤس ، وأن يوقع في نفسه ، ولو لحظة ليس غير ، أنه إنسان مثل سائر الناس ، بأن يسلك معه مسلكاً عادياً جداً . أليس هذا هو الفهم الصحيح للمحبة ؟ الانجدين ، يا سيدتي العزيزة ، شيئاً إنجيلياً حقاً في هذه الرقة التي تزهّد في الوعظ ، والقاء الدروس الاخلاقية ، وتوسيع الكلام بضروب الرمز والكناية ؟ ألا تقتضينا الرحمة الفضلى ، حين يشكو الانسان ألماً ما ، ان لانسته في موضع الألم على الاطلاق ؟ نجعل اليّ ان هذا هو في الحقي ما دار في خلد اخي . واياً ما كان ، فكل ما استطيع ان اقله هو انه اذا صحّ ان تلك الافكار كلها قد راودته فقد احجم عن أن يبديها حتى لي انا . لقد كان طوال الوقت شأنه في الليالي الاخرى كلها . ولقد تناول طعام العشاء مع جان فالجان هذا بالسّما نفسها ، والطريقة نفسها ، اللتين كان خليقاً به ان يصطنعها لو انه تعشّى مع مسيو جدعون ، رئيس الكاتدرائية ، أو مع كاهن الابرشية .

وحين أوشكنا على الانتهاء من تناول الطعام ، وفيما نحن نأكل شيئاً من
 التين ، طُرق الباب . وكان الطارق الأمّ جبرو وقد حملت طفلها
 الصغير بين ذراعيها . وقبّل أخي الطفل ، واستعار مني خمسة عشر
 « سو » كانت معي ليقدمها الى الام جبرو . وفي غضون ذلك ، لم
 يلتفت الرجل لما جرى غير التفات يسير . انه لم يتكلم ، ولقد بدا
 وكأنه متعب جداً . وغادرتنا السيدة المعجوز المسكينة ، وتلا أخي صلاة
 الشكر التي تُرفع بعد الطعام ثم التفت الى الرجل وقال له : « لا شك
 في انك بحاجة ماسة الى النوم . » وسارعت السيدة ماغلوار الى
 نزع الغطاء عن المائدة . وادركت ان علينا ان ننسحب لكي يكون
 في ميور هذا المسافر ان ينام ، فقصدنا كلانا الى غرفتنا . بيد اني ما
 لبثت ان ارسلت السيدة ماغلوار ، بعد لحظة ، لكي تضع على فراش
 هذا الرجل جلد بحمور * من « الغاية السوداء » كان في حجرتي . ان
 الليالي قارسة جداً ، وهذا الجلد يبعث الدفء . ومن أسف ان
 يكون هذا الجلد قديماً جداً ، وان يكون وبوه كاه قد زايله . لقد
 اشتراه أخي يوم كان بألمانية ، في توتلينجن ، قرب منابع الدانوب ،
 كما اشترى الكين الصغيرة ذات المقبض العاجي التي أستعملها على
 المائدة .

ورجعت السيدة ماغلوار في الحال ، وتلونا صلواتنا في الصالة التي
 نقيدها منها لنشر الغسيل وتنشيفه ؛ ثم انقلبنا الى حجرتنا من غير أن
 نقول كلمة . (

* الحمور ، او الروبك ، نوع من الغطاء .

سكون

وبعد ان عني مونينيور بينفينو لاخته ليلة سعيدة ، رفع أحد
الشمعدانين العشين عن المائدة ، وقدم الآخر الى ضيفه ، وقال له :
- « سوف اقودك الى غرفتك ، يا سيدي . »

وتبعه الرجل .

وكما أدرك القاريء مما قلناه آنفاً ، كان البيت منظماً على نحو يحتم
على من يريد بلوغ المصلى ، حيث المخدع ، او الخروج منه ، ان
يجتاز بحجرة نوم الاسقف .

وفي اللحظة التي اجتازا خلالها بهذه الحجرة ، كانت السيدة ماغلوار
تضع الآنية الفضية في الخزانة الجدارية القائمة عند رأس السرير . وكانت
ذلك آخر عمل تقوم به كل ليلة قبل ان تؤوي الى فراشها .

وغادر الأسقف ضيفه في المخدع ، أمام فراش ابيض نظيف . ووضع
الرجل الشمعدان على طاولة صغيرة .

وقال الاسقف : « ارجو أن تنعم بليلة هانئة . وغداً صباحاً ،
سوف نشرب ، قبل ان تنطلق ، كوباً من لبن بقرتنا الحار . »
فقال الرجل : « شكراً ، يا سيدي الراهب . »

ولم يكذب ينطق بهذه الكلمات الناضجة بالمسألة حتى أتى فجأة ، ومن
غير ما تمهيد ، بحركة غريبة كانت جدية بأن تلقي الرعب في قلبي
العائسين الطاهرين لو أنها شهدناها . وحتى في هذه الآونة ، من العير

علينا ان نفهم لأيّ الحوافز خضع في تلك اللحظة . أياكون قد أراد ان يُرسل تحذيراً أو يلقي إنذاراً ؟ أم أنه كان يدعى بمجرد إذعان لحافز غَرَزيّ ليس يبجل هو نفسه كنهه ؟ فقد التفت فجأة نحو الرجل المعجوز ، وصالب ذراعيه ، مسدداً الى مُضيفه نظرة ضاربة ، وصاح في صوت أبجّ :

- « آه ، حقاً ! انت 'تنزلني في بيتك على مقربة منك على هذا الشكل ! »

ثم كبح نفسه ، و اضاف في ضحكة كان فيها شيء راعب :

- « هل فكرت في ذلك ؟ ما يُدريك أني لست سقّاك ؟ »

فأجابه الاسقف :

- « الرب سوف يتولى هذا . »

وفي خشوع ، حرك شفتيه كمن يصلي او كمن يخاطب نفسه ، ورفع اثنتين من أصابع يده اليمنى وبارك الرجل الذي لم يركع . ومن غير ان يدير رأسه وينظر الى الوراء مضى الى حجرته .

وحين احتلّ الخدع سُجبت ستارة صوفية ضخمة غليظة من جانب المصلّى الى جانبه الآخر ، حاجبة المذبح . وأمام هذه الستارة ركع الاسقف ، وصلى صلاة قصيرة .

وبعد لحظة كان يتمشى في جنينته مُسلماً عقله ونفسه جميعاً الى تأمل حالمٍ في تلك الاشياء العظيمة المحوطة بالامرار ، التي يجلوها الله ، في اثناء الليل ، للأعين التي لا تغمض اجفانها .

أما الرجل فكان من الاعياء بحيث لم يُفد حتى من الاغطية النظيفة البيضاء . لقد أطفأ الشمعة بأحد منخريه ، على طريقة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وانطرح على الفراش ، بثيابه التي يرتديها ، وغرق لتوّه في نوم عميق .

وأعلنت الساعة' منتصف الليل فيما كان الاسقف يغادر الحديقة عائداً
الى حجرة نومه .
وبعد لحظات ، كان كلّ من في البيت الصغير قد نام .

انتهى الجزء الاول
ويليه الجزء الثاني

البؤساء

لشاعر فرنسية العظيم
فيكتور هيجو

٢

نقله إلى العربية
مُنِير العَبَّاسِي

دار العالم للملايين
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

جان فالجان

وحوالى منتصف الليل ، استيقظ جان فالجان .
لقد وُلد جان فالجان من أسرة ريفية فقيرة في « بري » . وفي طفولته لم يُعلِّم القراءة . وحين بلغ مبلغ الرجال عمل مشدّب أغصان في فافيرول . كانت أمه تدعى جان ماتيو ؛ وكان أبوه يدعى جان فالجان ، أو فلاجان ، ولعله لقبٌ صُفِّط من لفظتي « فوالا جان » * .
كان جان فالجان ذا مزاج نزّاع الى التفكير ، ولكنه غير حزين ، وهو مزاج يميّز اصحاب الطباع العاطفية . بيد انه كانت ثمة على الجملة شيء متوانٍ جداً وعديم الجدوى جداً في مظهره على الاقل . لقد فقدَ والديه وهو بعدُ طفل . فأما أمه فقد توفيت إثر حمّى لبّ أُسيئت معالجتها . وأما أبوه ، وكان مشدّب أغصان من قبله ، فقد صرّع إثر سقوطه من احدى الاشجار . ولم يبق لجان فالجان بعد ذلك نسيب غير اخت اكبر منه سناً ، وكانت ارملة لها سبعة اولاد ، بنين وبنات . واحتضنت هذه الاخت جان فالجان وآوت أخاها الاصغر واطعمته ما بقي زوجها على قيد الحياة . ثم قضى الزوج نحبّه ، وعمرُ ابنه الاكبر ثمانى سنوات ، وعمر ابنه الاصغر سنة واحدة . وكان جان فالجان قد بلغ آنذاك سنّه الحامسة والعشرين ، فعلّ محلّ الأب ، وأعال بدوره تلك الاخت التي ربّته . وإنما فعل ذلك في صدق واخلاص ، بوصفه واجباً ، بل وفي ضرب من النكد والشكاسة . لقد أنفق شبابه على هذه

* Voilà Jean اي هوذا جان .

الشاكلة في عمل خشن شاقّ مطفئ الاجر . ولم يُعرف عنه قط انه كانت له في البلد حبيبة ؛ إنه لم يجد متعاً من الوقت للحب .

وفي المساء كان يرجع الى البيت متعباً ، ويتناول حساءه من غير ان يقول كلمة . وفيها هو يأكل ، كانت اخته ، الأمّ جانّ ، كثيراً ما تأخذ من صحفته خير ما فيها : قطعة اللحم ، وشطيرة شحم الخنزير ، وقلب الملفوفة ، لكي تقدسها الى احد اولادها . وكان هو يواصل الأكل ، منحنيّاً فوق المائدة ، وقد اوشك رأسه ان ينغرس في الحساء ، وتدلى شعره الطويل حول صحفه حاجباً عينيه ، وكأنه لا يعي شيئاً مما يجري حوله . وكان في كافيرول ، غير بعيد عن بيت فالجان ، وعلى الجانب الآخر من الطريق ، زوجة مزارع تدعى ماري كلود . وكان الاطفال من أسرة فالجان ، الذين كانوا يتضورون دائماً من الجوع ، يذهبون في بعض الاحيان فيستعيرون باسم أمهم كيلّ لبن كانوا يحسنونه خلف سياجٍ ما ، او في زاوية من الزقاق ، متنازعين الاثاء في نهم شديد الى حدّ ينتهي بالبُنيّات الى ان يسفحن اللبن على مآزرهن واعناقهن . ولو قد عرفت الام بهذه السرقة اذن لأتولّت بالمدنيين عقاباً قاسياً . وكان جان فالجان ، على خشونته وتضجره ، يدفع الى ماري كلود ، على غير علم من الأم ، ثمن اللبن ، وهكذا كان الاطفال ينجون من القصاص .

كان يكسب في موسم التشذيب ثمانية عشر دسو ، كل يوم . ثم إنه اشتغل بعد ذلك حاصداً ، ومعاون بناء ، وخادماً في مزرعة من مزارع البقر ، وعاملاً كادحاً . كان يقوم بأيام عمل يوفق اليه . واشتغلت اخته ايضاً ، ولكن اتى لها ان تعيل سبعة اطفال ؟ تلك كانت جماعة بائسة أحاط بها الشقاء وراح يطبق عليها شيئاً بعد شيء . وأقبل شتاء قاسٍ . ولم يقع جان على مهل . ولم يكن عند الاسرة خبز . اجل ، لم يكن ثمة خبز ، بالمعنى الحرفي ، وكان ثمة سبعة اولاد .

وفي مساء يوم من أيام الأحد ، كان موبير إيزابو ، وهو خباز في
ساحة الكنيسة في فايفرول ، على وشك ان يأوي الى الفراش عندما
سمع ضربة عنيفة على واجهة دكانه المزججة المشبكة بالحديد . وهرع في
الحال فاذا به يرى ذراعاً مخنوقة الشفرة التي نشأت عن ضرب الشبكة
والزجاج يجمع الكف . وقبضت الذراع على رغيغ ، واخرجته .
وانطلق إيزابو على جناح السرعة . واطلق السارق ساقيه للريح . ولحق
به إيزابو وقبض عليه . كان السارق قد اطرح الرغيغ ، ولكن ذراعه
كانت ما تزال تقطر دماً . ولم يكن ذلك الرجل غير جان فالجان .

وإنما حدث ذلك عام ١٧٩٥ . ومثلَ جان فالجان امام قضاة ذلك
العصر بنهمة « السطو ليلاً على بيت أهل ، والكسر تسهلاً للسرة » .
وكانت لديه بندقية اصطنعها كأحسن ما يصطنع رجل بندقيته ، وكان
الى حد ما قانصاً يتصيد في أملاك الآخرين ، وذلك ما آذاه ، اذ كان
تمة ضغينة طبيعية على المتحيدن في املاك الآخرين . إن القانص المتصيد
في املاك الآخرين ، كالمهرب ، يجاور قاطع الطريق مجاورة شديدة .
ومع ذلك ، فيتمتع علينا ان نقول ، في طريقنا ، إن تمة برزخاً عميقاً
بين هذا العِرْق من الرجال وبين سقّاح المدن الخفيف . إن المتصيد في
املاك الآخرين يحيا في الغابة ؛ والمهرب يحيا في الجبل او على متن البحر .
إن المدن تنتج رجالاً شرسين ، لانها تلتج رجالاً فاسدين . أما الجبل ،
والبحر ، والغابة فتنتج رجالاً وحشين . إنها تقوي في ابناؤها الجانب
الضاري ، ولكن من غير ان تُفسد في كثير من الاحيان الجانب
الانساني .

واعتبر جان فالجان مجرمًا ؛ فقد كانت نصوص القانون صريحة حاسمة .
إن في حضارتنا ساعات مخيفة ؛ تلك هي الساعات التي يعلن فيها قانون
العقوبات حكمه على رجل ما بالفرق أو السقوط . أية لحظة فاجعة تلك
التي ينسحب فيها المجتمع ويتخلى الى الابد عن كائن مفكّر ! لقد حكم

على جان فالجان بالجن خمس سنوات مع الاشغال الشاقة .
وفي ٢٢ نيسان ١٧٩٦ أعلن في باريس انتصار مونتبيوت * وقد
احرزها قائد جيش ايطالية العام الذي دعته رسالة حكومة الادارة ** الى
مجلس الخمسة في ٢ فلوربال من سنة الجمهورية الرابعة ، بونابوت *** .
وفي ذلك اليوم نفسه أوثقت سلسلة حديدية ضخمة في بيستر . وكانت
جان فالجان يشكل جزءاً من هذه السلسلة . وثمة سجان عجوز ، هو
اليوم في نحو التسعين من عمره ، لا يزال يذكر جيداً هذا الرجل البائس
الذي شُدَّ بالحديد عند اقصى القاعدة الحجرية الرابعة في الزاوية الشمالية من
الفناء . كان جالساً على الارض مثل سائر السجناء . ولقد بدا وكأنه
لا يفقه من وضعه شيئاً إلا انه وضع راعب . ولعله ان يكون قد
امتزج ايضاً ، بفكر الرجل الجاهل الغامضة شعور بأن في العقوبة شيئاً
من الافراط .

وحين كانوا يلوون مسارقيده بضربات مطرقة ثييلة أعمالها خلف
رأسه ، كان هو يبكي . لقد خنقته الدموع ، وحالت بينه وبين الكلام ،
فلم يوفق بين الفينة والفينة الى ان يقول غير هذه الجملة : « كنت
مشتدب أشجار في فارفيبول » . ثم إنه رفع يده اليمنى ، في غمرة
التنهّد ، وخفضها سبع مرات ، وكأنها كان يمسّ على التعاقب سبعة
رؤوس متفاوتة الارتفاع . ولقد كان في ميور المرء ان يجزر من هذه
الاباءات انه إنما فعل ما فعله لكي يطعم ويكسو سبعة اطفال صغار .

* Montenotte قرية ايطالية في مقاطعة جنوا . وقد جرت فيها سنة ١٧٩٦ معركة
شهيرة بين نابوليون ، والقوات النموية بقيادة « بوليرو » Beaulieu كان فيها النصر
حليف نابوليون .

** Directoire الاسم الذي يطلق على الحكومة التي تولى «مقابل الامر في فرنسا
ابتداء من ٢٧ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ (٥ برومير ، من سنة الجمهورية الرابعة)
والتي اسقطها الجنرال بونابوت في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ (١٨ برومير ، من
سنة الجمهورية الثامنة .)

Buonaparte ***

واقفد الى طولون على متن عربة ، قبلها إثر رحلة استغرقت سبعة وعشرين يوماً ، والقيد ما يزال بطروق عنقه . وفي طولون ألبس قميصاً أحمر . وهناك امحت حياته الماضية كلها ، حتى اسمه نفسه . إنه لم يعد جان فالجان . لقد غدا رقم ٢٤٦٠١ . ما الذي حلّ بالاخت ؟ ما الذي حلّ بالأطفال السبعة ؟ من الذي ازعج نفسه بذلك ؟ ما الذي يحلّ بحفنة الاوراق الحصراء حين تقطع الشجرة من جذعها ؟

إنها القصة نفسها دائماً . لقد مضت هذه الكائنات البشرية الحية ، هذه المخلوقات الالهية ، وقد تركت من غير سناد ، ومن غير هاد ، ومن غير مفرع - مضت الى حينها قادتها المصادفة . وهل من سبيل الى معرفة ذلك ؟ لعل كلاً منهم اتخذ طريقاً مختلفة ، وغرق شيئاً بعد شيء في ذلك الضباب القارس الذي يغمر المصارى لتوحدة ، تلك الظلمة الزكدة التي يختفي فيها كثير من الرؤوس الشقية خلال سير الجنس البشري المعتم . لقد نزحوا عن تلك الديار ، لقد نسينهم كنية القرية التي كانت قريتهم ، ونسبهم معلّم الحقل الذي كان حقلهم . وبعد بضع سنوات من مقامه في سجن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، نسيهم جان فالجان نفسه . لقد امسى وفي قلبه ندبة حيث كان من قبل 'جرّح' . هذا كل ما هنالك . وفي اثناء مقامه بطولون لم يسمع عن أخيه إلا مرة واحدة . وكان ذلك ، في ما أحسب ، في اواخر السنة الرابعة من سجنه . ولست ادري كيف بلغه النبا . لقد رأي أخيه رجلٌ من كانوا يعرفونه في بلده . كانت في باريس . كانت تحيا في شارع فقير قرب سان سوليس ، هو شارع جيندر . ولم يكن معها غير طفل واحد ، صبيّ طويّ العود ، كان هو اصغر الاخوة سناً . ابن كات السنة الآخرون ؟ لعلها هي نفسها لم تكن ندري . وكل صباح كانت تضي الى مطبعة تقع في رقم ٣ شارع ساو حيث كانت نظوي ملازم الكتب وتجلدها . وكان عليها ان تباشر عملها في العادة صباحاً ، اي قبل مدة

غير يسيرة من طلوع الشمس في أيام الشتاء . وكان في البناء الذي تشغله المطبعة مدرسة بعثت إليها بابنها الصغير ، البالغ عمره سبع سنوات . واذ كانت المدرسة لا تفتح أبوابها الا في الساعة السابعة ، واذ كانت مضطرة الى ان تلتحق بعملها في السادسة ، فقد تعيّن على الغلام ان ينتظر في الفناء ساعة كاملة حتى تفتح المدرسة - ساعة من البود والظلة في أيام الشتاء . إنهم ما كانوا يسمحون للغلام بان ينتظر في المطبعة لأنه كان مزعجاً ، في ما زعموا . وكان العمال الرافدون الى المطبعة كل صباح يرون الى هذا الخلق الصغير البائس جالاً على البلاط ، وقد غلب عليه التعاس ، واستسلم للرقاد في الظلة ، في كثير من الاحيان ، وابطاً منطوياً فوق سلته . فاذا ما هطل المطر كانت الشفقة تعطف عليه قلب البوابة العجوز ، فهي تجيز له ان يدخل الى مسكنها الضيق الحفيظ الذي اقتصر أثاثه على فراش من قش ، ودولاب للغزل ، وكريسيين خشبيين . وهناك في احدى الزوايا كان الغلام ينام ضامّاً امره الى صدره لكي ينفي عن جسده البرد . حتى اذا بلغت الساعة السابعة ، فتحت المدرسة أبوابها ، فضى إليها . ذلك ما قيل لجان فالجان . لكان نافذة قد فتحت فجأة على مصائر هؤلاء الذين أحبهم ، ثم أوصدت من جديد . ولم يسمع شيئاً آخر عنهم بعد . لم يسمع شيئاً عنهم الى الأبد . إن بنا ما لم ينته اليه عن حالهم . إنه لم يرم ، ولن يرام منذ اليوم ! ولن نلتقي بهم بعد في بقية هذه القصة الحزينة ، كرة اخرى .

وحوالى ختام هذه السلسلة الرابعة سنحت لجان فالجان فرصة الحرب . لقد ساعده وفاته كما يقع دائماً في ذلك الموطن الكئيب ، فقر . لقد هام على وجهه حراً طليقاً ، في الحقول ، يومين اثنين - اذا كان من الحرية ان تطاود ، وان تلتفت الى وراء ، كل لحظة ، وان ترتعد اوصالك لأي صوت ، وان يدب الرعب الى فؤادك من كل شيء : من السقف الذي يتصاعد منه الدخان ، من الرجل الذي يمر السبل ،

من الكلب الذي ينبع ، من الجواد الذي يجبّ ، من الساعة التي تدقّ ، من النهار لأنك تبصر فيه ، ومن الليل لأنك لا تبصر فيه ، من الطريق ، من الممرّ ، من الدغل ، ومن الرقاد . وفي مساء اليوم الثاني القي القبض عليه . إنه لم يذق طعاماً ولا مناماً طوال ست وثلاثين ساعة . ومدّد القضاء البحري مدة حبسه ثلاث سنوات ، بسبب من هذه المحاولة فقدت ثمانية أعوام . وفي السنة السادسة جاء دوره في الحرب ككرة أخرى . ولم يضيّع الفرصة ، ولكنه استغنى من جديد . لقد افتقدوه حين نُودي على الاسماء . وأطلق مدفع الخطر . وفي موطن من الليل عثر عليه العسس الطوّاف محبباً خلف قاعدة مركب لما يتمّ بناؤه بعد . وقاوم معتقله من حرس السجن الخاص بالمحكومين بالاشتغال الشاقة . هرب ومقاومة . وكانت أحكام القانون الخاص تعاقب على هذين بإضافة خمس سنوات الى مدة الحبس الاساسية ، اثنتان منها يصفّد خلالها السجين بالقيّد الحديدي المزدوح . فاذا المجموع ثلاث عشرة سنة . وفي السنة العاشرة جاء دوره من جديد ، فقام بمحاولة أخرى لم يوفّق فيها الى خير بما وفق اليه من قبل . وعوقب على ذلك بثلاث سنوات اضافية فقدا المجموع ست عشرة سنة . واخيراً جرب مرةً ثانية وكان ذلك خلال السنة الثالثة عشرة ، في ما اظنّ ، فأعيد الى محبسه بعد غياب اربع ساعات ليس غير . وحُكم عليه بثلاث سنين إضافية من اجل هذه الساعات الاربعة . وهكذا أمسى المجموع تسع عشرة سنة . وفي تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، أطلق سراحه : كان قد دخل ذلك السجن سنة ١٧٩٦ لأنه كسر زجاج نافذة ، واخذ رغيف خبز .

وهنا موضع ملاحظة قصيرة بين هلاين . هذه هي المرة الثانية التي يقع فيها مؤلف هذا الكتاب - في دراساته للسالة الجزائية ولأحكام القانون على سرقة رغيف كانت نقطة انطلاق في تحريب مصير . لقد سرق كلود غوور رغيفاً ، وسرق جان فالجان رغيفاً . ويشهد احصاء

انكليزي انت اربع سرقات من كل خمس تقع في لندن سببها المباشر هو الجوع .

لقد دخل جان فالجان سجن الاشغال الشاقة وهو ينتحب ويرتعد ؛ وغادره وقد قسا قواده وامتنع على الألم . لقد دخله يائساً ؛ وغادره كالح الوج .
ما الذي ألم بهذه النفس ؟

٧

أعماق القنوط

فلنحاول ان نجيب عن هذا السؤال .
وانها لضرورة ملحة ان ينظر المجتمع في هذه الاشياء ، لأنها من صنع يديه .

لقد كان ، كما سبق منا القول ، جاهلاً ؛ ولكنه لم يكن أبله .
كان النور الطبيعي 'مضاء' في ذات نفسه . وضاعف البؤس والبؤس ايضاً ضياؤه - تلك الاشعة القليلة التي اثارت عقله . ففي الاصفاد ، وتحت السياط ، وفي حجيرة الحبس المظلمة ، وفي غمرة الاعياء ، وتحت شمس السجن المحرقة ، وفوق الالواح الخشبية التي تشكل 'سرر' المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كان يلتفت الى ضميره ويفكر .
لقد أقام من نفسه هو محكمة .

وشرع يحاكم نفسه بنفسه .
لقد ادرك أنه لم يكن رجلاً بريئاً عوقب ظلماً . لقد اعترف بأنه ارتكب عملاً متطرفاً يوجب اللوم ؛ وبأنه كان من الجائز ان لا يُضن عليه بالرغيف لو طلبه ؛ وبأنه كان من الخير له على اية حال لو اعتصم

بالصر في انتظار الرحمة ، او في انتظار العمل ؛ وبأن قول المرء :
« وهل استطيع ان أنتظر حين أكون جائعاً ، ليس حجة لا تردّ على
الاطلاق ، وبأن من النادر جداً ، في المحل الاول ، ان يموت المرء
جوعاً بالمعنى الحرفي ؛ وبأن الانسان قد خُلِقَ - لحسن الحظ او لسوءه
- على نحو يمكنه من ان يتألم طويلاً وكثيراً معنوياً وجسدياً - من
غير أن يموت ، وبأنه كان يتعين عليه ، ادن ، ان يصبر ؛ وبأن ذلك
كان خليقاً به ان يكون خيراً حتى لاولئك الاطفال الصغار المساكين
انفسهم ؛ وبأنه كان من الحماقة ، بالنسبة اليه وهو الرجل البائس الحقيير ،
أن يأخذ بخناق المجتمع كله في عنف ، وان يتوهم ان في ميسوره ان
ينجو من البؤس عن طريق السرقة ؛ وبأن الباب الذي يقودك الى العار
ليس على اية حال باباً صالحاً لأخراجك من الشقاء . وبكلمة ، لقد
اعترف بأنه قد اخطأ .

ثم إنه سأل نفسه :

أكان هو الشخص الوحيد الذي اخطأ خلال تاريخه المشؤوم ؟
أليس شيئاً فظيماً في المحل الاول ان يلتبس ، هو العامل ، عملاً فلا
يجده ، وأن يلتبس ، هو المجتهد ، رغباً فلا يقع عليه ؟ وفوق هذا ،
أفليست العقوبة - وقد ارتكب الخطأ واعترف به - وحشية مغالى فيها ؟
أليست الاساءة التي ارتكبها القانون ، في العقوبة ، أعظم من تلك التي
ارتكبها المدب ، في الجريمة ؟ أليس ثمة ثقل اضافي في احدى كفتي
الميزان - تلك التي تمثل جانب التكفير عن الاثم ؟ أليس الافراط في
العقوبة محوّاً للجريمة ؟ أليس من نتيجة هذا الافراط قلب الوضع رأساً
على عقب ، وبذلك تحمل خطيئة القهر محل خطيئة الآثم ، وببني الجرم
ضحية ، والمدين دائماً ، وينتقل الحق نهائياً الى جانب ذلك الذي انتهك
حرمته ؟ ألم تنته هذه العقوبة بما اضيف اليها من علاوات متعاقبة بسبب
من محاولته الهرب غير مرة الى ان تصبح ضرباً من الاعتداء يشنه

القوي على الضعيف ، وجريمة من جرائم المجتمع ضد الفرد ، جريمة
تتكرر كل يوم ، جريمة استمرت نع عشرة سنة ؟

وسأل نفسه ما اذا كان المجتمع البشري يملك الحق في ان يسحق
عضاءه باهماله البالغ ، من ناحية ، وبإهماله الذي لا يرحم ، من
ناحية ثانية . وما اذا كان يملك الحق في ان يبقي الى الابد رجلاً فقيراً
بين نقص وإفراط : نقص في العمل ، وإفراط في العقوبة . وما اذا
كان فاضحاً ان يعامل المجتمع بمثل هذا التدقيق القاسي أعضاءه الذين
نالوا اقل نصيب من توزيع الثروة الذي تم بالمصادفة ، والذين هم بسبب
من ذلك احق الناس بالتعامل والتسامح .

حتى اذا طرح هذه الاسئلة وقررها دان المجتمع وأصدر حكمه
عليه .
لقد حكم عليه بالخذ والكراهية .

لقد اعتبره مسؤولاً عن المصير الذي نَحَمَلَه ، ولعله ان يكون قال
في ذات نفسه انه لن يتردد ذات يوم عن محاسبته ، واعلن بيه وبين
نفسه ان ليس ثمة تكافؤ بين الاذى الذي أتزله هو ، وبين الاذى الذي أتزل
به . وخلص اخيراً الى ان عقوبته لم تكن ، في الواقع ، ظلماً ،
ولكنها كانت من غير ريب جوراً وإثماً .

قد يكون الغضب احق مَخِيفاً ، وقد يستثار غضب المرء وهو على
خطأ ، ولكن المرء لا يمكن ان يستشعر السخط النائم عن الاجحاف
البالغ إلا وهو في الاساس على حق ، في ناحية من النواحي . لقد
استشعر جان فاجان ذلك الضرب من السخط .

وفوق هذا ، فان المجتمع البشري لم يقدم اليه غير الاساءة . إنه لم
يرَ من ذلك المجتمع غير هذا الوجه الخائى الذي يدعو العدالة ،
والذي يبيده لاولئك الذين يصرعهم . إن احداً من الناس لم يسَّ جان

فالجان يوماً إلا ليخذه . ولقد كان اتصاله كله بالناس لطماً وطعناً .
إنهم لم يوجهوا اليه قط ، منذ طفولته ، منذ عهد امه ، منذ عهد اخته ،
كلمة عذبة ، او نظرة كريمة . وفي مراحل تنقله من عذاب الى عذاب
خلص شيئاً فشيئاً الى الاعتقاد بأن الحياة حرب ، وبأنه كان هو المهزوم
في تلك الحرب . لم يكن لديه صلاح غير حقه . ولقد وطن النفس على
ان يشحذه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وان يتسلح به
حين يغادر ذلك الحبس .

وكان في طولون مدرسة للسجناء يديرها بعض الرهبان غير البارعين
جداً ، وكانت هذه المدرسة تعلم المعارف الرئيسية التي لا يستغنى عنها
للاغبين في ذلك من اولئك البائسين . وكان هو واحداً من هؤلاء .
وهكذا دخل المدرسة وهو في الاربعين ، وتعلم كيف يقرأ ، وكيف
يكتب ، وكيف يحسب . لقد أحس بأن تعزيز ذكاته يعني تعزيز حقه .
ففي بعض الاحوال ، يكون في ميسور التعليم والنور ان يكونا عوناً
على الشر .

ومن المحزن أن نقول إنه بعد ان حاكم المجتمع الذي صنع شقاءه
حاكم العناية الالهية التي صنعت المجتمع .
ودان العناية الالهية أيضاً .

وهكذا ارتفعت هذه الروح وانخفضت ، في آن معاً ، خلال هذه
السنوات التسع عشرة من التعذيب والعبودية . لقد تسرب الى نفسه
النور من جانب ، وتسرب اليها الظلام من جانب .

ولم يكن جان فالجان ، كما قد رأينا ، ذا طبيعة شريرة . كان لا
يزال حسن الطوية حين دخل السجن . وفي اثناء مقامه هناك دان
المجتمع البشري ، واستشعر انه امسى شريراً ؛ ودان العدالة واستشعر
انه امسى ملجداً .

ومن العير ان لا نتأمل هذا لحظة ونأمل .

أستطيع الطبيعة البشرية ان تنقلب هكذا رأساً على عقب ؟ أيبكون في مبدور الانسان ، الذي خلقه الله خيراً ، ان يحيله أخوه الانسان شريراً ؟ هل تستطيع النفس ان تتغير دفعة واحدة لتجاري قدرها ، وان تصبح شريرة حين يكون قدرها شريراً ؟ ايبكون في وسع القلب ان يتشره ويصاب بالقباحات والعاهات التي لا يبرء منها ، تحت وطأة بلاء فادح ، شأن العمود الفقري تحت قوس شديد الانخفاض ؟ اليس ثمة في كل نفس بشرية ، ألم يكن في نفس جان فالجان شرارة ابتدائية او عنصر السبي - لا ينطرق لها الفساد في هذا العالم ، ولا يلم بها القضاء في العالم الآخر شرارة يستطيع الخير ان يطورها ، ويؤججها ، ويضرمها ، ويسمرها ، ويكثنها من ان تشع إشعاعاً يبهرا الابصار ، ويعجز الشر ابد الدهر عن اطفائها بالكلية ؟

امثلة خطيرة معقدة لعل جميع عماء الفيسيولوجيا يجيبون عن آخرها نفياً ، ومن غير ما تردد ، لو قدر لهم ان يروا في طولون خلال ساعات الراحة التي كانت عند جان فالجان ساعات تفكير - ذلك السجين المحكوم عليه بالاشتغال الشاقة وقد قعد مكفهراً الوجه ، مطوي الذراعين فوق قضيب احدى الآلات الرافعة ، وأقمع طرف قبه الحديد في جيبه لكي لا ينسحب على الارض ذلك السجين المستغرق في التفكير يجد وصمت ، المنبوذ من القانون الذي ينظر الى الانسان في حقد ، المحكوم عليه من المدنية التي تنظر الى السماء في قوة .

وليس من ريب - ولا نود ان نتحقي ذلك - في ان الفيسيولوجي الملاحظ خليق به ان يرى في جان فالجان شقاء لا صبيل الى شفائه ؛ ولعله ان يرفي لهذا المريض الذي أوردته المجتمع علة ؛ ولكنه غير قمين مع ذلك بأن يحاول معالجته . وأغلب الظن انه سوف يشيع بوجهه عن هذه الكهوف الجدير به ان يراها في تلك النفس ؛ وانه سوف يمسح من هذا الوجود - مثل داني عند باب الجحيم - تلك الكلمة التي خطتها ،

مع ذلك ، إصبع الله على جبين كل انسان : - الامل .
هل كانت حاله النفسية هذه التي حاولنا ان نعملها ، واضحة عند جان
فالجان وضوحها بعد محاولتنا هذه في اذهان القراء ؟ هل رأى جان
فالجان في وضوح جميع العناصر التي رُكِّب منها بؤسه المعنوي ؟ هل
رأها قبل ان تتكون ، وفيما هي تتكون ؟ هل تتبع ذلك الرجل
الاميّ الجاني تنبّعاً دقيقاً تعاقب الأفكار التي رفعته وخفضته - شيئاً
بعد شيء - حتى انتهى الى ذلك المستوى الفاجع الذي طبع منذ سنوات
عديدة افقَ روحه الداخلي ؟ هل كان يعي وعياً واضحاً كل ما يجري
في ذات نفسه ، وكل ما كان يحركه ويقلقه ؟ ذلك شيء لا نجروء على
إثباته ؛ إننا في الواقع لا نؤمن به . كان جان فالجان أجهل ، حتى
بعد ان اصيب بهذا البلاء كله ، من ان يتم له تمييز حسن في هذه
الشؤون . إنه ما كان يدري ، في بعض الاحيان ، ماهية مشاعره على
وجه الضبط . كان جان فالجان في الظلام ؛ لقد شقي في الظلام ؛
لقد أبغض في الظلام ؛ وفي وسعنا ان نقول إنه أبغض ببصره هو .
لقد عاش في ذلك الظلام على نحو موصول ، ملتصقاً بطريقة مثل أعمى
من العميان ، ومثل حالم من الحالمين . وبين الفينة والفينة فعسب كان
يفهمه "فجأة" ، من باطن او من خاوج ، عاصف من غضب ، وقبض
من عذاب ، ووميض خاطف شاحب يضيء نفسه كلها ، ويكشف من
حواله - من امام ومن وراء ، على وهج نور محيف - عن تلك
المؤوى * الفظيعة والمشهد الكالحة التي ينطوي عليها قدره .
وخبا الوميض ؛ وهبط الليل من جديد ؛ أين كان ؟ انه ما عاد
يدري .

إن ميزة هذا الضرب من العقوبة التي يهيئ فيها العنصر الذي لا

• جمع مؤنث .

يرجم ، يعني العنصر الذي يوحش * ، هي أنه مجرول الانسان
شئناً فثيئاً - تحويلاً أبه ، الى حيوان ، وفي بعض الاحيان الى حيوان
مفتوس . وإن محاولات جان فالجان العنيدة المتكررة الى الحرب من
السجن لتنهض دليلاً على ان ذلك هو الاثر الذي يتركه القانون في
النفس البشرية . لقد جدّد جان فالجان هذه المحاولات ، الحقاء الى ابعاد
الحدود ، غير المجدية الى ابعاد الحدود ، كلها سنحت له الفرصة ، من
غير ان يفكر لحظة واحدة في النتيجة ، او في التجارب التي سبق له
ان قام بها . لقد فوّت على نحو ضار ، كالدّئب الذي يجد باب قصه
مفتوحاً . قالت له الفريرة : « أنج بنفسك ! » وقال له العقل :
« لابق ! » ولكن أمام اغراء قوي الى هذا الحد ، اختفى العقل .
الفريرة وحدها هي التي بقيت . كان الوحش وحده هو الناشط للعمل .
حتى اذا عاودوا إلقاء القبض عليه لم تزد الفظائع الجديدة التي أنزلت به
غير ضراوة الى ضراوة .

وثمة ناحية واحدة ينبغي لنا ان لا ننفلها ، وهي انه كان على قوة
جسدية لم ينعم بمثلها ايّ من نزلاء السجن . ففي العمل الشاق ، وفي
قتل الحبال المعدنية ، وفي ادارة الآلات الرافعة كانت قوة جان فالجان
تعديل قوة اربعة رجال . كان في بعض الاحيان يرفع ويحمل على ظهره
اثقالاً هائلة ، ويقوم في بعض الاحيان بدور تلك الاداة التي ندعوها
رافعة أثقال ، او ما كان يدعى في الفرنسية القديمة *orgueil* وهي الكلمة
التي نستطيع ان نقول ، بالناسبة ، ان شارع مونتورغوي ، قرب
اسواق باريس المسقوفة ، مدين باسمه لها . ولقد لقبه رفاقه بد جان ،
رافعة الاثقال . وذات يوم ، فيما كانت شرقة دار بلدية طولون ترمم ،
مال تمثال من تماثيل النساء الرائعة التي تحمل ثقل الشرقة ، وهو من عمل

* الذي يحمل الشيء وحشياً .

برجيه * مال عن موضعه ، وكاد ان يسقط . فما كان من جان
فالجان ، الذي اتفق ان كان هناك ، إلا ان أسنده بكتفه حتى اقبل
العمال .

وكانت لدانة جده تفوق قوته ايضاً . والواقع ان بعض السجناء ،
الحالمين ابدآ بالفرار ، انتهوا الى ان يجعلوا من القوة والبراعة مجتمعين علماً
حقيقياً . ذلك هو علم العضلات . وان نظاماً غامضاً من توازن القوى
ليُمارَس كل يوم من جانب السجناء ، هؤلاء الحاسدين السرمديين للذباب
والعصافير . كان تسوّر الجدران واكتشاف نقاط ارتكاز حيث لا يرى
المرء تنوءاً ما إلا بشق النفس - كان هذان ضرباً من اللهو عند جات
فالجان . أعطه زاوية في جدار تجده - وقد توترت ركبته وتوتر ظهره
واندبجت يده ومرفقاه برجه الجدار الحشن - يرتقي بمثل السحر حتى الدور
الثالث . وقد صعد ذات مرة على هذه الشاكلة ، الى سطح السجن الخاص
بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

لقد تكلم قليلاً ، ولم يضحك البتة . كان في حاجة الى انفعال
منطرف لكي ينتزع منه ، مرة او مرتين في العام ، ضحكة السجن
اللفاجعة تلك ، التي هي شبه بصدى ضحكة شيطان من الشياطين . كان
يبدو في عين من يراه وكأنه مستغرق في النظر ، على نحو موصول ، الى
شيء فظيع .
ولقد كان مستغرقاً حقاً .

فمن خلال الاحساس المربض الذي يميز الطبائع غير الكاملة ، ومن
خلال الذكاء المحمّد أحسن إحساساً غامضاً بأن عيشاً هائلاً يجثم فوقه . وفي
ذلك الظل الشاحب القائم حيث كان يزحف ، وكلما ادار وجهه وحاول
ان يرفع عينيه ، كان يرى في ذعر يمازجه الفيظ ركاماً بتشكيل وبشجع
وبصعد فوقه حتى يغيب عن نظره في منحدرات رابعة - ركاماً خيفاً

+ Pierre Puget نحات فرسي اشتهر بأصالته الفنية (١٦٢٢ - ١٦٩٤)

من الاشياء ، من القوانين ، من الاحقاد ، من الرجال ، ومن الاعمال التي كانت خطوطها الكبرى تفرّ منه ، والتي كانت ثقلها يرعبه ، والتي لم تكن غير ذلك الهرم العجيب الذي ندعوه الحضارة . وهناك ، في ذلك الركام البشع المثالب ، القريب منه حيناً ، البعيد عنه حيناً ، المغالي في الارتفاع الى أعالي لا تدرك ، مَيّز جان فالجان مجموعة ما ، بعض الجزئيات الشديدة الوضوح ، فهنا السجان حاملاً عصاه ، وهنا الدركي شاهراً سيفه ، وهناك كبير الاساقفة وعلى رأسه التاج ، وهناك فوقهم جميعاً ، وفي ضرب من وهج المجد ، الامبراطور متوجاً يعيش بهاءه العيون . لقد بدا له أن هذه الأبهة النائية كلها ، التي بما كانت تبدد ليله ، إنما جعلت ذلك الليل اشد حلكة وأدعى الى إثارة الشجن . كانت هذه جميعاً - القوانين ، الاحقاد ، والاعمال ، والرجال ، والاشياء ، تغدو فوقه وتروح ، وفقاً للحركة المعقدة الخفية التي يطبع الله بها الحضارة البشرية - فهي تدوسه وتسحقه بوحشية هائلة تمتنع على الوصف ، وبلامبالاة لا تعرف الرحمة . إن النفوس المستودعة في قعر الشقاء الاقصى ، والرجال البائسين الضائعين في الاعماق السفلى حيث يحتجبون عن العيان ، واولئك الذين صبّ عليهم القانون اعنته - إن هؤلاء جميعاً ليحسّون فوق رؤوسهم بكامل ثقل ذلك المجتمع البشري الخفيف الى ابعد الحدود في عين المنبؤ خارجه ، الفظيع الى ابعد الحدود في عين القائم تحته .

في مثل هذا الوضع فكرر جان فالجان ، وأيّ طبيعة يمكن أن تغلب على تأملاته ؟

لو كان في ميسور حبة الذرة البيضاء ان تفكر ، إذن لفكرت بما فكر به جان فالجان من غير شك .

كانت كل هذه الاشياء وهي حقائق مليئة بالاشباح ، واشباح مليئة بالحقائق - قد احدثت في ذات نفسه آخر الامر حالة يكاد التعبير

عنها ان يكون شيئاً متعذراً .

وفي بعض الاحيان ، كان يقف ، وهو في عمرة من عمله في سجن الاشغال الشاقة ، ويستوغل في التفكير . كان عقله ، وقد ازداد نضجه وتعاضل قلقه في آن معاً ، ينتفض ويثور . إن كل هذا الذي حدث له ليدو في عينه عبثاً ، وإن كل هذا الذي يحيط به ليدو له مستحيلاً . كان يقول في ذات نفسه : « انه حلم » ، وكان ينظر الى السجبان الواقف على بضع خطوات منه ، فاذا بالسجبان يدو في فاضله وكأنه طيف من الاطيف ، وفجأة كان هذا الطيف يجود عليه بضربة عصا .

كاد العالم الخارجي ان لا يكون له وجود عنده . ونكاد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه ، بالنسبة الى جان فالجان ، لم تكن ثمة شمس ، ولم تكن ثمة ايام صيف جميلة ، ولا سماء مشعة ، ولا صبح نضر من اصباح نيسان . كان شيء من نور النافذة القائم سر كل ما احياه نفسه .

ولكي نوجز ، في الختام ، ما يمكن ان يُوجز وان يسترجع الى نتائج ايجابية من كل ما بسطناه حتى الآن ، سوف نقصر على التيقن من ان جان فالجان ، مشذب الاشجار الفافيرولي المسالم ، والرقيق المستعبد في سجن طولون ، أمسى قادراً خلال تسع عشرة سنة ، وبفضل الماران الذي تم له في محبسه ، على ارتكاب نوعين من الجريمة ، أولها قباحة خاطفة طائشة ، مفعمة بالتهور ، مفعمة بالغريرة ، ضرب من الثار للظلم الذي أنزل به . وثانيها قباحة خطيرة متروية فيها ، خضعت لمناقشة الضمير ، ونظر فيها على ضوء الفكرات الخاطئة التي يمكن لمثل هذا المصير البائس ان يقدمها . ومرت تبصره في الرأي بالمراحل الثلاث المتعاقبة التي لا تستطيع غير بعض الطبائع المعينة ان تجتازها : التفكير ، الارادة ، العناد . كانت دوافعه هي السخط الموصول ، ومراره النفس ، والوعي العميق للمظالم التي يعانيها ، ورد الفعل حتى ضد الحيتيين والابرياء والمستقيمين من الناس ، اذا كان على وجه الارض من يستحق هذه

الصفات . كانت بداية افكاره كلها ونهايتها كلها هي الحقد على القانون البشري ، هذا الحقد الجذري به ، اذا لم تكبح من غوته حادثة ذات نفع الهية ، أن يمسى حقداً على المجتمع ، ثم حقداً على الجنس البشري ، ثم حقداً على الحليقة ، ويتجلى في شهوة غامضة موصولة ضاربة الى ان يؤدي مخلوقاً حياً ، كائناً من كان . وهكذا نرى أن وصف الجواز لجانب فالجان بأنه « رجل خطر جداً » كانت له اسبابه المبررة .

ومن عام الى عام ذبلت هذه النفس اكثر فاكثر ذبلت في بطة ولكن بقضاء محتوم . والى هذا القلب الذوي كانت له عين جامدة . فحين غادر سجن المحكومين بالاشغال الشاقة ، كان قد سلخ تسعة عشر عاماً لم يذرف خلالها دمعاً واحدة .

٨

الموج والظل

رجل في عرض البحر !

وأى بأس في ذلك ! إن السفينة لا تقف . وإن الريح لنهب ؛ ولهذه السفينة القانة طريق مقدّر عليها ان تسير فيها . إنها تضي لسيلا . ويختفي الرجل ، ثم يعاود الظهور ، ويفوص في الماء ، ثم يرتفع ثانية الى السطح . إنه يستغيث ، وينشر يديه ، فلا يسمعه . إن السفينة المتروكة تحت العاصفة ، لتجند طاقاتها كلها في سبيل الخلاص . ويختفي الرجل الغريق عن اعين الملاحين والمسافرين ؛ إن رأسه البائس لا يعدو أن يكون نقطة في خضمّ الامواج الراسع العريض . إنه يطلق نداءات يائسة وسط الاعماق . أيّ شبح هو ذاك الشراع المتواري ! إنه ينظر اليه - إنه ينظر اليه في سمر . ولكنه بنأى ،

ولكنه يبعدو قائماً ، ولكنه يتقلص . لقد كان هناك منذ لحظة ، كان واحداً من الملاحين ؛ لقد ذرع ظهر المركب مع سائر القوم ، جيئة وذهوباً . كان له حظه من الهواء واشعة الشمس ؛ كان كائناً حياً . والآت ، ما الذي اصابه ؟ لقد زلت به القدم ، لقد سقط ، ولقد انتهى كل شيء .

إنه في الاصاق الرابعة . وليس تحت قدميه غير الفرار والاننيار . إن الامواج ، وقد مزقتها الرياح وبددتها ، لتطبق عليه إطباقاً كريهاً ، وإن تقلبات اللجة لتحمله على منها . إن فلذ الماء لتجيش حول رأسه ، وإن سفلة الامواج لتبصق في وجهه ، وإن الفجوات المختلطة لتبتلع نصف ابتلاع . وكلما غاص في الماء يلمح هُوَئِيّ مفعمة بالظلام ، وتتثبت به نباقات مخيفة مجهولة ، فتوثق قدميه ، وتشده نحوها . إنه يحسّ بأنه قد أصبح لجة وبأنه غدا جزءاً من الزبد . ان الامواج لتتقاذفه ؛ وأنه ليزوق طعم المראה ؛ وإن الاوقيانوس النهم لثائق الى التهامه . إن العِظَمَ ليعبث بنزعه الاخير ؛ ويبدو أن هذا كله لا يعدو ان يكون حقداً سائلاً .

إنه يحاول الدفاع عن نفسه ؛ إنه يحاول ان يتماك ؛ إنه يناضل ؛ إنه يسبح . إنه - وهو تلك القوة المسكينة الموشكة على الفساد يصارع الطاقة التي لا تنفد .

ومع ذلك فهو يكافح .
ابن السفينة الآن ؟ بعيداً هناك . إنها لا تكاد ترى في ظلمات الافق الشاحبة .

وتهبّ الريح هبّات شديدة ؛ وتعمره الامواج . إنه يرمع عينيه ، ولكنه لا يرى غير زرقة السحب الضاربة الى السواد . إنه ليشكل في نزعته الاخير حرماً من جنون البحر الهائل . إن هذا الحبل لينكتل به حتى الموت . وإنه ليسمع اصراً غريبة على الاذن الانسانية ، اصواتاً

تبدو وكأنها لا تقبل من الأرض ، ولكن من عالم محيف قائم وراءها .
إن في السحب طيوراً ، كما أن ثمة ملائكة فوق الأحزان الانسانية ،
ولكن أي شيء تستطيع ان تفعله من أجله ؟ إنها تطير ، ونعني ،
وتطفو ، فيما هو يحشرج .

إنه يستشعر ان هاتين اللانهايتين قد دفنتاه في آن معاً : الاوقيانوس ،
والسحاب . الاولى قبر ، والثانية كفن .

ويهبط الليل . لقد سلخ ساعات وهو يسبح ؛ ولقد اوشكت قوته
على النفاد . لقد انمحت تلك السفينة ، ذلك الشيء النائي حيث كان يوجد
ناس . إنه وحيد في ظلمة اللجة الفظيعة . إنه يغوص ؛ إنه يتصلب ؛
إنه يناضل ؛ إنه يحس تحته بغيلان اللامنطور الغامضة ؛ إنه يصيح .

لم يبق ثمة ناس . ولكن اين الله ؟

ويصيح . النجدة ! النجدة ! ويصيح على غير انقطاع .

ليس ثمة شيء في الافق . ليس ثمة شيء في السماء .

إنه يتضرع الى المدى ، الى الموج ، الى الأشنة * ، الى الصخر .
ولكن هذه كلها صماء . ويبتهل الى العاصفة . ولكن العاصفة الرابطة
الجأش لا تدعن لغير اللانهاية .

إن من حوله الظلمة ، والصاب ، والوحدة ، والجلبة الضاربة غير
الواعية ، وتفرض المباء الهائجة غير المتناهي . وإن في باطنه الذعر
والاعياء . أما تحته فكان السقوط . لم يكن ثمة نقطة ارتكاز . إنه
يفكر في مغامرات جسده الميت المظلمة وسط الدجنة غير المحدودة . إن
البود اللاذع لبشته . وإن يديه لتتشنجان وتطبقان ، ولكن على العدم .
رياح ، غيوم ، زوايع ، عصافات ، ونجوم لا غناء فيها ! ما العمل ؟
إنه يستسلم للباس . إنه ، وقد هداه الاعياء ، يلتمس الموت . إنه لا
يقاوم بعد الآن . لقد ألقى السلاح ؛ لقد اطرح القتال ، وها هو ذا

* Algue وهو نبات يجا على سطح المياه العذبة والمالحة أبرز في أعماقها .

يغوص الى اعماق اللجة الفاجعة الى الابد .
إيه يا سير المجتمع الانساني الحاقدا ! إن تحطيم الرجال والنفوس
ليطبع سبيلك ! إيه أيها الاوقيانوس حيث يسقط كل ما يدعه القانون
يسقط ! أنت انعدام النجدة المشؤوم ! إيه أيها الموت الادي !
البحر هو الليل الاجتماعي المتعبر الغواد الذي يلقي القانون ضحاياه في
عبابه . البحر هو الشقاء الذي لا حد له !
إن النفس التي تتلاعب بها امواج ذلك البحر قد تصبح جثة . فمن
ذا الذي يعيدها الى الحياة ؟

٩

مظالم جديدة

وحين أزف موعد خروجه من سجن المحكوم عليهم بالأشغال
الشاقة ، وحين ضجت في اذن جان قالجات هذه الكلمات الغريبة :
« أنت مطلق السراح ! » بدت تلك اللحظة ، في عينيه ، غير محتملة وغير
واقعية . وفجأة تسرب الى روحه شعاع من النور الحي ، شعاع من
نور الأحياء الحقيقي . وندبه جان قالجان بفكرة الحرية . كان قد
آمن بحياة جديدة . ولقد رأى في الحال أيّ ضرب من الحرية ذلك
الذي يحتمل جوازاً أصفر .

وكان ثمة الى جانب هذا كثير من التجارب المريرة . كان قد حسب
ما اذخره من مال طوال مقامه في سجن الاشغال الشاقة فبلغ مئة
وواحداً وسبعين فرنكاً . ومن العدل ان نضيف انه غفل عن ان يأخذ
بمعن الاعتبار الراحة الالزامية أمام الاحد والاعباد ، تلك الراحة الجدير
بها ان تنقص هذا المبلغ ، خلال تسعة عشر عاماً ، نحواً من اربعة

وعشرين فرنكاً . وعلى أية حال ، فقد أنقصت أمواله تلك بمختلف الرسوم المحلية حتى أمست مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر « سو » دُفعت إليه عند رحيله .

ولم يفهم شيئاً من هذا . واعتقد أنه ظلم ، بل اعتقد - ولنقلها بصراحة - أنه مُرَق .

وفي اليوم التالي لاطلاق سراحه رأى امام باب معمل من معامل تقطير زهر الليثون في غراس رجالاً يفرغون بعض الأكياس . معرض عليهم خدمانه . وكانوا في حاجة الى المساعدة فقبلوا عرضه . وانصرف الى العمل . كان ذكياً ، شديد البأس ، رقيقاً . ولقد بذل غاية جهده . وبدأ ربّ العمل وقد داخه الارتياح . وفيما هو يعمل سرّ بهم دركي ، فرآه ، وسأله ان يُبرز أوراقه . واضطر الى إبراز الجواز الاصفر . حتى اذا تمّ ذلك ، استأنف جان فاجان عمله . وقبل ذلك بقليل ، كان قد سأل احد العمال عن الاجرة التي تُدفع اليه ، يومياً ، لقاء هذا العمل فكان جوابه : « ثلاثون سو » . وهبط الليل ، واذ كان مضطراً الى الرحيل صباح اليوم التالي قصد الى رب العمل والتبس ان يدفع اليه أجره . ولم يقل رب العمل كلمة ، ولكنه قدّم اليه خمسة عشر « سو » . واحتجّ . فأجابه الرجل : « هذا يكفيك » ، وألحّ . فحدّق رب العمل الى عينيه وقال : « حذار من السجن ! » وهنا أيضاً اعتبر أنه قد مُرَق .

لقد سرقه المجتمع وسرقته الدولة - حين أنقصا المال الذي ادّخره على نطاق واسع . وما قد جاء دور الفرد في ان يسرقه على نطاق مصغر .

إن اطلاق السراح ليس هو الخلاص . فقد يغادر المرء سجن الاشغال للشاقة ، ولكنه لا يستطيع ان يغادر الحكم الذي صدر بحقه . ذلك ما أصابه في غراس . ولقد سبق ان رأينا كيف استُقل في د...

الرجل يستيقظ

فما كانت ساعة الكاندوائية تدقّ الثانية بعد منتصف الليل ، انيقظ جان فالجان .

كان الذي أبغظه أن الفراش وثير اكثر مما ينبغي . طوال عشرين عاماً تقريباً لم يوقد يوماً في فراش ؛ وعلى الرغم من انه لم يخلع ثيابه فقد كان ذلك الاحساس جديداً عنده الى درجة تجعل من المختوم عليه ان يعكّر صفو وقاده .

كان قد نام اربع ساعات ونيفاً . وكان الاعياء قد زايه . لقد تعود أن لا يستجيب غير ساعات معدودات .

وفتح عييه ، وحدق لحظة في الظلام المحيط به ، ثم أغضهما لبسليم للنوم كرة اخرى .

وحين تكون احساسيس كثيرة متباينة قد اقلقت نهائياً ، وحين تكون عقولنا مستغرقة في التفكير ، نستسلم للرقاد مرة ، ثم نعبر عن ان نعاود النوم من جديد . إن النوم ينقاد اليها في المرة الاولى بطواعية لا تتم له في المرة التالية . وذلك ما وقع لجان فالجان . إنه لم يستطع أن ينام كرة ثانية ، وهكذا بدأ يفكر .

كان في احدى تلك اللحظات التي تكون افكارنا خلالها فلكة مشوشة . كان ثمة ضرب غامض من المدّ والجزر في دماغه . لقد طفت ذكرياته القديمة والحديثة حوله كما اتفق ، وتقاطعت على نحو مختلط ، فاقدة اشكالها الخاصة ، منصهجة الى ما لا حد له ، لتختفي كلها بعد دفعة واحدة وكأنها وسط سيل موحل هائج . وراودته افكار كثيرة ،

ولكن كانت ثمة فكرة برزت على نحو موصول وطردت كل ما عداها .
 اما هذه الفكرة فوف نبطها في الحال . كان قد لاحظ الاطباق
 الفضية الستة والملقعة الكبيرة التي وضعتها السيدة ماغلوار على المائدة .
 لقد استحوذت هذه الاطباق الفضية الستة عليه . كانت هناك ، على
 مدى بضع خطوات . ففي اللحظة التي اجتاز فيها الحجرة الوسطى ليبلغ
 تلك التي هو فيها ، كانت الخادم العجوز تضعها في خزانة جدارية صغيرة قائمة
 فوق رأس السرير . وكان قد لاحظ موضع هذه الخزانة الجدارية جيداً :
 الى اليسار وانت مقبلٌ من حجرة الطعام . كانت آنية فضية قديمة ،
 آنية كثيفة ثقيلة . وخلقٌ بها ، إذا ما أضيف اليها الملقعة الكبيرة ،
 إن باع بعثي فربك على الأقل ، وهو ضعف المبلغ الذي كسبه خلال
 تسع عشرة سنة من العمل . صحيح انه كان في امكانه ان يكسب
 اكثر لو ان « الحكومة » لم « تسرقه » .

وعلى دماغه ساعة كاملة ، ساعة طويلة حفلت بالالوانجات الممتزجة
 بشيء من الصراع . واعلنت الساعة الثالثة . وفتح عينيه من جديد ،
 وانتصب في سريره فجأة ، وبسط ذراعه ومسح جرابه ، وكان قد طرحه
 في زاوية المخدع ، وارخى رجليه ، ووضع قدميه على الارض ، ووجد
 نفسه - من غير ان يدري كيف - جالساً على سريره .

وظل فترة من الزمن مستغرقاً في التفكير على ذلك النحو ، وهو
 وضعٌ كان خليقاً به أن يوقع الرعب في فؤاد الناظر اليه في تلك الظلمة ،
 وقد أفاق وحده في البسب المستسلم للرقاد . وفجأةً انحنى الى امام ،
 وخلق نعليه ، ووضعهما في رفق على الحصير المذخور قرب السرير ، ثم
 استأنف وضعه المفكر ، وغدا ساكناً من جديد .

وفي غمرة من ذلك التفكير البشع أقفلت الأفكار التي اثرتنا اليها
 دماغه على غير انقطاع ، فهي تدخل ، وهي تخرج ، وهي تعود ، وهي تغدو
 ضرباً من العبء الثقيل عليه . ثم إنه فكر ايضاً وليس يدري كيف ،

وبذلك العناد الميكانيكي الذي يميّز التفكير الحالم ، بمجرم يدعى بروفيه كان قد عرفه في سجن الاشغال الشاقة ، وكان لا يرفع بنطلونه غير رباط مفرد من نسج قطني مزروود . وكان نمط ذلك الرباط الشطرنجيّ التوزيع لا يفارق خياله أبداً .

وظلّ على هذه الحال ، ولعله كان خليقاً به أن يظل على هذه الحال حتى مطلع الفجر لولا أن دقت الساعة دقة النصف او دقة الربع . لقد بدت الساعة وكأنها تقول له : « هيا ! »

وانتصب واقفاً ، وتردّد لحظة اخرى ، وأصاخ . كان كل شيء هادئاً في المنزل . ففضى مباشرة ، وفي حذر ، الى النافذة التي كانت قادراً على ان يلمحها . لم يكن اليأس حالكاً جداً . فقد كان القصر بدأ تجري عبره سحب ضخام تطاردها الريح . وكان هذا يحدث ، في الخارج ، تراوحاً بين الظل والنور ، فيظلم الكون حيناً ويضيء حيناً ، ويحدث في الداخل ضرباً من الشفق . وكان هذا الشفق الكافي لتمكينه من ان يرى طريقه ، المتقطع بسبب من السحاب العابرة . يشبه ذلك الضرب من النور الاررق المودّ الذي يحترق نافذة سجن مظلم يروح الناس امامها ويغدون . حتى اذا انتهى جان فاجأت الى النافذة تلثها . لم تكن مقضّبة بالحديد ، وكانت منفتحة على الجنيّة ، ولم تكن موصدة ، وفقاً للعرف السائد في تلك الديار ، إلا بمسار مسطّح صغير . وقع النافذة ، حتى اذا اندفع الهواء القارس الى الغرفة أعاد إصاها في الحال . وحدّق الى الجنيّة بتلك النظرة المستغرقة التي تدرس اكثر مما ترى . كانت الجنيّة مطوّقة بجدار ابيض ، شديد الانخفاض ، سهل التسلّو . وهناك ، في المدى ، بصُرّ برؤوس اشجار متباعدة على مسافات متساوية ، فأدرك من هنا أن هذا الجدار يفصل الجنيّة عن جادة عريضة ، أو زقاق مشجّر .

وحين تمّت له هذه الملاحظة ، استدار مثل رجل وطن النفس على

أمر ، ومضى الى محده ، وتناول جرابه ، وفتحه ، ونقّب فيه ، ثم
أخرج منه شيئاً وضعه على السرير ، ودسّ نعليه في احد جيوبه ، وشدّ
جوابه ، وطرحه على منكيه ، واعتسر قلنسوته ، وخفض حافتها فوق
عينيه ، وتلّس عصاه في الظلام ، ومضى فوضعها في زاوية النافذة ، ثم
ارتدّ الى السرير ، وفي عزم تناول الشيء الذي وضعه فوقه مند برهة .
لقد بدا أشبه بقضيب حديدي صغير ، مستدقّ عند احد طرفيه
كالخربة .

كان من العسير على المرء ان يدرك وسط الظلام ، لأيّ غرض
جعلت هذه القطعة الحديدية ؟ أهى محل ؟ أهى دبوس *
ولو قد نظر المرء الى ذلك الشيء على ضوء النهار اذن لرأى انه
لم يكن غير مثقب معدّن . ففي ذلك المهد كان المحكوم عليهم بالاشتغال
للشاقة يكلفون أحياناً اقتلاع الحجارة من الكتبان المرتفعة المحيطة بطولون
وكانوا كثيراً ما يزودون بأدوات المعدّنين . ومثاقب المعدّنين تصنع من
حديد صلب ، وينتهي طرفها الأدنى برأس مستدقّ 'تقحم بواسطته
في الصخر .

وأملك المثقب بيده اليمنى ، وجلس نقّه ، وتقدم في خطى
متصلة نحو باب الغرفة المجاورة ، التي كانت غرفة الاسقف ، كما نعلم .
وحين انتهى الى ذلك الباب ألغاه مفتوحاً بعض الشيء . إن الاسقف لم
يرصده قط .

١١

ما الذي يفعله

واصاخ جان فالجان . لم يكن ثمة صوتٌ ما .

* الدبوس ، هنا ، عمود من حديد يصرّب به .

ودفع الباب .
دفعه في رفق بطرف إصبعه بثل الحذر الخفي الجازع الذي يطبع
حركات هرة تريد ان تدخل .
واذعن الباب للضغط بحركة صامتة لا تكاد تدرى ، جعلت الفرجة
أوسع بعض الشيء .
وانتظر لحظة . ثم دفع الباب كرة أخرى في عزم اسد .
وواصل الباب إذعانه في صمت . كانت الفتحة قد أمت عريضة
ينطبع ان يمضي من خلالها . ولكن كان ثمة قرب الباب طاولة صغيرة
شكلت معه زاوية مربكة تعوق الدخول الى الحجرة .
ورأى جان فالجان هذه العقبة ، ولكن الفرجة ينبغي ان توسع اكثر
مهما كلف الامر .
وإذ أزمع على ذلك ، دفع الباب كرة ثالثة بأعنف مما دفعه في
المرتين السابقتين . فما كان من مفصل الباب الصدى إلا ان ارسل في تلك
الظلمة ، صريراً أبح متطاولاً .
وارتعد جان فالجان . لقد ضج صوت هذا المفصل في أذنيه صارخاً
فظيحاً وكأنه تنفخ الصور يوم القيامة .
وفي فمرة المبالغة الوهمية التي تلازم الدقيقة الاولى ، كاد يتوم ان
هذا المفصل قد دبت فيه الحياة فجأة وان حياته تلك فظيعة ، فهو ينبج
كالكلب ليحذر الناس جميعاً ، ويوقظ النائمين .
ووقف مرتعداً مرتبكاً ، وهبط من على رؤوس اصابعه الى عقيقه .
واحس بشرايينه تنبض عند صدغيه مثل مطرقي حداد ، وبدا له وكأن
نفسه خرج من صدره مثل هدير الريح المنطلقة من كهف . لقد تراءى
له ان من المستحيل ان لا يكون هذا الصباح المروع الذي اطلقه
المفصل المهتاج قد قلقل المنزل كله بثل رجة الزلزال . لقد أطلق الباب
الذي دفعه هو ، صيحة الخطر ونادى مستغيثاً . ولن تنقضي لحظة حتى

يستيقظ الرجل العجوز . وتصرخ المراتان العجوزان ، وعندئذ تقبل النجدة ؛ وبعد ربع ساعة ليس غير تضج البلدة كلها بالتبأ ويطارده رجال الدرك . واعتقد لحظة ، انه هالك لا محالة .

ووقف ساكناً ، مثل تمثال الملح ، وقد فقد الجرأة على ان يأتي بحركة ما .

وتقضت بضع دقائق . كان الباب مفتوحاً على مده . وغامر فألقى نظرة على الغرفة . ان شيئاً لم يتحرك . وأصغى . لم يغير شيء ما مكانه في البيت . ان جلبة مفصل الباب الصديء لم توقف احداً .

وانقضى هذا الخطر الاول ، ولكنه ما يزال يستشعر في ذات نفسه هيجاناً مروّعاً . ومع ذلك ، فإنه لم يتقلب على عقبيه . بل إنه لم يتقلب على عقبيه حتى في تلك اللحظة التي اعتقد فيها انه قد هلك . انه لم يفكر إلا بالنجار ما اعتزم عليه في الحال . وخطا خطوة ، فاذا هو في الغرفة .

كانت هذه الغرفة غارقة في هدوء كامل . وكان في ميسوره ان يقين هنا وهناك بعض الاشكال المختلطة الغامضة التي كانت - على ضوء النهار - اوراقاً مبعثرة على طاولة ، وكتباً مفتوحة من قطع النصف ، وكتباً مراكومة على كرسي منخفض ، وكرسيّاً ذا ذراعين مثقلاً بالثياب ، ومروّكاً ذا مسند لليدين ، ولكنها لم تكن الاكث غير زوايا مظلمة ، وبقع ضاربة الى البياض . وتندّم جان فالجان ، بحاذراً ان يمس الاثاث . وفي الطرف الاقصى من الغرفة كان في ميسوره ان يسمع انقاس الامقف النائم ، المتكافئة الهادئة .

ووقف فجأة . كان قرب السرير . لقد انتهى اليه بأمرع مما كان يحسب .

ان الطبيعة لتشدّ ، في بعض الاحيان ، مفاعيلها ومظاهرها الى افعالنا في ضرب من الملامة الجدية الذكية ، وكأنا تريد ان 'نكرهنا على التفكير . فنذ نصف ساعة تقريباً واحدى السحب العظيمة تغطي وجه

السماء . حتى اذا وقف جان فالجان تجاه السرير تبددت تلك السحابة ، وكأنما تفعل ذلك عامدة ، واخترق النافذة العالية شعاع فري ما لبث ان اضاء وجه الاسقف الشاحب . كان نائماً في سكون . وكان متلفعاً في سريره - بسبب من ابالي ديار الالب الدنيا القارسة - برداء صوفي داكن يغطي ذراعيه حتى المرفقين ، فكأنه مرتد ثيابه كلها تقريباً . وكان رأسه مستريحاً الى الوسادة في وضع الرقاد المثلل . وفوق جانب السرير تدلّت يده المزدانة بالخطام الاسقي ، والتي انهمرت منها دقات من المبرّات والعمل الصالح . كان يحياه كله مشرقاً بانطباعة غامضة من الرضا ، والامل ، والسعادة . كانت اكثر من ابتسامة . كانت إشعاعاً أو تكاد . وعلى جبينه استقر انعكاس لا يوصف من نور غير منظور . إن ارواح المستقيمين من الناس لتروى في الرقاد سماء عجيبة .

كان انعكاس من هذه السماء يسطع على عجا الاسقف . وكان في الوقت نفسه شفافية مضيئة ، لأن هذه السماء كانت في ذات نفسه . هذه السماء كانت خميره .

وفي اللحظة التي استقر فيها شعاع القمر على هذا الضياء الباطني بدا الاسقف النائم وكأنما تحيط به هالة من النور . ولكنها كانت معتدلة ، ومحجوبة بشفق لا سيب الى وصفه . وزاد هذا القمر الذي في السماء ، وهذه الطبيعة الوسي ، وهذه الحديقة التي لا نبضة فيها ، وهذا المنزل المادي ، والساعة ، واللحظة ، والصمت ، - زاد هذا كله طمانينة هذا الحكيم الجليل ، وغلف بضرب من الهالة الماجدة الرائقة هذا الشعر الأبيض ، وهاتين العينين المعضتين : هذا الوجه حيث كل شيء امل ، وحيث كل شيء ثقة - رأس الرجل العجوز ، ورقاد الطفل .

كان قمة ألوهية تقريباً في هذا الرجل المعظم هكذا على غير وعي منه .

وقف جان فالجان في الظل ، رمتقه الحديدي في يده ، منتصب

القائمة ، جامداً ، سروع الفؤاد امام هذا الوجد المشع . إنه لم يرَ من قبل نظيراً لذلك البنة . وملأت هذه الطمانينة فؤاده رعباً . والحق أنه ليس للعالم الاخلاقي مجلياً اعظم من هذا : ضمير قلق مضطرب على وئيل ارتكاب عمل شرير ، يتأمل رقاد رجل صالح .

كان هذا الرقاد في هذه العزلة ، وعلى مقربة من رجل مثله ، ينطوي على شيء رفيع أحسّ به في غموض ، ولكن في قوة .

إن احداً ما كان قادراً على ان يعرف اي شيء كان يدور في خلده . حتى هو نفسه لم يكن يدري . ولكي يحاول المرء ان يلمّ بذلك يتعب عليه ان يتحلى أقصى العنف في حضرة أقصى الاعتدال . ولم يكن ثمة على وجهه شيء يمكن ان يلمح في يقين . كان يربّ عليه ضرب من الدهش الشكس . لقد رآه . هذا كل ما هالك . ولكن ايّ الافكار طافت في ذهنه ؟ كان من المستحيل على المرء ان يحزر ذلك . كانت واضحاً ان الاضطراب والارتباك استبدا به . ولكن ما طبيعة هذا الانفعال ؟

إنه لم يرفع عينه عن الرجل العجوز . كان التردد العجيب هو الشيء الوحيد الواضح في مسلكه وحياته . ولقد كان خليقاً بالناظر اليه ان يعتقد أنه إنما تردّد بين عالمين : عالم الهالكين ، وعالم الناجين . لقد بدا على استعداد لسحق هذه الجمجمة ، او لتقبيل هذه اليد !

وبعد لحظات رفع يده اليسرى ، في بطء ، نحو جيبنه ؛ ونزع قلنسوته . ثم رفع يده يمثل ذلك البطء ، واستغرق في تأملاته ، كرة اخرى ، وقد حمل قلنسوته في يراه ، وعصاه في يناه ، وقفّ شعره فوق رأسه الضاري .

ونحت هذه النظرة المروعة ، واصل الاسقف رقاده في طمانينة عميقة . كان تمثال المصلوب القائم على الموقد يبدو على نحو باهت في ضوء القمر ، وكأنما كان يبط ذواعيه نحوهما كليهما ، مباركاً احدهما ،

غافراً للآخر :

وفجأةً اعتمر جان فالجان قلنسوته ، ثم انطلق مسرعاً من غير ان ينظر الى الاسقف ، محاذياً السرير ، متجهاً مباشرة نحو الخزنة الجدارية الصغيرة التي لمحا قرب رأس السرير . ورفع المثقب الحديدي لكي يحطم القفل ، فاذا به يجد المفتاح فيه . وفتحه ، فكان اول ما رآه سلة الآنية الفضية ، فتناولها ، واجتاز الغرفة في خطى واسعة ، غير مصطنع الحذر ولا مبالٍ بالضجة . وانتهى الى الباب ، ودخل المصلى ، وتناول عصاه ، واجتاز بالمنية ، ووضع آنية الفضة في جرابه ، واطرح السلة ، وركض عبر الجنية ، ووثب فوق الجدار وكأنه النمر ، وولى فراواً .

١٢

الاسقف يعمل

وعند مطلع الشمس من اليوم التالي كان مونسينيور بينفينو يتمشى في حديقته . وهرعت السيدة ماغلوار نحوه وقد عصفت بها الاضطراب . وصاحت :

« مونسينيور ، مونسينيور ! هل تعرف عَظَمَتِكَ ابن سلة الآنية الفضية ؟ »

فقال الاسقف : « نعم . »

فقالت : « ليتبارك اسم الرب ! انا لم أدري ما الذي حلّ بها . »
كان الاسقف قد وجد السلة ، منذ لحظة ، فوق احدى مساكن الزهور . فقدمها الى السيدة ماغلوار .
- « ها هي ذي . »

فقلت : « نعم . ولكن لا شيء فيها ؟ ابن الآتية الفضية ؟ »
فقال الاسقف : « آه . إن الآتية الفضية هي التي تشمل بالك اذن ؟
اذا لا ادري اين هي . »

- « يا الهي ! لقد سُرقت ! لقد سرقتها هذا الرجل الذي وفد
علينا امس . »

وفي طرفة عين ، وبكامل الرشاقة التي تقدر عليها امرأة في مثل
سنها ، اندفعت السيدة ماغلوار نحو المصلى ، وضمت الى المجدع ، ثم
انقلبت الى الاسقف .

وكان الاسقف ينحني في شيء من الحزن فوق نبتة من ذلك النوع
المعروف بجثثشة الملاعق كانت اللة قد هشتها عند سقوطها على الارض .
فانتصب لدن سمع صيحة السيدة ماغلوار :

- « مونسينور ، لقد هرب الرجل ! لقد سُرقت الآتية الفضية ! »
وفيا هي تنطق بهذه الكلمات وقعت عينها على زاوية من الحديقة
حيث وجدت آثار تسوُّر . كانت عارضة الجدار الحشبية قد طُرحت
على الارض .

- « أنظر ! لقد فرّ من هنا . لقد وثب الى زقاق كوشفيليه ! يا
له من رجلٍ مقيت ! لقد سرق آتينا الفضية ! »
واعتصم الاسقف بالصمت لحظة ، ثم رفع عينيه الرصينتين وقال للسيدة
ماغلوار في رقة :

- « ولكن قبل كل شيء ، هل كانت هذه الآتية الفضية لنا ؟ »
ولم تجب السيدة ماغلوار . وبعد لحظة تابع الاسقف كلامه :

- « ايها السيدة ماغلوار ، لقد احتفظتُ بهذه الآتية الفضية ، بغير
حق ، دهرآ طويلاً . إنها ملكٌ للفقراء . من كان هذا الرجل ؟ رجلاً
فقيراً من غير شك . »

فقلت السيدة ماغلوار : « وأسفاه ! وأسفاه ! أنا لستُ ناثرة من

اجلي شخصياً أو من اجل الآنسة . سيان عندنا بقاء الآنية الفضية وذهابها .
ولكنني ثائرة من اجلك يا صاحب السيادة . بأي شيء سوف يتناول
مونسينيور طعامه منذ اليوم ؟ »

فنظر الاسقف اليها دهشاً :

— « وكيف ذلك ؟ أليس عندنا أطباق من صفيح ؟ »

وهزّت السيدة ماغلوار كتفيها .

— « للصفيح رائحة . »

— « حسن . فلنستعمل اطباقاً حديدية اذن . »

وأومأت السيدة ماغلوار ايماءة ذات مغزى .

— « وللحديد رائحة . »

فقال الاسقف : « حسن ، اذن نستعمل اطباقاً خشبية . »

وبعد دقائق معدودات تناول فطوره على المائدة عينها التي جلس
اليها جان فالجان اللبنة البارحة . وفيما هو يُفطر ، قال مونسينيور
بينفينيو ، في جدل ، لأخته التي لم تنطق بكلمة ما ، وللسيدة ماغلوار التي
كانت تدمدم مخاطبة نفسها ، انه ليس ثمة حاجة ، حقاً ، حتى الى
ملعقة او شوكة خشبيتين لغمس قطعة من الخبز في كوب من اللبن .

وقالت السيدة ماغلوار لنفسها فيما هي تدرع الغرفة جيئة وذهاباً :

— « هل يخطر شيء كهذا ببال انسان ؟ أن تستقبل رجلاً مثل

هذا ، وتقدم اليه سريراً الى جانبك ، ثم يشاء حسن الحظ ان لا يفعل

شيئاً اكثر من السرقة ! آه ، يا الهي ! ان الرعدة لتسرى في اوصالي

حين أفكر بذلك ! »

وفيما الاخ والاخت ينهضان عن المائدة 'قرع الباب .

وقال الاسقف : « أدخل . »

وفتح الباب . وبرز على العتبة جمعٌ غريب ضارب . كان ثلاثة رجال

يسكون بخناق رجل رابع . أما الثلاثة فكانوا من رجال الدرك ، واما

الرابع فكان جان فالجان .

كان أحمد ضابط الدرك قرب الباب ، وكان يقود الجمع في ما يبدو .
وتقدم الضابط نحو الاسقف ، وادى له التحية العسكرية .
وقال : « مونسينيور ... »

وهنا رفع جان فالجان رأسه - وكان مقطب الجبين منتبهاً - وغغم
في جرس مشدود :

- « مونسينيور ! اذن فانت لست الكاهن ! »
فقال احد رجال الدرك : « اسكت ! إنه المونسينيور ، إنه
الاسقف . »

وفي غضون ذلك كان مونسينيور بينفينو يقترب بامرع ما تمكنه
شيخوخته من الاقتراب .

وقال وهو ينظر الى جان فالجان : « آه ، هانت ذا ! انا
سعيد بأن اراك . ولكن ! لقد اعطيتك الشمعدانين ايضاً ، وهم
فضيان مثل غيرهما ، وفي إمكانك ان تبيعها بئتي فرنك . لماذا لم
تأخذهما مع أطباقك ؟ »

وفتح جان فالجان عينيه ونظر الى الاسقف وعلى وجهه انطباعة لا
يقدر أيما لسان بشري على وصفها .

وقال الضابط : « مونسينيور ، اذن فقد كان ما قاله هذا الرجل
صحيحاً ؟ لقد التينا به . كان منطلقاً مثل رجل هارب ، فالتينا القبض
عليه لكي نحقق . كان يحمل هذه الآنية الفضية . »

فقطعه الاسقف في ابتسامة : « ولقد قال لكم إن كاهناً عجوزاً
طيباً بات الليلة البارحة عنده منحة إياها . لقد فهمت . وقد أرجعتموه
الى هنا ؟ هذه إهانة . »

فقال الضابط : « اذا كان الامر كذلك فهل نستطيع ان نحلي
سبيله ؟ »

فأجاب الاسقف : « من غير شك . »
واطلق رجال الدرك مراح جان فالجان . فمكص على عقيبه .
ثم انه قال في صوت لا يسكاد يفهم ، وكأنما كان يتحدث في نومه :
« أصبح أنهم يطلقون سراحي ؟ »
فقال احد رجال الدرك : « اجل ! في استطاعتك ان تذهب .
ألا تفهم ؟ »

فقال الاسقف : « على رسلك ، يا صديقي . هذان هما الشمعدانان
اللذان قدمتهما اليك . خذهما قبل ان تذهب . »
ومضى الاسقف الى الموقد ، ورفع الشمعدانين الفضيّين ، وحملها الى جان
فالجان . وراقبته المرأتان وهو يفعل ذلك من غير ان تنبسا بكلمة ، او
نومثا ايماءة ، او تلقيا نظرة يمكن ان ترزعج الاسقف .
كانت اوصال جان فالجان ترتعد كلها . وتناول الشمعدانين على نحو
آليّ ، وقد غلب على عيائه الذهول .

وقال الاسقف : « والآن ، اذهب في سلام . وبالمناسبة ، اذا
رجعت كرة ثانية يا صديقي فلا داعي الى ان تمرّ من خلال الجنة .
ان في استطاعتك دائماً ان تدخل وتخرج من الباب الامامي . وإنه لا
يُغلق إلا بسقطة ، ليلاً ونهاراً . »
ثم التفت الى رجال الدرك وقال :

— « ايها السادة ، في استطاعتكم ان تذهبوا . »
ومضى رجال الدرك لسبيلهم .

كان جان فالجان أشبه برجل على وشك الانغناء .
وتقدّم الاسقف نحوه وقال في صوت خفيض :

— « لا تنسَ ، لا تنسَ ابداً انك وعدتني بان تعطنع هذه الآنية
الفضية في السبيل التي تجعل منك رجلاً صالحاً . »
ووقف جان فالجان ، الذي لم يذكر أنه وعد الاسقف بذلك قط ،

وقد غلب عليه الدهش والذهول . كان الاسقف قد وضع كثيراً من التوكيد على هذه الكلمات وهو ينطق بها . وتابع كلامه في احتفال :
- « جان فالجان ، يا اخي ! انت لم تعد ملكاً للشر ، ولكن ملكاً للخير . واني انما اشتري نفسك . انا أنتزعها من الافكار السوداء ، ومن روح الهلاك ، وأقدمها الى الله ! »

١٣

جيرفيه الصغير

وغادر جان فالجان المدينة وكأنه يفرّ منها . لقد اندفع يسعى في اقصى السرعة ، عبر الحقول ، سالكاً أولى الازقة والطرق الفرعية التي تبدّت له ، غير مدرك انه كان يركب في كل لحظة على آثاره . وظل قائماً على هذا النحو طوال الصباح ، لم يذق طعاماً ، ولم يحسّ بجوع . كان فريسة مجموعة من الاحاسيس الجديدة . لقد استشعر ضرباً من الغضب ، ولكنه لم يدرك على من كان غاضباً . كانت لا يدري اثبتت كوامن العاطفة في فؤاده ام ازدرى وأهين ؟ وكانت تعرف في بعض الاحيان رقة غريبة كان يكافحها ، ويقيم في وجهها قسوة سنواته العشرين الماضيات . وأتعب هذا الوضع . لقد رأى في ابتساس الى ذلك الضرب من الهدوء المروع الذي منحه اياه الظلم المتوزل به - رأى اليه يتقلقل في ذات نفسه . وساءل نفسه اي شيء ينبغي ان يحل محله . وفي بعض الاحيان كان يتسنى لو انه كان في السجن مع رجال الدرك ، ولو ان الاحداث لم تتخذ هذا المجرى ؛ فقد كان ذلك خليقاً به ان يورثه احتياجاً اقل . وعلى الرغم من انقضاء الشطر الاعظم من الموسم فقد كانت ما تزال هها وهناك ، في أسيجة العليق ، بعض الزهرات المتخلفة

التي فاح عيورها من حوله ، فيما هو يجتاز بها مشياً على قدميه ، فأعاد الى مخيلته ذكريات طفولته . وكانت هذه الذكريات لا 'تُحتمل' او 'تكاد' بعد ان غابت عن ذاكرته دهرًا طويلاً .

وهكذا تجهمرت في ذهنه ، طوال النهار ، افكار لا مبيد الى التعبير عنها .

وفيما الشمس تخبج نحو الافق ، 'مطيلة فوق الارض ظل' أصفر الحصى ، كان جان فالجان جالساً خلف دغل في سهل واسع أصعب يكاد يكون صحراء حقيقية . لم يكن في الافق غير جبال الالب . حتى ولا برج كنيسة في قرية نائية . ولعل جان فالجان كان على مبعدة ثلاثة فراسخ من د ... كان مجاز ضيق 'تُحرق' السهل ينسط على بضعة خطوات من الدغل .

وفي غمرة هذا التأمل الجدير بأن يضاعف أثر اسماله الرابع في نفس ايما امريء بقدر له ان يراه ، طرق سمعه صوت 'مرح بهيج' . وأدار رأسه فرأى غلاماً صغيراً يتقدم في ذلك المجاز - غلاماً من من غلمان سافوا لا يزيد عمره على عشر سنوات ، يتغنى وآلته الموسيقية الشبيهة بالكمان على جنبه ، وصندوقه الخاص بسك المرموط على ظهره .

كان واحداً من اولئك الصبية المرحين ذوي النفوس العذبة الذين ينقلون من مكان الى مكان وقد بدت 'ركبهم' من ثوب بنطلوناتهم . ومن غير ان يكفّ الغلام عن الغناء ، كان يقف بين الفينة والفينة ويقذف في الهواء ببعض القطع النقدية التي كانت في يده ، وليس بمسبوع ان تكون هي كل ثروته . وكان بين تلك القطع واحدة من فئة الاربعين د سو .

ووقف الغلام الى جانب الدغل من غير ان يرى جان فالجان ، وقذف ما بيده من النقطع النقدية الصغيرة في الهواء ، فلقاها جيماً ،

حتى تلك اللحظة ، على ظاهر كفه في كثير من البراعة .
ولكن قطعة الاربعين و سو ، ولت منه ، هذه المرة ، وكرت
نحو الدغل حتى انتهت الى جان فالجان .
ووطنها جان فالجان بقدمه .

ولكن الغلام كان قد تابع سير القطعة النقدية بعينه ، وعرف الى
اين انتهت .

ولم يأخذه الخوف ، وتقدم نحو الرجل مباشرة .
كان المكان منعزلاً انزاعاً كاملاً . وعلى مدى البصر لم يكن أحد
في السهل أو في الجاز الضيق . ولم يكن ثمة ما يُسمع غير صيحات
جماعة من الطيور القواطع * كانت تنطلق عبر السماء على ارتفاع عظيم .
وإدار الغلام ظهره للشمس ، فجعلت شعره أشبه بأسلاك الذهب ،
وخضبت بوهج دام وجه جان فالجان الوحشي .

وقال الغلام الصغير في تلك الثقة الصبانية التي قوامها الجمل
والبراءة :

- « قطعتي النقدية ، أيها السيد ؟ »

فقال جان فالجان : « ما اسمك ؟ »

- « جيفيه الصغير ، يا سيدي . »

فقال جان فالجان : « اذهب من هنا . »

فألح الغلام : « يا سيدي ، أعطني قطعتي النقدية . »

ونكس جان فالجان رأسه ، ولم يجب .

واردف الغلام :

- « قطعتي النقدية ، يا سيدي ! »

وظلت عين جان فالجان مسيرة على الارض .

وصاح الغلام : « قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية البيضاء ! قطعتي

* التي تنقل من بلد الى بلد .

النقدية الفضية ! »

لقد بدا وكأن جان فالجان لم يفهم شيئاً . وأمسك الغلام به من طوق قميصه ، وهزته . وفي الوقت نفسه ، قام بمحاولة لزعزعة الحذاء الضخم ، المثقل نعلته بالحديد ، الجاثم على كنزته .

- « اريد قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية ذات الاربعين سو ! »
وبكى الغلام . ورفع جان فالجان رأسه . كان لا يزال قاعداً ، وكانت نظراته قلقة . لقد حدثت الى الغلام في ضرب من الدهش . ثم بسط يده نحو عصاه ، وصاح في صوت فظيع :
- « من هناك ؟ »

فأجابه الغلام : « انا ، يا سيدي . جيفيه الصغير ! انا ! انا ! أعطني قطعتي النقدية ذات الاربعين سو ، من فضلك ! ارفع قدمك ، يا سيدي ، من فضلك ! »

ثم ان الغضب استبد به ، على الرغم من حداثة سنه ، فهو يتحدث في لهجة تسكاد تكون تهديدية :
- « آه ، واخيراً ، ألا تريد ان ترفع قدمك ؟ ها ، ارفع قدمك . »

فقال جان فالجان : « أهذا انت ايضاً ؟ »
وفجأة انتصب واقفاً ، وقدمه ما تزال فوق القطعة الفضية ، وأضاف :

- « من الخير لك ان تنجو بجلك ! »
ونظر الغلام اليه في دعر ، ثم شرع يرتعد من قمة رأسه الى اخص قدميه . وبعد بضع ثوان من الانشده اطلق ساقيه للريح من غير ان يجرؤ على الالتفات ، او الصياح .
بيد أنه ما لبث ان وقف ، على مسافة ما ، لكي يستعيد أنفاسه .
ومن خلال تفكيره الحالم سمعه جان فالجان يشق وينتحب .

وبعد بضع دقائق اختفى الغلام عن العيان .
كانت الشمس قد غربت .

وكانت الظلمة تتكاثر حول جان فاجان . إنه لم يذق طوال النهار طعاماً ما . ومن الجائز ان تكون الحتى قد اصابته .
وكان قد ظلّ واقفاً لم يغير وضعه منذ ان ولى الغلام فراراً . كان صدره يعلو ويهبط في فترات طوال غير متساوية . وكانت عيناه مسمرتين على بقعة قائمة على عشر خطى او اثنتي عشرة خطوة أمامه ، وكانتا تبدوان وكأنهما ندرسان في انتباه بالغ شكل كسرة من الخبز المطلي العتيق منطرحة على العشب .
وفجأة ارتعدت اوصاله . لقد بدأ يستشعر برد الماء .

وخفض قلنسوته على جبينه ، وحاول على نحو ميكانيكي ان يضم جانبي قميصه حول صدره وان يزوره . ثم انه خطا خطوة ، وانحنى الى أمام لكي يتناول عصاه عن الارض .

وفي تلك اللحظة بَصُرَ بقطعة الاربعين « سو » التي كانت قدمه قد دفنتها نصف دفن في التراب ، والتي التمت بين الحصى .

واصيب بشل الصدمة الكهربائية . ومن خلال اسنانه قال : « ما هذه ؟ » وارندت خطوة او خطوتين ، ثم وقف عاجزاً عن ان يرفع طرفه عن هذه النقطة التي غطتها قدمه اللحظة السابقة ، وكأن الشيء الملتصع هناك ، وسط الظلمة ، كان عيناً مفتوحة مسترة عليه .

وما هي الا بضع نوان حتى وثب في تشنج نحو القطعة المألوية ، وأملك بها ؟ ثم استقام ، وسرّح طرفه بعيداً فوق السهل ، محدقاً في وقت معاً الى نقاط الاقتراب جميعاً ، واقفاً ، مرتعداً مثل ظبي مروّع يلتمس مفزعة .

ولم ير شيئاً . كان الليل قد هبط ، وكان السهل بارداً خالياً ، وكان ضباب ارجواني كثيف يرتفع في الفسق الواهن النور .

وقال : « آه ! » وشرع يمشي مسرعاً في الاتجاه الذي اتخذته الغلام عند فراره . وبعد ان خطا نحواً من ثلاثين خطوة ، وقف ، وأنجال البصر في ما حوله ، ولم يرَ شيئاً .

ثم نادى بأقصى ما يستطيع من قوة :
- « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! »

ثم أصاح .

ولم يكن ثمة جواب ما .

كان الريف موحشاً كالحا ، وكان الفضاء يحيط بالمنطقة كلها . ولم يكن حول جان فالجان غير ظلمة ضاعت فيها نظرتة ، وغير صمت ضاع فيه صوته .

وهبت ريح شمالية قارسة خلعت ضرباً من الحياة الحِدادية على كل ما حوله . وهزت شجرات الملتيق اذرعها الصغيرة الهزيلة في ثورة لا تصدق . كانت خليقاً بالناظر اليها ان يقول انها تنهد شيئاً ما ونطارده .

وعاود السير من جديد ، ثم أغدّ الخطى حتى صار سيره معدوياً . وبين الفينة والفينة كان يقف ، وينادي في ذلك الحلاء بصوت ليس اضع منه ولا احفل بالحزن :

- « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! »

ولو قد سمعه الغلام إذن لألقى في فؤاده الرعب ، واذن لاجهم عن الظهور امامه . ولكن الغلام كان قد انتهى ، من غير ريب ، الى مكان بعيد جداً .

ولقي كاهناً على صهوة جواد . فتقدم نحوه وقال :

- « سيدي الكاهن ، هل رأيت غلاماً مرّ من هنا ؟ »

فأجابه الكاهن : « لا . »

- « غلاماً يدعى جيرفيه الصغير ؟ »

- « انا لم ار احداً . »

واخرج من كبس نوديه قطعتين نقدين من ذوات الحمة الفرنكات ،
وقدمها الى الكاهن .

- « سيدي الكاهن ، خذ هذه الفرنكات لفرائك . سيدي الكاهن ،
إنه غلام صغير ، في نحو العاشرة من العمر ، يحمل صندوقاً لسمك
المرموط في ما اعتقد ، وآلة موسيقية تشبه الكمان . لقد مضى في هذا
الاتجاه . انه واحد من صبية سافروا ، أفهمت ؟ »

- « انا لم أره . »

- « جيوه الصغير ؟ أليست قريته قريبة من هنا ؟ هل تستطيع
ان تعلمني ؟ »

- « اذا كان كما تقول ، يا صديقي ، فعندئذ يكون الغلام الصغير
غريباً عن هذه الديار . انهم يطوفون في هذه المنطقة وليس ثمة من
يعرفهم . »

وسارع جان فالجان الى اخراج قطعتين نقدين آخرين من ذوات
الحمة الفرنكات ، وقدمها الى الكاهن .

وقال : « من اجل فرائك . »

ثم اضاف في هذيان :

- « سيدي الكاهن . ألق القبض عليّ . انا سارق . »

ونخس الكاهن جواده بالمهزين في شدة ، وولى وقد عصف به خوف
عظيم .

واستأنف جان فالجان الركض في الاتجاه الذي اتخذه اول الامر .
وقطع على هذا النحو مسافة غير يسيرة ، بجيلاً الطرف في ما حوله
مندبياً صائحاً ، ولكنه لم يلتق احداً آخر . ومرتين او ثلاث مرات
تسكّب الجواز لكي ينظر الى ما بدا له شخصاً منطرحاً على الارض او
جاثاً فوقها ، ولكن ذلك لم يكن غير شجرات علق او صخور منخفضة .

واخيراً ، وفي موطن التفت عنده ثلاث طرق ضيقة ، وقف . كانت القمر قد طلعت ، فأمعن النظر في المدى البعيد وصاح كـرة اخرى : « جيفيه الصغير ! جيفيه الصغير ! جيفيه الصغير ! » ولكن صيحاته نلشت في الضباب ، من غير ان تثير حتى صدى من الاصدااء . وقتم مرة ثانية : « جيفيه الصغير ! » ولكن في صوت واهن لا يكاد يُبين . وكانت ذلك آخر جهوده . لقد التوت ركبته من تحته على نحو مفاجيء ، وكأنه ناء دفعة واحدة تحت ثقل ضميره الفاسد الذي القته عليه قوة غير منظورة . وسقط خائر القوى على حجر ضخم ، وبسدها متشبثتان بشعره ، ووجهه فوق ركبته ، وصاح :

- « انا رجل بائس ! »

وتقطر فزاده ؛ وانفجر بالبكاء . كانت هي اول مرة يبكي فيها منذ تسع عشرة سنة .

حين غادر جان فالجان منزل الاسقف ، كما قد رأينا ، كان في حال نفسية لم يسبق له ان عرفها قط من قبل . كان عاجزاً عن ان يفهم ايما شيء ، « كان يجري في ذات نفسه . لقد ثبت في وجه أعمال الشيخ وكلماته الانجيلية : « لقد وعدتني بأن تصبح رجلاً صالحاً . إني انما أشتوي نفسك . أنا انتزعها من روح الفساد وأقدمها الى الله ! »

لقد عاودته هذه الكلمات على نحو موصول . وفي وجه هذا الحليم السماوي اقام الضرور ، الذي هو حصن الشر في الانسان . لقد احس احساساً غامضاً بأن مغفرة هذا الكاهن هي اعظم غارة وافظع هجوم سُنتا عليه عمره كله ، وبأن قوة قلبه تكون كاملة اذا ما قاوم هذه الساحة ، وبأنه اذا ما استسلم فعندئذ يتعين عليه ان يتخلى عن ذلك الحقد الذي ملأت روحه به أفعال الآخرين طوال هذه السنوات كلها ، والذي وجد فيه الرضا والارتياح ، وبأنه يتعين عليه هذه المرة ان يغلب أو يغلب ، وبأن الصراع - الصراع الهائل الحاسم - قد بدأ

بين خبائثه هو ، وطيبة هذا الرجل .

وفي حضرة هذه البوارق كلها مشى جان فالجان مثل رجل ثمل .
وفيا هو يمشي هكذا ، شارد العينين ، هل كان يدرك ادراكاً واضحاً
الى اى نتيجة يمكن ان تؤدي به مغامرته في د...؟ هل سمع تلك الهببات
الحقية التي تحذر النفس وتلحّ عليها في لحظات بعينها من الحياة ؟ هل
همس في اذنه صوت انبأه انه يجتاز الساعة الحاسمة من مصيره ؛ وأنه لم
يبق امامه طريق وسط ؛ وأنه اذا لم يصبح منذ اليوم احسن الرجال
فوف يكون اسوأهم ؛ وان عليه الآن ، اذا جاز التعبير ، ان يسمو
الى اعلى مما سما اليه الاسقف ، او يهبط الى ادنى من درك العبد
الرقيق في سجن الاشغال الشاقة ؛ وأنه اذا شاء ان يصبح خيراً فيتعين
عليه ان يصبح ملاكاً ، واذا شاء ان يبقى شريراً فيتعين عليه ان
يصبح غولاً ؟

وهنا ينبغي ان نأل تلك الاسئلة التي طرحناها من قبل : هل
تشكل في ذهنه ظلٌ غلط لهذا كله ؟ لا ريب في ان البؤس - كما
سبق منا القول - يرتبي الذكاء . بيد اننا لسنا واثقين من ان جان
فالجان كان في وضع من يقدر على ان يستجلي كل ما ألمعنا اليه هنا .
واذا كانت هذه الأفكار قد خطرت له ، فالراجع انه لمحها لمحا ، ولم
يرها رؤية ، فلم توفق الى اكثر من إلقائه في اختلاط لا يُطاق -
اختلاط يكاد يكون ألياً . واذا كان قد فارق ، منذ قريب ، ذلك
الشيء المشوه الاسود الذي يدعى سجن الاشغال الشاقة فقد آذى الاسقف
روحه ، كما كان خليقاً بالنور الساطع ان يؤذي عينيه لدن خروجه
من الظلام . لقد ملأته الحياة المستقبلية ، الحياة الممكنة التي قدّمت نفسها
اليه ، منذ تلك اللحظة ، طاهرة كل الطهارة مشرقة كل الاشراف - لقد
ملأته هذه الحياة بالارتعاد والقلق . إنه ما عاد يدري ان كان حقاً .
فمثل بومة ترى الشمس تشرق فجأةً هيرَ ذلك الخارج من سجن

الاشغال الشاقة وكانت الفضيلة قد أعمت ناظره .

اما الشيء الراهن ، الذي لم يشكّ هو به ، فهو انه لم يعد الرجل نفسه ، وان كل شيء فيه قد تغير ، وانه لم يعد في ميوره ان يمنع الاسقف من ان يقول له ما قاله ، او يتو في ذات نفسه من كوامن العاطفة ما أثار .

في هذا الجو النفسي التقى جيرفيه الصغير وسرق قطعه النقدية ذات الاربعين « سو » . لماذا ؟ انه ما كان قادراً على ان يضر هذه الواقعة ، من غير ريب ؛ هل كانت هي الاثر الاخير والجهد النهائي للافكار الرديئة التي حملها من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ هل كانت بقية من حافظ باطني ، او ثرة لما يدعى في علم توازن الاجسام « القوى المكتسبة » ؟ لقد كانت هذا ، ولعلها كانت ايضاً اقل من هذا . ولتقل ببساطة ان الذي سرق القطعة النقدية لم يكن هو ؛ لم يكن الرجل . إن البهية هي التي وضعت قدمها في بلاهة وبسائق العادة والفريزة ، على تلك القطعة ، فيما كان العقل يناضل وسط جمهرة من الماثرات الجديدة ، المجهولة . حتى اذا استيقظ العقل ، ورأى الى ما فعلت البهية ، ارتد جان فالجان والالم يعتصر فؤاده ، واطلق صيحة دعر . كانت ظاهرة غريبة ؛ ولعلها ان لا تكون ممكنة إلا في الحالة التي كان فيها آنذاك . ولكن الحقيقة هي انه حين سرق هذا المال من الطفل لما اقدم على عمل لم يعد قادراً على مثله .

واباً ما كان ، فإن هذا الاثم الختامي كان له اثرٌ حاسم في نفس جان فالجان . لقد اندفع عبر فوضى عقله وبدّدها ، مقيماً السحب القاعة في جانب والنور في جانب ؛ وفعل فعله في روحه ، وهي عى وضعها ذاك ، كما تفعل بعض الكراشف * الكيائية فعلها في مزيج كدير بأن يرسب عنصراً وتحدث من الآخر محلولاً نقياً .

* الكراشف (ومفردها : كاشف) مراد فكشف بها صفات مراد اخرى .

في البدء ، حتى قبل ان يفرغ للتفكير والتأمل في ذات نفسه ، وفيما هو ذاهل مشنت الذهن ، مثل رجل يحاول ان يولي قراراً ، حاول ان يبحث عن القلام ليعيد اليه ماله . حتى اذا وجد ان ذلك غير مجدٍ ومستحيل ، اقلع عنه بئساً . وفي اللحظة التي صاح فيها : « انا رجل بئس ! » رأى نفسه على حقيقتها ، وكان قد انتهى الى ان يصبح شديد الانفصال عن نفسه بحيث خيل اليه وكأنه لم يكن الا شعباً ، وان جان فالجان الفطيع ، المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، كان امامه بلعبه ودمه - وعصاه في يده ، وقميصه على ظهره ، وجرابه المليء بالامتعة المروقة فوق كتفيه - وبجيباه الخازم الكالنج ، وبفكره الخافل بالمشروعات المقيمة .

ان فرط الشقاء ، كما لاحظنا ، قد جعله بمعنى من المعاني خيالياً كثير الاوهام . واذن فقد كان ذلك ضرباً من الوم . لقد يصّر فعلاً بيجان فالجان ، هذا الوجه المشؤوم ، امامه . وكان على وشك ان يدأل نفسه من ذلك الرجل ، وقد عصف به الرعب لمرآه .

كان دماغه في احدى تلك الحالات العنيفة ، اماداة مع ذلك على نحو خفيف ، حين يكون الوم من العمق بحيث يتطلع الحقيقة . فنحن لا نرى ، بعد ، تلك الاشياء المحيطة بنا ، بل نرى - وكأنها خارج انفسنا - تلك الاشكال التي في اذهاننا .

لقد رأى الى نفسه اذن ، اذا جاز التعبير ، وجهاً لوجه . وفي الوقت نفسه ، ومن خلال تلك الملوسة ، رأى على مسافة مبهمة ، ضرباً من النور حبه باديه الأمر مشعلاً . حتى اذا حدث في انتباه اشد الى ذلك النور الذي اشرق على ضميره ادرك ان له شكلاً بشرياً ، وان هذا المشعل كان الاسقف .

ووازن ضميره بين هذين الرجلين اللذين أقفا امامه على هذا النحو : الاسقف وجان فالجان . كان ايما شيء دون الاول خليقاً به ان يتحقق

في اذابة الآخر . وبأحد تلك الآثار الفريدة المتميز بها هذا الضرب من الانخفاف . وفيما تطاول وهمه ، رأى الاسقف يزداد عظمةً وثقلًا في عينيه . وانكش جان فالجان وانعمى . وفي لحظة من اللحظات لم يبق منه غير طيف . وفجأة اختفى . إن الاسقف وحده قد بقي .

لقد ملأ روحَ هذا الرجل البائس باسراع جليل .

وبكى جان فالجان طويلاً . لقد سفع دموعاً حارة ؛ لقد بكى في سرارة ؛ بكى في ضعف أشد من ضعف المرأة ، وفي دُعر أقوى من دُعر الطفل .

وفيما هو يبكي ازداد النور اشراقاً في ذهنه ؛ كان نوراً غير عادي ، نوراً فاتحاً وقظيماً في آن معاً . إن حياته الماضية ، وخطيته الاولى ، وتكفيره الطويل ، وظاهره الوحشي ، وباطنه الذي قسسه الايام ، واطلاق سراحه المُبْهَج بمجموعة كبيرة من خطط الانتقام ، وما تم له في منزل الاسقف ، وآخر عمل قام به ، وسرقته قطعة الطفل النقدية ذات الاربعين دسوساً ، وهي جريمة يزيد بها خسارة وفحشاً وقوعها إثر مغفرة الاسقف . كل هذا عاد وتبدى له ، في وضوح ، ولكن على ضوء لم يره قط من قبل . لقد رأى حياته ، فبدت له فظيعة ، ورأى روحه ، فبدت مروعة . بيد انه كان ثمة نور رقيق الحاشية فوق تلك الحياة ، وتلك الروح . لقد تراءى له وكأنه كان يرى الى الشيطان على ضوء الجنة .

كم ساعة ظل يبكي على هذه الشاكلة ؟ اي شيء فعله بعد البكاء ؟ الى اين ذهب ؟ إن احداً لم يعرف ذلك قط . كل ما عرف من امره ان الحوذي الذي كان منطلقاً بعربته ، آنذاك ، على طريق غرينوبل ، والذي بلغ بلدة ... في نحو الساعة الثالثة صباحاً ، رأى فيما هو يجتاز بشارع الاسقف رجلاً متخذاً وضع المصلي ، فهو راكع في الظلام ، على حصباء الطريق ، أمام باب مونسينيور بيغنيو .

الكتاب الثالث

في عام ١٨١٧

١

سنة ١٨١٧

كانت سنة ١٨١٧ هي السنة التي نعتها لويس الثامن عشر ، في ضرب من التوكيد الملكي الذي لا يعوزه التشامخ ، بالسنة الثانية والعشرين من سني حكمه . كانت السنة التي لمع فيها نجم مسيو بروغويير دو سورسوم . كانت دكاكين صانعي الشعر المستعار كلها ، الآملة في عودة الذرور والطائر الملكي ، مزخرفة باللون اللازوردي وزهرات الزنبق * كانت هي العهد الساذج الذي كان الكونت لينش يجلس فيه

* وهي شار ملوك فرقة .

كل يوم أحد ، بوصفه وكيل كنيسة ، على المقعد الرسمي في سانت جيمس دو بريه ، مرتدياً ثوب بارون من بارونات فرنسا ، بشريطته الحمراء وأنفه الطويل ، وبجلال الصورة الجانبية الذي يميز من قد قام بآثورة من المآثر . اما المآثرة التي قام بها الكونت لينش ، فهي انه - بوصفه عمدة بوردو - سلم المدينة ، في ١٢ آذار سنة ١٨١٤ ، بأبكر قليلاً مما ينبغي ، الى دوق انغوليم * . ومن هنا استحق ان يكون باروناً من بارونات فرنسا . وفي سنة ١٨١٧ كان الزي يتلصص الصبيحة الصفار المتراوح عمرهم ما بين الرابعة والسادسة تحت قلانس جلدية حمراء واسعة ذات آذان ، فهي تشبه أغطية مداخن الاسكيو . كان الجيش الفرنسي يرتدي الملابس البيضاء ، على الطريقة النمساوية . كانت السرايا تدعى كتاب ، وكانت تحمل بدلاً من الارقام اسماء المديريات . كل نابوليون في سانت هيلانة ، واذا ضنت عليه انكثرة بالجوخ الاخضر فقد اضطر الى ان يقلب ثيابه القديمة . في عام ١٨١٧ غنى بلغربياني ؛ ووقفت مدموازيل بيغوتي ، وملك توقيه ؛ ولم يكن أودوي قد رأى النور بعد . وخلفت فوربوزو السيدة ساكي . كان لا يزال في فرنسا بروسيايون . وكان مسيو دولالو شخصية مرموقة . وكانت الشرعية قد أكدت ذاتها ، منذ قريب ، بأن قطعت بايدي الاسر قبضة كل من بلينييه ، وكاربونو ، وتوليرون ، ثم احتوت رؤوسهم . كان الامير دو تاليان ** الحاجب الاكبر ، والراهب لويس *** ، وزير المالية ، ينظر

* Duc D'Angoulême (١٧٧٥ - ١٨٤٤) هو الابن البكر لشارل العاشر . قاد حملة اسبانية (١٨٢٣) وعند وفاة لويس الثامن عشر امسى ولياً لعهد فرنسه . وقد استقال سنة ١٨٣٠ مع آبيه .

** Talleyrand سامي فرسي شهير . (١٧٥٤ - ١٨٣٨) كان في عهد ما قبل الثورة اسقف أوتون ، ثم اصبح رئيس الجمعية الوطنية (١٧٩٠) ووزيراً للخارجية في حكومة الادارة ، ثم في عهد القنصلية ، ثم في عهد الامبراطورية . وقد لعب دوراً كبيراً في مؤتمر فينا ، ثم في لندن حيث عينه لويس فيليب سفيراً .

*** وزير المالية في عهدي لويس الثامن عشر وشارل العاشر ثم في عهد لويس فيليب . ولد سنة ١٧٥٥ وتوفي عام ١٨٧٢ .

كل منهما في وجه الآخر ، ضاحكين مثل عرافين . كان كل منهما قد احتفل ، في ١٤ تموز عام ١٧٩٠ بقداس الاتحاد * في شان دو مارس . لقد رئسه نابليون بوصفه امقفاً ، في حين ساعده لويس بوصفه شماساً . وفي عام ١٨١٧ رُئيت في الطرق الموازية لشان دو مارس هذه اعمدة خشبية ضخمة مدهونة بلون ازرق وعليها بقايا من النور والنحل زابلها بذهيبها بعد ان هطلت عليها الامطار ونهرأت في العشب . تلك كانت الاعمدة التي ارتفعت فوقها ، قبل عامين ، منصة الامبراطور في شان دو مي . وكانت قد اسودت ههنا وههناك بنار مخيمات الجنود النمسيين المعسكرين قرب غرو كابو . وكان عمودان او ثلاثة من هذه الاعمدة قد اختفت وسط نيران هذه المحميات ، ودفأت أبدي جنود الامبراطور الالماني الضخمة . وقد تمزت ساحة شان دو مي بأنها كانت قد احتلت في شهر تموز ، على ساحة شان دو مارس . وفي عام ١٨١٧ كان ثمة شيان شعبيان : ال « فولتير - نوويه » ، ** وعلب السعوط الدستورية *** وكانت احدث الاخبار الباربية المثيرة هي جريمة دوتين الذي القى رأس اخيه في بركة « مارشيه أو فلور » . وكان التحقيق قد بدأ ، في وزارة البحرية ، حول البارجة المشؤومة « لا ميدوز » التي كان خليقاً بها ان

* في ١٤ تموز سنة ١٧٩٠ احتفل الفرنسيون بعيد الاتحاد fête de la Fédération في باريس بمناسبة انتضاء عام واحد على سقوط الباستيل . وقد رُئس امحف اوتون ، نابليون ، القداس الكبير الذي اقيم لهذه المناسبة ، وللفظ لا فاييت عظة الولاء للدستور الذي رضي به الملك ، بينما رُفعت الملكة ابنا بين ذراعيها . وهذا العيد يرمز ال عاطفة الاخاء التي ولدت آنذاك في فرنسا .

** ضرب من الكراسي مخفض المقعد مرتفع الظهر حتى الرأس ، انتشر في ذلك العصر .

*** اشارة ال الدستور الذي وضع سنة ١٨١٤ عندما نول إليوس الثامن عشر العرش ، والذي عدل على نحو حظه أكثر قوراً عام ١٨٣٠ بعد سقوط شارل العاشر .

تغير شوماربيكس بالعار ، وجيريكو * بالمجد . ومضى الكولونيل سيلف الى مصر ، وهناك اصبح صليبان باصا . وحول قصر تيرم ، في شارع دو لا هارب ، الى دكان لصنع البواميل . وكان لا يزال في ميسور المرء ان يرى فوق سطح برج اوتيل دو كارني المثلث الزوايا تلك القيفة الخشبية الصغيرة التي كانت بمثابة مرصد لـ « ميسيه » ، فلكي الاسطول في عهد لويس السادس عشر . وقرأت دوقة دروا ** ، في جهرا المؤنث على طراز لويس العاشر بالاطلس الساهوي الزرقية ، مخطوطة « أوريكا » ، على ثلاثة او اربعة من اصدقائها . كانت حروف N قد نحتت من اللوفر *** . وتنازل جسر اوستوليتز عن اسمه فاصبح جسر « حديقة الملك » وهي احجية فتحت جسر اوستوليتز و « حديقة النباتات » في وقت معاً . ولم يكن للويس الثامن عشر المستغرق في التعليق بظفره على « هوراس » ، **** فيما هو يفكر في الابطال الذين أصبحوا أباطرة وصانعي الاحذية الذين صاروا ولاية عهد - غير همين اثنين : نابليون ، وماتورين برونو . واقامت الاكاديمية الفرنسية مسابقة في موضوع : « العادة التي تتيحها الدواصة » . وكان مسيو بيلار ***** بليفاً من وجهة النظر الرسمية . وفي ظله كان في إمكان المرء ان يرى الى نشوء النائب العام المقبل ، دو برويه ،

* Géricault رسام فرنسي (١٧٩١ - ١٨٢٤) امتاز بالبتوغرافيا والنحت ، ومن روايته تلك اللوحة التي صور فيها حادث البارجة الذي يشير اليه المؤلف وقد دناها « أطواف البارجة لا ميدوز » .

** duchesse de Duras روائية فرنسية (١٧٧٨ - ١٨٢٨) كتبت روايتين : « ارويكا » Orlka التي يشير اليها المؤلف و « ادوار » Edouard .
*** رغبة في القضاء على آخر أثر من آثار نابليون الذي يبدأ اسمه كما لا يخفى بحرف N .

**** مسرحية مشهورة لكورني .

***** Bellart (١٧٦١ - ١٨٢٦) النائب العام في عهدي لويس الثامن عشر وشاول الطائر وقد عرف بمهونه في قمع الحركات التحريرية وخلق حرية الرأي .

الذي كانت تنتظره سخریات بول لويس كورييه . * كان ثمة شاتوبريان * مزيف يدعى مارسانجي ، *** كما قدر ان يكون ثمة في ما بعد مارسانجي مزيف يدعى دارلنكور . **** وكانت « كلير ألبا » Claire d'Albe و « الملك العادل » Malek Ad-el رائعتين من الروائع . وأعلنت مدام كوتين ***** كاتبة العصر الاولي . وحذفت مؤسسة فرنسة ، ***** اسم الاكاديمي ، نابوليون بوناپوت ، من جدولها . وأنشأ أمر ملكي مدرسة بحرية في آنغوليم ، لأنه كان واضحاً - وقد غدا دوق آنغوليم امير البحر الاكبر - ان لمدينة آنغوليم ، بلا جدال ، صفات المرفأ البحري كلها ، التي يتعرض المبدأ الملكي بدوها للخطر . وفي جلسات مجلس الوزراء أثير ما اذا كان ينبغي غض الطرف عن الصور التي تمثل بعض البهلوانيين والتي كانت ترتق إعلانات فرانكوفي ، وتجمع حولها أولاد الشوارع الداعرين . وفاد ميسو پاير ، ***** مؤلف L'Agneess ، وهو رجل فاضل ذو فكين مربعين وتؤلولة على الحدة ، الحفلات الموسيقية الصغيرة المقصورة على نعر من المقربين في قصر المراكيزه

* Paul - Louis Courier كاتب فرنسي (١٧٧٢ - ١٨٢٥) اشتهر برسائله الساخرة اللاذعة ضد رجال الحكم في عهدي لويس الثامن عشر وشارل العاشر .
 ** الكاتب العرسي المشهور (١٧٦٨ - ١٨٤٨)
 *** Marchangy كاتب فرنسي (١٧٨٢ - ١٨٢٦) معروف بشراسته وحاشته المكسبة .

**** d'Arlincourt روائي وشاعر فرنسي (١٧٨٩ - ١٨٥٦) اشتهر بأسلوبه المفعم على نحر غريب .
 ***** Corin روائية فرنسية (١٧٧٠ - ١٨٠٧) انتمت كتبها بطابع الكتابة الرومانتيكية . ومن اشهر رواياتها « كلير ألبا » Claire d'Albe التي يشير اليها المؤلف .
 ***** Institut de France وهي تتألف من اكاديميات خمس اهمها الاكاديمية للفرنسة والاكاديمية العلوم والاكاديمية الفنون الجميلة .

***** Ferdinando Paër مؤلف موسيقي ايطالي (١٧٧١ - ١٨٣٩) عاش معظم حياته في فرنسة : وكان مديراً للفرقة الموسيقية الخاصة بنابوليون الاول .

دو سانسوناي ، في شارع « لافيل ليفيك » . وغتت جميع الفتيات اغنية « ناسك سان آفيل » من نظم ادمون جيرو . و« حوّل » القزم الاصغر ، * الى « ميروار » . ووقف مقهى لامبلين الى جانب الامبراطور ** معارصاً مقهى قالوا الذي كان من انصار آل بوربون *** وكانت احدى اميرات صقلية قد تزوجت الى دوق دو برتي **** الذي كان لوفيل ، ***** في الواقع ، يتربص به الدوائر منذ ذلك الحين . وكانت قد انقضت سنة علي وفاة مدام دو ستال ***** وصفر حرس الملك ، ازدواءً واستهجاناً ، للآنة مارس . ***** وكانت الصحف الكبرى كلها صغيرة . كانت صحيفة « الدستوري » Le Constitutionnel دستورية . وكانت صحيفة « مينيرفا » تدعو شاتوبريان Chateaubriand شاتوبريانت Chateaubriant ***** وكان حرف (i) هذا يثير ضحكاً كثيراً بين المواطنين علي حساب الكاتب الكبير . وفي الصحف المشتراة أهدن العواهر من الصحفيين مُبْعَدِي عام ١٨١٥ .

• Le Nain jeune لعبة من ألعاب الورق ، وهي هنا تعلم على مقهى .

• نابوليون بوناپرت .

• الاميرة الفرنسية الحاكمة التي اطاحت بها الثورة الفرنسية ثم استادت عرشها في شمس الملك لويس الثامن عشر .

• de Berry الابن الثاني لشارل العاشر ، وقد قتله لوفيل في باريس عام ١٨٢٠ .

• Louvel عامل سروجي قتل دوق دو بري بطعنة خنجر وهو خارج من الاوبرا ، وقد أعدم شنقاً عام ١٨٢٠ .

• de Stael كاتبة مربية شهيرة (١٧٦٦ - ١٨١٧) ذات نزعات ثغورية ، وقد أصعبت إسهاماً بارزاً في الحركة الرومانتيكية .

• Mlle. Mars ممثلة فرنسية كوميدية (١٧٧٩ - ١٨٤٧) ألح نعمها في « المسرح الفرنسي » حيث حظيت بمجد عظيم ، ووعت بتمثيل دور « ميلبين » في رواية « الناصر من الدر » Misanthrope لولبير .

• ضرب من الطعام معروف يصنع من لحم ظفر الثور الشوي مع البطاطس عادة .

فلم يعد دافيد * ذا موهبة ، ولم يعد آرنو ** ذا مقدرة ، ولم يعد كارنو *** رجلاً ذا فضل وصلاح . ولم يسبق له سولت **** ان كسب نصراً واحداً في حياته . ولا ريب في ان نابوليون لم يعد ذا عبقرية . وكل امرئ يعرف ان الرسائل التي توجه الى المبعث نادراً ما تصل الى عنوانها ، لان الشرطة تعتبر ان من واجبها الديني ان يصدّها عن سبيلها . وليست هذه الظاهرة جديدة . فقد شكّا ديكارت منها في منفاه . واذا أبدى دافيد في إحدى الصحف الفرنسية تضايقه لعدم تلقيه الرسائل الموجهة اليه بدا ذلك مضحكاً للصحف الملكية التي اغتنمت الفرصة لتسخر من المنفي . وكان في قول « قتل الملوك » بدلاً من « الناجين » و « الاعداء » بدلاً من « الحلفاء » ، و « نابوليون » بدلاً من « بوناپورت » ما يكفي لفصل الانسان عن الانسان باكثر مما تفصلهما هاوية ما . وأجمع اصحاب الحفاة كلهم على ان عهد الثورات قد اختتم بفضل الملك لويس الثامن عشر الملقب بـ « الواضع الخالد للدستور » . وعلى سطح جسر « بون نوف » نقشت كلمة *Redivivus* ***** على القاعدة التي انتظرت قتال هنري الرابع . وكان مسبو يبيع مع متآمره ، في شارع تيريز ولم ، الحطة لتدعيم الملكية . وقال زعماء اليسار في المآزق الحرجة : « ينبغي ان نكتب الى ناقل » واستعمل ذلك السادة كانوويل ،

• Louis David رسام فرنسي شهير (١٧٤٨ - ١٨٢٥) نفي الى بروكسل حيث توفي . وكان في عهد الامبراطورية رسام نابوليون بوناپورت .

•• Arnault شاعر تراجيدي فرنسي (١٧٦٦ - ١٨٣٤)

*** Carnot ضابط من ضباط الجيش الفرنسي (١٧٥٣ - ١٨٢٣) درس « المؤتمر الوطني » عام ١٧٩٤ وانتأ جيوش الجمهورية الاربعة عشر وكان فوق ذلك منظم النصر ، وقد تم عليه نابوليون لتزاعته الجمهورية ، ثم أبعث في عهد لويس الثامن عشر عن البلاد .

**** Soult مارشال فرنسا (١٧٦٩ - ١٨٥١) ايلى بلاء حثاً في معركة زوريخ ، وفي الدفاع عن جنوا ، ولعب دوراً هاماً في موقعة أوسترليتز .
***** كلمة لاتينية تعني : عاد الى الحياة .

وأوماهوني ، ودو شاتديين ، ولم يكن علمهم هذا ليعوزه بعض الموافقة من اخي الملك الاصغر منه سناً ، وهذا ما عرف بعد
 بـ « مؤامرة الشاطيء » . وتأمر « الدوس الاسود » من ناحيته ايضاً .
 وتفاوض دولافيردي مع تروغوف . وساد مير دو كاز * ، وهو
 عقل متعذر بعض الشيء . وكان شاتوريان ، يقف كل صباح امام
 نافذته في شارع سان دومينيك رقم ٢٧ ، وقد ارتدى بنطلوناً جورياً
 وانتعل مشاية ، وغطى شعره الاشيب بتديل من مناديل مدراس ، واقام امام
 عينيه مرآة وصندوقاً كاملاً من صناديق ادوات الانسان ، فهو ينظف
 اسنانه التي كانت ممتازة ، فيما هو يلي « الملكية وفقاً للدستور » على
 مسيو بيلورج ، امين سره . وآتو كبتار النقاد لافون ** على ثلثا ***
 وكان مسيو دو فيلترز **** يوقع هكذا A وكان مسيو هوفمان *****
 يوقع هكذا Z وكان شارل نوديهه ***** يؤلف « تيريز اويو » *Thérèse*
Aubert . وألعي الطلاق . ودعت المدارس الثانوية (*Lycées*) نفسها كليات
 (*Collèges*) وكان طلابها ، الذين ازدانت أطواق قمصانهم بالزنابق الذهبية يتقاتلون
 بسبب من ملك رومة . ومكت « شرطة القصر السرية لصاحبة السر » ،
 بنت الملك ، من ان رسم دوق دوليان معروض في كل مكان ،

* Decazes سياسي فرنسي (١٧٨٠ - ١٨٦٠) تولى منصب الوزارة في عهد
 لويس الثامن عشر . وكان يسمى الى ان يجعل « الامة ملكة » ويجعل « الملكية
 قومية » .

** Lafon مسرحي تراجيدي فرنسي (١٧٧٣ - ١٨٤٦)
 *** Talma مسرحي تراجيدي فرنسي ايضاً (١٧٦٣ - ١٨٢٦) . وكان مؤلف
 الكوميديا المفضل عند نابوليون بوناپرت .
 **** De Feletz ناقد فرنسي (١٧٦٧ - ١٨٥٠) كان يدافع عن القواعد
 الكلاسيكية وينادي بالحركة الرومانتيكية .

***** Francois-Benoit Hoffmann كاتب مسرحي وناقد فرنسي (١٧٦٠ - ١٨٢٨)
 ***** Nodier كاتب فرنسي وضع عدة مؤلفات في النقد ونقد اللغة والقصة .
 وكان له صالون ادبي شهير (١٧٨٠ - ١٨٤٤)

وانه يبدو في اللباس الرسمي لقائد سلاح الفرسان نجم من دوق دورري في اللباس الرسمي لقائد سلاح التناين او الدراغون وهي مسألة خطيرة . واعادت مدينة باريس تذهيب قبة الانفاليد * على نفقتها . وساءل الجديون من الناس بعضهم بعضاً ما الذي يجدر بميو دو ترانكولاع ان يفعل في هذه الحالة او تلك . واختلف ميو كلوزيل دو مونتال في قضايا شتى ، مع ميو كلوزيل دو كوسيرع . ولم يكن ميو دو سالبري راضياً . وكانت رواية *Les deux Philiberts* للكاتب المسرحي بيكار عضو الاكاديمية التي لم يوفق مولير الى الفوز بعضويتها ، تمثل على مسرح الاوديون حيث كان لا يزال في ميسور الناظر ان يقرأ في وضوح على مقدم البناء ، برغم ازالة الاحرف عنه ، هذه العبارة : « مسرح الامبراطورة » . وتعصب بعض الناس لـ « كوغيه دو موناولو » وتعصب بعضهم علي . كان فافيه * مثيراً للشحناء ، وكان باقو ثورياً . ونشر الكتيبي بيديسيه طبعة من كتب فولتير تحت هذا العنوان : « مؤلفات فولتير ، عضو الاكاديمية الفرنسية . » وقال ذلك الناشر الساخج : « ان هذا خليف به ان يجذب المشتري ! » وكان الرأي العام منقاداً على ان الميو شارل لوانسون سوف يكون عبقرية العصر . وبدأ الحسد يلعبه ، وتلك آية المجد . ولقد نظم بعضهم فيه هذا البيت :

د حتى حين يسرق لوانسون

نفس ان له قوائم ا

واذ رفض السكاردينال فيش ان يستقيل تولى ميو دو بن ، كبير اساقفة آماسي ، ادارة اسقفية ليون . وبدأ النزاع بين سريرية وفرنسة *Invalides* الاثر التاريخي المشهور ، وقد نقل اليه دقات نابليون بونابرت عام ١٨٤٠ .

•• Fabvier جرال فرسي (١٢٨٢ - ١٨٥٥) أسهم اسهاماً كبيراً في الحركة التحريرية التي نشأت في عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، ولعب نمعه في حرب الاستقلال اليونانية .

على وادي داب" بذكره وضعها الكاتب دوفور * الذي أصبح في ما بعد جنرالاً . وكان سان سيمون ** المغمور بيني حلمه الرفيع الذرى . وكان في الأكاديمية العلوم فوريه *** شهر نسفته الذرية ، على حين كان في عليّة ما فوريه **** حامل الذكر سوف يذكره المستقبل . وكان نجم اللورد بايرون ***** قد بدأ يزع . وكانت إحدى الملاحظات على قصيدة لـ « ملفوا » ***** قد عرفته الى الوسط الادبي في فرسة بوصفه رجلاً يدعى اللورد بايرون » . كان داود دانجيه يحاول ان يجبل الرحم . وتحدث الراهب كارون باطراء ، في اجتماع صغير لطلاب المعاهد الاكليريكية في زقاق القويّاتين ، عن كاهن مجهول يدعى فيلبتيه روبير الذي أصبح « لاهيه » ***** في ما بعد . كان شيء يرسل دخاناً ويهدر في رفق على صفحة السين ، في مثل صوت الكلب السبع ، يروح ويحيى تحت نوافذ التويلتري ، من « الجسر الملكي » الى « حمر لويس الخامس عشر » . كان جهازاً آلياً ليس ذا تقناء كبير ، ضرباً من الدمية ، « حلم مخترع ذي أوهام - زورقاً بخارياً . ونظر الباربيون الى ذلك الشيء غير المجدي في لا مبالاة . وعجز ميو دو فوبلان ، مصلح « مؤسسة فرسة » على نحو جذري ، بأمر ملكي ، والصانع البارز لعدد كبير من أعضاء الأكاديمية - عجز ، بعد ان

* Guillaume - Henri Dufour جنرال سويسري (١٧٨٧ - ١٨٢٥) قاد القوات السويسرية الاتحادية في الحرب السويسرية الاهلية وقضى على الحركة الانفصالية (١٨٤٧)
 ** Saint - Simon ملوف فرنسي اشتراكي (١٧٦٠ - ١٨٢٥) نادى بملكية الدولة للثروة العامة ، والناء الملكية الوائية ، كما نادى بالمبدأ الثالث : « لكل حسب قدرته ، ولكل مقدرة حسب اعمالها . »

*** Joseph Fourier ولاخي فرنسي (١٧٦٨ - ١٨٣٠)

**** Charles Fourier ملوف وعالم اجتماعي فرنسي (١٧٧٢ - ١٨٣٧)

***** Byron الشاعر الانكليزي الشهير (١٧٨٨ - ١٨٢٤)

***** Milleroye شاعر فرنسي تتاز قصائده بالامان في الكتابة (١٧٨٢ - ١٨١٦)

***** Lamennais كاتب وفيلوف فرنسي شهير (١٧٨٢ - ١٨٥٤)

صيرهم اعضاء ، عن أن يدخل هو الى حرّم تلك المؤسسة . وثبتت ضاحية
 سان جيرمان ومرادق مارسان لو يصبح مسيو دولافو مديراً للشرطة
 بسبب من ورعه . واختم دوتويتزان * وريكاميه ** في مدرّج
 مدرسة الطب ، وهزّ احدهما 'جمع كفه في وجه الآخر لخلافها حول ألوهية
 المسيح . ووضع كوفيه *** احدى عينيه على سفر التكوين والاخرى
 على الطبيعة ، وحاول ان يرضي الرجعة المتطرفة في التقوى من طريق التوفيق
 بين الحيوانات والنباتات المتحجرة المطمورة في الارض وبين النصوص
 الدينية ، ومن طريق جعل الماستودون **** يؤيد مرسى . وكانت
 مسيو فرانسوا دو نوفشانو ، الراعي المحمود لذكرى بارمانتيه ، *****
 قد بذل جهوداً جارية لكي يحمل الناس على ان يلفظوا ال pomme de terre
 (البطاطا) ***** *Parmenière* ، بيد أنه لم يوفق قط الى النجاح .
 وكان الراهب غريغوار ، الاسقف السابق ، والمعضو السابق في المؤتمر
 الوطني ، والمعضو السابق في مجلس الشيوخ - كان قد انتقل الى حالة
 « غريغوار المزدول » في هاترات الصحف الملكية . وهذا التعبير الذي
 استعملناه منذ لحظة « انتقل الى حالة » إنما اعتبره مسيو ووييه

* *Dupuytren* جراح فرنسي شهير كان له على العلم فضل كبير (١٧٧٧ - ١٨٣٥)

** *Récamier* طبيب فرنسي . (١٧٧٤ - ١٨٥٢)

*** *Cuvier* عالم طبييات فرنسي ، يعتبره اللارنيون خالق علم التشريح الماثرون
 وعلم الأحياء او علم مطمورات الارض من البات وغيره . (١٧٦٩ - ١٨٣٢)
 **** حيوان منقرض يشه القبل .

***** *Antoine - Augustin Parmentier* اقتصادي فرنسي وخبير في الزراعة
 (١٧٣٧ - ١٨١٣) كان عضواً في اكاديمية العلوم . وقد طوّر زراعة البطاطا
 في فرنسا بتشجيع من لويس السادس عشر .

***** أي على اسم بارمانتيه العالم الاقتصادي المشار اليه آنفاً .

كولار * تعبيراً جديداً لم تعرفه اللغة من قبل . وكان لا يزال في ميسور المرء ان يميز ، ببياضها الظاهر تحت القوس الثالث من جسر إبيانا ، تلك القطعة الجديدة من الجسر التي استعملت قبل عامين لدخول مدخل النجم الذي شقّه بلوخر ** لنسف الجسر . ومثل أمام المحكمة رجلٌ كان قد صاح إذ رأى الى الكونت دارتوا *** يدخل كاندراية نوتردام : « وحقّ الآلهة ، انا آسف على ذلك العهد الذي دخل فيه بونابرت ونالنا الى « مرقص سافاج » وذراع احدهما في ذراع الآخر . » لغة مثيرة للفتنة . السجن ستة اشهر للقائل .

وبدا الحونة مجردين حتى من الرياء . كان نفرٌ من الرجال الذين انضموا الى العسود عشبة معركة ما لا يخفون الرشوة التي فازوا بها ، ويمشون غير خجلين ، في وضع النهار ، تحيط بهم وقاحة الثروة والجاه . وكان الهاربون من معركتي « لينبي » و « كاتز برا » ***** يعرضون ، في خلاعة عارهم المرتشي ، ولاهم للملكية عارياً بالكلية ، ناسين ما هو مطورٌ على الجدران الداخلية في المراحيض العامة بانكلترة : « الرجاء ان تسوي ثيابك قبل ان تغادر المكان » !

تلك هي ، كيفما اتفق ، جمهرة الاحداث التي طفت على سطح عام

* Royer - Collard سياسي فرنسي (١٧٦٣ - ١٨٤٥) تولّى رئاسة مجلس النواب .
 ** Blucher جنرال بروسي (١٧٤٢ - ١٨١٩) لم نجده في الحملة على فرنسا (١٨١٤) ، ولرب دوراً كبيراً في معركة واترلو (١٨١٥) حين هرع لاجدة ولينتون وبذلك هُزم نابليون نهائياً .

*** Comte d'Artois آخر لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر . وقد تولّى عرش فرنسا سنة ١٨٢٤ فعرف باسم شارل العاشر . (١٧٥٧ - ١٨٣٦)
 **** Ligny في بلجيكا حيث هزم نابليون قوات بلوخر البروسية في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥

***** Quatre - Bras في بلجيكا ايضاً حيث شنّ اللاند الفرنسي « ني » Ney الحملة على الانكليز في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥ ايضاً عشبة معركة واترلو ، وحيث قتل دوق بروترليك .

١٨١٧ ، والتي 'نسبت الآن' . ان التاريخ ليهمل هذه الخصوصيات كما ، تقريباً ، وليس في وسعه ان يفعل خلاف ذلك ؛ إنه واقع تحت سلطان اللاتماية . ومع ذلك ، فهذه التفاصيل الذي يعمدها الناس ، خطأً ، صفائر - فليس ثمة وقائع صغيرة في الانسانية ، وليس ثمة اوراق صغيرة في الحياة النباتية لا نخلو من غناء . إن ملامح السنين هي التي تشكل وجه الاجيال والقرون .

في هذه السنة ، ١٨١٧ ، مثل أربعة من الشبان البايوسيين و مهزلة حلوة ، .

٢

رباعية مزدوجة

كان احد هؤلاء الباريسيين من تولوز ، والثاني من ليسوج ، والثالث من كاهور ، والرابع من مونتأوبان ، ولكنهم كانوا تلامذة . وحين نقول و تلميذ ، فكأننا قلنا « باريسي » ، فلأن يدرس المرء في باريس يعني انه 'ولد في باريس' .

وكان هؤلاء الشبان قافئين ؛ ولقد عرف كل منا مثل هؤلاء الاشخاص . وإن اول اربعة منهم لينهضون غادج لهم جميعاً . إنهم ليسوا صالحين وليسوا طالحين ، ليسوا علماء وليسوا جهلة ، ليسوا موهوبين وليسوا مغفلين ؛ إنهم شبابٌ أغرّ في نبتان الحياة القاتن ذاك الذي ندعوه سنّ العشرين . كان كل منهم و اوسكار * ، لأن طبقة « آرثور » **

* اشارة الى اوسكار الاول ملك السويد وزوج (١٧٩٩ - ١٨٥٩) ، وقد

ولد في باريس ونولى العرش من عام ١٨٤٤ - ١٨٥٧

** اشارة الى ويتفنون الوارد ذكره في احدى حاشيتي الصفحة التالية .

لم تكن قد وجدت بعد . « أحرقوا على شرفه طيب جزيرة العرب » ، هكذا كانت تصيح الاغنية . « اوسكار يقترب ! اوسكار ، أنا على وشك ان اراه ! » كان أوسكار * هو الذي الشائع ، وكانت الاناقة اسكتلندية واسكتلندية ؛ أما الضرب الانكليزي المحض فلم يند إلا في ما بعد ، وكانت قد انقضت على انتصار اول الآرثوريين ، ولينغتون ** في واتلو فترة قصيرة ليس غير .

كان اول هؤلاء « الأوسكارات » يدعى فيلكس تولوميس ، من تولوز ، وكان ثانيهم ليستوليه ، من كاهور ؛ وكان ثالثهم فامول ، من ليموج ؛ وكان آخرهم بلاشوفيل ، من مونتوايان . وكان لكل منهم حبيته طبعاً . أما بلاشوفيل فقد تعشق فافوريت ، وقد دعت بهذا الاسم لانها سافرت ذات يوم الى انكلترة . وأما ليستوليه فأحب داهليا التي اتخذت من اسم احدى الزهرات اسماً مستعاراً لها . وأما فامول فكان يعبد زيفين ، مصغر جوزيفين . وأما تولوميس فكانت صاحبه هي فانتين ، المسماة بالثقراء ، بسبب من شعرها الجميل المشبه لونه لون الشمس .

كانت فافوريت ، وداهليا ، وزيفين ، وفانتين اربع فتيات فانتات ، متألمات مضوحات بالخطر ، ما تزال تبدو عليهن سيما العاملات لانهن لم يجرن شغل الابرة نهائياً ، قد أثارن مؤون الحب ولكنهن احتفظن على وجوههن بصفاء العمل ، واحتفظن في نفوسهن بزهرة الطهر التي تعمّر عند النساء الى ما بعد السقوط الاول . كانت واحدة من الفتيات

* Ossian شاعر اسكتلندي من اهل القرن الثالث الميلادي . نسب اليه مجموعة من الاقشيد الملحمية . وقد نشره في عام ١٧٦٠ ديوان من الشعر الكتيب لهما رواجاً كبيراً وترك اثراً عميقاً في الادب الرومانتيكي .

** Arthur Wellesley , duc de Wellington القائد الاسكتلندي الشهير (١٧٦٩ - ١٨٥٢) الذي قاد الجيوش المتحالفة ضد فرنسا مهزم نابليون في معركة واتلو سنة ١٨١٥ .

الأربع تدعى الطفلة ، لأنها كانت صفراء ، وكانت واحدة أخرى تدعى المعجوز . وكانت المعجوز في الثالثة والعشرين من العمر . ولكي لا نخفي شيئاً ، نقول ان الثلاث الأوليات كن أكثر اختبأراً ، وأشد لا مبالاةً ، وأعظم انفهماً في ضييع الحياة من فانتين . الشقراء - التي كانت ما تزال في أحلامها الأولى .

ولم يكن في ميسور داهليا ، وزيفين ، وبخاصة فافوريت ، أن يزمن أنهن يُشبهن فانتين من هذه الناحية . فقد كان ثمة أكثر من حادثة واحدة في روايتهن التي ما كادت تبدأ ، وكان الحب الذي يدعى ادولف في الفصل الأول يصبح الفونس في الفصل الثاني ، وغوستاف في الفصل الثالث . إن الفقر والدلال لمستشاران مشؤومان . إن أحدهما يؤنب ، والآخر يُطري . وإن فتيات الشعب الحناوات ليجدن المستشارين جميعاً يهسان في آذانهن ، كلٌّ من ناحية . وتضفي نفوسهن غير المصونة الى هذا المس ؛ ومن هنا هاوية السقوط التي يتوَدَّين فيها ، والحجارة التي يُرجمن بها . إنهن يُسحقن بالبهائم الذي ينطوي عليه كل ظاهر غير النال . وأسفاه ! هل عرفت الـ يونغفراو ، * قطّ طعم الجوع ؟

وأعجبت زيفين وداهليا بفافوريت لأن الأيام اتاحت لها السفر الى انكلترة . كان لها وهي بعدُ في سن مبكرة جداً بيت خاص بها . وكان أبوها استاذاً معجوزاً قاسياً متبيحاً من اساتذة الرياضيات . إنه لم يتزوج قطّ ؛ وكان متغيباً في اللذات برغم سنه العالية . لقد رأى ذات يوم من أيام شبابه الى نوب إحدى الخادِمات يعلق بجأزر الموقد ، فوقع في حبها إثر هذا الحادث . وكانت فافوريت هي الثمرة . وكانت تلتقي بين القينة والقينة بأبيها فيرفع لها قبعته . وذات صباح وفدت على

* Jungfrau ، لفظة ألمانية تعني « المذراء » وهي عُلِمَ على إحدى قمم الألب البالغ ارتفاعها ١٣٦٦٨ قدماً .

مؤملاً عبوزاً نبدو على وجهها سياً التعصب للدين وسألتها : « الا نعرفيني ، اينها الالة ؟ » - « لا . » - « أنا أمك . » وفي الحال قمت العبوز خزانة الطعام ، فأكلت وشربت حتى الشبع ، واستقدمت فراشاً كان لها ، واقامت هناك . وكانت هذه الأم ورفة كثيرة التذمر ، ولم تتكلم قط مع فافوريت . لقد سلخت عدة ساعات من غير ان تنبس بينت شقة . لقد تناوات طعام الفطور ، وطعام الغداء ، وطعام العشاء ، وكأنها اربعة اشخاص ، وهبطت لتستقبل الضيوف في كوخ البواب ، وتذمر ابنشها وتطمعن عليها .

وكان الذي جذب داهليا الى ليثوليه ، وربما الى غيره ايضاً ، والى البطالة ، اظافرها الوردية الجميلة . كيف السبيل الى حمل تلك الاظافر على العمل ؟ ان تلك التي ترغب في الاحتفاظ بفضيلتها ينبغي ان لا تأخذها الثقة على يديها . اما زيفين فكانت قد غزت فؤاد فامول بطريقتها المتسرعة المتوددة ، في قول كلمة : « نعم ، يا سيدي . »

كان الشبان الاربعة اصدقاء ، وكانت الفتيات الاربعة صديقات . ان مثل هذا الضرب من الحب ليكون 'مردفاً دائماً' يمثل هذه الصداقة .

ان الحكمة والفلسفة شيان مختلفان . والدليل على ذلك ان فافوريت ، وزيفين ، وداهليا كن ، بعد ابداء جميع التحفظات المتصلة بهذه الأسر الصغيرة الشاذة ، فتيات فيلسوفات ، وان فانتين كانت فتاة حكيمة .

وقد ينسأل متسائل : حكيمة ؟ وتولوميس ؟ ولو قد ووجه السؤال الى سليمان اذن لأجاب قائلاً ان الحب جزء من الحكمة . أما نحن فنكتفي بالقول ان حب فانتين كان حباً اول ، حباً وحيداً ، حباً غليظاً .

كانت هي وحدها ، من بين الصديقات الاربعة ، التي لم يدلبها قط غير رجل واحد .

كانت فانتين واحدة من أولئك الخلوقات المنترعة من قلب الشعب .
 وإذا قد انبثقت من أعماق الظلمة الاجتماعية التي لا يُسبر غورها ، فقد
 حملت على جبينها آية الغفل والجهول . لقد رأت النور في « مونتوي
 سور مير » . من كان أبواها ؟ من يدري ؟ إنها لم تعرف قط لا أبها
 ولا أمها . لقد سميت فانتين لماذا ؟ لأنها لم تعرف قط بأي
 اسم آخر . ويوم وُلدت ، كانت حكومة الادارة لا تزال قائمة . ولم
 يكن لها اسم أسرة ، إذ ما كانت لها أسرة ما . ولم يكن لها اسم
 معمودية ، لان الكنيسة لم تكن عندئذ هناك . لقد سميت وفقاً لمشيئة
 اول عابر سبيل عثر عليها ، وهي بعد صغيرة جداً ، هائمة في الشوارع .
 لقد تلقت اسمها كما تلقت ماء السحب الكثيفة الذي سقط على جبينها
 عندما هطل المطر . لقد دُعيت فانتين . إن احداً لم يعرف عنها ايما
 شيء آخر . تلك هي الطريقة التي وفدت بها هذه المخلوقة البشرية الى
 الارض . وفي العاشرة من العمر ، غادرت فانتين المدينة ، وراحت
 تعمل في خدمة زراع الضواحي . وفي الخامسة عشرة شغلت الى باريس « مجناً
 عن الحظ » . كانت فانتين جميلة ، واقد احتفظت بظهرها ما وجدت
 الى ذلك سبيلاً . كانت شقراء مليحة ذات أسنان جميلة . كان عندها
 تهر من الذهب واللؤلؤ . ولكن ذهبها كان على رأسها ، ولؤلؤها
 كان في ثغرها .

لقد اشتغلت لتعيش . ثم احبت لكي تعيش ايضاً ، لأن القلب
 جوعه كذلك .

لقد احبت تولوميس .

كان ذلك ، عنده ، عشقاً عابراً ، ولكنه كان عندها هياماً . لقد
 شهدت شوارع « الحي اللاتيني » - التي تعج بالطلبة والفتيات المرنديات
 ابراداً خفيفة شهباء بداءة هذا الحب . وهناك ، في متاحف هضبة
 البانتليون ، حيث توثق وتنقسم كثير من العُرى ، كانت فانتين تجتنب

تولوميس فترة طويلة ولكن لتعود بعداً فلتلقيه من جديد . إن ثمة طريقة في الاجتناب هي اشبه ما تكون بالبحث والالتباس . وبالاختصار ، فقد علقت حبالها بحباله .

والتف بلاشوفيل ، وليستوليه ، وقامول زمرة^١ كان تولوميس على رأسها . لقد كان هو عقلها المدبّر .

كان تولوميس تلميذاً عتيقاً من الطواز القديم . كان غنياً ، يملك دخلاً مقداره اربعة آلاف فرنك . اربعة آلاف فرنك : فضيحة رائعة فوق جبل سان جانفيف ! وكان تولوميس في الثلاثين من عمره ، منغمساً في اللذات مفرطاً في ذات صحته . كان متغصن بالبشرة ، مهتم الاسنان ، وكانت أمارات الصلع قد شرعت تبدو عليه ، فهو يشير الى ذلك في مرح قائلاً : « الجمجمة في الثلاثين والركبتان في الاربعين . » كان يشكو سوء الهضم ، وكانت له عين راشحة . ولكن مرجه كان يزداد اتقاداً كلما حمد شبابه . لقد استعاض عن اسنانه بالاياعات المجونية ، واستعاض عن شعره بالمرح ، واستعاض عن صحته بالسخرية ، وكانت عينه الراشحة ضاحكة ابدأ . كان متهدماً ، ولكنه مثل بالازهار . كان شبابه الداوي قبل الأوان يتقهقر في النظام ، وينفجر بالضحك ، غير متكشف الا عن نار مشبوبة . لقد قدّم الى مسرح ال « فودفيل » رواية غشيلية فرفضت . وكان ينظم الشعر بين الفينة والفينة في شتى الموضوعات . وفوق ذلك ، فقد كان يوتاب في كل شيء بشموخ وتعالٍ ، وتلك قوة عظيمة في أعين الضعفاء . وادن فقد كان ، وصفه سائراً وأصلح ، هو وثيس الزمرة . ان كلمة Irony * انكليزية معناها الحديد ، فهل يكون الحديد هو الاصل الذي اشتقت منه لفظة السخرية ؟

وذات يوم انتهى تولوميس بالثلاثة الآخرين ، وقال لهم في إعاءة

* يحسن بالتاريء ان يعرف ان كلمة Ironie أو Irony تعيد في الفرنسية والانكليزية معنى السخرية والتهكم .

وقور :

« منذ سنة تقريباً وفانتين ، وداهليا ، وزيفين ، وفاهوريت
يلتسن منا ان نقدم اليهن مفاجأة . ولقد وعدناهن بذلك وعداً جازماً .
وهنّ ما برحن يدكرتنا بالوعد ، ويدكرنني أنا به بخاصة . وكما
تخاطب النسوة المجائر في نابولي القديس جانتييه * صائحات :
Faccia gialla fa o miracolo « أيها الوجه الاصفر ، إجنوح معجوزك ! » كذلك
تقول حساننا في غير انقطاع : « تولوميس ، متى ستد مفاجأتك ؟ »
وفي الوقت نفسه فإن آباءنا يكتبون اليها . فلنصب عصفورين بحجر
واحد . لقد آن الاون فيما يبدو لي . فلنتحدث في ذلك . »
وهنا خفض تولوميس صوته ، ونطق على نحو غامض بشيء ما جن
الى درجة اطلقت من الحناجر الاربعة ، في وقت معاً ، قمقهة حاسية
متطاولة ، وجعلت بلاشوفيل بصيح :
-- « يا لها من فكرة ! »

وتبدت لهم حانة ، فدخلوها ، وضاعت بقية حديثهم في ظلامها .
وكانت غرة هذه الظلمات حفلة فاتنة اقيمت يوم الاحد التالي ، عندما
دعا الشبان الاربعة الفتيات الاربعة .

٣

اربعة إزاء اربع

من المسير على المرء ان يتصور ، اليوم ، نزهة ريفية من تلك التي
كان يقوم بها الطلاب والفتيات منذ خمس واربعين سنة : فلم نبق
لباريس ضواحيها السابقة عينا ، ولقد تغير وجه ما يمكن ان ندعوه

« راعي مدينة نابولي » وقد احتشد سنة ٢٠٠٥ م .

و الحياة حول باريس ، تغيرت تماماً خلال نصف قرن . فبدلاً من
العربة الجافية ذات الجواد الواحد أصبح عندنا الآن عربة السكة الحديدية ،
وبدلاً من المركب الصغير أصبحنا نشاهد السفينة البخارية . نحن نقول
فيكان * اليوم ، كما كانوا يقولون - إن كلو ** آنذاك . إن باريس
١٨٦٢ مدينة " ضواحيها فرنسة " كلها .

واستمع الأزواج الأربعة ، في دقة بالغة ، بجميع ضروب الطيش والحماسة
التي كانت مبسورة آنذاك . كانوا في منتهى العطلة ، وكان اليوم يوماً
حاراً صافياً من أيام الصيف . وفي الليلة السالفة ، كانت فافوريت - وهي
وحدها التي فعرف الكتابة من بين الرفيقات الأربع - قد كتبت الى
تولوميس رسالة قالت فيها باسم صواحيها جميعاً : " من حسن الطالع
ان نطلق باكراً . " من اجل ذلك نهضوا في الساعة الخامسة صباحاً
ثم امتطوا العربة الى سان كلو ، ورأوا الى الشلال الجاف وصاحوا :
" لا بد ان يكون هذا جميلاً جداً حين يحفل بالماء ! " وتناولوا
الفطور في " الرأس الاسود " ، ولم يكن كاستين *** قد مرّ بذلك
المكان بعد ، ومتعوا النفس بلعبة الخواتم في مربع الحوض الكبير ،
وصعدوا الى مصباح ديوجين ، وجعلوا 'بكرتون' الحلوى ذات الاقراص
المدورة فوق جسر سيفر ، وجمعوا باقات الزهر في بوتو ، واشتروا
صفارات القصب في نويي ، واكلوا حلوى التفاح في كل مكان ، وكانوا
على غاية السعادة .

وهذرت القيات وثرثرن كالطير المفردة أطلقت من اقفاصها . كن
نشاوى بالابتهاج . وبين الفينة والفينة كنّ يداعن رفاقهن الشبان بضربة
صغيرة بالكف . ذلك غلّ الحياة في فجرها ! سنوات خليق بها ان

* Fécomp ثمر واقع على بحر المانش .

** Saint - Cloud واقع على نهر السين ، على مسافة نحو كيلو مترات من فرساي .

*** Castaing طيف فرنسي 'يعرف بالساده للاخلاق . (١٧٩٧ - ١٨٢٣) .

تُعْبَد ! إن اجنحة العاصيب لتتجف ! أوه ، ألا تزال ، كائناً من كنت ، تذكر أيامك الماضية ؟ هل قدر لك ان تمشي في الادغال ، راداً الاغصان ليكون في ميسور الوجه الجميل السائر خلفك ان يتابع سبيله ؟ هل قدر لك ان تنزل ضاحكاً من فوق منحدر بلته المطر ، وقد شدت بك الى الورا يد امرأة نجبها ، وانشأت تصبح : « أوه ، حذائي الجديد ! الى اية حالة قد انتهى ! »

ولسرع الى القول ان هذا العائق البهيج ، المطر ، لم يُسعف الزمرة الانسية المرححة على الرغم من ان فافوريت كانت قد قالت ، لحظة انطلقوا ، في جرس أستاذي أمومي : « ان البزاق يتزده في المرات . وهذه علامة المطر ، يا ابنائي . »

كانت كل من الفتيات الاربع جميلة الى حد يفن العقول . وكانت ميسو دو لا بروبس - وهو شاعر كلاسيكي عجوز طيب من مشاهير الادباء آنذاك ورجل ساذج كانت في حياته ايليونورا * - كان ييم على وجهه ذلك اليوم تحت شجرات الكستناء في سان كاو ، فراحن في طريقه في نحو الساعة العاشرة صباحاً فصاح وهو يفكر في « آلهات الملائحة » ** : « ولكن هنا واحدة اضافية ! » وكانت فافوريت ، صاحبة بلاسوفيل ، « المعجوز » ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً ، تعدو امامهم تحت الاغصان الحضر العريضة ، وتقفز عبر الحفر ، وتنب في جنون من فوق شجرات العليق ، حاملة لواء المرح يمثل حياً آلهة شاب من آلهة الاحراج الرومانيين . أما زيفين وداهليا اللتان جنبها المصادفة

* في المصادر ان ايليونورا دو غويين تزوجت عام ١١٣٧ من ملك فرنسا لويس السابع الصغير الذي ما لبث ان طلقها عام ١١٥٢ إثر الفضائح التي حفلت بها حياتها الخاصة . فتزوجها هنري بلاغنيث الذي اصبح ملك انكلترا سنة ١١٥٤ واعطب الظن ان المؤلف يشير هنا الى هذا المنى .

** Les Graces عند الاغريق ، وهن آلهات ثلاث تذهب الاسطورة الى اهن

يمتدّن كل ما في الجمال من نقة . وهن Aglaé و Thelie و Euphrosine .

بضرب من الجمال كان يسو ويتكامل بالمغايرة فلزمت احدهما الاخرى بدافع من غريزة الفخ والدلال اكثر مما فعلنا ذلك بدافع من الصداقة ، وانعظفت احدهما على الاخرى في اوضاع انكليزية . كانت الاليومات التذكارية التي اعتاد الشباب والشابات تبادلها في ذلك العصر قد شاعت منذ فترة قصيرة ، وكانت الكآبة زياً شائعاً عند النساء ، كما كانت البايرونية * بعد ذلك عند الرجال ؛ وكانت غداثر الجنس الرقيق قد بدأت تسقط متاثرة . كانت زيفين وداهليا قد زينتا شعرهما على نحو دائري ملتف . واستغرق لبيستولييه وفامول في نقاش حول اساتذتها ، وراحا يشرحان لفاتنين الفرق بين ميسو ديلفينكور وميسو بلوندو .

وبدا بلاشوفيل وكأنه خلق خصيصاً ليحمل على ذراعه ، يوم الاحد ، شال قافوريت الشبه لونه بلون الاوراق الميتة .

وتبعهم تولوميس ، مهيناً ، مسيطراً على الزمرة . كان مبتهجاً جداً ، ولكن كان في ميسور المرء ان يفتخر فيه السلطان . كان ثمة ديكتاتورية في جذله . وكانت حليته الرئيسية بنطلونا من نسيج قطني أصفر مفصل على طريقة رجل القبل ، مع سير يُربط تحت النعل ذي جدية بلون النحاس . كانت في يده عصاً ضخمة من أسل الهند تبلغ قيمتها مئتي فرنك . واذ لم يحرم نفسه شيئاً ، فقد كان في مهني غريب يدعونه سبجاراً . واذ لم يكن ثمة شيء مقدس عنده ، فقد أنشأ يدخن .

وقال الآخرون في إجلال :

« ان تولوميس هذا لدهش . أي بنطلون ! أية قوة ! ، أما فاتنين فكانت المرح عينه . كان واضحاً ان الله قد عهد الى

* اي للزعة الرومانتيكية التي عرف بها الشاعر الانكليزي اللورد بايرون والسني كثيراً ما استوحاها الرومانتيكيون الفرنسيون .

اسنانها الرائعة في مهة واحدة ، هي الضحك ، كانت تحمل في يدها ،
 اكثر مما تحمل على رأسها ، فبعتها الصغيرة من القش الخيط ، ذات
 الاشرطة الطويلة البيضاء . وكانت غداؤها الكثيفة الشقراء ، النزاعة الى
 التنوع والمتحررة في سهولة من عقالاتها بحيث تكرهها على ان تحكم وثاقها
 على نحو موصول - كانت هذه الغدائر تبدو وكأنها جعلت لفرار
 غالاتيا * تحت الصفاف . وكانت شقتها الزهراوان تثرثان في سحر .
 وكانت زاويتا فيها المرفوعتان على نحو شهوي مثل افئدة ايريغون **
 العتيقة ، تدوان وكأنهما تشجعان الجرأة . ولكن اجفانها الطويلة الظلمة
 انخفضت في وزانة نحو الجزء الادنى من وجهها وكأنها تريد ان تكبح من
 نزاعها المرحة . وكانت زينتها كلها متناغمة ساحرة الى حد يمنع على الوصف .
 كانت ترتدي ثوباً رقيقاً مُبْتَازِي اللون ، وحذاء ذا نعل عال أسمر
 ذهبياً تصالب شريطاه فوق جوربها الرائعين البضاوين المثقوبين ، وكان
 ذلك الضرب من الـ « سبنسر » *** المتخوّع في سريليا والذي يدعى
 كانيزو Canesou . وهي تحريف لكلمتي Quinze Aout **** في اللهجة
 الكانايبيرية ***** - يعني الجو البديع ، والدفء ، والظهيرة . أما
 القبتات الثلاث الاخريات ، وكنّ أقلّ خبلاً كما ذكرنا ، فارقدن
 ملابس تكشف عن العنق واعلى الصدر ، ومثل هذه الملابس يكون في
 الصيف ، وتحت القبعات المفطاة بالرياحين ، فاضحاً بالملاحاة والدلال .

* Galatée حورية من حوريات الماء الاسطورية أحبا يوليوس . ولكنها آثرت عليه
 « آيس » الراعي ، وذات يوم فاجأها الملاق فحق رأس منافه بصخرة .
 ** Erigone ايريغون في الميثولوجيا ، محبوبة باخوس الاله الخمر ، وقد تحول ، لكي
 ينوبها ، الى صقود حنّ .
 *** ضرب من الواب الفناء يكون ضيقاً عادة . وهو ينسب الى حريف برطالي
 يدعى الايرل سبنسر (١٧٨٢ - ١٨٤٥)
 **** أي الخامس عشر من آب .
 ***** نسبة الى Canobière ها وهو شارع جميل في سريليا .

ولكن الى جانب هذا التبرج الجريء بدا « كانيزو » فانتين الشراء ،
 بشفايته وإفشائه لما دونه وسواه له - فهو كاشفٌ حاجبٌ في آن معاً -
 وكأنه مدعاة الى الاحتشام مُرسلةٌ من عند الله . ولقد كان خليقاً
 ببلاط الحب الشهير ، يرثه الفيكونت دو سيت ذو العينين الخضراوين
 كمثل خضرة البحر ، ان يخلع جائزة الفنج على هذا الـ « كانيزو » الذي
 خاض المعركة طمعاً في الفوز بجائزة العفة . إن أبسط الاشياء هو في بعض
 الاحيان أحفظها بالحكمة . كذلك تجري الأمور .

وجه مشرق ، صورة جانبية دقيقة ، عينان عميقتا الزرقه ، اجفان
 كثيفة ، قدمان صغيرتان مقومتان ، معصمان وعقبان مغلفة تظليفاً
 رائعاً ، بشرة ناصعة تلمع هنا وهناك عن اشكال الاوردة اللازوردية ،
 وجة طفلية نضرة ، عنق قوية كعنق جينو * ، قفا عنق ثابت
 لذن ، وكتفان كأنما تحتهما كوستو ** في وسطهما حفيرة شهوية
 تقوامى من خلال الشاش الموصلي ، بهجة مُصقولة بالاحلام ، نقشة
 سائفة - كذلك كانت فانتين ؛ ولقد كان في ميسور المرء ان يكتشف
 تحت هذا الثوب وهذه العصاب ثنائياً ، وان ينشعر في هذا التمثال
 وروحاً .

كانت فانتين حناء من غير ان تعي ذلك كثيراً . والحق ان
 اولئك الحالمين القلائل ، كهنة الجمال المحاطين بالاسرار ، الذين يقارنون
 في صمت ما بين الاشياء كلها وبين الكمال ، كان في ميسورهم ان
 يلحوا في هذه العاملة ، من خلال شفافية الملاحه الباريسية ، ذلك
 التطريب المقدس العريق في القدم . لقد كان لأبنة الظلام هذه نسبٌ .

* Juno في الميثولوجيا الرومانية ، إلهة رومانية قديمة ، كانت زوجة جوبيتر ،
 والمهيمنة على شؤون الزواج والنساء . وهي تقابل « حيرا » عند الاغريق .

** Coustou اسم أسرة فرنسية شهيرة في تاريخ النحت ، وقد أطلت ثلاثة غاتين معروفين
 اولهم لولا كوستو (١٦٥٨ - ١٧٣٣) وولي كوستو الاب (١٦٧٧ - ١٧١٦)
 وولي كوستو الابن (١٧١٦ - ١٧٧٧)

كانت تلك ضربي الجمال جميعاً : النبط والايقاع . النبط هو شكل
المثل الاعلى ؛ والايقاع هو الحركة .
لقد قلنا ان فانتين كانت هي المرح . لقد كانت فانتين ايضاً
هي الحياة .

ذلك بأن المراقب القادر على ان يدرسها في انتباه خليق بأن يقع
من خلال نشوة العصر هذه ، ونشوة الموسم ، ونشوة الحب كلها على تعبير
لا يُقهر من التحفظ والاحتشام . لقد ظلت منذهولة بعض الشيء .
وهذا الانذهال العفيف هو الظل الذي يفصل بينه * عن فينوس .
كانت لفانتين اصابع الكاهنة في هكل فتا ** ، تلك الاصابع الطويلة
الممزولة البيضاء التي تثير رماد النار المقدسة بقضيب ذهبي . وعلى الرغم
من انها ما كانت لتضن على تولوميس بشيء ، كما نستطيع ان نرى في
وضوح ، فقد كان وجهها ، في الهدأة ، بالغا للغاية في البتولية . كان
ضرب من الوقار الجدي ، الذي يكاد يكون كالحا ، يرين عليه فجأة في
بعض الاحيان ، وما كان شيء اغرب ولا ادعى الى الفلق من ان يرى
المراء الى الابتهاج تخمد جذوته هناك في مثل هذه السرعة ، والى التفكير
يختلف الجدل من غير ما مقدمة او تهيد . وكانت هذه الرصانة المفاجئة
المؤكدة على نحو غنيف احياناً ، تشبه ازدراء الالهة من الآلهات .
وكان جبينها ، وانفها ، وذقنها تُبرز توازن الخطوط ، المختلف كل
الاختلاف عن توازن الثقب ، الذي يحدث تناغم الملامح . وفي الفاصل
المميز ما جداً ، والذي يفصل قاعدة الانف عن الشفة العليا ، كانت لها
تلك اللثينة الفاتنة غير الملحوظة . وهي آية غامضة على الطهر . الى

* Psyché في الاساطير انها فتاة كانت على جان عظيم ، حتى لقد احبها الحب .
وضعتها ترمز الى مصير الروح الساطلة التي تتحد دائماً ، اثر مصائب منمودة ،
بالحب الالهي .

** Venus إلهة النار عند الرومان . وهي تقابل هيتا عند الاغريق .

أوقعت يرباروسا * في حب « ديانا » ** وجدها في اطلال
 ابفونيوم ***
 الحب خطيئة . فليكن . لقد كانت فانتين هي البراءة تطفو على
 سطح هذه الخطيئة .

٤

تولوميس مبتهج الى درجة تحمله على

انشاد اغنية اسبانية

كان ذلك اليوم مشرقاً بأشعة الشمس من بدايته الى نهايته ، فقد بدت
 الطبيعة وكأنها انطلقت كلها في عيد . وكانت رياض سان كلو عابقة
 بالعبير . وفي رفق ، موجت نسائم السنين اوراق الاشجار . كانت الاغصان
 تتحدث مكثرة من الاشارات في وجه الريح . وشت النحل غاراتها على
 الياسمين . وكانت حمرة من الفراشات قد حطت رحالها على زهرات
 القنديل ، والبرسيم ، والشوفان البري . لقد غزا حديقة ملك فرنة
 الفخية حشد من المشردين : العصافير .

وتألق الأزواج المبتهجون الاربعة ، متناغمين مع اشعة الشمس ،
 والازهار ، والحقول ، والاشجار .

وفي هذه الجماعة الفاتحة منها روائح الجنة ، الجماعة اللاغية ، المغنية ،
 الراكضة ، الراقصة ، المطاردة للفراشات ، الجامعة للتبلاط ، المبللة

* أمير البحر التركي النهر الذي قاد اساطيل سليم الاول وتوفي عام ١٥٤٦

** لاهة رومانية ، بنت جويثير ، واخت ابولو .

*** نوبة التركية .

جوارها الوردية المثقوبة بالعشب العالي ، النضرة ، المجنونة ، وإن تكن غير شريفة ، اختلس كل ، بين الفينة والفينة ، القبلات من كل ، ما خلا فانتين التي كانت متحصنة في مقاومتها الغامضة ، الذاهلة ، الغنية ، والتي كانت عاشقة . وقالت لها فافوريت :

.. « انت دائماً منحرفة المزاج . »

نلك هي المباحج الحقيقية . إن هذه المقاطع في حياة الشباب السعيدة هي نداء عميق للحياة والطبيعة ، وهي 'تفجير الوداد والضياء من كل شيء' . لقد كانت في غابر الايام جنينة انشأت المروج والاشجار خصيصاً للعاشقين . ومن هنا مدرسة المحبين السرمدية هذه ، القائمة وسط الفيض ، والمفتوحة الابواب ابدآ ، والتي سوف تعمّر ما دام ثمة ادغال وتلاميذ . ومن هنا شعبية الربيع عند المفكرين . إن العظيم والحقير ، والدوق والاسير ، والفلاح ، ورجال البلاط ، ورجال المدينة ، كلهم - كما كانوا يقولون في اليهود القديمة - خاضعون لسلطان هذه الجنة . إنهم يضحكون . انهم يلتسسون بعضهم بعضاً . إن الهواء ليدو طافحاً باسراق جديد . أيّ تحوّل في الصورة 'يمجدته الحب ! إن الكتاب العدول ليصبحون آلهة . وإن الصيحات الصغيرة ، والمطارادات وسط الاعشاب ، والحصور التي تطوق خلّة ، وهذه الرطانات التي هي نغمات ، وهذا الهيام الذي يتفجر في مقطع من كلمة ، وحبات الكرز هذه التي يتزعمها ثم من ثم ، كل اولئك يلتبع ويتحول الى ايجاد سماوية . إن الفتيات الحارّات ليتوّنا فتنهن في اسراف عذب . وإن المرء ليتوهم انها لن تنضب ابدآ . ويرى الفلاسفة ، والشعراء ، والرسامون الى هذه النشوات الوجدية كلها ولا يدرون ما يصنعونه بها . إنها باهرة الى هذا الحد !

الرحيل الى سيتير * ! كذلك يصيح واتو . ** أما لانكريبه *** ،
رسام العامة ، فيتأمل بورجوازيه الملتقين في السماء . على حين يفتح
ديدرو ذراعيه لجميع هؤلاء العشاق ؛ ويفرنهم دورفيه ****
بال « ذرويند ، *****

وبعد الفطور ، مضى الأزواج الاربعة ليروا ، في ما كان يدعى
آنذاك ساحة الملك ، الى نبتة جيء بها من الهند حديثاً ؛ نبتة غاب
عنا اسمها في الوقت الحاضر ، وكانت تجتذب باريس كلها آنذاك الى
سان كلو . كانت شجيرة غريبة قاتنة ، طويلة الساق ، ذات اغصان لا
حصر لها دقيقة كالخيوط ، شعاع ، غير مورقة ، مثقلة بلالين الزهورات
البيضاء ، مما جعلها اشبه ما تكون بشعر منساب تناثرت فوقه الرياحين .
وكان يحشد حول هذه النبتة دائماً جمهرة من المعجبين .

حتى اذا سعدوا بمشاهدتها صاح نولوميس : « انا اقترح ان نستاجر
حميراً . » وبعد مساومة مع سائق حمير ارتدوا من طريق « قائف »
و « ليسي » . وفي ليسي كانت لهم مغامرة . ذلك أن الحديقة التي
كانت من قبل ملكاً قومياً والتي كان يملكها آنذاك بمون الجند
« بورغوان » كانت بمجرد المصادفة مشرعة الابواب . فاجتازوا حاجز
القضبان المشبكة ، وزاروا الناسك القزم في كهفه ، وجربوا المفاعيل
الصغيرة العجيبة الخاصة بحجرة المرايا - وهي شرك داعر جدير برجل

* Cythère إحدى جزر الارخبيل في شمال غربي كريت . وفي الاساطير اليونانية
انها موقوفة على فينوس التي ولدت من زبد الموج . ولقد غدت سيتير ، في هذه
الشعر ، موطن الحبين الرمزي .

** Watteau رسام فرنسي (١٦٨٤ - ١٧٢١)

*** Lancret رسام فرنسي (١٦٩٠ - ١٧٤٣) اشتهر برسومه العذبة الضاحكة .

**** Honoré d'Urfé كاتب فرنسي (١٦٢٦ - ١٦٦٨)

***** Druides هم كهان الغالين ، وكانوا يعتقدون اجتماعهم في الهواء الطلق ، وفي

النباتات . وكانوا يعبدون آلهة عدة ويؤمنون بخلود النفس وتناسخ الارواح .

من في الفسوق أسمى ملبونيراً ، أو بـ «توركاريه *» استحال الى
 برياب ** - وتأرجحوا في عزم بالارجوحة الكبيوة المشدودة الى شجرتي
 الكتناء اللتين شهرهما الراهب بييرنيس *** وفيما هم يؤرجحون
 الفتيات ، واحدة إثر واحدة ، محدثين بذلك ثانيا من التناير كانت
 خليقاً بـ « غروز » **** ان يجدها جديرةً بالدرس ، أنشد تولوميس
 التولوزي - وكان فيه شيء من الدم الاسباتي ، فـ « تولوز » هي
 ابنة عم « تولوزا » ***** أنشد في نبوة كثيية اغنية « غاليفا »
 القديمة التي اوحىها الى الناظم ، في ما يبدو ، فتاة صغيرة تأرجحت في
 الهواء بين شجرتين :

*Soy de Badajoz
 Amor me llama
 Toda mi alma
 Es en mi ojos
 Porque ensenas
 A tus piernas. ******

* Turcaret كوميديا لـ « لياج » Lesage (١٦٦٨ - ١٧٤٧) كان
 يطلبها خادماً ثم غدا من طريق النيب غنياً يتطلق حوله مغامرون اشد إيماناً في
 الاثم منه .

** Priape الآله الجنائ والكرمة والتامل . ابن ديونوس وأفروديت . وهو
 في الاساطير رمز الرجولة والفتوة .

*** de Bernis شاعر وكاهن فرنسي (١٧١٥ - ١٧٩٤)

**** Greuze رسام فرنسي (١٧٢٥ - ١٨٠٥) وهو يتأز خاصة في رسم
 المشاهد المألوفة ووجوه الاشخاص .

***** مدينة اسبانية في اقليم الباسك او البشكنس .

***** أنا من باداغوز

الحب يتاديني .

كل روعي

هي لي عيني ،

لأنها تشيران

الى صايقك .

ورفضت فانتى ، وحدها ، أن تتأرجح .

ونغممت فافوريت في شيء من الحدة :

« انا لا احب هذا النوع من التصنع . »

وتركوا الخير ، لينصرفوا الى متعة جديدة . وعبروا نهر السين في زورق ، ثم مشوا ، على الاقدام ، من باسي الى « حاجز الأيتوال » . لقد سعوا على أرجلهم ، كما نذكر ، منذ الساعة الخامسة صباحاً ، ولكن فافوريت قالت : « ليس في أيام الاحد تعب . ان التعب لا يشغل يوم الاحد ! » وحوالى الساعة الثالثة ، كان الأزواج الاربعة يسرعون في الميوط ، وقد دلتهم السعادة ، نحو الجبال الروسية * وهي صرح فريد كان يحتل آنذاك مرتفعات « بوجون » ، وكان في استطاعة المرء ان يلمح منه ذلك الخط الافغاني المستد فوق شجرات ال « شان زيليزيه » .

وبين الفينة والفينة ، كانت فافوريت تصيح :

« والمفاجأة ؟ انا اريد المفاجأة ! »

فيجبها تولوميس :

« اعتصمي بالصبر ! »

٥

في حانة بومباردا

حتى اذا استنفدوا الجبال الروسية ، فكثروا في العشاء . وجنع السعداء الثمانية ، وقد أصابهم التعب بعض الشيء آخر الامر ، الى حانة بومباردا ، وهي مؤسسة فرعية انشأها في شان زيليزيه ذلك المطعمي * يقصد بالجبال الروسية سلسلة من المرتفات والمنخفضات الشديدة الانحدار يتزلج عليها المتزلجون .

الشهير ، بومباردا ، الذي كانت لاهفته تُرى آنذاك فوق شارع ريفولي ،
قرب مجاز دولورم .

كانت قاعة رجة ، ولكنها بشعة ، في ادناها 'مخدع وسرير . (كان
المكان يفض بالرواد يوم الاحد بحيث يتعين على بعضهم ان يرتضوا هذا
المأوى) وكانت ثمة نافذتان كان في استطاعة المرء ان يرى منهما ،
خلال شجرات الدردار ، الى الرصيف والنهر . وكانت اشعة رائعة
من شمس آب تمسّ النافذتين متاً وفاقاً . وكانت هنالك طاولتان ،
احدهما مثقلة بجبل مظفر من باقات الزهر المختلطة بقبعات الرجال
والنساء ، والاخرى ، وهي التي تعلّق حولها الازواج الاربعة ، مثقلة
بركام بهيج من الصعاف والاطباق ، والكؤوس والزجاجات ، واكواز
الجنة وقناني الخمر . كان ثمة قليل من النظام فوق الطاولة ، وقليل
من الفوضى تحتها .
يقول مولير :

« انهم يمدنون تحت الطاولة
ضجة وقرع طبول غنياً بأقدامهم . »

الى هنا كانت النزعة الريفية التي انطلقت في الحامسة صباحاً قد
انتهت بأصحابها عند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر . كانت الشمس
تجنح للغروب ، وكانت شهوتهم الى الطعام قد خمدت .
ولم يكن الشان زيليزيه ، الحافل باشعة الشمس وبالناس ، شيئاً
اكثر من ضياء وغبار ، وهما العنصران اللذان يتألف منهما المجد . كان
جرادا مارلي ، * هذا الرخام الصاقل ، يشبان في غمامة ذهبية .

* Marly موضع على بعد عشرة كيلومترات من فرساي ، قرب نهر السين .
وكان لويس السادس عشر قد انشأ فيه قصراً فخماً خربته الثورة . وكان « جوادا
مارلي » Chevaux de Marly - وهما ثنتان شيران من عمل النحات ريم كوستو -
يزينان قصر مارلي هذا ثم تلا الى الشان زيليزيه .

وكانت العربات تروح ونجي . وكانت كوكبة رائعة من حرس الملك ، تتقدمها الابواق ، تهبط شارع دو نوي . وورف العلم الابيض ، الذي خضبت الشمس المحنطرة بلون احمر باهت ، فوق قبة التويلري . وكانت ساحة الكونكوردي ، التي عُرفت آنذاك كرة أخرى ، بساحة لويس الخامس عشر ، تفص بالتزهين المبهجين . وكان كثير من الناس يحملون زنابق فضية تتدلى من العصائب البيضاء المتوجة التي لم تكن قد اختفت نهائياً ، عام ١٨١٧ ، من عرى الثياب . وهنا وهناك ، وسط جماعات من عابري السيل المصفقين ، كانت حلقات من الفتيات تطلق في الهواء لحناً بربرونياً تافهاً ، تُصَدِّ به الى ان يفهم د الأيام المثة ، وكانت لازمته تجري هكذا :

« اعيدوا الي ايانا الذي في غان »

« اعيدوا الي مولانا ! »

وكانت حشود من ابناء الأرباض المرتدين ملابهم الخاصة بيوم الاحد ، المترنين احياناً بالزنابق مثل البورجوازيين ، قد انتشرت فوق الساحة الكبرى وساحة ماريني يلعبون لعبة الخوام ، ** ويطوفون على متون الحبل الحشبية . وكان آخرون يجذون الحُر . على حين كان نفرٌ قليل ، وهم من عمال المطابع ، يعثمون قبعات من الورق . كان في ميسور المرء ان يسمع صدى ضحكاتهم . وكان كل شيء مشعاً مشرقاً . كان عهداً من السلام الوطيد والسلامة الملكية العميقة - عهداً اختتم فيه آنغليز مدير الشرطة تقريراً شخصياً وخصوصياً رفعه الى الملك حول الوضع في ضواحي باريس بهذه الاخطر : « اذا اخذنا كل شيء بعين الاعتبار ، يا مولاي ، استطعنا ان نقول ان لا خطر البتة من هؤلاء القوم .

» امي الملك لويس الثامن عشر ، وكان قد لجأ ، خلال « الايام المثة » ، الى مدينة غان Gand احدى مدن بلجيكا .

** jeu de bagues من ألعاب الرشاقة ، وقوامها ان ينتزع الفارس ، بواسطة رمح او سيف ، بعض الحلقات المتدلية ، فيا الجواد مطلق به .

إنهم مهملون متكاسلون كاهرة . وإذا كان العوام من أبناء الولايات قلقين غير راضين فإن عوام باريس ليسوا كذلك . إنهم جميعاً رجال صغار ، يا مولاي ، إذ وُضع اثنان منهم واحداً فوق الآخر لم يكاد يشكلان رجلاً من رمة قنابك . لا ، ليس ثمة ما يُخشى من ناحية سكان العاصمة . وما يلفت النظر أن هذا الجزء من السكان قد تقاصرت قاماته أيضاً خلال السنوات الحسنة الماضية ، وإن أبناء الضواحي الباريسية أزال أجساماً بما كانوا قبل الثورة . إنهم ليسوا خطرين . وبالاختصار ، فإنهم سفة طيبون . »

أما أن من الجائز أن تنقب الهرة إلى أسد فذلك ما لا يعتقد مدراء البوليس بأنه ممكن . وأياً ما كان فقد يقع هذا ، وتلك هي معجزة شعب باريس . وإلى ذلك ، فإن الهرة التي يزدريها الكونت آنغليز إلى هذا الحد قد حظيت بأجلال الجمهوريات في العصر الحالي . كانت تجسداً للحرية ، في نظرهم . ولقد كان في ساحة كورنت العامة مثال ضخم جداً لهرة ما ، فهو يحيل إلى المرء أن القوم قصدوا إلى جعله ندأ لمينيرفا « بيويه » * غير المُنجعة . كانت الشرطة الساذجة ، في عصر لويس الثامن عشر ، تنظر إلى شعب باريس نظرة تحفل بالأمل والتفاؤل أكثر مما ينبغي . إنهم ليسوا ، بحال من الأحوال ، « سفة طيبين » بقدر ما يُظن . فالباريسي هو بين الفرنسيين ما كانه الآثيني بين الإغريق . إن أحداً لا ينام أحسن مما ينام هو ؛ إن أحداً ليس أكثر منه ولا أصرح طيشاً وكسلًا ؛ إن أحداً لا يبدو أيسر نسياناً للأشياء منه ، ومع ذلك فعذار أن نطعن إليه . إنه قادرٌ على مختلف ضروب البلادة والتواخي . ولكن ما إن يتبدى له طيف تجدد حتى ينتزع إعجابك بأنواع الاحتدام المجنون كلها . أعطه حربة يُعطك يوم

* Pirée ثغر اثينا .

١٠ آب * أعطى بندقية يُعطيك معركة أوسترايتز . إنه مرتكز نابليون ،
ومعين دانتون * هل الوطن في خطر ؟ إذن ، يتطوع للنضال . هل
الحرية في خطر ؟ إذن ، يقتلع بلاط الشارع . حذار ! إن شعوره
الطافح بالغضب هو ملحمي ؛ إن قيصره لبيدو وكأنه معطف من معاطف
الجنود الإغريق القدم . انتبه ! فعند الزاوية الأولى ، يصنع « غرينيت »
« شوكات كودية » * * * * * وحين يندق نافوس الخطر ينمو هذا الرجل
الساكن في الضواحي ، وينهض هذا الرجل الضئيل . عندئذ تغدو
نظراته فظيعة ، ويصبح نفسه عاصفة ، وتنطلق من صدره البائس المهزول
رياح عاقية تقلقل جبال الالب . إن رجل الضواحي الباريسية هو الذي
جعل الثورة ، وقد فرغت في جيوش ، تفتح أوروبا . إنه يغني ؛
تلك هي بهجته . وازن ما بين أغنيته وطبيعته ، ثم انظر فما دام لا
يملك غير الكارمانبول * * * * * لازمة غنائية فلن يسقط غير لويس السادس
عشر . ولكن دعنا ينشد المارشيلياز نخلص العالم .
وبعد أن كتبنا هذه الملاحظة على هامش تقرير آتليز نعود إلى أراجنا
الأربعة . كانوا قد تناولوا ، كما قد قلنا ، طعام الغداء .

٦

فصل من حجة الذات

إن أحاديث المائدة وأحاديث الحب لا سبيل إلى أن تمسك بها قبضة

* يوم ثار الشعب الفرنسي (١٠ آب ١٧٩٢) ثورته التي انتهت بسجن لويس
السادس عشر وسقوط الملكية .

** Danton أحد زعماء الثورة الفرنسية المشاهير (١٧٥٩ - ١٧٩٤)

*** Fourches Caudines وهو مضيق مجاور نكوديوم (مدينة في إيطاليا القديمة)

حيث هزم القائد السمي بونتوس هيرنيوس الجيش الروماني وأزال به ضروب الخوف
والاذلال (٣٢١ ق - م) والمقصود أنه يعمل عملاً يذل المغلوبين .

**** carmagnole ضرب من الرقص والفناء شاع في أثناء الثورة الفرنسية .

القايض . احاديث الحب سَحْب ، واحاديث المائدة دَخَان .
ودندن قَامُول وداهليا بِالْأَنْعَام ؛ واحنسى تُولُومِيْس الشراب ؛
وضعكت زيفين ، وابتمت فانتين . ونفخ ليستواييه في بوق خشبي
استوري في سان كار . ونظرت فافوريت ، في حنان ، الى بلاشوفيل
وقالت :

« بلاشوفيل ، أنا اعبدك . »

فأدى هذا الكلام الى سؤال من بلاشوفيل :

« ماذا تفعلين ، يا فافوريت ، إذا اقلعتُ عن حيك ؟ »

فصاحت فافوريت : « أنا ! آه ، لا تقل ذلك ، ولو على سبيل
المزاح ! إذا اقلعت عن حيي فسوف ألحق بك . سوف أخذُك . سوف
أشدُ بشعرك . سوف أقذفك بالماء . سوف أحمل الشرطة على ان تلقي
القبض عليك ! »

وابتم بلاشوفيل في الاحتيال الخليع الجدير برجل 'دغدغ حب'
الذات عنده . وازافت فافوريت :

« أجل ، سوف استغيث ! لا ! سوف أصبح مثلاً : وغد ! ،
وفي نشوة بالغة ردت بلاشوفيل في كرسيه الى الوراء ، وأنغض كلتا
عينيه في زهر .

وممت داهليا ، وكانت لا تزال تأكل ، في اذن فافوريت وسط
الضجة :

« انت مولعة بفلاشوفيل الى حد بعيد ، اذن ؟ »

فأجابت فافوريت ، بالجرس نفسه ، وهي تمسك بشوكتها من جديد :
« أنا اكهره . إنه شحيح . انا احب ذلك الفتى الساكن في
المنزل المقابل لمنزلي . إنه شاب ممتاز ، هل تعرفينه ؟ في استطاعة كل
امريء ان يرى انه 'خلق لكي يكون مثلاً ! انا احب الممثلين . إنه
لا يكاد يدخل البيت حتى تصبح أمه : « اوه ، يا الهي ! لقد فقدت

طمأنيني . ها هو ذا في طريقه الى الصراخ ! إنك سوف تطلق رأسي !
وما ذلك إلا لأنه يطوف في المنزل ويمضي الى العلية ذات الجردات
والى الزوايا المعتمة ، مصعداً أعلى ما يستطيع ان يصعد ، وهناك يغني
وينشد - ومن اين لي أن اعرف أن في إمكانهم ان يسمعه تحت ؟ إنه
يكسب الآن عشرين « سو » يوماً من طريق كتابة الدعاوى لأحد
المحامين الصغار . إنه ان مرتل كنسي قديم في سان جاك - دو -
هو - با . آه ! انه شاب ممتاز . إنه يجني الى درجة جعلته يقول لي
ذات يوم ، وكنت اعجن الدقيق لعمل بعض الخلوى : « يا آنسة ،
اجعلي من قفازيك زلاية أسارع الى اكلها ! » ان الفنانين وحدهم هم
الذين يستطيعون ان يقولوا اشياء مثل هذه . أنا على وشك ان اجنّ
بهذا الفتى . لست ابالي . انا اقول لبلاشوفيل إنني اعبده . يا لي من
كاذبة ! اوه ، يا لي من كاذبة !

وتملت فافوريت لحظة ثم اردت :

- « داهليا ، انت تلاحظين أنني محزونة . ان هذا الصيف لم يجدها
علينا بغير المطر المتواصل . ان الريح تثير عصيتي ؛ وان الريح تشوهني
بالكآف . بلاشوفيل بخيل جداً . ان المرء لا يكاد يجسد شيئاً من
الجلبان في السوق . والناس لا يعنون بشيء غير الطعام . أنا امتشعر السأم
والسويدة كما يقول الانكليز . الزبدة غالية جداً ! وفوق ذلك ، انظري !
ان هذا مخيف . نحن نتناول طعام الغداء في غرفة تحتوي على سرير .
ان هذا يجعلني أقتزز من الحياة . »

٧

حكمة تولوميس

وفي غضون ذلك ، بينا كان بعضهم يتغنى كان سائرهم يتحدثون في

صخب دفعة واحدة . كان ثمة هدير كامل . واعترض تولوميس صائحاً :
 « لا تتحدثوا كيفما اتفق ، ولا في سرعة فائقة ! يتعين علينا ان ننأمل
 اذا كنا نرغب في ان نكون متألقين . إن الامعان في الارتجال يجعل الذهن
 فارغاً على نحو احمق . والجمعة الجارية لا تجمع شيئاً من الزبد . ايها
 السادة ، على رسلكم ! امزجوا الجلال بالفصف والابتهاج . كلوا في تأمل
 وتعمدوا في ببطء . لا تتمعجلوا . انظروا الى الربيع . اذا اسرع اصابه
 الحراب ، يعني أنه يتجمد . ان الافراط في الاندفاع يقتل شجرات الحوخ
 والمشمس . والافراط في الاندفاع يقتل طلاوة الموائد السخية وهبتها . لا
 اندفاع ، ايها السادة ! إن غريمون دو لا رينبير هو من رأي قاليران . »
 فقال بلاشوفيل : « اليك عنا ، يا تولوميس . »

فصاح قامول : « ليسقط الطاغية ! »

فهتف ليستوليه : « بومباردا ، بومبانس ، وبامبوش ! » *

فقال قامول : « إن يوم الاحد لم يفته بعد . »

واضاف ليستوليه : « نحن زاهدون في الطعام والشراب . »

فقال بلاشوفيل : « تولوميس ، تأمل هدوتي . » *mon calme*

فاجاب تولوميس : « انت مركيزها . »

وكان لهذا التلاعب اللامبالي بالالفاظ مثل اثر الحبر الذي يلقى في

مركبة . كان المركيز دو منسكالم ** ملكياً من ملكي العصر المشهورين .
 وصمت الضفادع كلها .

وصاح تولوميس في لهجة من استعاد السلطة :

« ايها الاصدقاء ، التزموا الرصانة . هذه النكتة الجنسية لا

ينبغي ان تستقبل رغم هبوطها من السماء ، بكثير من الدهش ، وكل

* بومباردا هو صاحب الحانة . وبومبانس Bombance وبامبوش Bamboeche ثقيدان

ممن اللصف والتلذذ بالطعام والشراب . وفي ذلك كله تلاعب بالالفاظ واضح .

** Montcalm ويبدو الجنس واضحاً بين هذا الاسم وبين قوله في الاسطر

الابقة *mon calme*

ما يهبط على هذه الشكلة لا يستحق ، بالضرورة ، الحاسة والاحترام .
 النكتة الجناسية هي روث الروح المحلقة . والمزاح الماخن يتساقط في ايما
 مكان . حتى اذا تحررت الروح من حماقتها غاصت في السُّم . إن
 الرقعة البيضاء المنبسطة على الصخر لا تحول بين القدر * وبين التحويم
 في الجو . لستُ انا الذي يزدي النكتة الجناسية وبقها ! أنا أجلتها
 على قدر براعتها . إن كل معن في العظمة ، وكل معن في السنو ،
 وكل معن في السحر ، سواء في الاناسية او خارج الاناسية ، قد
 اصطنع التلاعب بالالفاظ . فقد اطلق المسيح نكتة جناسية حول القديس
 بطرس . واطلق موسى نكتة جناسية حول اسحق . وكذلك فعل
 أشيل بيولينيس ** وكليوباترة بأوكتافيوس . ولا ننسوا ان نكتة كليوباترة
 هذه سبقت معركة آكتيوم *** ، وانه لولاها لما استطاع احد أن
 يتذكر مدينة تورين ، وهو اسم يوناني يعني المعرفة . والآن وقد
 حسنا هذه المسألة ، استطيع ان اعود الى موعظتي . ايها الاخوة ،
 اني اكرر : لا اندفاع ، لا ضجة ، لا إفراط ، حتى في النكت ،
 والخبور ، والابتهاج ، والتلاعب بالالفاظ . اسمعوا لي . ليكن لكم
 نبصر آمفياراوس **** وجارة قبحر . ينبغي ان يكون ثمة حد
 حتى للألغاز Est modus in rebus ***** ينبغي ان يكون ثمة حد حتى للموائد .
 أنتن تحبين حلوى التفاح ، يا سيداتي ، فلا تفرطن في ذلك . ينبغي أن

* كتاب صمم طويل الاجنحة شديد التحليق في الفضاء .
 ** polynice ابن اوديب ، وفي الميثولوجيا اليونانية انه تقاثل مع اخيه ايتيوكل
 Etéocle وان الموت نفسه عجز عن ان يطفى البغضاء بين الاخوين الطويين فربث
 نيران الحطب تنفصل الى قسمين .
 *** هي المعركة البحرية التي انتصر فيها اوكتافيوس وآغريبا على انطونوس
 وكليوباترة عام ٣١ ق . م .

**** Amphiarāus عراف اغريقي شهير .
 ***** من كلام هوراس الشاعر اللاتيني ومناه : بحسن الاعتدال في كل شيء .

يتعلّى المرء ، حتى حين يأكل حلوى التفاح ، بالحصافة والمهارة . أنت الشرّ يعاقب الشرّ . ولقد عهد الربّ الى سوء الهضم في توبيخ المعدة . واذكروا هذا : لكلّ من أهوائنا ، حتى الحب ، معدة ينبغي ان لا تتحمّل فوق ما تطبق . وفي كل شيء ، ينبغي ان نكتب كلمة « انتهى » في الوقت المناسب . يجب ان نكبح جماح انفسنا حين يغدو الامر ملحاً . يجب ان نوصد على شهوتنا بالمغايق الحديدية ، وأن نزع أهوائنا في في السجن ، ونغضي الى محطة البريد . الرجل الحكيم هو ذلك الذي يعرف متى يقف وكيف يقف . ثقوا بي . واذا كنت قد درست القانون بعض الشيء ، كما تثبت امتحانتي ؛ واذا كنت اعرف الفرق ما بين الدعوى المرفوعة الى المحكمة ، والدعوى التي لما تقطع المحكمة بأمرها ؛ واذا كنت قد وضعت اطروحة باللاتين عن طرائق التعذيب في رومة يوم كان مونايبوس ديمتر قاضياً ينظر في الدعاوى الخاصة بقاتلي آبائهم وأمهاتهم ، واذا كنت على وشك ان اصبح طبيباً في ما بيدو ، فلا يستفاد من ذلك ، بالضرورة ، أنني أبله . انا أوصيكم بالاعتدال في رغباتكم جميعاً . انا واثق بأنني اقول قولاً حكيماً ثقّي بأن اسمي فيلكس تولوميس . سعيد هو ذلك الذي يتخذ ، عندما تأزف الساعة ، قراراً بطولياً ، ويستقبل مثل سيلاً * أو أوريجين ! ،

وأصفت فافوريت في انتباه عميق . وقالت :

— « فيلكس ! ما اجملها كلمة ! انا احب هذا الاسم . إنه لاتيني .

إنه يفيد معنى الازدهار . »

وأضاف تولوميس :

— « ايها المواطنون ! ايها السادة ! ايها الاصدقاء ! اتريدون ان

لا نشعروا بأي حافز ، وان نستغفروا عن المطبخ الزوجي ، وتحدثوا

* ديكتاتور روماني (١٣٦ - ٧٨ ق . م) وقد استقال سنة

٧٩ ق . م .

الحب ؟ ليس ثمة ما هو أيسر من ذلك . واليكم الوصفة : شراب الليمون ، والافراط في الرياضة البدنية ، والعمل الشاق . ارهقوا انفسكم بالنعب ؛ اسحبوا الاثقال ؛ لا تناموا ؛ أطيلوا السهر ؛ اكرعوا الاشربة النظرونية وماء النيلوفر ؛ نطقتوا بمنحنيات الحشخاش وكفت مريم ؛ تبتلوا ذلك بغذاء خشن ؛ جوعوا انفسكم ؛ وأضيفوا الى هذا الابتواد بالماء ، وأحزمة الاعشاب ، واستخدام طبق رصاصي ، وضروب الغسول * مع سائل ملح الرصاص ، والكمادات مع مزيج من الخل والماء . ، فقال ليستولييه : « أنا أفضل امرأة على ذلك كله . »

فأضاف تولوميس : « المرأة ! إحترز من هذا . شقيّ هو ذلك الذي يُسلم نفسه الى قلب المرأة المتقلب ! المرأة خاتلة غادرة . إنها تكره الافعى بحكم التنافس في الصناعة . الافعى هي الدكان المقابل . »

وصاح بلاشوفيل : « تولوميس ! انت سكران ! »

فقال تولوميس : « وحق الشيطان ! »

فأضاف بلاشوفيل : « كن مبتهجاً اذن . »

فأجاب تولوميس : « موافق . »

ثم إنه أترع كأسه ونهض :

— « المجد للخمر ! ** *Nunc, te, Bacche, Canam* عفوآ ، ايها الآنسات ،

هذا كلام اسباني . واليكنّ البرهان ، سينورا : مثل هذا الشعب يحتاج الى مثل هذه الدمان . إن « آروب » قشالة يحتوي ستة عشر ليتراً ؛ وقطار « لقت » اثني عشر ؛ و « آلودا » جزر الكافاري خمسة وعشرين ؛ و « كوارتن » جزر الباليار ستة وعشرين ؛ و « جزمة » القيصر بطرس ثلاثين . فليحيّ هذا القيصر الذي كان عظيماً ، ولتحيّ جزمته التي كانت أعظم ! ايها السيدات ، إني أسدي اليكنّ نصيحة

* الغسول : ما يُفعل به من الماء . وقد اعتمدناها لتؤدي معنى « لوسيون »

Lotion في اللغات الاجنبية .

** « والان سأغني لك ، يا باخوس ! » وهو كلام لاتيني وليس اسبانياً .

صديق : إخدعن جيرانك إذا بدا ذلك حسناً في أعينك . إن خاصة الحب الأولى هي أنه يهيم على وجهه . فالحب لم يجعل لكي مجلس الفرفصاء ويصيبه الحب مثل خادمة انكليزية يبتس الفك العنيف ركبتها . إن الحب اللطيف لم يجعل لهذا ؛ إنه يهيم على وجهه مبتهجاً . لقد قيل : إن الهيام على الوجه ظاهرة إنسانية . أما أنا فأقول : الهيام على الوجه ظاهرة عشقية . ابتها السيدات ، أنا أعبدكن جميعاً . أوه زيفين ، أوه جوزيفين ، يا ذات الوجه الأكثر من متجعد ، لقد كنتِ جديرة أن تكوني فاتنة لو لم تكوني عبوساً . إن وجهك أشبه ما يكون بوجه جميل جلس عليه بعضهم خطأ . أما فافوريت ، إيه حوريات الماء وعرائس الشعر ! وفي ذات يوم كان بلاشوفيل يعبر بحرى شارع غورين بواسو فرأى فتاة حناء ترندي جورين بيضارين مشدودين شداً محكماً ، وكانت تلك الفتاة تكشف عن ساقها . وأعجب بلاشوفيل بهذا الاستهلال ، فوقع في الحب . وكانت تلك التي أحبها هي فافوريت . أوه ، فافوريت ! إن لك شفتين يونانيتين . لقد كان في غابر الزمن رسام اغريقي ، اسمه أوفوربون ؛ وكانوا يلقبونه برسام الشفاه . إن هذا الاغريقي وحده ليستحق أن يصور فك . اسمي ! قبلك لم يكن ثمة مخلوقة جديرة بهذا الاسم . لقد جعلتِ لكي تلتقي التفاحة مثل فينوس ، أو لكي تأكلها مثل حواء . إن الجمال يبتدي بك . لقد تحدثتُ عن حواء ؛ إنك أنتِ التي خلقتها . أنت تستحقين أن تمنحي شهادة اختراع المرأة الجميلة . أوه ، فافوريت ، إني انتقل من مخاطبتك بضمير المفرد الى مخاطبتك بضمير الجمع لأنني أنتقل من النثر الى الشعر . لقد تحدثتُ منذ لحظة عن اسمي . لقد أثار ذلك في . ولكن يتعين علينا ، كائناً من كذا ، أن نحذر الاسماء . ربما قد تكون خادعة . أنا أدعي فيلكس * ، واست بالرجل السعيد . إن الكلمات لتكذب : فليس ينبغي أن

* نغيد لفظة Félix في اللاتينية منى السادة واليمن .

نقبل دلائلها قبولاً أعمى . وانه لمن الحطل ان نكتب الى ليبيج *
 التماساً للفلين والى « بو » * التماساً للقفازات . ويا آنسة داهليا ، لو
 كنت مكانك لسيت تقبي روزا * * يجب ان يكون لزهرة سدى ،
 وان يكون للمرأة دكا . انا لا أقول شيئاً عن فانتين . إنها متخيلة ،
 حاملة ، متفكرة ، حامية . إنها طيبة له شكل حورية من حوريات
 الماء ، وحياة راهبة ناهت فالتخذت سبيل عاملة مفناج ، ولكنها تفرغ
 الى الاوهام ، وتغني ، وتطلي ، وتحدث الى السماء من غير ان تعرف في
 وضوح ما الذي تراه وما الذي تعمله ، وتبه - وعيناها مسرقتان الى
 السماء - في حديقة تنظم من الطير أكثر مما يوجد هناك . أوه ، فانتين ،
 اعرفي هذا : أنا ، تولوميس ، وهم . ولكنها لا تسعني مجرد سماع ،
 هي ابنة الاوهام الشقاء . ومع ذلك ، فكل ما فيها نظارة ، وحلاوة ،
 وشباب ، وضياء صباحي ناعم . أوه ، فانتين ، انت خليفة بأن تسمي
 « مرغريت » * * * أو « لؤلؤة » . انت امرأة ذات لمعان ليس أجل
 منه . ايها السيدات ، اليكن نصيحة ثانية : لا تتزوجن ابداً . الزواج
 طعم كالذي تطعم به الاشجار . وقد ينجح هذا الطعم وقد يفشل ، فاجتنبن
 هذه المغامرة . ولكن ماذا أقول ؟ أنا أضيع كلماتي سدى . إذ لا شفاء
 للنساء من داء الزواج . وكل ما نستطيع نحن الرجال الحكماء قوله ان
 يحول بين صانعات الصدرات ورابطات ساقيات الاحذية وبين ان يحلن
 في ازواج مثقلين بالمال . حسن ، ليكن ذلك . ولكن ، ايها الحسان ،
 اذكرن هذا : انتن تسرفن في أكل السكر . إن اكن خطيئة واحدة ،
 ايها النساء ، ليس غير ، هي قضم السكر . أوه ، ايها المجلس

* « ليبيج » و « بو » مدينتان ، الاولى ببلجيكية والثانية فرنسية .
 * اي وردة . و « داهليا » في الامل اسم زهرة نغمية الشكل ، جلة ولكنها غير
 ذات غير .

* الزهرة المروقة بهذا الاسم . وتدعى ايضاً زهرة اللؤلؤ وزهرة الربيع .

الفاطم ، إن اسنانكن الصغيرة البيضاء مدلتها بالسكر . والآن ، انتبهن جيداً ! السكر ملح . وكل ملح يحثف . والسكر اكثر الاملاح تحثفاً . إنه يتص سوائل الدم من طريق الأوردة ، ومن هنا ينشأ تخثر الدم ، ثم تصلبه . ومن بعد ذلك يكون اللّ الرّوي ، فالموت . وهذا هو السبب الذي من اجله يباخم الداء السكري داء اللّ . فلا تقضن شيئاً من السكر ، اذن ، وعندئذ تعشن ! ولاثقت الآن الى الرجال . ايها السادة ، عليكم بالفتوح . لينهب بعضهم محبوبات بعضهم الآخر من غير ان تستشعروا ونخر الضمير ! اقتنصوا وتقاتلوا ! فليس في الحب اصدقه . وحيثما توجد امرأة جميلة يفتح باب الحصومة على مصراعيه . لا رافة ولا استبقاء ، ولكن قتال حتى الموت ! المرأة الجميلة هي *Casus Belli* * المرأة الجميلة هي جرم مشهود . إن جميع غزوات التاريخ إنما قورتها تناير النساء . المرأة هي حق الرجل . فقد سبا رومولوس ** نساء سابين *** وسبا ولم **** نساء الكسون ، وسبا قيصر نساء الرومان . إن الرجل غير المحبوب يحوم كالعقاب فوق معشوقات الآخرين . أما أنا ، فأقدم الى جميع الارامل البائسات الاعلان السامي الذي قدمه نابوليون الى جيش ايطالية : « ايها الجند ، لكم في حاجة الى كل شيء . وان العدو ليسلك كل شيء » .

وكبح تولوميس جراح نفسه .

رقال بلاشوفيل : « حذّ كفّاً ، يا تولوميس . »

وفي الوقت نفسه همهم بلاشوفيل ، بإساعده ليستولييه وقامول ، في صوت نادب ، باحدى اغنيات العمال المؤلفة من أولى الكلمات التي ترد على الحاطر ، الغنية بالقوافي والمحرومة منها في وقت معاً ، المجردة من

* تعبير لاتيني يعني : حالة حرب .

** Romulus ، مؤسس رومة الاسطوري واول ملوكها (٧٥٣ - ٧١٥ ق.م)

*** Sabine من ممالك ايطالية الوسطى في العصور القديمة .

**** ولم الفانح الذي استولى على انكلترا عام ١٠٦٦ (١٠٢٧ - ١٠٨٧)

المعنى مثل حركة الشجر وعزف الرياح ، والمولودة من بخار الانابيب ،
المتبددة معه المولدة في إثره . وهذا هو المقطع الذي اجابت به الزمرة
على خطاب تولومبيس .

« لقد دفع الآباء المغفلون
مألاً الى احد الوكلاء ،
ليمكن يتمكن مبيع كليمون تونير ،
من ان يصح بابا لي « مان جان » .
ولكن كليمون لم يكن قادراً على ان يصح بابا .
لانه لم يكن كاهناً ؛
وعندئذ فمز وكلمهم من انيط ،
واعاد اليهم ما لهم . »

وما كان ذلك ليهدي من وحي تولومبيس . لقد افرغ كأسه ، ثم
أترعها ، واستأنف الكلام :

« فلتسقط الحكمة ! أنسوا كل ما قلته . ينبغي ان لا نكون
مفرطين في التعقّف ، ولا متبصرين ، ولا حكماء صالحين . انا اشرب
نخب الجذل . لنكن جذلين . لننغم دراستنا للقانون بالخمارة والغذاء .
سوء المصم ومجموع الفتاوى . * ليكن جوستنيان هو الذكر والشرارة
هي الانثى . إن في الاعماق لبهجة . عيشي ايتها الخليقة ! ان العالم ماسة
ضخمة . انا سعيد . ان الطيور مدهشة ! أيّ عيد هذا الذي يعمّ
الكون ! إن العندليب هو د ايليفيو * بجاني . ايها الصيف ، اني
احبيك . ايه يا حديقة اللوكسبورغ ، ايه يا قصائد « رو مدام »
وزقاق الاوبرافاتوار ! ايه ايها الخالمون الذاهلون ! ايه يا جميع أولئك

* Digeste وهي مجموعة الفتاوى التي رصها اشهر رجال القانون الرومان بأمر من
الامبراطور جوستنيان . وبين سوء الهضم indigestion ولنظة Digeste نلاء لفظي
واضح .

** Francois Elleveux مفتن فرنسي مشهور . (١٧٦٩ - ١٨٤٢)

الخدمات الفاتنات اللواتي يتسلّين برسم الاطفال فيما هنّ يقمن بخدمتهم !
لقد كانت سهول اميركة الجنوبية الواسعة المغطاة بالعشب خليقة بأن
تبهجني لو لم تكن عندي قناطر الاوديون * إن روعي لتنتلق نحو
الغابات العذراء ونحو السهوب . كل شيء جميل . ان الذباب ليدندف
في أشعة الشمس . وان الشمس لتدعو صغار الطير الجواثم الى العطاس .
قبّلي ، يا فانتين ! «
وضلّ ، وعانق فافوريت .

٨

موت فرس

وصاحت زيفين :

« الفداء في حانة إيدون خيرٌ من الفداء في حانة بومباردا . »
فقال بلاشوفيل : « انا افضل بومباردا على إيدون . إنه اكثر ترفاً .
إنه أشد آسوية . انظري الى القاعة القلي . هناك مرايا *glaces* على
الجدران . »

فقالت فافوريت : « انا أفضل ان اجد المرطبات *glaces* في صحن . »
وأصرّ بلاشوفيل :

« انظري الى السكاكين . إن مقايضا فضة عند بومباردا ،
وعظمية عند إيدون . والفضة طبعاً أثمن من العظم . »
فلاحظ تولوميس قائلاً :

* اثر اغريقي قديم اطلق اسمه على « المسرح الفرنسي الثاني » الذي اسس
عام ١٧٩٧ ، والذي أُلحق عام ١٩٤٦ بـ « الكوميدي فرسيه » تحت اسم « حالة
اللوكسمبورغ » .

« إلا عند اصحاب الذقون الفضية . »

وفي هذه اللحظة القى نظرة على قبة الانقلايد ، وكانت تبدو لمعيني الناظر من نوافذ حانة بومباردا .

وران الصمت .

ثم صاح فامول :

— « تولوميس ، لقد جرى اللوحة نقاش بيني وبين ليستوليه . »

فاجاب تولوميس : « النقاش حسن . ولكن النزاع أحسن . »

— « كنا نناقش في الفلسفة . »

— « ليس عندي اعتراض . »

— « من تفضل : ديكارت أم سبينوزا ؟ »

فقال تولوميس :

— « اما افضل ديروجيه * . »

حتى اذا اطلق هذا القرار ، احتسى قبلاً من الخمر واطاف :

— « انا أرتضي ان اعيش . ليس كل شيء بنتهي على الارض

ما دام لا يزال في امكاننا ان نهذي . وانا اعزو الفضل في هذا الى

الالهة الخالدة . نحن نكذب ، ولكننا نضحك . نحن نؤكد ، ولكننا

نشك . ان غير المتوقع ليتفجر من قياس منطقي . هذا شيء جميل .

ولا يزال ثمة على الارض ناس يعرفون كيف يفتحون ويفلقون ،

في ابتهاج ، صندوق المفاجآت المنطوي على ما يناقض الآراء السائدة .

إلا فاعلمن ، ايها السيدات ، ان هذه الخمرة التي تشربنها في كثير من

الهدوء هي خمر ماديرا المعصرة من كروم « كورال داس فيراس »

التي تعلو ثلاثة وسبع عشرة قامة فوق سطح البحر . إنتهين وانتهن

تشرين ! ثلاثة وسبع عشرة قامة ! ومسيو بومباردا ، هذا المطعبي

الرائع ، يقدم اليكن هذه الثلاثة والسبع عشرة قامة لقاء أربعة

* Désaugiers مغن وممثل فرنسي (١٧٧٢ - ١٨٢٧)

فونكات وخمسين سنتياً . »

وقاطعه فامول كرة اخرى :

— « تولوميس ، إن آراءك قانون . من هو الكاتب المفضل عندك ؟ »

— « بير ... »

— « ... كين ؟ » *

وتابع تولوميس :

— « الحمد ابومباردا ! إنه جدير بأن يكون صنواً لـ « مونوفيس

ديليفانتا » اذا استطاع أن يأتيني بعالة ** وصنواً لـ « تيجيليون دو

شيورنيه » اذا استطاع ان يأتيني بأحدى بنات الهوى ! لانه كان ثمة

— اوه ، ايها السيدات — بومباردات في اليونان ومصر . ذلك ما

يجربنا به « آبوليه » *** وأسفاه ! الشيء نفسه دائماً ، ولا جديد البتة .

لم يبق شيء غير منشور في خليفة الخالق ! **** *Nil sub sole novum*

كذلك يقول سليمان الحكيم . ***** *Amor omnibus idem* كذلك يقول

فيرجيل . وتركب كارابين مع كارابان في الزورق في سان كلو كما ركبت

آسباسيا ***** مع بريكليس ***** مئ اسطول ساموس . كلمة

اخيرة . هل تعرفن ، ايها السيدات ، من كانت آسباسيا هذه ؟ على

« المقصود « بركين » Berquin الكاتب الفرنسي (١٧٤٧ - ١٧٩١) صاحب

كتاب « صديق الاطفال » .

** هكذا في الاصل alméc وهي كلمة عربية مصرية تعني الرانصة الخبث .

*** Apulée كاتب لاتيني من اهل القرن الثاني .

**** في اللاتينية ومعناها : لا جديد تحت الشمس .

***** في اللاتينية : الحب واحد عند الجميع .

***** Anapaie بنى اغريقية اشتهرت بجمالها وذكائها ، وقد اصبحت في ما بعد

زوجة بريكليس ، وكان منزلها موئلاً لاعظم الفلاسفة والغناطين والكتاب وبخاصة سقراط .

***** Périclès رجل الدولة الاعريقي الكبير ، وكانت له يد بيضاء على الحياة

الادبية والفنية في اثينا . وقد جرد حقه بحرية عن ساموس ، احدى جزر

الارخبيل اليونانية .

الرغم من انها عاشت في عصر كانت المرأة لا تزال فيه غير ذات روح ، فقد كانت روحاً ؛ روحاً ذات ظلّ ورديّ وارجواني ، اشدّ توهجاً من النار ، وأنضر من الفجر . كانت آسياسيا مخلوقة مست طرقي المرأة الاكثر نظرفاً ؛ كانت البغيّ الالاهة . كانت سقراط ، مضافاً اليه مانون ليسكو . * لقد خلقت آسياسيا للظرف الذي قد يحتاج فيه بروميثيوس ** الى زانية .

ولم يكن من اليسير ان يُكبح جاح تولوميس ، بعد ان انطلق ، لو لم يسقط جواد ، في هذه اللحظة ذاتها ، على رصيف الشاطيء . لقد اوقفت الصدمة كلاً من العربية والخطيب . كانت فرساً من افراس مقاطعة بوس ، عجوزاً مهزولة جديرة بالقصاب ، تسحب عربة ذات ثقل ثقل . حتى اذا انتهت الدابة الى حانة يومباردا ، وقد هدتها الاعياء ، أبت ان تتقدم خطوة واحدة . وادى هذا الحادث الى تجهيز القوم . ولم يكده سائق العربية ، المهدف المفتاظ ، يجد الوقت الذي يمكنه من ان يلفظ ، في عزم ملائم ، تلك الكلمة الحاسمة : « كلب ! » مردفاً ايها بضربة سوط رهية ، حتى خرّت الفرس الخفية على الارض لكي لا تنهض بعد ذلك ابدأ . وعلى جلبة عابري السيل أدار رفاق تولوميس ، المستمعون الى خطابه ، رؤوسهم ، واغتم تولوميس هذه الفرصة فخنم الخطاب بهذا المقطع الكئيب :

« كانت من ذلك العالم حيث تنتهي طيور الوقواق
والمربات الفاحرة الى المير منه .

* Manon Lescaut هي بطلّة الرواية التي تحمل اسمها وقد عاشت عيش البغايا الفاحرات .
والرواية من تأليف الراهب بريغوست (١٧٩٧ - ١٧٦٣)
** الاله النار ، وهو يبدو في الاساطير الكلاسيكية وكأنه مبدع اول حضارة
انسانية . فبعد أن شكل الانسان من الوحل الراسب في قعر المياه الراكدة سرق النار
من السماء لكي يبعث الحياة في انسانيته ذاك ، فانقم منه جوبيتر ، الخ ...

والفرس الضعيفة ، لقد عاشت على قدر ما تعيش لعنادل ،
فترة صناع ! »

وتنهدت فانتين : « يا لها من فرس مكينة ! »
وصاحت داهليا :

- « هي ذي فانتين ترفي للخيل ! هل عرفتم قبل اليوم شيئاً أكثر
حماقة من هذا ؟ »

وفي هذه اللحظة صالت فافوريت ذراعها ، وادارت رأسها الى
الوراء ، وحذقت الى تولوميس قائلة :

- « آه ! والمفاجأة ؟ »

فأجابها تولوميس :

- « تماماً . لقد أزفت اللحظة . ايها السادة ، لقد آآن لنا ان نقدم
المفاجأة الى هاته السيدات . ايها السيدات ، انتظرننا لحظة . »

فقال بلاشوفيل : « إنها تبدأ بقبلة . »

واضاف تولوميس :

« على الجبين . »

وفي رصانة ، طبع كل منهم قبلة على جبين صاحبه ، ومن ثم تقدم
الشباب الاربعة نحو الباب ، واحداً إثر واحد ، وقد وضع كل منهم
إصبعه على فمه .

وصفقت فافوريت فيما كانوا يخرجون .

وقالت : « إنها بمتعة منذ الآن . »

وتنمت فانتين :

« لا تتأخروا أكثر مما ينبغي ! نحن في انتظاركم ! »

نهاية الابتهاج البهيجة

واستدت الفتيات مرافقهن ، اثنتين اثنتين ، وقد غودرن وحدهن -
على دعامة النوافذ ، وانشأن يثرثن ، حانيات رؤوسهن ، ويتكلمن من
نافذة الى اخرى .

لقد رأين الشبان يغادرون حانة بومباردا متشابكي الاذرع ، ثم
يلتفتون الى وراء وبومثون اليهن ضاحكين ، ليختفوا بعد ذلك وسط
حشود يوم الأحد المغيرة التي تغزو الـ « شان زيليزيه » مرة كل
اسبوع .

وصاحت فانتين :

« لا تتأخروا ! »

وقالت زيفين : « اي شيء سيحملونه لنا ؟ »

فقال داهليا : « سيكون شيئاً جميلاً من غير شك . »

واندفعت فافوريت الى القول :

« اوجو ان يكون من ذهب . »

وما هي الا فترة قصيرة حتى اذهلتهن الحركة المضطربة عند شاطئ
الماء - تلك الحركة التي ميزنها من خلال اغصان الاشجار السامقة ، والتي
ألهتهن إلهاء شديداً . كانت ساعة انطلاق مركبات البريد وعربات
المافرين . ولقد مرت العربات العامة ، القاصدة الى الجنوب والغرب -
مرت كلها تقريباً ، آنذاك ، بـ « شان زيليزيه » . واتخذ القسم
الاعظم منها سبيل الرصيف ، وانطلق من خلال « حاجز باسي » .
ففي كل دقيقة كانت احدى العربات الضخمة ، المدهونة باللونين الاصفر
والاسود ، المثقلة الى حد بعيد ، المجهزة على نحو صارخ ، المشوّهة

بصناديق الامتعة ، والاغطية الجلدية ، والحقائب ، الملاى بالرووس التي كانت تحتفي على نحو موصول ، المفتحة الجزء المقوس من الطريق ، المحوثة حصاء الشارع الى زناد للقدح - في كل دقيقة كانت احدى هذه العربات تندفع وسط الحشد مطلقة الشرر مثل كور الحداد ، وقد حلّ الغبار محلّ الدخان ، وبدأت عليها سماء الحدة والفضب . وسرت الفتيات بهذه الجلبة . وصاحت فافوريت :

- « يا لها من ضواء ! يجئ الى المرء ان اكواماً من السلاسل تولى فراآ . »

وشامت المصادفة ، ان تقف احدى هذه العربات التي كان في ميسورهن رؤيتها في عسر من خلال شجرات الدردار الكثيفة ، ثم تنطلق بعد لحظة على جناح السرعة . واثار ذلك عجب فانتين .
وقالت : « هذا عجيب ! لقد حسبت ان عربات المسافرين لا تقف أبداً . »

وهزت فافوريت كنفيها :

- « ان فانتين هذه تثير الدهش ؛ أنا انظر اليها في فضول . إنها تعجب لا بسط الاشياء . لنفرض اني مسافرة من المسافرين ؛ عندئذ أقول للعربة العمومية : انا راحلة ؛ في استطاعتك أن تحمليني في طريقك من على رصيف الشاطي . وتمر العربة ، وتراني ، وتقف ، وتقلّني على متنها ، هذا يقع كل يوم . أنت لا تعرفين الحياة ، يا عزيزتي . »
وتقصّى بعض الوقت ، على هذا النحو . وفجأة أجفلت فافوريت إجمال ناظم استيقظ من الرقاد .

وقالت : « ولكن ... اين المفاجأة ؟ »

فقال داهليا :

« اجل ، المفاجأة الشهيرة . »

وقالت فانتين :

— « لقد تأخروا كثيراً جداً ! »
ولم تكذب فانتين تيمّ تهديتها حتى دخل النادل الذي خدمهم على المائدة .
كان يحمل في يده شيئاً بدا وكأنه رسالة .
وتساءلت فافوريت :
— « ما هذا ؟ »
فأجاب : « انها ورقة تركها اولئك السادة الى هؤلاء السيدات . »
— « ولماذا لم تحملها الينا في الحال ؟ »
فأجاب الغلام :
— « لأن اولئك السادة امروني ان لا اقدمها الى هؤلاء السيدات
الا بعد ساعة من تسلمي اياها . »
وانتزعت فافوريت الورقة من يدي الغلام . كانت رسالة حقاً .
وقال : « عجيب ! ليس ثمة عنوان . ولكن انظرت ما كُتِبَ
فيها :

هذه هي المفاجأة

وفي مثل لمح البصر ، فضّت الرسالة ، وفتحتها وقرأت (كانت
نعرف القراءة) :

« أوه ، يا احببتنا !

« إعلمن ان لنا أهلاً . أجل أهلاً . إنكن لا تكدن تعرفن معنى
هذه الكلمة . إنهم اولئك الذين ندعوم في القانون المدني آباء وامهات .
إنهم بسطاء ولكنهم فاضلون . إنهم يحسنون الينا . ان هؤلاء العجايز
يطالبون بنا . ان هؤلاء الرجال الطيبين وهاته النساء الطيبات يدعوننا
« الابناء الضالين » وهم يتمنون عودتنا ، ويعيدون بأن يذبحوا العجول
لنا . ولما كنا متملقين باهداب الفضيلة فسوف نطيعهم . وهكذا مستطلق

حالا نقرأ هذه الورقة ، خمسة جياذ قوية عائدة بنا الى آباءنا وامهاتنا . نحن نصب خيامنا ، كما يقول بوسوييه . إننا ذاهبون ؛ لقد ذهبنا . نحن نظير بين ذراعي لافيت ، وعلى جناحي كايثار . ان عربة تولوز العمومية نلتشلنا من الهوة ، وما هذه الهوة الا انتن ، يا صغيراتنا الجيلات ! نحن عائدون الى المجتمع ، الى الواجب والنظام ، في سرعة عظيمة بمعدل ثلاثة فراسخ في الساعة . إنه لما بهم الوطن ان تصبح مثل سائر الناس ولاية ، وارباب -أمر ، ونواطير ، ومستشاري دولة . إحترمتنا ووقرتنا ! نحن نضحى بانفسنا . إلتعبن علينا في الحال ، وسارعن الى الاستعاضة عنا بغيرنا . واذا مزقت هذه الرسالة افئدتكن ، فمزقتها بدوركن . وداعاً .

« لقد أدخلنا السعادة على نفوسكن طوال سنتين تقريباً . فلا تحقدن علينا من اجل هذا .

« التواقيع : بلاشوفيل .

« فامول .

« ليستوليه .

« فيلكس تولوميس .

« حاشية : — نفقات الغداء قد دُفعت . »

وتبادلت الفتيات الاربع النظرات .

وكانت فافوريت اول من قطع حبل الصمت .

وصاحت : « إنها مهزلة حلوة حقاً . »

وقالت زيفين :

« إنها مضحكة جداً . »

واردفت فافوريت :

« لا شك في ان بلاشوفيل هو صاحب الفكرة . هذا ما يجعلني

أحبه . فراق عاجل ، وحب عاجل . تلك هي القصة . »

فقلت داهليا :

- « لا . إنها فكرة تولوميس . هذا شيء واضح . »

فصادت فافوريت الى القول :

- « اذا كان ذلك ، فليست بلاشوفيل ، وليحي تولوميس ! »

وهتفت داهليا وزيفين :

- « فليحي تولوميس ! »

وانفجرن ضاحكات .

وضحكت فانتين مثل غيرها .

وبعد ساعة ، عندما عاودت الدخول الى غرفتها ، صفعت الدمع .

كان ذلك ، كما ذكرنا ، حبها الاول . وكانت قد اسلمت نفسها الى

تولوميس ذاك وكأنه زوجها . كانت الفتاة المسكينة أمّ ولد .

الكتاب الرابع

الإيداعُ يعني التحصيلُ حيّاناً

١

أمّ تلتقي أمّاً

كان في الربع الاول من هذا القرن ، في مونفيرماي قرب باريس
شبه مطعم حقير لم يعد قائماً اليوم . وكان يدير هذا المطعم رجل يدعى
تيناردييه ، وزوجته . وكان يقوم في زقاق بولانجيه . وفوق الباب
كان المرء يرى لوحةً مسطرةً على الجدار تماماً . وكان مرصوفاً
على هذه اللوحة شيء يشبه رجلاً على ظهره رجلٌ آخر يحمل
كتافتين * ضخمتين مذهبتين كاللتين يحملها الجنود ، وقد زانتها

* الكتافة لفظة اصطلاحية لتقابل كلمة *épaulette* وهي ما يضعه الجندي من زينة عسكرية على كتفيه .

نجوم كبيرة مفضضة . وكانت ثمة لطخات حمراء ترمز الى الدم . اما سائر الصورة فكان دخاناً ، ولعله كان يمثل معركة . وتحت الرسم كانت مكتوباً : رقيب * واتلوه .

وليس شيء اكثر شيعاً من عربة او عجلة ذات دولابين أمام باب فندق . ومع ذلك ، فان تلك المركبة ، او على الاصح ، ذلك الجزء من مركبة ، التي اعترضت الشارع امام مطعم « رقيب واتلوه » ذات مساء من ربيع عام ١٨١٨ ، كانت خليفة من غير شك بأن تلفت بضخامتها اقتباه أيما رسام يرثيها .

كانت عربة أمامية من تلك العربات الضخام ، التي تُصطنع في الديار المحاطة بالغابات لتقل ألواح الحشب الفليضة وجذوع الاشجار . وكانت هذه العربة الامامية تتألف من محور حديدي ضخيم ذي قطب «شد» اليه «مجر» ثقيل ، وتنهض على عجلتين هائلتين . وعلى الجملة ، فقد كانت ضخمة قصيرة ، ساحقة ، مشوّهة : لقد كان من الجائز ان يحبسها الراعي عربة مدفع عملاقة .

كانت الطرق قد غطت العجلتين وإطاريهما ، ومركزهما ، والمحور ، والمجر بطبقة من الطين قبيحة ضاربة الى الصفرة شبيهة لونها بذلك الذي نرغب في ان نزين به جدران الكانديديات . لقد اختفى الحشب تحت الطين ، واختفى الحديد تحت الصدا .

وتحت المحور كانت تتدلى سلسلة ضخمة تلامس جباراً من جبابرة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وما كانت هذه السلسلة لتعيد الى الذاكرة العوارض الحشبية الضخمة التي كانت تحملها ، ولكن «صور» الحيوانات المتقرضة من ماستودونت وماموث ** التي كان خليقاً بها أن تقرئها . كانت لا تذكر الممر

* الرقيب رتبة عسكرية تقابل « سرجان » sergeant

** الماموث mammoth ضرب من فيلة الاعمى الجيولوجة المقرضة .

يسجون المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة الخاصة بالبشر ، ولكن يسجون
الاشتغال الشاقة الخاصة بجماعة السيكلوب * ومن هم فوق البشر . ولقد بدت
وكانها قد نزلت عن ماورد من المردة . كان هوميروس خليفاً بأن
يوثق بها بوليفيموس ** ، وكان شيكبير خليفاً بأن يوثق بها كاليبان ***
لم كانت هذه العربية الامامية في ذلك الموضع من الشارع ؟ اولاً ،
لكي تعترض السبيل ، وقائلاً لكي تستكمل صداها . إن في النظام
الاجتماعي القديم مجموعة من المؤسسات التي مجدها هكذا معقولة سبيلنا ،
والتي ليس لوجودها أي مبرر آخر .

كان وسط السلسلة يتدلى فُويق الارض ، تحت المحور . وعلى منحناها ،
جلست ذلك المساء ، في تشابك رائع ، فتانان صغيرتان ، وكانها فوق
حبل ارجوحة من الاراجيص . كانت صغيرهما تبلغ من العمر ثمانية عشر
شهرأ ، وكانت كبيرهما تبلغ من العمر سنتين ونصف سنة تقريباً .
وكانت الكبرى تضم الصغرى بين ذراعيها .

كان مندبل باوع العقدة بقيها من السقوط . ولقد رأته إحدى
الامهات هذه السلسلة المروعة ، ذات يوم ، فقالت : د آه ، هي ذي
لعبة لأولادي ! ،

كانت الطفلتان مزبنتين على نحو بهيج ، وكانتا عند التحقيق مُشرقتي
الوجه ، فكانها وودتان عُرسا في الحديد الصدي . كانت أعينهما
تومض إيماضة الظفر ، وكانت وجنانهما النضرة تضحك . كانت احدهما

* Cyclope في الاساطير اليونانية عملاق ذو عين واحدة في وسط الحين . وعائلة
السيكلوب هؤلاء كانت مهمتهم ان يطرؤوا الصواعق لجوبيتر ويساعدوا فولكان ، الاله
النار والامادن ، في اعماله .

** Polyphème هو اشهر عمالقة السيكلوب ، وابن نبتون . وقد اقتلع اوليس
بطل اوديسة هوميروس عنه الوحيدة ، وحده في كهفه مع سائر رفاقه .
*** Caliban من شخصيات شيكبير في روايته « العاصفة » . وهو يمثل القوة
البيعية الجبارة التي تُكره على الخضوع لقوة عليا ، ولكنها تحاول دائماً الثورة عليها .

كستنائية اللون ، وكانت الاخرى سمراء . وكان وجههما الساذجان عجبين فانتين . وكان العبير الذي اطلقته بعض الشجيرات البرية المنورة غير بعيد منها يبدو وكأنه انفاسها . وكانت الصغرى تكشف عن جسدها اللدن بقلّة الاحتشام العفيفة التي تميز الطفولة . وفوق هذين الرأسين الناعمين وحولهما - هذين الرأسين المفرغين في السعادة ، المستعجين بالضياء - تقوّست العربية الهائلة - سوداء بالصدأ ، مروّعة ، او تكاد ، بانحناءاتها المتشابكة وزواياها الوعرة - وكأنها لم مغارة من المغاور .

وكانت أمهما - وهي امرأة بشوش بعض الشيء ولكنها كانت مؤثّرة في هذه اللحظة - جالسة على عتبة الفندق ، تؤرجع الطفلتين بجبل طويل ، حاضنة إياهما بعينها خشية ان يصيبها حادث ما ، وقد طفت على عجاها تلك الانطباعة الحيوانية السهاوية التي تميز الامومة . ومع كل اندفاع من اندفاعات السلسلة الى امام والى وراء كانت الحلقات البشعة تطلق ضجة صاروة أشبه ما يكون بصيحة غضبي . كانت الطفلتان الصغيرتان في نشوة غامرة ، ولم يكن ثمة شيء اكثر فنة من هوى المصادفة هذا الذي جعل من سلسلة من سلاسل العقالقة ، ارجوحة لصغار الملائكة .

وفيها الأم تهر الطفلتين غنت في صوت ناشز أغنية كانت شعبية آنذاك :

« يجب ، يجب ، قال احد الحارين ، »

ومنعها غناؤها ومراقبتها طفلتيها من ان تسمع وترى ما كان جارياً في الشارع .

كان شخص ما يقرب منها ، على اية حال ، فيما هي تستهل المقطع الاول من الاغنية . وفجأة سمعت صوتاً ، قريباً جداً من اذنها ، يقول :

« إن لك هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي . »

بهذا اجابت الأم ، منتمة اغنيها . ثم ادارت رأسها .
كانت امرأة واقفة على بضع خطى منها . وكان لها هي ايضاً طفلة
تحملها بين ذراعيها .

وكانت تحمل ايضاً 'خرجاً ضخماً من اخراج السر ، بدا ثقيلاً جداً .
وكانت طفلة هذه المرأة من اكثر الكائنات التي تقع عليها العين بهاء
والوهية . كانت فتاة براوح عمرها ما بين سنتين وثلاث سنوات . وكان
في ميسورها ان تخوض الى جانب الطفلتين الصغيرتين الاخيرين في مسابقة
في روعة اللباس . كانت تعتمر قبعة من كتان ناعم ، وكانت على
كتفها عصائب ، وعلى قبعنها وشي . كانت ثنيات تنورتها مرفوعة الى
درجة تكشف عن ساقها البيضاء البدينة المكتنزة . كانت وردية ماضعة
بالصحة الى حد فائق . وكانت الطفلة الصغيرة الحلوة تغري المرء بأن
يعض تفاح خديها . وليس في ميسورها ان تقول شيئاً عن عينيها إلا أنها
كانتا من غير ريب متسعين جداً ، محوطتين باجفان باهرة . كانت نائمة .
لقد استغرقت في ذلك الرقاد المוגل في الطأئينة ، الذي لا يعرفه
غير الاطفال . إن اذرع الامهات مصوغة من حنان . وإن الاطفال
لينامون عليها نوماً عميقاً .

أما الأم فقد بدت فقيرة محزونة . كانت تطفو عليها انطباع عاملة
من العاملات تريد ان تستأنف العيش في الريف . كانت نضرة العود
- وجيلة ؟ جائر . ولكن الجمال لا يمكن ان يندثر في تلك الكسوة .
وكان شعرها ، الذي تدلت منه خصلة شقراء ، يبدو أثنيلاً جداً ،
ولكنه كان مجرباً في قسوة تحت قلنسوة من قلانس الراهبات بشعة ،
محكمة الربط ، ضيقة ، معقودة تحت ذقنها . ومن شأن الضحك ان
يكشف عن الاسنان الجيلة حين يكون للمرء اسنان جميلة ، ولكنها لم

نضحك . ولقد بدت عيناها وكأنها سلختا دهرًا طويلًا تسفحات
للمبرات . كانت مهزولة ، وكانت تبدو عليها سجا الاعياء الشديد ،
والمرض الطفيف . لقد نظرت الى طفلتها الراقدة بين ذراعيها تلك
النظرة التي لا تتم الا لأمّ "توضع فلذة كبدها . وكان منديل عريض
أزرق كمناديل المعجزة مطويّ عبر صدرها ، يفتح شكلها على نحو تعوزه
البواعة . وكانت بداها مسفوعتين ، منقطتين بالنش ؛ وكانت سبابتها
متصلة بمنزقة من اثر الابرة . كانت ترتدي رداءً فضفاضاً بنيّاً من
صوف غليظ ، وفستاناً من خام ، وتنتعل حذاءً ضخماً ثقيلاً . كانت
فانتين .

أجل ، فانتين . كان من العسير على المرء ان يعرفها . ومع ذلك
فما ان يمين النظر اليها حتى يرى انها ما تزال محتفظة بجهاها . كان خطّ
كتيب كذلك الذي يتشكل عند مطلع التهكم ، بطبع خدها الايمن .
اما زينتها - تلك الزينة الرقيقة المؤلفة من حرير موصليّ ومن عصائب ،
والتي بدت وكأنها مصنوعة من البهجة ، والحماقة ، والموسيقى ؛ والتي
خفلت بالبهارج ، وتعطرت بالزنايق - فكانت قد ذابت كما يذوب
الجليد المائتق الجليل الذي تحبه تحت اشعة الشمس ماساً متوهجاً . لقد
ذابت ، مخلقة العنق اسود موحشاً .

كانت عشرة أشهر قد تقصّصت على د المهزلة الحلوة .

ايّ شيء جرى خلال هذه الاشهر العشرة ؟ في استطاعتنا ان
نحزر .

فبعد التهور يأتي البلاء . لما هي إلا فترة حتى غابت فافوريت ،
وزيفين ، وداهليا عن ناظرَيّ فانتين . ذلك بأن الصلة التي قطعت من
جانب الرجال ما لبثت أن حلت من جانب النساء ، فهن خليقات
بأن يدهشن اذا ما زعت إحداهن ، بعد اسبوعين اثنين ، انهن كنّ
صديقات . لم يكن ثمة سبب يدعوهم الى الابقاء على تلك الصداقة .

وغودرت فانتين وحدها . وإذا مضى والد طفلتها ليبيده وأأسفه !
فأمثال هذه الهجرة تكون دائماً الى غير رجعة - ألقت نفسها في عزلة
مطلقة ، وقد تضاعلت عندها عادة العمل ، وتعاضلت عندها الرغبة في
الملاذات . كانت صلتها بتولوميس قد قادتها الى ان تؤدي المهنة
الصغيرة التي عرفتھا ، فاذا هي تشيع بوجهها من المنافذ التي عرضت لها ،
واذا بهذه المنافذ توصل آخر الامر في وجهها . وعدت ولا مورد لها .
كانت فانتين لا تكاد تفك الحرف ، ولم تكن تعرف الكتابة . لقد
علموها في طفولتها كيف توقع اسمها ليس غير . وعهدت الى احد
كتاب الرسائل العموميين في ان يسطر لها رسالة الى تولوميس . ثم
عهدت اليه في ذلك ثانية وثالثة . ولكن تولوميس لم يجب على اي
من تلك الرسائل . وذات يوم ، سمعت فانتين بعض القوة الثورات
يقلن ناظرات الى ابنتها : « وهل ينظر الناس الى هؤلاء الأطفال نظرة جديده ؟
إنهم يهزون اكتافهم حين يرون امثال هؤلاء الاطفال ! » وعندئذ
فكرت في تولوميس الذي هزّ كتفيه لولده ، والذي لم يأخذ هذه
المخلوقة البريئة أخذاً جدياً . وغدا فؤادها مظلماً في الوطن الذي كان
موطنه . ما الذي يتعين عليها ان تفعله ؟ لم يكن ثمة من تستشير . لقد
ارتكبت خطيئة ، ولكن طبيعتها كانت ، في اعماقها ، كما عرفنا ، عنوان
الحياء والفضيلة . وراودها شعور غامض بانها على وشك التردّي في الشقاء
والانزلاق الى الشارع . ينبغي ان تكون لديها الشجاعة الكافية . ولم
تعوزها الشجاعة . ونحلم مصيبتها في صبر . وخطر لها ان توجه الى
موطن رأسها ، قرية مونتروي سور مير ، فقد تجد هناك من يعرفها ،
وبعطيها عملاً . اجل ، ولكنّ عليها ان تخفي خطيئتها . وتواءى لها
على نحو غامض شبح فراقٍ اشدّ ابلاماً من الفراق الاول . وانقبض
صدرها ، ولكنها وطنت النفس على ذلك . لقد كانت فانتين غلّك ،
كما سوف نرى ، شجاعة الحياة الضاربة .

وكانت قد تحلّت ، في بسالة ، عن تبرّجها ، وارتدت الملبس
المصنوعة من الحام ، وحوّلت أثوابها الحريرية كلها ، وخبرفها كلها ،
وعصائبها كلها ، ووشىها كله الى ابنتها - زهوها الأوحده الذي بقي لها ،
وإنه لزهره السّهي . وباعت كل ما تملك ، فعاد عليها بمئتي فرنك . حتى
إذا وفّت ديونها الصغيرة لم يبق معها غير ثمانين فرنكاً تقريباً . وذات
صباح جميل من أيام الربيع ، وفي سنّها الثانية والعشرين ، غادرت
باريس حاملة طفلتها على ظهرها . وخلق بكل من رأى اليها تجوزان
الشوارع ان يأخذها الاشفاق عليهما . فهذه المرأة لم يكن لها في العالم غير
هذه الطفلة ، وهذه الطفلة لم يكن لها في العالم غير هذه المرأة . كانت
فانتين قد ارضعت ابنتها ؛ وكان ذلك قد اوهن صدرها بعض الشيء ،
فهي تسعل سعالاً طفيفاً .

ولست بنا حاجة ، بعد ، الى ان نتحدّث عن مسيو فيلكس
تولوميس . فنجتزئ ههنا بالقول انه انتهى الى ان يصبح ، بعد
عشرين سنة ، وفي عهد الملك لويس فيليب ، نائباً عاماً ريفياً بديناً ،
ذا ثروة وذا نفوذ ؛ وناخباً حكيماً ومخلّفاً شديد القسوة ، بيد انه
ظلّ دائماً رجل هو ومتعة .

وحوالى الظهر ، وبعد أن امطت بين الفينة والفينة - التماساً للراحة
ومقابل ثلاثة فلوس او اربعة اكلّ فرسخ - متنّ ما كان يُعرف
آنذاك بـ « العربات الصغيرة الخاصة بضواحي باريس » ، وصلت فانتين الى
مونفيرماي ، ووقفت في زقاق بولانجييه .

وفيا هي تجتاز بفندق تيناردييه ، ترك منظر الطفلتين القاعدتين في
ابتهاج على أرجوحتهما المائلة ، اثرأ مذهلاً في نفسها ، وتملّت امام هذا
المشهد المرح .

إن قّة رقيّ . ولقد كانت هاتان الطفلتان الصغيرتان وقيّة لهذه الأمّ .
وتأملتنيهما في انفعال غامر . ان وجود الملائكة بشرى بالجنة . وخيل
لها انها واثت فوق هذا الفندق لفظه « هنا » الحنية التي تحطّ بها العناية

الالهية . كانت هاتان الطفلتان سمديتين من غير شك ! وحدّقت اليها وأعجبت بها ، وقد غلب عليها التأثر الى حد جعلها لا تملك نفسها - حين اخذت الأمّ نفساً بين يدي أغنيتهما - عن ان تقول ما سبق ان قرأناه :

« إن لك هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي . »

إن اشدّ الحيوانات ضراوة لتلقي السلاح حين ترى صغارها موضع تودد وملاطفة .

ورفعت الأمّ رأسها ، وشكرتها ، وسألت عابرة البيل ان تجلس على درجة السلم الحجرية ، وكانت هي نفسها قاعدة على عتبة الباب . وتجادبت المرأتان اطراف الحديث .

فقال أمّ الفتاتين الصغيرتين :

« اسمي مدام تيناردييه . نحن ندير هذا الفندق . »

ثم واصلت انشادها فغنت من بين أسنانها :

« يجب ، يجب ، ماما فارس
« رلوف اسافر الى فلسطين ! »

وكانت السيدة تيناردييه امرأة حمراء الشعر ، بدينة ، ذات زوايا ونتوءات : نموذج زوجة الجندي بكل ما يوحي به من الرعب . ومن عجب انه كانت تظفر على عيها انطباعة امترخاء اكتسبتها من قراءة الروايات . كانت مغناجاً متوجلة . والواقع ان الروايات القديمة المنطبعة على خيال صحبات الفنادق لتختلف مثل هذه الآثار . كانت لا تزال شابة لما تجاوز الثلاثين من عمرها . ولو كانت هذه المرأة ، الجالسة القرفصاء ، واقفة منتصبه القائمة ، ادن لكان من الجائز لقامتها الشاحخة وكتفها العريضتين المشبهتين كنفي غزال عظيم متحرك - الجديرة بامرأة من نساء السوق الموسمية - ان نجعل عابرة السيل ، وتعكر صفو اطمئنانها وتحول

دون وقوع الاحداث التي سنرويها . شخصٌ جالس بدلاً من ان يكون واقفاً : إن القَدَر ليتأرجح على خيط رقيق مثل هذا .
وقعت عابرة السبيل حكايتها ، في شيء من التعديل .

قالت انها كانت عاملة ، وان زوجها قد مات ؛ واذ لم توفق الى عمل في باريس فقد مضت تلتسه في مكان آخر ، في المقاطعة التي ابصرت فيها النور ؛ وانها غادرت باريس ذلك الصباح سعيًا على قدميها ؛ وان حملها طفلتها قد اورثتها إعياءً شديداً ؛ وانها التقت عربية فيلوبل فركبتها ؛ وانها انطلقت من فيلوبل الى مونفيرماي سيرا على القدمين ؛ وان الطفلة الصغيرة مثل قليلاً ، ولكن ليس كثيراً ، فهي اصغر من ان تقدر على ذلك ؛ وانها اضطرت الى ان تحملها ؛ وان الجوهرة كانت قد استسلمت للرقاد .

حتى اذا لفظت هذه الكلمة طبع على جبين ابنتها قبلةٌ حنوناً أيقظتها من نومها . لقد فتحت الطفلة عينيها الزرقاوين الواسعتين ، مثل عيني أمها ، وأبصرت - ماذا أبصرت ؟ لا شيء ، كل شيء ، بانطباعة الاطفال الصغار الجدية ، الصارمة في بعض الاحيان ، التي هي احد اسرار برامتهم امام فضائلنا المعنوية . وفي ميسور المرء ان يزعم أن اولئك الاطفال يستشعرون انهم ملائكة ، ويعرفون اننا بشر . ثم انشأت الطفلة تضحك . وعلى الرغم من ان امها كبحت جاحها ، فقد انزلت الى الارض بمثل القوة التي لا سبيل الى قهرها والتي تكون لطفل يريد ان يفر .
وفجأة رأت الطفلتين الاخرين على ارجوحتهما ، فوقفت فجأة ، واخرجت لسانها علامة الاعجاب .

وحلت السيدة تيناردييه وثاق طفلتيها وأنزلتها عن الارجوحة ،
قائلة :

- « إلعبن كلكن معاً . »

إن الاطفال في مثل هذه السن ليأنس بعضهم الى بعض في سهولة

ويسر . فما هي إلا لحظة حتى كانت بنتا السيدة تيناردييه تلعبان مع
الوافدة الجديدة ، حافرات ثقباً في الأرض بابتهاج غامر .

كانت هذه الراقدة الجديدة مريحة جداً : ان طيبة الأم لمطورة في
بهجة الطفلة . كانت قد تناولت شطية من خشب واتخذت منها مجرقة ،
وراحت تشق في نشاط حفرة نلائم ذبابة . إن عمل حفار القبور ليصبح
سائناً جيلاً حين يقوم به طفل .

واستأنفت المرأتان حديثها .

« ما اسم طفلك الصغيرة ؟ »

« كوزيت . »

ولكن عليك ان تقرأ أوفرازي بدلاً من كوزيت . فقد كانت
الصغيرة تدعى أوفرازي . بيد ان الأم جعلتها كوزيت بتلك الغريزة
الحلوة الفاتنة التي تجعل الامهات والناس يحوكون « جوزيفا » الى « بيتيتا » ،
و « فراندواز » الى « سيليت » . ذلك ضرب من الاستقاق يزعج
علم علماء الاستقاق ويشوشه كله . فنحن نعرف جدة وُفقت الى اث
تقلب « تيودور » الى « غنون » .

« ما عمرها ؟ »

« انها تخطو نحو الثالثة . »

« هي ادن في عمر ابنتي الكبرى . »

كانت اثنيات الثلاث قد اجتمعن في وضع من القلق والغبطة
الامينين . لقد وقع حادث خطير . كانت دودة كبيرة قد انبثقت من
الأرض . وكنّ قد خفن منها ، وكنّ قد غمرتهن النشوة لראها .

لقد تآست جباههن الواضحة ، واقفد كان في وسع المرء ان يزعم انها
كانت ثلاثة رؤوس تحيط بها هالة من النور .

وصاحت السيدة تيناردييه :

« ما اسرع ما يتعارف الاطفال ! أنظري اليهن ! اث المرء

ليقسم اثنان ثلاث أخوات . ،
 واغلب الظن ان ذلك الكدمات كانت الشرارة التي انتظرتها الام
 الاخرى . فامسكت بيد السيدة تيناردييه ، وحذفت اليها قائلة :
 « هل لك ان تحتفظي لي بابنتي ؟ »
 وأتت السيدة تيناردييه بحركة من حركات الدهش التي لا تفيد ايأ
 من القبول أو الرفض .
 وارودفت والدة كوزيتة :

« انتِ ترين انني لا استطيع ان أصحب ابنتي الى الريف . إن
 العمل يحظر ذلك . إني لن اجد عملاً ، هناك ، ما دامت طفلي معي .
 إنهم على غاية السخف في تلك الديار . إن الرب هو الذي جعلني امرأ
 بفندقك . وحين وقعت عيناى على ابنتيك الصغيرتين ، البالغتي الجمال ،
 والنظافة ، والسعادة ، غلبني التأثر . لقد قلت : ههنا أم طيبة . إنهن
 سوف يكنن مثل ثلاث أخوات . وعندئذ فلن أغيب طويلاً . هل لك
 ان تحتفظي لي بابنتي ؟ »

فقالت السيدة تيناردييه :

« ينبغي ان افكر . »

« سوف اقدم اليك ستة فرنكات في الشهر . »

وهنا سمع صوت رجل من داخل المطعم الحميم :

« لا نرضى بأقل من سبعة فرنكات . وستة اشهر مدفوعة

مقدماً . »

فقالت السيدة تيناردييه :

« ستة في سبعة يساوي اثنين واربعين . »

فقالت الام : « سوف اعطيككما ذلك . »

فأضاف صوت الرجل :

« وخمسة عشر فرنكاً إضافية مقابل النفقات الاولى . »

فقلت السيدة تيناردييه : « اصبح المجموع سبعة وخمسين فرنكاً . »
وفي غمرة من هذه الأرقام غنت على نحو غير مبين :

« يجب ، يجب ، قال احد الحارين ... »

فقلت الأم : « سوف ادفعها اليكما . إن عندي ثمانين فرنكاً .
وهذا سوف يتوك لي ما يكفيني للذهاب الى الريف اذا مشيت على
قدمي . وسوف اكسب شيئاً من المال هناك ، وحالما يجتمع لديّ
مبلغ قليل ارجع الى هنا لأخذ حبيبي الصغيرة . »

واستأنف صوت الرجل الكلام :

— « هل عند الصغيرة ملابس ؟ »

فقلت السيدة تيناردييه : « هذا زوجي . »

— « طبعاً ، إن عند حبيبي المسكينة ملابس . لقد أدركت جيداً
أنه زوجك . وملابس جميلة ايضاً ! ملابس كثيرة تتجاوز الحد . من
كل شيء ، دزيئات ، وفساتين حريرية كفساتين السيدات . إنها هناك في
جراب سفري . »

فأمسح صوت الرجل الى القول :

— « يجب ان تعطينا هذا كله . »

فقلت الأم : « طبعاً ، سوف اعطيكما اياه . وهل يُعقل ان اترك

ابني عارية ؟ »

وبرز وجه صاحب الفندق .

وقال : « هذا حسن . »

ونُخِيت المساومة . وأمضت الأم ليلتها في الفندق ، ودفعت ما
'طلب اليها ان تدفعه ، وتركت طفلتها ، واعادت عَقْد جرابها الذي
تقلّص بعد ان جرّدت من ملابس الطفلة وغدا خفيفاً ، ومضت لسبيلها
في الصباح ، متوقعة ان ترجع وشيكاً . إن هذه المجرات ونظائرها

تتظم في هدوم ، ولكنها مفعمة بالقنوط .
والتفت إحدى جارات امرأ تيناردية هذه الام فيما هي تمضي لسبيلها .
حتى اذا رجعت قالت :

« لقد رأيت اللحظة امرأة تبكي في الشارع وكأن قلبها يتمزق . »
وحين مضت والدة كوزيت قال الرجل لزوجته :
- « إن في ذلك ما يمكنني من ان ادفع السند المالي البالغة قيمته
مئة وعشرة فرنكات ، والمستحق أداؤه غداً . كنت في حاجة الى
خمسین فرنكاً . أتدري ان حاجب المحكمة كان من المنتظر ان يفد عليّ ،
وأن وثيقة بعدم الدفع كان من المنتظر ان نحور بحقي ؟ لقد مثلت
انتر وابنتاك الصغيرتان دور مصيدة الفيران مثيلاً جيداً .
فقلت المرأة : « من غير أن نعرف ذلك . »

٢

رسم إعدادي أول لوجهين مبهمين

كانت الفأرة التي بقي القبض عليها ضعيفة البنية جداً ، ولكن النطة
ابتهجت لاصطيادها مجرد فأرة مهزولة .

من كان تيناردية هذا وزوجته ؟

سوف نجتزئ بكلمة نقولها هنا . وفي ما بعد سنكمل الصورة .

كانا ينتابان الى تلك الطبقة النحلة المؤلفة من اناس أجلاف ارتفعت
بهم الايام ، ومن أناس اذكاء هبطت بهم الايام ، والتي تقع بين ما
ندعوه الطبقة الوسطى وما ندعوه الطبقة الدنيا ، والتي تجمع بعض
خطيئات الثانية ، الى وذائل الأولى كلها تقريباً ، من غير أن تملك حوافز

العامل الكريمة ، وسجايًا البورجوازي الباعثة على الاحترام .
كانا من تلك الطبائع القزمية التي اذا اتفق ان مستها نار كالحية
أمت ، في سهولة ، ذات ضخامة هائلة . كانت المرأة ، في أعماقها ،
بهيمة شرسة ، وكان الرجل ، في أعماقه ، وغداً محتالاً . وكان كلاهما ،
في اعلى الدرجات ، قادراً على ذلك الضرب من التقدم البشع الممكن
تحقيقه في اتجاه الشر . إن ثمة نفوساً ترحف مثل عقرب الماء * زحفاً
موصولاً نحو الظلمة ، راجعةً القهقري في الحياة ، بدلاً من ان تقدم
فيها ، مصطنعة ما تم لها من تجارب لكي تزيد نشوتها الذاتي ، فكل
يوم يمر بها يجعلها اكثر سوءاً ، واكثر انحداراً نحو الرذيلة المتكاثفة .
هذا الرجل وهذه المرأة كانا من اصحاب هذه النفوس .

لقد كان الرجل على الخصوص خليقاً به ان يجبر المتسكن من علم
الفراسة . اننا لا نحتاج الى اكثر من النظر الى بعض الناس لكي نرتاب
فيهم ، ذلك لأننا نستشعر ظلمة نفوسهم من ناحيتين . انهم قلقون بالنسبة
الى ما قاتهم ، مهددون بالنسبة الى ما يستقبلهم . انهم لغز من الالغاز .
فنحن لا نستطيع بعد ان نقرر ما قد فعلوه باكثر مما نستطيع ان نقرر ما
سوف يفعلونه . إن الظلمة التي في نظرائهم تشي بهم . فاذا ما سمعناهم
ينطقون بكلمة ، او رأيناهم يؤمنون ايماءة وقفنا على لمحات اسرار مجرمة
في ماضيهم ، والغاز قائمة في مستقبلهم .

وكان تيناردييه هذا ، اذا شئنا ان نصدقه ، جندياً ، برتبة رقيب
كما قال . ولعله ان يكون اشترك في حملة ١٨١٥ وان يكون قد
ابلى بلاءً حسناً في ما يبدو . وسوف نرى في ما بعد علام قام بلاؤه
هذا . والواقع ان اللافتة التي تعلقو باب فندقه ترمز الى احدي مآثره
الحربية . لقد رسمها بريشته ، إذ كان يعرف شيئاً من كل شيء ، ويعرفه
على نحو رديء .

* ار الحيوان المائي المروف بالسرطان .

كانت تلك الحقبة هي الحقبة التي أهدت فيها الرواية الكلاسيكية العتيقة (التي كانت من قبل « كليلي » * فهبطت حتى امست « لودويسكا » ، والتي احتفظت بنبلها ؛ ولكنها امعت في الابتذال يوماً بعد يوم ، هابطة من مدموزيل دو سكوديري الى مدام بارتيليمي هادو ، ومن مدام دو لا فاييت ** الى مدام بورنون مالارم (نفوس بوابات باريس المحبة ، واحداثت بعض الاضرار حتى في الضواحي . وكانت السيدة تينارديه على قدر من الذكاء يكفي بشق النفس لتسكينها من قراءة هذا الصنف من الروايات . لقد اغتذت بها . لقد اغرقت فيها عقلها الصغير كله . وهذا ما منحها منذ صباها الاول ، وحتى بعد ذلك بقليل ، ضرباً من النزعة التأملية تجاه زوجها ، وكانت نذلاً على شيء من العمق ، خليعاً لا تكاد ثقافته تبلغ حد علم النحور ، جلفاً ومصقول الحاشية في آن معاً ؛ اما في القضايا « العاطفية » - وكان من قراء يبعو ليروان *** - و « في كل ما يتصل بشؤون الجنس » - كما عبر برطانت - فكان احمق حقيقياً ، احمق صرفاً غير مشوب . وكانت زوجته اصغر منه باثنتي عشرة سنة او خمس عشرة سنة . وفي فترة متأخرة ، عندما بدأ شعر الباكين الرومانتيكيين بشيب ، وطلقت ال « ميجير » **** ال « بامبلا » ***** ، انتهت مدام تينارديه الى ان تصبح مجرد امرأة بدينة شريرة تذوقت الروايات الحفاه . والحق ان الناس لا

* Clélie رواية من تأليف الادبية الفرنسية مادلين سكوديري (١٦٠٧ -

١٧٠١) .

** Madame de La Fayette اديبة فرنسية (١٦٣٤ - ١٦٩٣)

*** كاتب فرنسي وضع عدة روايات داعرة وقد ورد ذكره سابقاً .

**** Mègère احدى آلهات الجحيم الثلاث ، رمز الحسد والكراهية . ويقصد بها هنا المرأة الدمة الشريرة .

***** Pamela رواية للكاتب الانكليزي ريكاردسون (١٦٨٩ - ١٧٦١) وهي

قصة خادمة شابة تنحبها الفضة من جميع ما نصب لها من الاثراك . وقد جعلها المؤلف هبة نموذجاً للرواية الاخلاقية .

يقرأون الحقايق من غير ان يسهم الضرر . فكان من عاقبة ذلك ان سميت ابنتها الكبرى ايونين ، وان ابنتها الصغرى كانت على وشك ان تسمى غولنار ، ولكن انحرافاً سعيداً سببته رواية من تأليف دوكري دومينيل * جعلها لا تسمى إلا آريدا .

واياً ما كان فلنقل بالمناسبة إن كل شيء لم يكن مضحكاً وسطيحاً في هذه الحقبة الغريبة التي "نلمع اليها" ، والتي نستطيع ان ندعوها فوضى أسماء العمودية . قالى جانب العنصر الرومانتيكي الذي اشرنا اليه كان ثمة العَرَض الاجتماعي . فليس من النادر ، اليوم ، ان نرى صبيةً بقارين يدعون آثور ، وألفرد ، أو آلفونس ؛ وان نرى فيكونتات - ذا كان لا يزال ثمة بقية من هؤلاء - يدعون توماس ، وبطرس ، أو جاك . وهذا التغير الذي يخلع الاسم ، الأنيق ، على ابن السوقة ، والاسم الرفيع على ربيب الارستقراطية ، ليس غير ابدفاعة من ابدفاعات الموج في مدّ المساواة . ان تسرّب الالهاء الجديد الذي لا يقاوم ناشطاً هناك نشاطه في كل شيء آخر . وان تحت هذا التنافر الظاهري لحقيقة ضخمة وحقيقة : الثورة الفرنسية .

٣

القبرة

ان كون المرء شريراً لا يكفل له الرخاء ؛ وآية ذلك ان المظلم الحقيق لم يعرف الازدهار .

واذا كان تيناردييه قد وفق الى تشريف توقيعه والتخلص من تلك الوثيقة التي تؤذن بعدم الدفع فالفضل في هذا راجع الى فرنكات فانتين

* Ducray - Dumail رواي شي فرنسي (١٧٦١ - ١٨١٩)

السبعة والחסين . وفي الشهر التالي كانا لا يزالان في حاجة الى المال ، فعملت المرأة ملابس كوزيت الى باريس حيث رعتها في مون دو بيتيه مقابل ستين فرنكاً . حتى اذا نفذ هذا المبلغ شرع تينارديه وزوجته ينظران الى الطفلة الصغيرة نظرتها الى طفلة يؤويها صدقة واحساناً ، وعاملاها على هذا الاساس . واذ لم يبق لديها أيّ ملابس ، فقد ألباسها قمصان طفليها القديمة وتتايرها العتيقة ، يعني انها الباسا اسماً بالية . ليس هذا فحسب ، بل لقد أطعمتها فضلاتها وفضلات بنتيها - أطعمتها على نحو أحسن قليلاً من الكلب ، وأسوأ قليلاً من الهرة . كان الكلب والهرة رفيقي مائدتها الدائمين . لقد أكلت كوزيت معها تحت الطاولة في صحن خشبي مثل صحنها .

وكانت أمها ، التي استقرت كما سوف نرى بعد في مونتوي سور مير ، تكتب اليها ، او على الاصح تكلف احداً بالكتابة اليها ، مرة كل شهر ، متطلعةً انباء ابنتها . وكان تينارديه وزوجته يجيبانها جواباً لا يتغير :

- « كوزيت في حال ممتازة جداً . »

وتقضت الاشهر الستة الأولى . وأرسلت الأم سبعة فرنكات مقابل الشهر السابع ، وواصلت ارسال هذا المبلغ على نحو نظامي شهراً إثر شهر . ولم يكد العام ينقضي حتى قال تينارديه : « إن هذا لثن رائع حقاً ! اي شيء ننتظر منا ان نفعله مقابل فرنكاتنا السبعة ؟ » وكتب اليها رسالة مطالباً باثني عشر فرنكاً . ووافقت الأم - وهي التي أقنعها صاحب المطعم وزوجته بأن ابنتها سعيدة مسرورة - وارسلت اليها القرنكات الاثني عشر .

ان قمة بعض الطبائع التي لا تستطيع ان تحب من ناحية من غير أن تكره من ناحية اخرى . كانت تينارديه الأم هذه تحب طفليها الصغيرين حباً جماً ، واعد حملها ذلك على ان تبغض الطفلة الغريبة .

وانه لمن المؤسف ان يفكر المرء بأن حب أمّ من الامهات يمكن ان تكون له مظاهر بشعة . فعلى الرغم من ضيق المجال الذي احتله كوزيت في منزلها ، فقد تراءى لها ان هذا المجال الصغير قد انتزع من طفلتيها ، وان هذه الغريبة الصغيرة قد أنقصت الهواء الذي تنفسته ابنتاها . وكانت لهذه المرأة ، شأن كثيرات من نوعها ، جبهة من الملاحظات ، وجبهة من الضربات والشتائم تنفقها كل يوم . ولو لم تكن كوزيت ضيفة عليها ادن لكان من الثابت ان تتلقى ابنتاها - برغم حبها العظيم لهما - ذلك كله . ولكن الغريبة الصغيرة خدمتهما فحوّلت الضربات الى جسدها هي . وهكذا لم يُصَب ابنتها غير الملاحظات . فما ان تتحرك كوزيت حركة حتى ينهال على رأسها وابل من ضروب العقاب القاسي الذي لا تستعفه . كانت طفلة رقيقة ضعيفة لا تعرف شيئاً عن هذا العالم ، او عن الله ، ثم الحف على نحو موصول ، وثقّر ع ، وتعاقب ، ونُضرب ، ثم ترى الى جانبها طفلتين صغيرتين تعيشان وسط هالة من المجد !

لقد أساءت المرأة الى كوزيت وخاصنتها . وكذلك فعلت ايونين وآزيليما ايضاً . فلبس الاطفال في هذه السن إلا نسخاً طبق الاصل عن الأم . إن القَطْع أصغر ، ليس غير . وانفضى عام ، وتبعه ثانٍ . وقال الناس في القرية :

- وما اطيب تيناردييه وزوجته ! لهما لبسا غنيين ، ومع ذلك فهما يشتمان فتاة مسكينة تركت عندهما ! ، لقد حبسوا أن أمّ كوزيت نسلتها .

وفي الوقت نفسه ، وبعد ان علم تيناردييه من طريق خفي ان الطفلة كانت في اغلب الظن غير شرعية وان امها لا تستطيع ان تعترف بها ، طالب بخمسة عشر فرنكاً في الشهر قائلاً ان « المحلوقة » كانت تنمو

وانها « تسرف في الأكل » ، مهدداً بطردها .
وصاح : « انها لن تخدعني ! سوف اسحقها وطفلتها في قلب المكان
الذي تختبئ فيه ! يجب ان احصل على مبلغ اكبر . »
ودفعت الأم خمسة عشر فرنكاً .

ومن عام الى عام كبرت الطفلة ، وكبر معها شقاؤها ايضاً .
كانت كوزيت اول الامر « نيس المغفرة » الذي يتحمل ذنوب
الفتاتين الأخريين . ولكن ما ان اخذت تنمو قليلاً ، يعني قبل ان
تبلغ الخامسة من العمر ، حتى غدت خادمة المنزل .

وقد يقول قائل : خمس سنوات ؟ هذا غير محتمل الوقوع .
وأفساه ! انه صحيح . إن العذاب الاجتماعي يبدأ في مختلف الاعمار .
ألم نشهد منذ قريب محاكمة دومولارد ، ذلك اليتيم الذي امسى قاطع
طريق ، والذي وجد نفسه وحيداً في هذا العالم فعاول - وهو بعد في
الحامسة من العمر كما تقول الوثائق الرسمية - أن « يكسب قوته
فسرق ؟ »

وكلفت كوزيت بشراء الحاجات المنزلية ، وكفست الغرف ، والقضاء ،
والشارع ، وغسل الاطباق ، بل وجعل الاثقال . واستشر تينارديه
وزوجته ان حقها في معاملتها على هذا النحو يتعاضد بعد ان بدأت
الأم ، المقيمة ابدأ في مونتروي سور مير ، تتأخر في الدفع . لقد
استحققت عليها اجور بضعة اشهر .

ولو قد عادت هذه الأم الى مونفيرماي ، عند نهاية هذه السنوات ،
اذن لما عرفت ابنتها . ذلك ان كوزيت ، التي كانت بالغة الملاححة
محنة في النظارة لدن وصولها الى هذا المنزل ، امست الآن مهزولة
شديدة الشحوب . كانت تطفو على وجهها انطباع قلق مضطربة . وكان
تينارديه وزوجته يقولان : « خبيثة ماكرة ! »
كان الظلم قد جعلها كالحة الوجه ، وكان الشقاء قد جعلها نبيحة .

ولم يبق لها غير عينيها الجليتين ؛ وكان النظر اليها يوقع الالم في النفس لانها بدت ، بسبب من اتساعها ، وكأنها تريد ان في مقدار حزنها وكآبتها .

وكان بما يمزق القلب ان ترى ، في ايام الشتاء ، الى هذه الطفلة البائسة التي لم تتجاوز السادسة ، وتحجب تحت الحرق البالية التي كانت ذات يوم فتاة من الحام ، كانه الشارع قبل مطلع الفجر بمكنسة ضخمة تحملها بيدها الصغيرتين المراوين ، وقد تفرقت الدموع في عينيها الواسعتين .

وفي تلك المنطقة كانوا يدعونها القبرة . ان الناس ليحبون الاسماء المجازية ، ومن هنا سرهم ان يخاموا هذا الاسم على تلك المخلوقة الصغيرة التي لا يزيد حجمها على حجم الطائر ، المرتعدة ، المروعة ، المرتجفة ، المستيقظة كل صباح قبل اهل المنزل جميعاً واهل القرية جميعاً ، العامة ابدأ في الشارع او في الحقول قبل ان يرتفع الضحى .

بيد ان القبرة المسكينة لم تنطلق حنجرتها بالغناء في يوم من الايام .

الكتاب الخامس

الانحدر

١

قصة تحسين في صناعة الزجاج الاسود

ما الذي حلّ ، في غضون ذلك ، بهذه الأم التي بدت - وفقاً
لما ذهب اليه أبناء مونتفيرومي ، وكأنها هجرت طفلتها ؟ اين كانت ؟
ماذا كانت تعمل ؟

لقد مضت لسبيلها ، بعد ان تركت بنتها الصغيرة عند تيناوديسيه
وزوجته ، حتى بلغت مونتروي سور مير .

وانما كان ذلك ، كما نذكر ، في عام ١٨١٨ .
كانت فانتين قد غادرت تلك الديار منذ اثني عشرة سنة تقريباً ،

وكانت معالم مونتروي سور مير قد تغيرت . ففما كانت فانتين تنحدر في بطة من شقاء الى شقاء كان مسقط رأسها قد اخذ سبيله نحو الازدهار . منذ سنتين تقريباً تم في تلك البلدة تطور من تلك التطورات الصناعية التي تقلب وجه الحياة في المجتمعات الصغيرة . وهذا الحدث ذو خطر . ونحسب ان من الخير ان نروي خبره ، بل ان نرويه بأحرف ضخام .

فن اقدم الازمان وصناعة سكان مونتروي سو مير الخاصة تقليد الزجاج الانكليزي الملون والحجر الالمني الاسود . وكانت تلك الصناعة تشكو أزمة موصولة بسبب من علاء المواد الاولية على نحو كان له اثره في اليد العاملة . حتى اذا رجعت فانتين الى مونتروي سور مير كانت تغير كامل قد طرأ على انتاج هذه « البضائع الموداء » . ذلك بأن رجلاً مجهولاً كان قد استقر في تلك البلدة ، اواخر عام ١٨١٥ ، وخطر له ان 'يحيل' الصنع اللك * ، في تلك الصناعة ، محل صنع الصنوبر . اما في عمل الاساور على الخصوص فقد صنع المشابك بمجرد قتل احد طرفي المعدن على الآخر بدلاً من لحمها باللاحام .

واحدث هذا التغير البالغ الضالة ثورة في الصناعة . ان هذا التغير البالغ الضالة قد خفض نفقات المواد الاولية تخفيضاً هائلاً ، وهذا ما جعل من الممكن ، اولاً ، رفع اجرة اليد العاملة - وفي ذلك فائدة للبلاد - وثانياً ، تخفيض الانتاج - وفي ذلك خدمة للمستهلك - وثالثاً يبيع ذلك الانتاج بسعر ادنى مع الفوز بثلاثة اضعاف الربح القديم - وفي ذلك كسب للمنتج .

وهكذا نشأت عن هذه الفكرة نتائج ثلاث . وفي اقل من ثلاث سنوات غدا مبتدع هذه الطريقة غنياً ، وهو شيء حسن ، وجعل كل من حوله غنياً ، وهذا احسن . كان غريباً

* اللك : نات يتخذ منه نوع من الصنع .

عن المقاطعة . وكان الناس لا يعرفون عن اصله شيئاً ، ولا يعرفون عن تاريخه الاول غير القليل .

وتحدثت الناس بأثره وفد على المدينة وليس معه غير دراهم معدودات - بضع مئات من الفرنكات على الاكثر .

ومن رأس المال الضئيل هذا ، المستخر في خدمة فكرة عبقرية ، المشتمر بالنظام والروية ، أستمده ثروة لنفسه ، وثروة للمنطقة كلها .

وعند وصوله الى مونتروي سور مير لم يكن عنده غير ثياب العامل ، وعادات العامل ، ولغة العامل .

ويبدو انه في اليوم نفسه الذي دخل فيه بلدة مونتروي سور مير على هذا النحو الغامض ، عند هبوط الليل من احد ايام كانون الاول ، وعلى ظهره كيس وفي يده عصاً شوكية ، اندلعت نار هائلة في دار البديية . فاقنحم هذا الرجل النار ، وأنقذ . مغامرآ بجيانه - طفلين ظهر بعد انهما ولدا قائد الدرك . ومن هنا لم يفكر احد قط في ان يسأله إبراز جوازه . ولقد عرف منذ ذلك الحين بالاب مادلين .

٢

مسيو مادلين

كان رجلاً في نحو الحسين ، تبدو عليه سجا المستغرق في العمل ، ذي النفس الكريمة . ذلك كل ما كان في استطاع المرء ان يقوله عنه .

وكانت مونتروي سور مير قد غدت بفضل ما تم لهذه الصناعة من تقدم سريع أسبغ هو عليه حياة رائعة جداً ، مركزاً تجارياً ذا خطر . لقد اخذت تصدر كل عام مقادير هائلة من انتاجها الى الاسواق الاسبانية حيث تشتد الرغبة في الحرز الاسود ، وكادت ان تضاهي ، في هذا

الميدان ، كلاً من لندن وباريس . وكانت ارباح الاب مادلين كبيرة الى درجة مكنته ، في نهاية السنة الثانية ، من ان ينشيء مصنعاً ضخماً يحتوي على معلمين واسمين ، احدهما للرجال والآخر للنساء . كان في ميسو ابنا جائع ان يطرق ابواب هذا المصنع ، وان يستيقن انه سوف يجد فيه عملاً وخيراً . وكان الاب مادلين يتطلب في الرجال حسن النية ، ويتطلب في النساء الاخلاق الحميدة ، ويتطلب فيهم جميعاً الامانة والاخلاص . لقد قسم المصنع لكي يفصل ما بين الجنسين ، ولكي يحتفظ النسوة والفتيات باحتشامهن . وفي هذه المسألة ، كان صلباً لا يلين . كانت هي المسألة الوحيدة التي لم يعرف فيها التسامح قط . وانما زاده نعلماً بهذه النسوة ان المراتق الاخلاقية كانت موقوفة في مونتروي سوو مير بوصفها مقر حامية من الحاميات العسكرية . واخيراً كان قدومه نعمة ، ووجوده فضلاً من الله . فقبل ان يصل الاب مادلين الى المنطقة كانت ذابطة كلها ، اما الان فقد غدا كل ما فيها فاضراً بحياة العمل الصحية . لقد أوقع الدم النشط الدفء في كل شيء ، وتسرب الى كل شيء . واهتت البطالة والبؤس ، فلم تبقى ثمة جيب قائمة الى حد يجعلها خلواً من بعض الدراهم ، ولم يكن ثمة مأوى فقير الى حد يجعله حراماً على شيء من البهجة .

وشغل الاب مادلين كل انسان . كان عنده شرط واحد ليس غير :
 « كن رجلاً أميناً ! » ، « كوني امرأة أمينة ! »

وفي غمرة هذا النشاط ، الذي كان هو سببه وحجوه ، جمع الاب مادلين ثروته . ولكن ذلك لم يبدُ منه ' الرئيسي ' ، وهي ظاهرة غريبة جداً بالنسبة الى مجرد رجل من رجال الاعمال . لقد بدا انه يفكر في مصلحة الآخرين كثيراً ، ويفكر في مصلحته الذاتية قليلاً . وفي عام ١٨٢٠ كان معروفاً انه يملك ستمئة وثلاثين الف فرنك موضوعة باسمه في مصرف لافيت . ولكن قبل ان يتأخر هذه الستة والثلاثين الف

فرنك كان قد انفق اكثر من مليون فرنك على المدينة وعلى الفقراء . كانت اوقاف المتشفى هزيلة فأخذ على عاتقه نفقة عشرة سُرر إضافية . وتنقسم مونتروي سور مير قسمين : المدينة العليا ، والمدينة السفلى . ولم يكن في المدينة السفلى حيث يقطن غير مدرسة واحدة هي عبارة عن بناء حقير يتداعى الى السقوط . فبنى اثنتين : احدهما للصبيان ، والاخرى للبنات ، ودفع الى المعلمين من جيبه هو ضعف راتبها الحكومي الهزيل . وذات يوم قال لجار له استغرب هذا الوضع : « ان أسمى موظفين في الدولة هما الممرضة والمعلم . » وشيد على نفقته الحانة ملجأ للعاجزين ، وهي مؤسسة تكاد تكون غير معروفة في فرنسا ، ورصد اموالاً للمهال الشيخ والمعتلين . وما لبث ان نشأ حول مصنعه ، حيّ جديد نما نمواً سريعاً ، وانتظم كثيراً من الأسر الفقيرة . وهناك اس صيدلية قدمت الدواء الى الجميع ، من غير مقابل .

وفي البدء ، حين شرع يجتذب الانتباه العام ، قال الطيبون من الناس : « هذا رجل يريد ان يغتني . » وحين راوه يُغني البلاد قبل ان يُغني نفسه قال الاناس الطيبون انفسهم : « هذا الرجل طموح . » ولقد بدا هذا اكثر احتمالاً ، اذ كان نقياً ، حريصاً على اداء الطقوس الكنسية ، الى حد ما ، وهو شيء كان يُستقبل في ذلك الزمن بكثير من الرضا . كان يمضي يوم الاحد ، على نحو نظامي ، لسماع القداس . فما هي الا فترة قصيرة حتى استشر نائب المنطقة - وكان يستروح المنافسة في كل مكان - شيئاً من القلق بسبب من ندين مادلين . وكان هذا النائب - العضو في هيئة الامبراطورية التشريعية - يقول بالآراء الدينية التي نادى بها احد آباء رهبانية الأورانتوار ، ويُعرف باسم فوشيه دوق اوترانت ، وكان صنيعة وصديقه . وفي المجالس الخاصة ، كان هذا النائب يسخر من الله سخريه خفيفة . ولكنه ما إن رأى الصناعم الموسر ، مادلين ، يشهد القداس غير الصارخ في الساعة السابعة حتى

استشف فيه مرشحاً من مرشحي المستقبل المنافسين له على النيابة ، وعزم على أن يبرزه . فاصطعب كاهناً يسوعياً معروفاً ، وشهد وإياه القديس الصارخ وصلوات العصر أو الغروب . وكان الطموح في ذلك العهد ، كما يدل المعنى المباشر لهذه اللفظة ، ضرباً من سباق يُجرى بين الفرسان في حقل كثير العوائق والمعبات . وأفاد الفقراء ، وأفاد الله أيضاً ، من هذا الهول ؛ ذلك بأن النائب النبيل تبرع بنفقة مريدين إضافيين من مرد المستشفى ، وهكذا أصبح عددها اثني عشر .

وأخيراً ذاع بين الناس في المدينة ، ذات صباح من أيام سنة ١٨١٩ نبأ يقول انه بناء على اقتراح المحافظ ، وتقديراً للخدمات التي اداها الاب مادلين الى المنطقة ، فقد اصدر الملك امراً بتعيينه عمدة لمدينة مونتروي سور مير . فما كان من اولئك الذين حكموا على الواقد الجديد بأنه « رجل طموح » إلا ان اغتنموا هذه الفرصة التي يتناها كل انسان - ليصبحوا في حماسة بالغة :

« أرايتم ! ألم نقل لكم ذلك ؟ »

ولغطت مونتروي كلها بالنبا . وما كان النبا كاذباً . فبعد بضعة ايام نشر مرسوم التعيين في الـ « مونيتور » . وفي اليوم التالي رفض الاب مادلين قبول المنصب .

وفي تلك السنة نفسها - ١٨١٩ - وجدت نتائج الطريقة الجديدة التي ابتدعها مادلين مكاناً لها في المعرض الصناعي . وبناء على تقرير لجنة المحكمين منح الملك مخترعها وسام جوقة الشرف من رتبة فارس . وهنا لغطت المدينة الصغيرة كرة اخرى . « حسن ! وإذن فقد كان بطمع في وسام جوقة الشرف دون غيره ! » ورفض الاب مادلين الوسام .

ليس من ريب في ان هذا الرجل لغز من الالغاز . وألقى الطيوس من الناس سلاحهم قائلين :

- « وعلى أية حال ، فهو لا يعدو أن يكون مغامراً ! »
كانت البلدة مدينةً لهذا الرجل كثيراً ، كما قد رأينا ، وكان الفقراء
مدينين له بكل شيء . كان نافعاً الى درجة اكرهتهم كلهم على إجلاله ،
وكان دمثاً الى درجة جعلتهم كلهم يجمعون على حبه . وكان عمله ، على
الخصوص ، يحبونه حتى العبادة ، وكان هو يتقبل حبهم هذا بضرب من
الوقار الكئيب . وحين انقادت اليه الثروة شرع اولئك الذين يتألف منهم
« المجتمع الراقي » ينحنون له حين يلقونه ، واخذ أهل المدينة يدعونه
« مسيو مادلين » . اما عمله ، واما الاطفال فظلوا يدعونه « الاب
مادلين » ؛ وكان وجهه يشرق دائماً بابتسامة ، لدن سماعه هذا النداء .
وظفت الدعوات تنهال عليه كالمطر بعد ان اتخذ سبيله في مرابي العز
والشهرة . وادعاه « المجتمع الراقي » . وفتحت صالونات مونتروي سور
مير الصغيرة المتكلفة للعظمة ، الحسنة التنظيم ، والتي كانت في الايام الأولى
محترمة على الصانع الحقيق - فتحت هذه الصالونات ابوابها على مصاريعها
للليونير . لقد قدّم اليه الف عرض وعرض ، ولكنه رفضها كلها .
وهذه المرة ايضاً لم يكف أصحاب النفوس الطيبة عن لغوهم .
« إنه رجل جاهل ، ذو ثقافة هزيلة . إن احداً لا يعرف من ابن
أقبل . إنه لا يعرف كيف يسلك في المجتمعات الراقية . وليس من
الثابت مجال من الاحوال أنه يعرف القراءة . »

حين رأوه يكسب ثروة قالوا : « انه تاجر » . وحين رأوه يبتدر
ثروته قالوا : « انه طموح » . وحين رأوه يرفض المناصب والالوسمة
قالوا : « إنه مغامر » . وحين رأوه يجتنب المجتمع الراقي قالوا : « إنه
بهيمة » .

وفي سنة ١٨٢٠ ، بعد انقضاء خمس سنوات على وصوله الى مونتروي
سور مير ، كانت خدماته التي قدّمها الى المنطقة ساطعة جداً ، وكانت
رغبة السكان كلهم إجماعية الى حد جعل الملك يعيد تعيينه عمدة

للمدينة . ورفض كرة أخرى . ولكن المحافظ لم يقبل رفضه ذلك ،
ووفد عليه وجوه البلدة يسألونه ان يقبل ، وتضرع اليه الناس في
الشوارع ، وكان الالحاح شديداً الى درجة حملته آخر الأمر على الاذعان .
ولقد لاحظ القوم ان الذي دعاه الى القبول اكثر من اي شيء آخر ،
في ما يبدو ، تلك الصيحة التي تومك ان تكون غاضبة ، والتي أطلقها
من على عتبة بابها - في شيء من الخلق - امرأة من الطبقة الأكثر
فقراً :

- « العمدة الصالح شيء مفيد . فهل انت خائف من الخير الذي
تستطيع أن تعمله ؟ »

كانت هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل ارتقائه . كان الاب مادلين
قد أمسى ميسو مادلين ، وها قد غدا ميسو مادلين السيد العمدة .

٣

اموال مودعة عند لافيت

وأياً ما كان ، فقد ظلّ بسيطاً شأنه في ابامه الاولى . كان ذا شعر امثيب ،
وعين واعية ، وبشرة سمراء كبشرة العامل ، وبحيثا مفكر كبحيثا
الفيلسوف . وكان من دأبه ان يعتمر قبعة عريضة الحاشية ، وان يرتدي
سترة طويلة من قماش خشن ، مزودة حتى الذقن . لقد ادى واجباته
بوصفه عمدة ، ولكنه عاش في ما وراء ذلك عيشاً منفزلاً . كان يتحدث
مع نفر قليل من الناس ؛ وكان ينفر من المجاملات ، فهو يمسّ قبعته
تلك ويمضي لسبيله في غير اناة . كان يبتسم اجتناباً للكلام ، وكانت
يعطي ، اجتناباً للابتهام . وقالت النسوة عنه : « ياله من دب طيب
نافر من الناس ! » كانت متعته التمشي في الحقول .

كان يتناول طعامه وحده دائماً ، وامامه كتاب مفتوح يطالع في
كانت مكتبته صغيرة ، ولكنها مختارة . لقد احب الكتب ، قال الكتاب
صديق بارد ، ولكنه موثوق . واذا سمحت له ثروته المتعاطفة بقدر
اكبر من اوقات الفراغ ، فقد بدا وكأنه يفيد من هذا الفراغ ، في
تثقيف عقله . ومنذ ان وفد على مونتروي سور مير لوحظ ان لغته
غدت اكثر صفالاً ، واحسن اختياراً ، وارق حاشية ، عاماً إثر عام .
وكان يحب ان يحمل في ترهاته ، بندقية ، ولكنه لم يكن يستعملها
الا نادراً . حتى اذا اتفق له ذلك احياناً ، كان هدفه لا يخطيء ، الى
حد مروع . إنه لم يقتل قط حيواناً غير مؤذي ، ولم يطلق النار قط على
أي من صغار الطير .

وعلى الرغم من أنه لم يعد شاباً فقد قبل إنه كان على قوة أسطورية .
كان يعد يد العون الى كل من يحتاج اليها ، فيقبل عثرة جواد كبا ،
ويُدفع عجلة ساخنة في الطين ، او يمك بقرني ثور هارب . وكانت
جيبه مملوءة بالنقود كلما انطلق ، وكانت جيبه فارغة من النقود
كلما رجع . فاذا اجاز بقرية من القرى لحق به الاطفال ذوو
الاسمال البالية فرحين مبهجين ، وتحلقوا حوله مثل سرب من
الذباب .

وحسن القوم بأنه ينبغي ان يكون قد عاش ، قبل ذلك ، في
الريف ، فقد كان على علم بضروب الاسرار النافعة يعلمها للفلاحين .
لقد علمهم كيف يقضون على عثة القمح بان ينضحوا العنبر ، ويقبلوا
فجوات ارضه ، بسائل الملح ، وكيف يطاردون سوس القمح بأن
يعلقوا في كل مكان - على الجدران وعلى السطوح ، في الحيطان الفاصلة
وفي البيوت - زهرات الاورفير . وكانت لديه صفات لتحرير الحقول
من وباء دود الحبر ، وسوسة الزرع ، ومن الكروسة ، ودبل الثعلب ،
وجميع النباتات الطفيلية التي تعيش على القمح . ولقد حمى الارانب من

القرآن براحة خدّوص * من خنائص بلاد البربر وضعه هناك
ليس غير .

وذاث يوم رأى بعض ابناء المنطقة منهكين في اقتلاع القُرّاص
فَنَظَرَ الى كومة النبات المستأصلة ، والتي بدأ الجفاف بصيها وقال :
« هذه ميتة . ولكن من الخير ان نعرف كيف نقيدها منها .
فعين يكون القُرّاص صغيراً تكون اوراقه بقلّاً ممتازاً . وحين ينمو
يصبح ذا خيوط وألياف مثل القنب والكتان . والنسيج المصنوع من
القرّاص لا يقلّ قيمة عن نسيج القنب . والقرّاص ، مقروماً ، يصلح
طعاماً للطيور الداجنة . والقرّاص ، مسحوقاً ، يصلح طعاماً للماشية
ذوات القرون . وبذر القُرّاص ، ممزوجاً بعلف الحيوانات ، يخلع على
جلودها بريقاً . وجذورها ، ممزوجاً بالملح ، يحدث صبغاً اصفر
جيلاً . وهو ، الى ذلك ، صائفة ممتازة نستطيع ان نجزّها مرتين في
الموسم الواحد . والام يحتاج القُرّاص ؟ الى قليل من التربة ، والى لا
عناية ، ولا حرّاة . بيد ان بذوره تتساقط حالما تتضج ، ومن العير
جمعها . هذا كل ما هنالك . فاذا ما نجشنا بعض الغناء ، أمسى
القرّاص ذا غناء . واذا ما أهملناه ، اصبح مؤذياً . وعندئذ نقتله .
ما اكثر الرجال الذين يشبهون القُرّاص ! »
وصمت لحظة ثم اضاف :

« يا اصدقائي ، اذكروا هذا : ليس ثمة اعشاب رديئة ، وليس
ثمة رجال اردياء . ليس ثمة غير زراع اردياء . »
وتعاطف حب الاطفال له لانه عرف كيف يعمل لعباً صغيرة فاتنة
من القش ومن جوز الهند .

وكان اذا ما رأى باب كنيسة مجللاً بالسواد ، دخل . كان يلتبس
الجنّازة كما يلتبس غيره المعمودية . وكان ثكل الآخرين وأرزاؤهم تجذبه

* الخنوص : الخنزير الصغير .

بسبب من رفته البالغة . وكان يختلط بالاصدقاء اللابسين ثوب الحداد وبالأسر المنشعة بالسواد ، وبالكهنة المنتهين حول نعش . لقد بدا سعيداً بأن يتخذ موضوعاً لافكاره من هذه التراتيل المزمورية المأتمية الحافلة برويا عالم آخر . وبعينين مرتفعتين الى السماء كان يصيح في ضرب من التوق الى اصرار اللانهاية جميعاً ، الى هذه الاصوات الحزينة التي تُلشد عند حافة هاوية الموت المظلمة .

لقد قام بجمهرة من الاعمال الصالحة بمثل الكتمان الذي يُصطنع عادة في الاعمال الطالحة . كان يتسلل ، في موهن من الليل ، الى المنازل ، ويرتقي السلام خلسة . فكهم من بائس رجع الى عليته فوجد بابها مفتوحاً بل مكسوراً في بعض الاحيان ، أثناء غيابه ، فصاح : « لقد كان ههنا لص ! » حتى اذا دخل العلية كان أول ما يراه قطعة من الذهب منسية على طاولة . ان « اللص » الذي كان هناك لم يكن غير الاب مادلين . كان انبياً ومحزوناً . وكان الناس يقولون :

— « هو ذا رجل غني لا يشخ بأفقه . هو ذا رجل سعيد لا تبدو عليه أمارات الرضا . »

وزعم بعضهم أنه شخصية غامضة ، واصلوا ان أحداً لم يدخل قط غرفته التي كانت حجرة ناسك حقاً — حجرة مؤنثة بالساعات الرملية المجنحة ، مزخرفة بعظام الساق المتصالبة ، وبجهاجم الموتى . واكثر القوم من تكرار هذه المزاعم حتى لقد زارته ذات يوم بعض سيدات مونتروي سور مير الشابات ، اللانيقات ، الماكرات وقلن له :

— « أيا السيد العدة ، هل لك ان ترينا غرفتك ؟ لقد سمعنا أنها مغارة . »

فايتم ، وقادهن في الحال الى هذه « المغارة » . وعوقبن عقاباً قاسياً على فضولهن . كانت غرفة مزودة على نحو ملائم جداً بأثاث مصنوع من خشب الماهوغاني ، البشع مثل سائر الاثاث المماثل ، وكانت

جدرانها مغطاة بورق لا يزيد ثمنه على اثني عشر « سو » . ولم يستطعن ان يرين شيئاً غير شمعدانين ذوي شكل عتيق قائمين فوق الموقد ، وقد ظهرا وكأنهما فضيان ، « اذ كانا موسومين بِسِمَةٍ رَسْمِيَّةٍ » ، وهي ملاحظة تتضح بروح هذه المدن الصغيرة .

ومع ذلك فما كفى الناس عن القول إن احداً لم يدخل الى تلك الغرفة ، وإنما كانت كهف ناسك ، وموطن احلام ، وحفرة ، وقبراً . ونهاى القوم ايضاً بأنه أودع مصرف لافيت مقادير « هائلة » من المال على شرط خاص يجعلها دائماً تحت امرته المباشرة بحيث يكون في ميسور مسيو مادلين - كذلك اضافت هذه الهمسات - ان يشخص صباحاً الى مصرف لافيت ، فيوقع ايضاً ويحمل مليونيه الاثنين أو ملايينه الثلاثة في عشر دقائق . والحق أن « هذين المليونين الاثنين » أو « هذه الملايين الثلاثة » كانت قد انكسرت ، كما سبق منا القول ، الى مئة وثلاثين ألف فرنك ، أو مئة وأربعين ألف فرنك .

انتهى الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم
فيكتور هيجو

٣

نقله إلى العربية
مُنِير العَبَّاسِي

دار العلم للملايين
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

مسيو مادلين في ثياب الحداد

وحوالى مطلع عام ١٨٢١ نعت الصحف مسيو ميرويل ، اسقف د
 « الملعب بمونسينيور بينفينو » ، الذي توفي عابق الصيت بهير القداسة
 في الثانية والثمانين من العمر .
 وكان اسقف د ... - وهذه حقيفة أغفلت الصحف الاشارة اليها - قد
 فقد حاسة البصر قبل وفاته ، بيضع سنوات ، وقد ارتضى ذلك اذ
 كانت اخته الى جانبه .

ونقل بالمناسبة لأن يكون المرء اعمى ومحجوباً هو من غيبو ريب
 شكل من اطيب اشكال السعادة واعجبها ، في هذه الاوض حيث لا
 شيء كامل . لأن تكون الى جانبك على نحو موصول امرأة ، بل
 فتاة ، بل اخت ، بل كاتبة فائنة ، تقيم هناك لانك في حاجة اليها
 ولأنها لا تستطيع ان تحيا بدونك ؛ ولأن تعلم انك ضروري لا سبيل
 الى الاستغناء عنك في نظر من تحتاج اليها ؛ ولأن تستطيع في مختلف
 الظروف والاحوال ان تقيس حنانها بمقدار مشولها بين يديك ، وأن
 تقول لنفسك : « انها تقف وقتها كله لخدمتي لاني املك قلبها كله » ؛
 ولأن ترى الفكر بدلاً من الوجه ؛ ولأن تستيقن من ولاء مخلوقة ما
 بعد إظلام الكون ؛ ولأن تتخيل حفيف ثوبها وكأنه حفيف اجنحة ؛
 ولأن تسمعها تتحرك جيئة وذهوباً ، خارجة من الغرفة ، داخلة اليها ،
 متحدثة ، مغتبية ، وان تفكر انك نقطة الدائرة في هذه الخطى ، وهذه
 الكلمات ، وهذه الاغنية ؛ ولأن تظهر في كل دقيقة جاذبيتك الخاصة ؛
 ولأن تستشعر انك تزداد سلطاناً كلما ازددت عجزاً ؛ ولأن تغدو في

الديجور ، وبسبب من الديجور ، النجم الذي يدور حوله هذا الملاك -
 لأن يتم لك ذلك كله مرتبة في السعادة يندر ان ندانيها مرتبة . انت
 اسمى مراتب السعادة في الحياة ليماننا بأننا محبوبون ، محبوبون لذواتنا
 . وبكلمة افضل - محبوبون برغم ذواتنا . وهذا الايمان يتمتع به
 الاعمى . إنه يجد في الخدمة التي تسديها اليه ، في محنته ، ضرباً من
 الملاطفة والتدليل . اهو محروم من اي شيء ؟ لا . ان النور لا يعوز
 الموطن الذي يدخل اليه الحب . واي حب ؟ حب مؤسس كله على
 الطهر . ليس ثمة عى حيث يوجد يقين . ان الروح لتتخلص في الظلام
 بحثاً عن الروح ، وإنها لتجدها . وتلك الروح المكتشفة المثبتة على هذا
 النحو هي امرأة . ان يداً لتسندك ، تلك هي يدها . وان شفتين
 لتمسكاً جبينك مساً رقيقاً ، إنهما شفتاها . انك لتسمع نفساً يتودد
 قريباً منك ؛ إنها هي . ولأن تنعم بها كاملة ، من تقواها الى شفتها ؛
 ولأن لا تتوك وحدك البتة ؛ ولأن تسعد بذلك الضعف العذب الذي
 هو سنادك ؛ ولأن تتوكأ على تلك القصة التي لا تلتوي ؛ ولأن تسي
 العناية الالهية بيديك وتتمكن من ان تضمها بين ذراعيك ؛ ولأن
 يصبح الله جلياً ملموساً - لأن تفوز بهذا كله لهو الخطف اي الخطف !
 إن القلب - تلك الزهرة السماوية المظلمة - ليتفتح على نحو عجيب .
 وخليق بك ان لا تباع هذا الظلام بالنور كله ! إن الروح الملاك هي
 هناك ، هي هناك الى الابد . واذا ما ابتعدت مرة فلكي ترجع ثانية .
 انها تسمعي كالحلم ، ثم تعاود الظهور كالحقيقة . انك تستشعر دفئاً
 يقرب ؛ إنها هناك . انك تقيض صفاء ، وجدلاً ، ونشوة ؛ إنك
 لتشع وسط الظلمة . وألف من ضروب الالتفات والعناية الصغيرة ! تلك
 التوافه التي هي هائلة في هذا الفراغ . ونبرات الصوت الانثوي الاكثر
 امتناعاً على الوصف التي تصطنع لهددتك ، وتعويضك من الكون المتلاشي !
 إنك تلاطف وتدلل من خلال الروح . انت لا ترى شيئاً ، ولكنك

تحسب انك موضع حب عظيم . انها جنة من ظلام .

من هذه الجنة انتقل مونسينيور بيينفيو الى الجنة الاخرى .

وردت صحف مونتروي سور مير المحلية هذا النعي . وفي صباح اليوم التالي رزم مسيو مادلين في ثوب الحداد الاسود وطوّق قبعته بعصابة حريرية سوداء .

ورأى اهل المدينة الى هذا الحداد وتحمدوا عنه في كل مكان . لقد بدا وكأنه يلقي بعض الضوء على اصل مسيو مادلين . واستنتج القوم أنه كان على صلة ما بالاسقف الجليل . وقال المختلفون الى الصالونات : « انه يلبس السواد حداداً على اسقف د... » ورفع ذلك من مقام مسيو مادلين شيئاً كثيراً ، وأسبغ عليه فجأة ، ودفعة واحدة ، اعتباراً ملحوظاً في مجتمعات مونتروي سور مير الراقية . وفكرت « ساف جيرمان » ، وهي ضاحية نالفة الصغر من ضواحي المنطقة ، في ان ترفع الحجب عن مسيو مادلين ، نسيب الاسقف المحتل . وادرك مسيو مادلين اي تقدم احرز ، من خلال إجلال السيدات العجائز له على نحو متعاطف ، وابتسام السيدات الشابات في وجهه على نحو متزايد . وذات يوم نجرت إحدى السيدات الاكثر إمعاناً في الشيفوخة ، في ذلك الوسط الارستقراطي الصغير - وقد غلب عليها الفضول بحق الطعن في السن - على ان توجه اليه هذا السؤال :

« ان سيد العمدة هو من غير ريب ابن عم اسقف د... المتوفى ، أليس كذلك ؟ »

فقال :

« لا ، يا سيدي . »

فأصرت المعجوز المومرة :

« ولكنك تلبس ثوب الحداد عليه ؟ »

فاجابها قائلاً :

— « لقد كنت أيام شباني ، خادماً في منزله . »

ولاحظ القوم كذلك انه كلما مر بالمدينة غلام صغير من غلمات
سافوا يطوف في البلاد باحثاً عن مداخن ينظفها ، كان العمدة يسدعيه
ويأله عن اسمه ، وينفعه بشيء من المال . وتحدثت غلمان سافوا بذلك ،
ومرّ كثير منهم في تلك الطريق .

٥

بوارق غامضة في الافق

ومع تراخي الايام ، تلاشت المعارضة كلها شيئاً بعد شيء . كان ثمة
باديء الامر اقوال خبيثة واقتراءات ضد ميو مادلين — وهذا ما
يحدث دائماً لأولئك الذين يلعبون بجهدهم الخاص . وما هي الا فترة
قصيرة حتى تضالت هذه الاقتراءات والاقوال الخبيثة فغدت هجاء ، ثم
انتهت الى ان تصبح مداعبات ، ثم تلاشت نهائياً . لقد أمسى الاحترام
كاملاً ، اجماعياً ، ودياً . ولقد انقضت آونة ، حوالي عام ١٨٢١ ،
لفظت خلالها هاتان الكلمتان : « السيد العمدة » في مونتروي سور مير
بمثل النبرة ، تقريباً ، التي لفظت بها هذه الكلمات : « صاحب السيادة
الاسقف » في مدينة ... عام ١٨١٥ . كان الناس يقبلون من مواطن تقع
على مسبعة ثلاثين ميلاً ليستشيروا ميو مادلين . لقد سوى الخلافات ،
وحال دون اقامة الدعاوى ، واصلح ما بين الاعداء . واختاره كل امرئ ،
بطوعه ، قاضياً . لقد بدا وكأنه يحفظ كتاب القانون الطبيعي عن ظهر
قلب . وفي مدى ست سنوات ، انتشرت عدوى من الاجلال ، شيئاً
بعد شيء ، في طول الاقليم وعرضه .

ولكن رجلاً واحداً ليس غير ، في المدينة وما حولها ، اجتنب

هذه العدوى اجتناباً كاملاً . كان يعتصم بالامبالاة ، أياً ما كان العمل الذي يأتيه الاب مادلين ، وكأن اعتصامه ذلك كان بضرب من الغريزة ثابت رابط الجأش . وكان يلتزم اليقظة والحذر . والذي يبدو ، في الواقع ، ان في بعض الناس غريزة بهيمة حقيقية ، خالصة وكاملة مثل جميع الغرائز ، غريزة تخلق الفور والمشاركة الوجدانية ، وتفصل طبيعة عن طبيعة فصلاً سريماً ؛ غريزة لا تتردد ابداً ، ولا تتكدر ابداً ، ولا تعتصم بالصمت ابداً ، ولا تجيز لنفسها ان تخطيء ابداً ؛ غريزة صافية في غموصها ، منزهة عن الضلال ، متفطرة ، متمردة على جميع نصائح الفطنة ، وجميع تحليلات العقل ؛ غريزة تحذر سرّاً الرجل الكلب من وجود الرجل المهره ، والرجل الثعلب من وجود الرجل الاسد ، مها تكن مصائرهم ومقاديرهم .

وفي كثير من الاحيان ، فيما يكون مسير مادلين بجنائزاً بأحد الشوارع ، هادئاً ، ودوداً ، محوطاً ببركات الجميع ، كان يتفق ان يلتفت خلفه فجأة رجل طويل القامة مُرندٍ قبة مسطحة وسترة رمادية ضارباً لونها الى لون الحديد ومسلح بحيزرانة ضخمة ، فيتنبه نظره حتى يتوارى عن البصر ، ويصالب ذراعيه ، هازاً رأسه بعض الشيء ، رافعاً شفته العليا بشفته السفلى حتى تحاذي أنفه ، وهي حركة ذات مغزى يمكن ان تُترجم على هذا النحو : « ولكن من هو هذا الرجل ؟ ألا واثق من اني رأيتك في مكان ما . وعلى أية حال ، فلست انا مغفلاً يُخدع به . »

وكانت هذه الشخصية ، الرصينة على نحو يكاد يكون مهدداً ، من اولئك الذين يسيطرون على انتباه المراقب ، حتى حين يلقاهم لقاءً خاطفاً . كان اسمه جافير ، وكان رجلاً من رجال البوليس .

كان يقوم في مونتروي سور مير بجهة مفتش الشرطة البفيضة ، ولكن النافعة . إنه لم يكن هناك يوم وفد مادلين على المدينة . وكان مدينياً

بمنصبه لحماية مسيو شايويه ، سكرتير وزير الدولة الكونت آنغلير ، وكان آنذاك مديراً للشرطة في باريس . وحين أقبل جافير على مونتروي سور مور كان الصاعى الكبير قد مكث لنفسه في المدينة ، وكانت الاب مادلين قد امسى مسيو مادلين .

إن لبعض رجال الشرطة سبباً فريدة تستطيع ان تلمح فيها الحجة مزوجةً بالسلطان . لقد كانت لجافير تلك السبب ، ولكن من غير حجة . ونحن على مثل اليقين من أنه لو كان في ميسور العيون ان نطلع على النفوس اذن لتجلى لنا في وضوح هذه الواقعة الغريبة : ان كل فرد من الانواع البشرية يطابق واحداً من انواع الخليقة الحيوانية . واذن لادررنا في أسر هذه الحقيقة التي لا تخطر للمفكر الا بشق النفس : أنه ابتداءً من الحمار الى النسر ، ومن الحنزير الى النسر ، نجتمع الحيوانات كلها في الانسان ؛ وان كلاً منها مائل في احد الرجال ، بل إن عدداً منها لتلتقي في الشخص عينه في آنٍ معاً .

وليت الحيوانات غير امكالم من فضائلنا وذرائلنا هائلة أمام أعيننا . إنها اطياف نفوسنا المنظورة . ان الله يرينا اياها لكي يحملنا على التفكير . ولكن ، لما كانت الحيوانات مجرد ظلال ، فإن الله لم يجعلها قابلة للتربية بمعنى الكلمة الكامل . وما الداعي الى ذلك ؟ على حين أنه منح نفوسنا - بوصفها حقائق وبوصفها ذات اهداف خاصة بها - فطنةً وذكاءً ، يعني انه منحها قابلية للتربية . ان في ميسور التربية الاجتماعية السليمة ان تتل من النفس دائماً ، كائنة ما كانت ، الخير الذي تنطوي عليه .

بيد ان هذا ينبغي ان يقال من وجهة النظر المحدودة الخاصة بالحياة الارضية الظاهرية ، ومن غير ما افشلت على المسألة العميقة المتصلة بالشخصية السالفة والمستقبل للكائنات غير البشرية . اننا ، المنظورة لا نخول المفكر ، بأية حال من الاحوال ، إنكار الله أنا ، الحقبة . وبعد هذا التحفظ نستطيع ان نقضي في ميلنا .

والآن ، اذا سلم المرء لحظةً معنا بأن في كل رجل نوعاً من انواع الخليفة الحيوانية فسوف يكون يسيراً علينا ان نصف ضابط الامن جافير .

ان فلاحى آشتوريش * يعتقدون بأن في كل مجموعة من الجراء التي تلدها الذئاب من بطن واحد كلباً تدارع الأم الى قتله ، خشية ان يفترس الجراء الصغيرة عندما يكبر .

اخضع على ولد الذئب الكلبى هذا وجهاً بشرياً تحصل على جافير . لقد 'ولد' جافير في سجن . كانت امه عرّافة ، وكان ابوه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وحين ترعرع وقع في روعه أنه خارج نطاق المجتمع ؛ ويئس من امكان اجتياز ذلك النطاق في يوم من الايام . لقد لاحظ ان المجتمع بوجد ابوابه ، من غير ما رحمة ، في وجه طبقتين من الناس : اولئك الذين يعتقدون عليه ، واولئك الذين يحرمونه . ولم يكن في ميسوره اكثر من ان يختار احدى هاتين الطبقتين ليرى غير . وفي الوقت نفسه استشعر ان له اسماً لا سبيل الى وصفه من الصرامة والنظامية ، والتزاهة 'مرئفاً' بكراهية لا سبيل الى وصفها ايضاً لذلك العرق العجري الذي ينتسب اليه . والتحق بالشرطة .

ووفق الى النجاح . وفي الاربعين من العمر غداً مفتشاً . وكان قد استخدم في صدر شبابه في سجون الجنوب الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وقبل أن نخفي الى ابعد ، يحسن بنا ان نفهم ما الذي نعنيه بسكنى « الوجه البشرى » اللتين اصطنعناهما اللحظة في الكلام على جافير .

كان وجه جافير البشرى يتألف من انف افطس ، ذي منخرين عميقين يحيط بها شاربان ضخمان كثيفان يغطيان خديه جميعاً . وان امرء

* من مطامع الاندلس القديمة ، وهي بلاد جديبة تغطيها ليرينية (جبال البرانس) الآشتورية .

ليأخذه شيء من الضيق حين يرى أول مرة الى هاتين الغابتين وهاتين
 المغارتين . وكانت جافير اذا ما ضحك - وهو شيء نادر وفظيع -
 تنفجر شفتاه الرقيقتان وتنكشفان لا عن اسنانه وحسب ، بل عن لثاته
 ايضاً . وحول آفقه كانت ثنية عريضة ووحشية كنتلك التي تكون
 حول خطم الابل او الظبي . كان جافير ، اذا ما غلبت عليه الصرامة
 كلباً من كلاب درواس الشرسة الطباع الغليظة الرأس ، وكانت اذا ما
 ضحك نراً . وفي ما عدا ذلك كان ذا رأس صغير ، وفكين ضخمين ،
 وشعر مخفي الجبهة وينوس فوق الحاجبين ، وعذسة بين العينين مركزية
 سرمدية كأنها نجم الغضب ، ونظرة قاتمة ، وفي مطبق سروع ، وسيا
 من السلطة الضاربة .

كان هذا الرجل مزاجاً من عاطفتين هما في ذاتهما بسلطان وصالحتان
 جداً ، ولكنه كاد يجعلهما شريرتين بغلوّه في تركيدهما : احترام السلطة ،
 وكره التمرد . وفي عينيه لم تكن السرقة ، والقتل ، وجميع الجرائم غير
 اشكال من التمرد . لقد احاط كل ذي وظيفة في الدولة ، ابتداء من رئيس
 الوزراء حتى الناطور ، بضرب من الايمان الاعمى العميق . ولم يكن عنده
 ما يقدمه الى جميع اولئك الذين تخطّوا مرة حدود القانون غير الازدراء ،
 والكراهية ، والاشمئزاز . كان جازماً معيماً لا محل عنده لاستثناء ما .
 فمن ناحية ، كان يقول : « الموظف لا يمكن ان يتجذع ، والقاضي لا يمكن
 ان يخطي » ! ، ومن ناحية ثانية ، كان يقول : « اولئك قد فقدوا نهائياً
 فليس الى شفائهم من سبيل . ان اناخير لا يمكن ان يصدر عنهم » . كان
 بشايع مشايعة كاملة اولئك المتطرفين الذين يعزّون الى القانون البشري
 قدرة ما ادرها على صنع ، او اذا شئت فقل على تحقيق ، المصلحة من
 للبشر ، والذين يضعون نظيراً لـ « سنيكس » * في ادنى المجتمع .
 كان واثقاً ، جدياً ، كالح الوجه . كان حاملاً كشيئاً ؛ وكان وضعياً

* Snyx في الميثولوجيا الاغريقية انه نهر في جحيم بطولها سبع مرات .

ومتشاحناً مثل جميع المتعصبين . كانت نظرتة باردة ، وكانت ثاقبة مثل الحرز . كانت حياته كلها مفرقة في هاتين الكلمتين : اليقظة والمراقبة . لقد رسم خطأً مستقيماً عبراً امدة الاشياء التواء في العالم . كان ضميره رهن جدواه ، وكان دينه رهن واجباته ، وكان جاسوساً كما يكون غيره من الناس كاهناً . والويل لمن يُقدّر له ان يقع بين يديه ! كان خليفاً به ان يعتقل اباه لو فرّ من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وبشي بأمه اذا خالفت الحكم الذي يفرض عليها الاقامة في مكان بعينه بعد الخروج من السجن . وكان خليفاً به ان يفعل هذا بمثل ذلك الضرب من الارتياح الباطني الذي ينبثق من الفضيلة . كانت حياته حياة حرمان ، وعزلة ، وانكار ذات ، وعفة ، حياة لا تعرف اللهو البتة . كانت هي الواجب العنيد ، الحقود ، المستغرق في عمله كشرطي كما استغرق الاسبارطيون في اسبارطة . ترصد لا رحم ، وإخلاص ضارب ، وجاسوس بوليسي قاسٍ رخامي القلب . كان هو بروتوس * متحداً بفيدوك . ** كان شخص جافير كله يمثل الجاسوس والهجر . وكان خليفاً بمدرسة جوزيف دو ميستر *** الصوفية - التي كانت تنعش في ذلك العهد ما كان يدعى الصحف الموالية للنظام القديم موالاةً عنيدة بالتطريبات المجلجلة حول تكون العالم ان تزعم ان جافير كان رمزاً . لم يكن في ميسورك ان ترى جبينه المحجوب تحت قبعته ، ولم يكن في ميسورك ان ترى عينيه الضائعتين تحت حاجبيه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى

* لومبوس جونيوس بروتوس الزعيم الروماني الكبير الذي قاد الثورة على الملوك التاركين واقام النظام الجمهوري في رومة . واذا تأمر اولاده لاعادة التاركين لم يتردد في محاكمتهم واصدار حكم الموت عليهم .

** Vidocq مقامر فرنسي (١٧٢٥ - ١٨٢٨) انتهى الى ان يصنع مديراً للامن العام بعد ان كان ثريراً .

*** de Maistre بيلسوف ديني كان شديد التعصب لرومة ، شديد المداوة لثورة الفرنسية (١٧٥٣ - ١٨٢١)

ذقته المدفونة في ربطة عنقه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى بسديه المرتدتين الى رديه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى خيثرانته التي كان يحملها تحت ستوته . ولكن ما ان تأزف الساعة حتى تقع عينك على جين ضيق ذي زوايا ، ونظرة مشؤومة ، وذقن مهددة ، ويدين هائلتين ، وهراوة ضخمة جداً ، وقد انبثقت كلها ، فجاءةً ، من هذا الشبح ، وكأنما تنبثق من كمين .

وفي لحظات فراغه ، التي كانت نادرة ، كان من دأبه ان يطالع على الرغم من كراهيته للكتب . ومن هنا لم يكن أمياً مئة بالمئة . ذلك ما كان يلاحظ ايضاً من بعض التوكيد في حديثه .

كان في نجوة من الرذيلة ، كما قلنا . فاذا ما استشعر الرضا عن نفسه أمتعها بقبضة من السموط ، وهذا ما اثبت انه كان بشرياً .

ولسوف ندرك ، في غير عسر ، ان جافير كان « بعبعاً » لجميع افراد تلك الطبقة التي تدرجها احصاءات وزير العدل السنوية تحت عنوان : « اناس منشدون » . كان مجرد النطق باسم جافير كافياً لأن يحمل اولئك جميعاً على الفرار ، كأنّ وجه جافير يحجرهم تحجييراً .

كذلك كان هذا الرجل الرهيب .

كان جافير اشبه بعين مهددة أبداً الى ميسو مادلين . عين مفعمة بالشك والظنون . ولاحظ ميسو مادلين ذلك ، آخر الامر ، ولكنه بدا وكأنه لم يأبه به . إنه لم يواجه أيما سؤال الى جافير ؛ إنه لم يلتصقه ولم يجتنبه . لقد تحمل هذه النظرة البغيضة ، الموشكة ان تكون ثقيلة الوطأة ، من غير ان يبدو منتبهاً لها . لقد عامل جافير كما عامل اي امرئ آخر ، في طمأنينة وكرم نفس .

ومن بعض الكلمات التي نددت من جافير كان في ميسو المرء ان يحزر أنه استقصى على نحو سرّي - وبذلك الفضول الخاص - بالعرق الذي ينسب اليه ، والمنبثق من الغريزة اكثر من انبثاقه من الارادة -

جميع الآثار الساقطة التي خلفها الاب مادلين في مواطن اخرى . لقد بدا انه يعرف ، ولقد ذكر احياناً على نحو مختلف ، ان شخصاً قد جمع بعض المعلومات في منطقة ما ، عن اسرة مفقودة ما . وذات يوم اتفق أن قال ، مخاطباً نفسه : « أحسب اني امسكت به ! » وطوال ثلاثة أيام ظل مضطرب البال لم ينطق بكلمة واحدة . لقد بدا وكأن الحيط الذي حبب اليه امسك به كان مقطوعاً .

ولكن - وهذا هو التصحيح الضروري لما يمكن لعنى بعض الكلمات ان يثله حين تكون مطلقة اكثر مما ينبغي - ليس يمكن ان يكون ثقة ما هو معصوم عن الضلال ، حقاً ، في الكائن البشري ، وان خاصة الفريزة الرئيسية ، هي على وجه الضبط كونها قابلة لأن تُزعج وأن تُقتنى آثارها وان تُضلّل . ولولا ذلك لكنت اسمي من الذكاء ، وعندئذ تكون البهيمة متمنعة بنور أضفى من ذلك الذي يتمتع به الانسان .

ومع هذا فقد بدا ان ملكه العجيب ترك انطباعاً ما ، ذات يوم ، في نفس مسيو مادلين . وفيما يلي تفصيل الحادثة .

٦

الاب فوشلوفان

كان مسيو مادلين ينشئ ذات صباح في احد ازقة مونتروي سور مير غير المعبدة . فسمع صراخاً ، ورأى حشداً على مسافة قصيرة . فمضى الى هناك . كان رجل عجوز يدعى الاب فوشلوفان قد سقط تحت عربته ، بعد ان خرّ فرسه على الارض .

وكان فوشلوفان هذا واحداً من نفر القلائل الذين ظلوا اعداء لمسيو

مادلين في ذلك الحين . فحين وفد مادلين الى تلك المقاطعة ، كانت لفوشلوفان هذا ، وهو كاتبٌ عدلٌ وفلاحٌ يكاد يكون امياً ، صناعة آخذة في البوار . لقد رأى هذا العامل البسيط يصح غنياً ، على حين كان هو - الحبير العالم - بخطو نحو الافلاس . وملاهُ ذلك حُماً ، فبذل غاية جهده ، في جميع المناسبات ، لكي يؤذي مادلين . ثم كان الافلاس ؛ واذا لم يبق للرجل العجوز غير عربة وفرس ، واذا لم تكن له اسرة وأولاد ، فقد اضطرَّ الى ان يكسب رزقه بوصفه سائق عربة .

لقد كسرت هذا الفرس ، فلبس في ميسوره ان يتحرك . وعلق الرجل العجوز بين العجلات . وكانت سقطته ، لسوء الحظ ، على نحو جعل الثقل كله منصّباً على صدره . كانت العربة مثقلة بالاحمال ، وكان الاب فوشلوفان يُطلق حشرجة موجعة . كانوا قد حاولوا سحبه ، ولكن على غير طائل . ان الجهد الذي يعوزه النظام ، والعون الذي تموزه البراعة ، والدفعه التي لا يحالفها الصواب قد تجهز عليه . كانت من المتعذر إنقاذه إلا برفع العربة من أدنى . وكان جافير ، الذي اقبل في اللحظة التي وقع فيها الحادث ، قد ارسل في طلب رافعة من رافعات الاثقال .

ووصل ميسو مادلين . وارتد الحشد في احترام .

وصاح فوشلوفان العجوز :

« النجدة ! اليس فيكم فقيّ صالح ينقذ حياة رجل عجوز ؟ »

والتفت ميسو مادلين الى حشود النظارة :

« هل عند احد منكم رافعة ؟ »

فأجاب احد الفلاحين :

« لقد ارسلنا في طلب واحدة . »

« ومتى سوف تصل الى هنا ؟ »

« لقد طلبناها من اقرب مكان - من « فلاستر » حيث يوجد حداد

ولكن لن تصل قبل ربع ساعة او اكثر ، على كل حال .
فصاح مادلين :

- « ربع ساعة ! »

كان المطر قد هطل الليلة البارحة ، وكانت التربة دمتة لينة ، فاذا بالعربة تسيخ في الارض ، اكثر فأكثر ، لحظة اثر لحظة ، واذا بها لا تزداد إلا ضغطاً على صدر السائق العجوز . كان واضحاً ان اضلاعه سوف تسحق في اقل من خمس دقائق .

فقال مادلين مخاطباً الفلاحين الذين كانوا يشهدون المأساة :

- « ليس في استطاعتنا ان ننتظر ربع ساعة . »

« يتعين علينا ان نفعل . »

- « ولكن الاوان يكون قد فات ! الا ترون ان العربة تسيخ

اكثر فأكثر ؟ »

- « لا حيلة لنا في ذلك . »

فاستأنف مادلين القول :

- « إسمعوا ! لا يزال ثمة مدسع ، تحت العربة ، يمكن رجلاً ما

من ان يزحف الى هناك ويرفعها بظهره . وفي نصف دقيقة يكون في

إمكاننا ان نخرج الرجل البائس . اليس فيكم رجل ذو قوة وشجاعة ؟

خمس ليرات ذهبية لمن يتقدم ! »

ولم يتحرك احد من افراد الحشد .

وقال مادلين :

« عشر ليرات ذهبية ! »

وخفض القوم ابصارهم . وغمغم احدهم قائلاً :

- « ينبغي ان يكون المرء قوياً الى حد شيطاني . ومع ذلك فقد

يعرض جسده للسحق . »

فقال مادلين :

- « هيا ! عشرون ليرة ذهبية ! »
روان الصمت ، شأنه في المرة الأولى .
وقال صوت :

- « لبت الرغبة هي التي تعوزهم . »
والتفت مادلين ، فوقع بصره على جافير . لم يكن قد وآه حين
أقبل .

وتابع جافير كلامه :
-- « إنها القوة . ينبغي ان يكون المرء رجلاً فطبعاً حتى يتمكن
من ان يرفع على ظهره عربة مثل هذه .
ثم انه سدد نظراته الى مسيو مادلين ، وأضاف مؤكداً كل كلمة
من كلماته :

- « مسيو مادلين ، انا لم اعرف قطّ غير رجل واحد قادرٍ على
ان يفعل ما تدعو اليه . »
وارتعد مادلين .

واردف جافير ، في انطباعة لامبالية ، ولكن من غير ان يرفع
عينيه عن مادلين :

- « كان واحداً من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »
فقال مادلين :

- « آه ! »

- « في السجن الخاص هؤلاء ، في طولون . »
وغدا وجه مادلين شاحباً .

وفي غضون ذلك كانت العربة تسبح شيئاً فشيئاً . ومدر الاب
فوشلوفان وصاح :

- « لاني أختنق ! إن اخلاعي تتحطم ! إيتوني براقة اثنال !
إيتوني بأي شيء ! اوه ! »

واجال مادلين بصره في ما حوله :
- « ليس هناك اذن شخص يرغب في ان يكسب عشرين ليرة ذهبية ،
وينقذ حياة هذا الرجل العجوز البائس ؟ »
ولم يتحرك احدٌ من النظارة . واستأنف جافير كلامه :
- « انا لم اعرف قط غير رجل واحد كان يقدر على ان يحمل "محل"
رافعة أثقال . كان هو ذلك المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . »

وصاح الرجل العجوز :
- « اوه ، إنها تسعني ! »
ورفع مادلين رأسه ، فألقى عين جافير الصقرية ما تزال مسددة اليه .
ونظر الى الفلاحين المستمرين في اماكنهم ، وابتسم ابتسامة حزينة . ثم
إنه ركع ، من غير ان ينبس بكلمة . وحتى قبل ان يجد الحشد متسعاً
من الوقت لاطلاق صيعة ، أمسى تحت العربة .
كانت لحظة رهيبة من التوقع والصمت .

لقد شوهد مادلين ، منبطحاً على بطنه تقريباً تحت هذا الثقل المخيف ،
بمحاول مرتين ان يجمع ما بين مرفقيه وركبته ، ولكن على غير
طائل . وصاح القوم :

- « ايها الاب مادلين ! اخرج من هناك ! »
وقال فوشلوفان العجوز نفسه :
- « مسيو مادلين ! اذهب من هنا ! لا مفر من الموت ؛ انت
ترى ذلك . دعني وشأني . اخشى ان تسحقك العربة انت ايضاً ! »
ولكن مادلين لم يجب .

وحبس النظارة انفسهم . كانت العجلات لا تزال نسيخ في الارض ،
وكان قد غدا شبه متعذر على مادلين ان يخرج من تحت العربة .
وفجأة ، أجفل الحشد الضخم . لقد ارتفعت العربة في بطنها ، وشرعت
العجلات تخرج من مغارزها . وسمع صوت مختنق يصيح :

« عجلوا ! ساعدوا ! »

كان صوتَ مادلين الذي بذل في تلك اللحظة جهداً نهائياً .
واندفعوا كلهم الى العمل . كان في التفاني الذي اظهره رجل فرد
ما أوقع القوة والشجاعة في نفوس الجميع . وتعاونت عشرون ذراعاً على
رفع العربة . ونجا فوشلوفان العجوز .

ونفض مادلين . كان شديد الشجوب ، برغم انه كان يتصبب عرقاً .
ركنت ملابسه ممزقة يعلوها الطين . وبكى القوم جميعاً . وقبل الرجل
العجوز ركبتيه ، ودعا « الرب الطيب » . أما هو فكانت تملو وجهه
انطباعاً من الألم المبتهج ، السماوي لا أقدر على وصفها . وستر عينه
المادة على جافير الذي كان لا يفتأ يراقبه .

٧

فوشلوفان يصبح بستانياً في باريس

كان فوشلوفان قد كسر رُضفته * اثر سقوطه تحت العربة . فنقله
الاب مادلين الى دار للرضى كان قد انشأها لعماله في بناء مصنعه نفسه ،
وعهد في شؤونها الى اثنتين من راهبات المحبة . وفي صباح اليوم التالي
وجد الرجل العجوز ، على الطاولة القائمة الى جانب سريره ورقة ، نقدية من
فئة الالف فرنك ، وهذه الكلمة مكتوبة بخط الاب مادلين :

« إني اشتري منك عربتك وحصانك . »

كانت العربة ممشة ؛ وكان الحصان ميتاً . ونعم فوشلوفان بالشفاء .
ولكن ركبته ظلت متصلبة . ووفق مادلين - من طريق توصيات
حصل عليها من الراهبات ومن الكاهن - الى ان يقين الرجل العجوز

* الرضفة : عظام الركبة .

بستانياً في دير للراهبات في حيّ سان انطوان بياريس .
وبعد ذلك بقليل ، عُيّن مسيو مادلين عمدة . واول ما رأى جافير
الى مسيو مادلين متقلداً الرشح الذي يمنحه السلطة المطلقة على المدينة ،
استشعر مثل تلك الرعدة التي يجدر بكلب من كلاب درتواس ان
يتشعرها حين يتروح ذئباً في ثياب سيده . ومن ذلك الحين انشأ
يحتبه ما استطاع . فاذا ما حثت ضرورات المصلحة الاتصال بالسيد
العمدة ، فلبس من سبيل الى التفادي من ذلك البتة ، تحدث اليه في
احترام عميق .

وكانت للازدهار الذي خلقه الاب مادلين في مونتروي سور مير -
بالاضافة الى آياته المنظورة التي اشرقا اليها - مظهر آخر غير منظور ،
ولكنه ليس اقلّ شأنًا وخطراً . وهذا المظهر لا يخدع المرء عن نفسه
ابداً . فعين يتألم السكان ، وحين يطلبون العمل فلا يجدونه ، وحين
تصاب التجارة بالكساد ، يقاوم المكلف الضريبة ، بحكم الفاقة ، ويستنفد
المهمل القانونية ويتخطاها ، وتضطر الدولة الى ان تنفق اموالاً طائلة على
جباية الضرائب وعلى تحصيلها عنوةً من المكلفين . اما حين يكون
العمل موفوراً ، وحين يكون البلد غنياً سعيداً فعندئذ تدفع الضرائب
في بُسر ، ومن غير ان تنفق الدولة مالاً كثيراً في جبايتها . وفي
ميسورنا القول ان للفقير والثروة العاميين ميزاناً لا يخطيء ، هو نفقات جباية
الضرائب . وخلال سبع سنوات تُخفّضت نفقات جباية الضرائب في
اقليم مونتروي سور مير الى ربع ما كانت عليه من قبل ، بما جعل
كثيراً من المسؤولين - وبخاصة مسيو دو فيليل وزير المال آنذاك
يكتفون من الاشارة الى ذلك الاقليم والاشهاد به .

تلك كانت حال المنطقة عندما رجعت فانتين اليها . ان احداً لم
يتذكرها . ومن حسن الطالع ان باب مصنع مسيو مادلين كان اشبه
بوجه صديق من الاصدقاء . لقد شخصت الى هناك ، فألحقت بالمصنع

الخاص بالنساء . كان العمل جديداً عليها ، تماماً ؛ فلم يكن في مسورها ان تبوع فيه براعةً كبيرة ، ومن هنا لم نوفق الى ان تفوز بأكثر من تعويض ضئيل عن عملها اليومي . ولكن ذلك التعويض الضئيل كان يكفيها . لقد حلت المشكلة ؛ فهي تكسب رزقها .

٨

مدام فيكتورين

تنفق خمسة وثلاثين فرنكاً على الاخلاق

وحين ادركت فانتين انها ضمنت رزقها عرفت لحظة من الابهتاج . أي نعمة من السماء ان تكسب قوتها بعرق جبينها ! وعادتها الرغبة في العمل حقاً . لقد اشترت مرآة ، واهيجت نفسها بمشهد شبابها ، وشعرها الجليل ، وأسنانها الرائعة ، ونسيت اشياء كثيرة ، ولم تفكر الا بانقاذ كوزيت ، والا بأماكنات المستقبل ، وكانت سعيدة تقريباً . واستأجرت غرفة صغيرة ، واثنتها على ان تدفع نفقات ذلك من دخل عملها في المستقبل . وتلك بقية من بقايا عدم التنظيم الذي تعودته من قبل .

واذ لم يكن في وسعها ان تقول انها كانت متزوجة ، فقد عذبت اشد العناية ، كما ألمعنا سابقاً ، بأن لا تتحدث عن بناتها الصغيرة .

وفي البدء ، كما رأينا ، كانت تبعث الى تيناردييه وزوجته بالمبلغ المتفق عليه تماماً . واذا كانت لا تحسن غير توقيع اسمها فقد اضطرت الى ان تستكتب واحداً من الكتاب المرميين .

كانت تبعث اليها بالرسائل بين الغينة والغينة ؛ ذلك ما لاحظته

الناس . وشرعت العاملات في قسم النساء يتهامن بأن فانتين و تكتب رسائل ، وان « لها مسالك غريبة » .

وليس أقدر على ترصد أعمال الناس من أولئك الذين لا تعينهم تلك الأعمال . « لماذا لا يرجع هذا الرجل الا بعد العسق ؟ » « لماذا لا يستغني عن مفتاحه يوم الخميس ابدآ ؟ » « لماذا يسلك الطرق الفرعية دائماً ؟ » « لماذا تغادر هذه السيدة عربتها ، دائماً ، قبل ان تصل الى المنزل ؟ » « لماذا تبعث من يشتري لها دفترآ من ورق الرسائل على حين تمليء حقيبتها بذلك الورق ؟ » الخ . الخ . وهناك أناس لا يحجبون - لكي يحلوا هذه الاحاجي التي هي برغم ذلك غير ذات اهمية البتة بالنسبة اليهم - عن ان ينفقوا مالآ اكثر ، ويضيعوا وقتآ اكبر ، ويحشروا أنفسهم عناءً اعظم من ذلك الذي يقتضيه القيام بعشرة اعمال صالحة ، يفعلون ذلك بالجحان ، لمجرد الذة ، ومن غير ان يقبضوا ثمن فضولهم شيئآ غير الفضول . انهم يتعقبون هذا الرجل او تلك المرأة ايامآ بكاملها ، ويقفون موقف الحرس ساعات بطولها في زوايا الشارع ، تحت ابواب الازقة ، في موهن من الليل ، وقد استبدت بهم البرد واصابهم المطر ، ويرشون الرسل ، ويسكرون سائقي العربات والخدم ، ويدفعون الاجور الى احدى الخادومات ، ويشترىون احد البوابين . من اجل ماذا ؟ للاشيء . مجرد توق الى النظر ، الى المعرفة ، الى النفاذ الى الاشياء . مجرد رغبة عاومة في القال والقليل . وكثيرآ ما يؤدي الكشف عن هذه الامرار ، ونشر هذه الحقايا ، وبسط هذه الاحاجي في وضع النهار الى كراوت ، الى مبارزات ، الى افلاسات ، الى خراب أمر ، الى إسقاء نفوس ، ليغتبط اعظم الاغتيباط أولئك الذين اكتشفوا كل شيء . من غير ان تكون لهم مصلحة ما ، وبدافع من الغريزة ليس غير . شيء محزون !

وبعض الناس تأنيهم النزعة الى الشر من مجرد حاجتهم الى الكلام .

إن حديثهم ، وإن سهرهم في الصالونات ، وإن ثوبتهم في غرف الانتظار هي أشبه ما تكون بتلك المواقف التي تستنفد الحطب على نحو مربع .
إنهم في حاجة الى مقدار كبير من الوقود . وما ذلك الوقود غير جارهم .
وهكذا أخضعت فانتين للرقابة .

والى هذا ، فإن غير واحدة كانت تحدها لشعرها الاشقر واسنانها البيضاء .

ولقد روى بعضهم انها كثيراً ما كانت تشيح بوجهها ، في المصنع ،
وقد تخلقت النسوة من حولها ، لكي تكفكف عبرة من عبراتها .
تلك كانت اللحظات التي فكّرت فيها بابنتها . ومن يدري ، فقد
تكون فكرت في تلك اللحظات بالرجل الذي سبق لها ان احبه ايضاً .
إنها لهمة فاجعة تلك التي تقتضي المرء ان يقطع صلات الماضي القاعة .
لقد اقيم الدليل على انها كانت تكتب مرتين في الشهر ، على الاقل ،
وتوجه تلك الرسالة الى العنوان نفسه دائماً ، وانما كانت تدفع اجرة البريد
سلفاً . ووقفت النسوة الى معرفة العنوان : « مسيو ، مسيو تينارديه ،
صاحب فندق ، في مونفيرماي . » وكان الكاتب العمومي ، وهو رجل
عجوز ساذج ما كان قادراً على ان يلاّ معدته بالبيد من غير ان يُفرغ
جيبه من الاسرار ، قد أغري بافشاء ذلك في حانة من حانات الحمر .
وبالاختصار ، فقد عُرف ان لفانتين ولدأ . « ينبغي ان تكون من
ذلك النوع من النساء » . ولقد وُجدت امرأة ثائرة قصّدت الى
مونفيرماي ، وتحدثت مع تينارديه وزوجته ، حتى اذا رجعت قالت :
« لقد دفعت خمسة وثلاثين فرنكاً فوفقت على جلبه الامر . لقد
رأيت الطفلة بعيني ! »

وكانت المرأة الفضولية التي فعلت ذلك عجوزاً ندعى مدام فيكتورينين ،
الحارسة فضيلة كل انسان ، الموكلة بالمحافظة عليها . كانت مدام
فيكتورينين في السادسة والخمسين ، وكانت ترندي قناع الشبوخة فوق

قناع البشاعة . كان صورتها يرتجف ، وكانت أهواؤها متقلبة . والواقع ان هذه المرأة العجوز كانت في يوم من الايام شابة - شيء عجيب حقاً . وفي صباها ، وفي قلب عام ٩٣ ، تزوجت راهباً قرّاً من الدير بقلنسوة حمراء ، وانتقل من البوناوديين * الى البعقوبيين ** . كانت مهزولة ، عنده ، فظة ، نزقة ، شائكة ، تكاد تكون سامة . انها لم تنس قطّ راهبها ، التي كانت ارملة ، والذي كان يعاملها في قسوة وغلظة . كانت 'قرّاصاً' فتنة ثوب راهب . وبعد سقوط نابوليون ، غدت مطرقة في التقوى ، وكان تطرفها هذا حماسياً الى درجة حملت الكهنة على ان يغفروا لها حكايتها مع الراهب . وكان لها ملك صغير ، اوصت به - في كثير من الطنين والرنين - لاهدى الرهبانيات الدينية . وكانت تتمتع بمكانة مرموقة في قصر الاسقفية في آراس . ان مدام فيكتورين هذه ، اذن ، قصدت الى مونفيرماي ، ثم رجعت قائلة : « لقد رأيت الطفلة بعيني . »

واستغرق ذلك كله بعض الوقت . وكانت فانتين قد سلخت مـ يزيد على عام في المصنع عندما تقدّمت نحوها ناظرة المصنع ودفعت اليها ، باسم العمدة ، خمسين فرنكاً ، قائلة لها ان المصنع لم يعد في حاجة اليها ، داعية اياها - باسم العمدة ايضاً - الى مغادرة المنطقة .

وانما وقع هذا في ذلك الشهر عينه الذي طالب فيه تيناوديه وزوجته بخمسة عشر فرنكاً بدلاً من اثني عشر ، بعد ان سبق لها ان فازا باثني عشر فرنكاً بدلاً من ستة فرنكات .

وُصفت فانتين . لم يكن في مستطاعها ان تغادر المنطقة . فقد كان عليها ان تدفع الدين المستحق عليها من أجر الغرفة وعن الاثاث ، وما

* البرنارديون Bernardines رهبانة دينية تسب الى القديس برنارد (١٠٩١ - ١١٥٣) .

** البعقوبيون او الباغية Jacobins حزب ثوري شهير كان يعقد اجتماعاته في دير

الباغية القديم في باريس . وقد لعب الباغية دوراً كبيراً في الثورة الفرنسية .

كانت المحزون فرنكاً لتغطي ذلك الدين . وتحتاج صوتها بوضع كلمات متوسلة . فأفهمتها الناظرة ان عليها ان تغادر المصنع في الحال . والى هذا فلم تكن فانتين الا عاملة من درجة متوسطة . فما كان منها إلا ان غادرت المصنع ، يفرها الحبل اكثر مما يفرها اليأس ، ورجعت الى غرفتها . لقد أصبحت خطيئتها معروفة عند الجميع !

ولم تزانس في نفسها القدرة على ان تتطرق بكلمة . ولقد أشير عليها بأن تقابل العمدة . ولكنها لم تجرؤ . لقد أعطاها العمدة خبير فرنكاً ، لأنه كان خبيراً ؛ وطردها من المصنع لانه كان مستقيماً . لقد اذعنت لذلك القرار .

٩

نجاح مدام فيكتورين

واذن فقد صلحت ارملة الراهب لشيء . ولم يعرف مسيو مادلين بشيء من ذلك كله . وذلك مصادفات تحفل بها الحياة . فقد كان من عادة مسيو مادلين ان لا يدخل الجناح النسوي من المصنع الا في النادر النادر .

لقد أقام على رأس هذا الجناح عائناً اقترح الكاهن اسمها عليه ؛ وكان له كامل الثقة في هذه الناظرة المهيبة حقاً ، الرصينة ، المنصفة ، النزيهة ، العامر صدرها بالرحمة التي تقوم على اساس من العطاء ، اكثر مما هو عامر بتلك الرحمة التي تقوم على التفهم والصفح . لقد فوّض مسيو مادلين كل شيء اليها . وان خير الناس ابضطرون في بعض الاحيان الى ان يُنبيوا عنهم من يباشر سلطتهم . وهذا السلطان المطلق ، وعلى اساس من الايمان بأنها تأتي عملاً حسناً ، صاغت ناظرة

المصنع الانهام ، وحاكت فانتين ، وادانتها ، ونفذت حكمها فيها .
أما الحسنون فرنكاً فقد قدمتها اليها من اعتماد كان مسير مادلين
اودعها إياه للتصدق على الموزات ومد يد العون الى العاملات ، من
غير ان يسألها عنه حساباً .

وحاولت فانتين ان تكسب رزقها من طريق الخدمة في بيوت
المنطقة . . لقد طرقت ابواب المنازل باباً اثر باب . ولكن احداً لم يكن
راغباً فيها . وما كان في ميسورها ان تغادر البلدة . ذلك بان تاجر
الامتعة المستعملة الذي كانت مدينة له بشئ أثاثها ، وبأله من اثاث ،
قال لها : « اذا رحلت فسوف أعمل على القاء القبض عليك برصفك
لصّة . » وبأن المالك الذي كانت مدينة له بأجر غرفتها قال لها :
« انتِ نضرة العود بية الطلعة ، وفي ميسورك ان تدفعي . » وقسمت
الحسين فرنكاً بين المالك والتاجر ، واعادت الى هذا الأخير ثلاثة ارباع
بضاعته ، مبقية ما هو ضروريّ ليس غير ، فاذا بها تجد نفسها من
غير عمل ، ومن غير منزلة ، واذا بها تجد نفسها ولم يبق لها ما
تملكه غير سريرها ، ولا يزال عليها دينٌ يبلغ نحواً من مئة فرنك .

وبدأت تصنع قصائناً خشنة لجنود الحامية ، كاسبةً بذلك اثني عشر
« سو » يومياً . كانت ابنتها تكلفها عشرة . وفي هذه الفترة بالذات
شرعت تقصر في أداء ما عليها الى تيناردييه وزوجته في ميقاته المحدد .
وايأ ما كان ، فان المرأة العجوز التي كانت تضيء شمعها لها حين
ترجع الى غرفتها بعد ان يسط الليل علتبتها فنّ الحياة في غمرة البؤس .
فروء العيش على القليل ، يقوم العيش على لا شيء . انها غرفتان : الاولى
مظلمة ، والثانية حالكة السواد .

وتعلّمت فانتين كيف تستغني عن نار الشتاء استغناء تاماً ، وكيف
تتخلّى عن طائر يأكل من الذرة البيضاء ما قيمته ربع « سو » كل
يومين ، وكيف تصنع من تنوونها الداخلية لحافاً ، وكيف تصنع من

لحافها تنورة داخلية ، وكيف توفر شمعتها بأن تتناول طعامها على الضوء المنبعث من النافذة المقابلة . ان افراداً قلائل يعرفون كم يستطيع بعض المخلوقات الضعاف الذين شابوا على العرمان والامانة ان ينتزعوا من الفلس الواحد . وانما ينتهي ذلك الى ان يصبح مرهبة . ولقد اكتسبت فانتين هذه المرهبة الرفيعة ، واستعادت شجاعتهما بعض الشيء . وفي تلك الفترة قالت لاحدى جاراتها :

— « عجيب ! إني اقول لنفسي : اذا لم أتم غير خمس ساعات ، واذا اشغلت طوال الساعات الباقية في خياطة الثياب ، فعندئذ استطع أن أكب دائماً ما يقيم أودي ، أو يكاد . وفوق هذا ، فحين يكون الانسان محزوناً يكون استهلاكه من الطعام اقل . وأياً ما كان ، فان الالم والقلق ، وان قليلاً من الحزن في يد ، وقبضة من الاحزان في يد — كل ذلك سوف يبقيني على قيد الحياة . »
وفي محنتها تلك كان خليقاً بابنتها ، لو كانت الى جانبها ، أن تدخل على فؤادها سمادة عجيبة . وفكرت في أن تبث في طلبها . ولكن ماذا ؟ أتريد أن تقاسمها حرمانها ؟ وإلى هذا ، فهي مدينة لتيناردييه وزوجته . وكيف السبيل الى ان تقيها دينها ؟ والسفر ؟ كيف السبيل الى ان تدفع نفقاته ؟

وكانت العجوز التي اعطتها ما يمكن ان يدعى دروساً في حياة الفقر امرأة تقية ، تدعى مارغريت . امرأة ورعة ورعاً حقيقياً ، فقيرة ، محنة الى الفقراء ، ومنحمة الى الاغنياء ايضاً ، عارفة من الكتابة ما يمكنها من ان توقع « مارغريت » ، مؤمنة بالله ، وذلك هو العلم .

إن ثمة كثيراً من هذه الفضائل في المواطن الدنيا . وسوف تصبح ذات يوم في المواطن العليا . فلهذه الحياة غدٌ .

وفي بادئ الامر ، كانت فانتين تستعمر الجبل الى حد جعلها لا تجرؤ على مغادرة غرفتها .

وكانت اذا خرجت الى الشارع تتخيل ان الناس يتلفنون خلفها ويومنون اليها . لقد نظر اليها كل إنسان ، ولكن احداً لم يلقَ عليها السلام . لقد نفذ ازدراء عابري السبيل الحاد البارد الى جسدها وروحها وكأنه ربيع شمالية .

وفي المدن الصغيرة يبدو وكأن المرأة النعنة تقف عارية أمام نهمك الجميع ، وفضول الجميع . ففي باريس ، على الاقل ، لا يعرفك أحد ، وهذه الظلمة وقاء لك وستر . أوه ! كم قد تافت الى الذهاب الى باريس ! متعب !

والحق انه تعين عليها ان تتعود الاحتقار كما تعودت الفقر . شيئاً بعد شيء حفظت دورها . وبعد شهرين أو ثلاثة ، انقضت عنها العار وعادت الخروج من غرفتها وكأنها لم يكن شيء . لقد قالت في ذات نفسها : « لست أبالي بعد اليوم . » وطفقت تروح وتجيء ، رافعة رأسها ، مبتسمة ابتسامة سريرة ، شاعرة بأن ماء الحياء عندها قد بدأ يجف .

ورأتها مدام فيكتورينين أحياناً غمرت بنافذتها ، ولاحظت شقاء هذه المخلوقة ، التي أعيدت ، - بفضلها - الى مكانها . وهناك نفسها بذلك . إن للشمريرين سعادة سوداء .

وارفق العمل الموصول صحة فائتين ، وازداد سعالها الجاف الضئيل . ولقد قالت ذات يوم لجارتها مارغريت :

- « انظري ما أشد حرارة يدي » .

ومع ذلك ففي الصباح ، حين كانت تسرح بمشط عتيق مكسور شعرها الجميل الذي ينساب في أمواج حريرية ، كانت فائتين تستمتع بلحظة من لحظات السعادة .

عاقبة النجاح

كانت قد فصلت من العمل في أواخر الشتاء . وتقتضى الصيف .
ولكن الشتاء أقبل من جديد . أيام قصار ، وعمل أقل . وفي الشتاء
ليس ثمة دفء ، ولا نور ، ولا ظهر . إن الماء ليلاص الصباح ،
وإن ثمة ضباباً ، وغسقاً ، ونوافذ مريضة ، فليس في ميدورك ان
توى في وضوح . إن السماء في الشتاء لا تمدو ان تكون باب مغارة ؛
والنهار كله هو المغارة . إن سماء الفقر لتبدو على وجه الشمس . فصل
خفيف ! إن الشتاء ليحيل ماء السماء وقلب الانسان الى حجارة .
وأبومها دائئوها .

كانت فانتين تكسب أقل مما ينبغي . وكانت ديوها قد تضخت .
وامطرها تيناردييه وزوجته بعد أن قصرت عن دفع المال اليها -
برسائل متلاحقة فطورت محتوياتها فؤادها ، واستنفدت نفقاتها البريدية آخر
درهماتها . وذات يوم ، كتب اليها ان صغيرتها كوزيت ليس عندها
شيء من الملابس تستعين به على برد الشتاء ، وانها في حاجة الى تنورة
من الصوف ، وان على امها ان تبعث اليها بعشرة فرنكات على الاقل
في هذه السبيل . لقد تلقت الرسالة ، وراحت تسحقها بيديها طوال
النهار . حتى اذا هبط الليل شخصت الى دكان حلاق عند زاوية الشارع ،
ونزعت مشطها ، فتدلى شعرها الاشقر الرائع حتى خصرها .

وصاح الحلاق :

« يا له من شعر جميل ! »

فقالت :

« كم تدفع اليّ فيه ؟ »

- « عشرة فرنكات . »

- « قصة . »

واشتت تنورة مزرودةً وبعثت بها الى تيناردويه وزوجته .
وانثارت هذه التنورة غضب الزوجين . كان المال هو طلبتها .
وقدّما التنورة الى ايبونين . وظلت القبرة المسكينة ترتجف .
وقالت فائتين في ذات نفسها : « ان ابنتي لم تعد تعاني البؤس .
لقد ألبستها من شعري ثوباً . » واعتمرت قلنسوة صغيرة مستديرة غطت
رأسها المجزوز . وبرغم ذلك ، فقد ظلت جميلة .
واعتملت في فؤاد فائتين لواعيج مظلمة .

فحين رأت انه لم يعد في ميسورها ان تسرح شعرها شرعت تنظر
في كراهية الى كل ما حولها . كانت قد شاطرت القوم ، منذ زمن
بعيد ، حبهم العظيم للأب مادلين ، ولكنها بحكم تكرارها لنفسها انه
هو الذي طردها من العمل ، وانه هو سبب شقاءها ، ما لبثت ان
أبغضته هو ايضاً ، هو بخاصة . كانت اذا ما اجتازت بالمضجع حين يكون
العمال لدى الباب ' تكره نفسها على ان تضحك وتغني .

وذات يوم وأنها عاملة عجوز تغني وتضحك على هذه الشاكلة فقالت :
- « وهنا فتاة سوف تنتهي الى نهاية سيئة . »

واتخذت لها خليلاً ؛ كان هو الواصل الاول . إنها لم تحبّه ولكنها
عاشرته بدافع من التبعج والمباهاة الفارغة ، وقد عصفت الحنق بفؤادها .
كان رجلاً شقيّاً - شبه موسيقي منسول - رجلاً كسولاً ذا أظفار
بالية ، اوسمها ضرباً ، ثم هجرها ، اذ كانت قد عاشرته في اشمزاز .
كانت تعبد ابنتها .

وكلما أمعنت في الانحدار ، وكلما ازداد جميع ما حولها إظلاماً ،
تعاظم اشراق هذا الملاك الصغير المذب في فؤادها . وقالت : « حين
أصبح غنية سوف أبقى حبيبتى كوزيت الى جاني . » وضحكت . ان

السعال لم يفاوقها ، وان جسدها ليتصبب في الليل عرفاً .

و ذات يوم تلقت من تيناردييه وزوجته رسالة تقول : « كوزيت مصابة بمرض من الامراض الوبائية . إنها الحمى العسكرة ، كما يدعونها ، والادوية الضرورية غالية جداً . ان ائمانا نكاد نفلنا ، ولبس في استطاعتنا بعد ان نشترها . وما لم تبقي الينا بأربعين فرنكاً في خلال اسبوع فإن الصغيرة سوف تقضي نحبها . »

وانفجرت بالضحك ، وقالت لجارتها المعجوز :

— « اوه ، إنها طيبان ! اربعون فرنكاً ! فكثري في هذا ! يعني ليرتين ذهبيتين ! من اين يجبان اني استطيع الحصول على هاتين الليرتين ؟ أهما مجنونان ؟ هذان الفلاحان ؟ »

ومع ذلك ، فقد مضت الى السلم ، قرب احدى الكوى ، وأعدت تلاوة الرسالة من جديد .

ثم انها هبطت السلم ، وغادرت المنزل راكضةً واثبةً ، وهي لا تزال تضحك .

والتقاها بعضهم فقال لها :

« ماذا الذي يحملك على ان تكوني مبتهجةً الى هذا الحد ؟ » فاجابته قائلة :

— « نكتة بلهاء بعث بها الي بعض اهل الريف منذ لحظة . انهم يطالبونني بأربعين فرنكاً ! يا لهم من فلاحين ! »

وفما هي تجوز بالساحة وأت جمهرة من الناس محتشدة حول عربة ذات شكل غريب وقد وقف في اعلاها خطيب يرتدي ملابس حمراء . كان مشعوداً يليه الناس بأعمال الرشاقة وطبيب اسنان متجولاً ، وكان يعرض على الجمهور مجموعات كاملة من الاسنان ، وضروب المعاجين ، والذرور ، والادوية الكحولية السائلة .

وانضمت فانتين الى الحشد ، وانشأت تضحك مع سائر القوم على

هذا الخطاب الذي اختلطت فيه العامية الموجهة الى الرعاع ، بالرواثة الموجهة الى اصحاب الرجاعة . ورأى قالع الاسنان هذه الفتاة الجميلة الضاحكة ، وصاح فجأة :

- « ان لك اسناناً رائعة ، ابتها الفتاة الضاحكة هناك ! إذا بعثني سننك القاطعتين أعطك ليرة ذهبية مقابل كل منها . »
فسأله فانتين :

- « ما هذا ؟ ما هما سنن القاطعتان ؟ »

فاستطرد استاذ طب الاسنان قائلاً :

- « السنن القاطعتان هما السنن الاماميتان ، السنن الاماميتان

من الفك الأعلى . »

فصاحت فانتين :

- « يا لافظاعة ! »

فدمدمت عجزوا لا اسنان لها كانت واقفة هناك :

« ليرتان ذهبيتان ! ما اسعدها واعظم حظها ! »

ورلت فانتين فراوا ورضعت بعض اصابعها في اذنيها لكي لا

تسمع صوت الرجل الابح الذي كان يناديها صائحاً :

- « فكّري ، ابتها الحناء ! ليرتان ذهبيتان ! ما اعظم الخدمة

التي تستطيعان اسداءها اليك ! اذا آنست في نفسك الجرأة على ذلك

فتعالى الليلة الى فندق « تيلاك دارجان » . انك سوف تجدينني هناك . »

ورجعت فانتين الى غرفتها . كانت هائجة غصبي ، وقد روت القصة

لجاوتها الطيبة ماوغريت :

- « هل تفهمن هذا ؟ أليس هو رجلاً فظيماً ؟ لماذا يجيئون لمثل

هؤلاء الناس ان يطوفوا في البلاد ؟ ان اخلع سنن الاماميتين !

ولكن ، سوف أبدو مخيفة عندئذ ! ان الشعر ينمو من جديد ، أما

الاسنان ! اوه ، يا له من رجل وحش ! اني افضل ان ألقى بنفسي

من الدور الخامس الى بلاط الشارع ! لقد قال لي انه سوف يكون ،
الليلة ، في الـ « تيلاك دارجان . »

فألتهما مارغريت :

— « وماذا عرضَ مقابل ذلك ؟ »

— « ليوتين ذهبتين . »

— « يعني اربعين فرنكاً . »

فقالت فانتين :

— « أجل ، انها تساويان اربعين فرنكاً . »

ولازمها القلق ، وانصرفت الى عملها . وبعد ربع ساعة تركت ما
كانت تخبطه ، ومضت الى السلم لتعاود تلاوة الرسالة التي تلقتها من
تيناردية وزوجته .

حتى اذا رجعت ، قالت لمارغريت التي كانت تعمل الى جانبها :

— « ما هي هذه الحمى العكسية ؟ هل تعرفين ؟ »

فأجابته العانس :

— « نعم . إنها مرض . »

— « واذن ، فهي نحتاج الى كثير من الادوية ؟ »

— « نعم ، الى ادوية فظيعة . »

— « وكيف تصيب الانسان ؟ »

— « إنها مرض يصيب الانسان في لحظة . »

— « هل تصيب الأطفال ؟ »

— « انها تصيب الاطفال على الخصوص . »

— « وهل يموت الناس فيها ؟ »

فقالت مارغريت :

— « في كثير من الاحيان . »

وانسحبت فانتين ، ومضت كرة اخرى لتعيد تلاوة الرسالة ، فوق

السلم .

وفي المساء غادرت الغرفة ، متجهةً نحو « شارع باريس » حيث تقوم الفنادق .

وفي صباح اليوم التالي ، حين شغصت مارغريت الى غرفة فانتين قبل بزوغ الفجر - ذلك بأنها كانتا تعلمان دائماً معاً ، وهكذا تضيئان شمعة واحدة بدلاً من شمعين - وجدت فانتين جالسة على سريرها ، ساجدةً مثلوجة . لم تكن قد آوت الى الفراش . وكانت قلنسوتها قد سقطت على ركبتيها . كانت الشمعة قد اشتعلت طوال الليل ، وكانت على وشك ان تلفظ انفاسها الاخيرة .

ووقفت مارغريت على العتبة ، وقد اذهلتها هذه القوضى المائلة وصاحت :

« يا الهي ! لقد فئيت الشمعة . لقد حدث شيء ما . »
ثم إنها نظرت الى فانتين ، التي ادارت نحوها رأسها العاطل عن الشعر .

كانت فانتين قد كبرت عشر سنوات ، منذ الليلة البارحة .
وقالت مارغريت :

« ورحمتك ، يا رب ! ماذا دهالك ، يا فانتين ؟ »
فقالت فانتين :

« لا شيء . على العكس تماماً . إن ابنتي لن تموت بذلك المرض الفظيع نتيجةً لانعدام المساعدة . أنا مرثاة النفس . »
حتى اذا قالت ذلك أرتِ العانس الليرتين الذهبيتين اللتين التبعنا فوق الطاولة .

فقالت مارغريت :

« واه ، يا الهي ! ولكن هذه ثروة ! من ابن جث بهاتين الليرتين الذهبيتين ؟ »

فأجابتها فانتين :

- « لقد جئتُ بها . »

قالت هذا ، وابتست . واضاءت الشععة بحياتها . كانت ابتسامة
كلية ؛ ذلك بأن زاويتي فيها كانتا مخرجتين بالدماء ، وكانت فجوة
مظلمة تبدى هناك .

كانت السنان قد قلعنا .

وارسلت الاربعين فرنكاً الى مونفيرماي .

ولم تكن هذه غير خدعة من تيناردييه وزوجته . إن كوزيت لم
تكن مريضة .

وطرحت فانتين مرآتها من النافذة . كانت قد انتقلت ، منذ زمن
طويل ، من غرفتها الصغيرة القائمة في الدور الثاني الى غرفة في أعلى
البناية توصد بمزلاج تحت السقف - الى عليّة من تلك العلالي التي بشكل
سقفا زاوية مع أرضها ، والتي يصطدم بها رأسك كل لحظة . إن الفقير
لا يستطيع ان يمضي الى أقصى غرفته ، او الى أقصى قدره ، إلاّ بان
ينحني اكثر فأكثر على نحو موصول . إنها ما عادت تملك سريراً . لم
يبق لديها غير خرقة بالية دعنتها لحافاً ، وغير فراش أرضي ، وكرسي
تقطع قشته . وكانت شجرة الورد التي عندها قد جفت في إحدى
الزوايا ، وأضر بها النيان . وفي الزاوية الاخرى كان وعاء زبدية
خصص للماء ، الذي جلد في الشتاء ، وقد ظلت مختلف المستويات
التي انتهى اليها الماء واضحة المعالم ، فترة طويلة ، بدوائر من الجليد .
لقد فقدت حياءها ، وما هي ذي تفقد الرغبة في التزين . ونلك هي
الأماراة الاخيرة . أمست تغادر مأواها بقلنوة قدرة . ولم تعد تغسل
ملابسها إما بسبب من فلة الوقت وإما بسبب من اللامبالاة . وكانت
كلما تهرأت اعقاب جواربها تخفض هذه الاعقاب وتخفيها في الحذاء . وإنما
كان يتجلى ذلك ببعض التعضّات العمودية : لقد رقت مشدّها العتيق

المتهريء، مخرق من الحام كانت تتمزق عند أضال حركة . وعنفها دائئوها ولم يتركوها تروح لحظة واحدة . كانت لتلقيهم في الشارع ، وكانت لتلقيهم كرتة اخرى على سلتها . لقد انفتحت ليالي بكاملها وهي تبكي وتفكر . كانت عيناها شديدي الالتاع ؛ وكانت نحس بألم موصول في كتفها ، قرب أعلى عظم الكتف الأيسر . كانت تسعل كثيراً . وكانت تذكره الاب مادلين كرهاً عيفاً . ولم تتشك قط . لقد خاطت سبع عشرة ساعة يومياً ، ولكن احد مقاولي السجون - وكان يشغل الجناء بشن نجس - كسر السعر فجأة ، بما اسقط أجرة العامل الحرة الى تسعة « سو » في اليوم . سبع عشرة ساعة من العمل ، وتسعة « سو » في اليوم ! وغدا دائئوها اشد قوة بما كانوا في ايما وقت مضى . وكان ناجر الامتعة المستعملة الذي استرد كل أثاثه تقريباً لا يفتأ يقول لها : « متى ستدفعين اليّ ، ايها التذلة ! »

يا السهي ! اي شيء كانوا يريدون منها ان تفعله ؟ لقد استشعرت انها مطاردة ؛ وبدأ شيء من الوحش الضاري ينمو في ذات نفسها . وحوالى ذلك الوقت كتب تيناردييه رسالة اليها قال فيها إنه قد انتظر - في سماحة وكرم نفس اكثر بما ينبغي ، وان عليها ان ترسل اليه مئة فرنك في الحال ، وإلا فإنه سوف يطرد كوزيت الصغيرة ، التي نعت من مرضها الويبس ، ويقذف بها الى البرد ، الى قارعة الطريق ، وعندئذ تصبح ما تستطيع أن تصبحه ، وعندئذ تموت اذا سامت . وفكرت فائتين : « مئة فرنك ، ولكن اين المسكان الذي يستطيع الانسان ان يكسب فيه مئة « سو » في اليوم ؟ » ثم قالت :

- « حسن . سوف أبيع ما بقي لي . »
وأملت الخلوقة البائسة بنتاً من بنات الهوى .

المسيح هو مخلصنا

ما هي قصة فانتين هذه ؟ إنها قصة المجتمع يشتري أمةً رقيقة .
تمن ؟ من الشقاء .

من الجوع ، من البرد ، من الوحدة ، من التخلّي ، من الحرمان .
صفقة موجهة . نفسٌ بشرية مقابل كسرة من الخبز . الشقاء يعرض ،
والمجتمع يقبل .

إن شريعة يسوع المسيح المقدسة تهيّن على حضارتنا ، ولكنها لما
تنقذُ إليها بعد . يقولون إن الرقّ قد زال من الحضارة الاوروية .
هذا خطأ . إنه لا يزال قائماً ، ولكن المرأة وحدها تزح اليوم تحت
ثقله . وهو يدعى البغاء .

اجل ، إن ثقله ملقى اليوم على المرأة ، يعني على اللطافة ، على
الضعف ، على الجمال ، على الامومة . وليس هذا خزيّاً من مخازي
الرجل الثانوية .

وفي المرحلة التي انتهينا إليها من هذه المأساة الفاجعة ، لم يكن قد
بقي لفانتين شيءٌ مما كان لها من قبل . كانت قد امت رخاماً بعد
أن أصبحت وحلاً . فأبما امريءٌ يمسّها يشعر بقشعريرة . إنها تقضي في
سبيلها ؛ إنها تتحملك ؛ وإنها تتجاهلك . انها تحمل وجهاً كالحلأ مربلاً
بالعار . لقد قالت لها الحياة وقال لها النظام الاجتماعي آخر كلمة من
كلماتها . لقد أصابها كل ما يمكن ان يصيبها . لقد قاست كل شيء ،
وصبرت على كل شيء ، وجربت كل شيء ، وكابدت كل شيء ،
وفقدت كل شيء ، وبكت على كل شيء . إنها المذعنة لما قدّر لها ،
وإن اذعانها لبشبه اللامبالاة ، مثلما يشبه الموت الرقاد . إنها لا تجتنب

بعدُ شيئاً ، ولا نخشى بعدُ شيئاً . فليقط عليها السحاب كله ، وليغرها
 الاوقيانوس كله ! ما الذي يضرّها ؟ لقد أُسْرِبت الاسفنجة حتى الاشباع .
 لقد اعتقدت بذلك على الاقل ، ولكن من الخطأ ان نتخيل ان في
 استطاعة المرء أن يستنفد قدره ، وان يبلغ قعر اي شيء بها يكن .
 وأسفاه ! ما هي هذه الاقدار كلها المسوقة هكذا كيفما تفق ؟
 الى اين تمضي ؟ لم كانت كذلك ؟
 ان الذي يعرف ذاك يرى الظلام كله .
 انه واحدٌ أحد . ان اسمه الله .

١٢

بطالة مسيو باماتاويوا

يوجد في جميع المدن الصغيرة ، ولقد كان يوجد في مونتروي سود
 مير على الحُصْرص ، طبقة من الشبان الذين يقضون الفأ وخمسة ليرة
 من الدخل ، في الريف ، بثل الانطباعة التي يزدرد بها زملائهم ألفي
 فرنك سنوياً ، في باريس . انهم كائنات من النوع المحايذ العظيم . انهم
 خصيان ، طفيليات ، لا شيء . انهم من اولئك الناس الذين يملكون
 قليلاً من الارض ، وقليلاً من البلاهة ، وقليلاً من الظرف ، والذين
 يكونون اجلاًفاً في صالون ثم يحسبون انفسهم اشرافاً في حانة ، والذين
 يتحدثون عن « حقولي ، وغاباتي ، وفلاحي » ، والذين يصفرون لمحتلات
 المسرح ازدراءً لكي يثبتوا انهم اصحاب ذوق رفيع ، والذين يتفاخمون
 مع ضباط الحامية لكي يظهروا انهم رجال حرب ، والذين يتصيدون ،
 ويدخنون ، ويتشاءون ، ويمحتسون الخمر ، ويستنشقون السعوط ، ويلعبون
 البليارد ، ويمدقون الى المسافرين وهم ينزلون من العربة العمومية ،

ويعيشون في المقهى ، ويتعشون في الفندق ، والذين عندهم كلب يأكل العظام تحت الطاولة ، وخطيلة تضع الاطباق فوقها ، والذين يتشبثون بالفلس ، ويغالون في اتباع الازياء ، ويُعجبون بالتراجيديا ، ويزدرون النساء ، ويُبلون احذيتهم العتيقة ، ويقلدون لندن من خلال باريس ، وباريس من خلال « بون - آ - موسون » ، والذين يزدادون حماقة كلما تقدمت بهم السن ، والذين لا يشتغلون ولا يعملون صالحاً ، ولا يؤذون كثيراً .

ولو قد اقام مسيو فيلكس تولوميس في مسقط رأسه ولم يَرَ باريس قط ، اذن لكان واحداً من هؤلاء .

ولو كانوا اكثر غنى لقلنا : انهم مخشون . ولو كانوا اكثر فقراً لقلنا : انهم منشدون . والواقع انهم منطلون ليس غير ، وبين هؤلاء المتبصلين نقرأ « مضجرون » ، ونقرأ ضجرون ، وبينهم قوم حاموت ، وقوم مضحكون .

وفي تلك الايام كان الخنث يتألف من طوق قميص ضخم ، وربطة عنق ضخمة ، وساعة مثقلة بالسلاسل ، وثلاث « صدرات » تلبس احداها فوق الاخرى ، وتكون ذات الوان مختلفة ، فالحمراء والورقاء منها في الداخل ، وسترة زيتونية اللون قصيرة ذات ذيل كذنب السمكة ، وصفين من الازرار الفضية ، المزوز بعضها الى بعض ، والمرتفعة حتى الكتف ، وينطلون زيتوني ازهر لوناً ، مزدان من جهتيه بعدد من الاضلاع غير محدود ، ولكنه وتراً دائماً ، يراوح من واحد الى احد عشر وهو حدة لا يتجاوز البتة . اخف الى ذلك حذاء طويل الساق على عقبيه نعلان حديديتان صغيرتان ، وقبعة عالية الذروة ضيقة الحافة ، وشعراً مصقفاً « خصللاً خصللاً » وخيزرانة ضخمة ، وحديثاً منسقاً بنكات

* الوتر من الاعداد : العرد ، كالواحد والثلاثة والحمة وضده الشفع كالانثين والاربعة الخ .

« بونيه ، الجنسية . ولا نغفل فوق ذلك كله ، عن المهاجرين والشاربين .
ففي تلك الايام كان الشاربون شارة المدنيين ، وكان المهازات شارة
المشاة .

وكان الخنث الريفي يصطنع مهاجرين اكثر طولاً ، وشاربين اشد
ضراوة .

كان عهد النزاع بين جمهوريات اميركا الجنوبية وملك اسبانية ، عهد
صراع بوليفار * ضد موريللو . كانت القبعات ذات الحواف الضيقة
ملكية ، وكانت تدعى « موريللو » ، على حين كان الاحرار يعتبرون
قبعات ذات حواف عريضة يدعونها « بوليفار » .

وبعد ثمانية اشهر او عشرة اشهر انقضت على الاحداث التي روينها
في الصفحات السابقة ، وفي الايام الاولى من كانون الثاني سنة ١٨٢٣ ،
وذات ليلة تساقط فيها الثلج ، كان احد هؤلاء الخنثين ، احد هؤلاء
المعاطلين عن العمل ، وهو رجل « ذو رأي صائب » ، اذ كان يعتبر قبعة
من قبعات « موريللو » ويتلفع في دفء بالغ بواحد من تلك المعاطف
الضخمة التي تكهل زي العصر في فصل البود - كان هذا الرجل يتمتع النفس
بالنحرش بمخلوقة كانت تروح وتجيء ، امام نافذة مقهى الضباط ، مرتدية
ثوباً للرقص يكشف عن عنقها وكشفها وقد زينت رأسها بالرياحين .
كان الخنث يدخن ، فقد كانت تلك هي الموضة من غير ريب .

كان كلما مرت أمامه تلك المرأة فذفها ، مع بجة دخان من سيجاره ،
بملاحظة ظنها ظليفة مرحة : « ما أبشعك ! » - « انحاولين ان
تخبتيني ؟ » - « لقد فقدت اسنانك ! » الخ . الخ . وكان هذا السيد
يدعى ميو باماتابوا . ولم تجبه المرأة - وكانت شجراً حزيناً متبرجاً
يشي على الثلج جيئة وذهوباً - بل لم تلتفت اليه ، ولكنها واصلت

* قائد ورجل دولة شهير حرر فنزويلا من الحكم الاسباني واسس جمهوريتي
كولومبيا وبوليفيا . ويعرف بواشنطن اميركا الخوية .

سيرها في صمت وفي نظامية كالخلة كانت تعرضها لسخريته كل خمس دقائق مثل الجندي المُنْدَان الذي يرجع في فترات معينة تحت المحاصر * واثرت هذه اللامبالاة ، من غير شك ، حنى المتبطل ، فما كان منه الا ان افاد من احدى اللحظات التي استدارت فيها ، هشى خلفها في خطى مختلفة ، وانحنى خائفاً ضحكته ، وتناول حمنة تلج من جانب الطريق ، وسارع الى اقحامها في ظهرها بين كتفها العاريتين . وصرخت الفتاة في حنى ، واستدارت ، ووثبت مثل النسيرة ، وانقضت على الرجل ، منسبة اظافرها في وجهه ، مصطنعة افطع الالفاظ التي يمكن ان تتساقط من اوغاد مركز من مراكز الحرس . وكانت هذه الاهانات المتقيئة في صوت جعلته الحمر أبج ، تنطلق من فم بشع تعوزه السنان الاماميتان . كانت هي فانتين .

واندفع الضباط من المقهى ، على جلبه الحادث ، واحتشد غيرو السبيل . وتشكلت دائرة ضخمة ، ضاحكة ، ماخرة ، مصففة ، حول مركز الجذب هذا المؤلف من مخلوقين من العسير ان يُعرف انها رجل وامرأة . فأما الرجل فكان يدافع عن نفسه وقد انطرحت قبعته على الارض ، وأما المرأة فكانت ترفس ، وتضرب ، حاسرة ، صائحة ، من غير اسنان ، ومن غير شعر ، زرقاء ضارباً لونها الى السواد من شدة الغضب ، مخيفة مروعة .

وفجأة اندفع رجل طويل من بين الحشد ، وامسك بالمرأة من النصف الاعلى من فستانها الملوّث بالطين وقال لها :
- « اتبعيني ! »

ورفعت المرأة رأسها وحمد صوتها الضاري في الحال . كانت عينها زجاجيتين يعوزهما اللعان ، وكان لونها الازرق الضارب الى السواد قد امسى شاحباً . واوتجتفت اوتجافاة لذعر . لقد عرفت جافير .

* جمع حمرة ، وهي شيء اشبه بالسوط ، يضرب به وينتكأ عليه .

واغتتم الخنث الفرصة وانسلّ هاوباً .

١٣

حل - لبعض مشكلات الشرطة البلدية

رصدت جافير المنجمهرين ، وحطم الطوق الذي كانوا قد ضربوه حول المرأة والرجل ، وانطلق نحو مكتب الشرطة القائم عند اقصى الساحة ، جاراً الخلوقة البائسة خلفه . ولم تباي مقاومة ، تابعة اياه على نحو آلي . بل انها لم تنطق بكلمة . وفي اثرها مضى جمهور النظاوة ، وهو في ذروة الابتهاج ، يرسل النكات المستنقجة . كان البؤس الذي ما بعده بؤس ، مناسبة عندهم للبداءة والفحش .

حتى اذا انتهوا الى مكتب الشرطة ، وكان قاعة خفيضة يدفنها موقفد ريصونها حارس وينفتح لها على الشاوع باب مزجج ذو قضبان مشبكة ، فتح جافير الباب ، ودخل مع فانتين ، ثم اغلق الباب ، مخبياً بذلك آمال الحشد الفضولي الذي وقف افراده على رؤوس اصابعهم واتلعوا أعناقهم امام نافذة مركز الحرس القذرة ، تائقين الى ان ينظروا . إن الفضول ضرب من الشراهة . والنظر هو التهام .

وحين دخلا المكتب خربت فانتين في احدى الزوايا خرصاء جامدة ، مثل كلب مذمور .

روضع رقيب المركز شمعة مضادة على الطاولة . وجلس جافير ، واخرج من جيبه ورقة تحمل طابعاً ، وأنشأ يكتب .

إن هؤلاء النساء ليوضعن وفقاً لقوانيننا ، تحت تصرف الشرطة المطلق . انهم يفعلون بين ما يشاءون ، وبعاقبونهم كما يحلو لهم ، ويصادرون من تلقاء انفسهم هذين الشينين الحزينين اللذين يسمّينها صناعتهم

وحريتهن . كان جافير عديم الاحساس ؛ وكان وجهه الصارم لا ينم عن عاطفة ما . كان ، على اية حال ، مستغرقاً في تفكير جدي عميق . كانت احدى تلك اللحظات التي يمارس فيها ، على نحو غير محدود ، ولكن بكامل التردد والتدقيق الجديرين بالضمير الصارم ، سلطته الرهيبة المطلقة . وفي تلك اللحظة استشعر ان كرسى رُجل الامن المنخفض منصة قضاء . كان يحاكم . كان يحاكم ويدين . لقد حشد كل ما قدر عليه من فكريات حول الشيء العظيم الذي كان يقوم به . وكلما تعمق درس سلوك هذه الفتاة تعاضلت ثورته . كان واضحاً انه قد بصُر مجرمة تُقتول . لقد رأى ، هناك في الشارع ، الى المجتمع ممثلاً في مالك - ناخب ، يهان ويهاجم من قبل مخلوقة منبوذة . لقد تعدت مومس على مواطن . وهو ، جافير ، قد رأى ذلك بنفسه . لقد كتب في صمت .

وحين انتهى ، وقع الورقة ، وطواها ، ثم سلمها الى رقيب المركز قائلاً :

- « خذ ثلاثة رجال ، وُسُقْ هذه الفتاة الى السجن . »

ثم التفت الى قائنين وقال :

- « سوف تمكثين هناك ستة اشهر . »

وارتعدت المرأة البائسة .

وصاحت :

-- « ستة اشهر ! ستة اشهر في السجن ! ستة اشهر لكي اكسب

سبعة « سو » في اليوم ! ولكن ما الذي سيحل بكوزيت ! ابنتي !

ابنتي ! ولكني لا ازال مدينة باكثر من مئة فرنك لتيناردييه وزوجته ،

يا سيدي المفتش ، هل تعرف ذلك ؟ »

وجرت نفسها على ارض القاعة الملوثة بأحذية جميع هؤلاء الرجال

الموحلة ، من غير ان تنهض ، شابكة يديها ، منطلقة في سرعة على

ركبتها .

وقالت :

- « مسيو جافير ، اسألك الرحمة . اؤكد لك اني لم اكن معتدية . لو شهدت الحادثة من بدايتها لرأيت ذلك ! اقسم لك بالله اني لم اكن معتدية . لقد وضع ذلك السيد ، الذي لا اعرفه ، الثلج في ظهري . هل يملكون الحق في ان يضعوا الثلج في ظهورنا حين نمرّ هكذا في هدوء من غير ان نؤذي أحداً ؟ لقد هاجني ذلك . أنا مريضة بعض الشيء ، كما ترى ! وإلى هذا ، فقد كان قبل ذلك يوجه الي ، طوال فترة غير قصيرة ، اشياء مثل هذه : « أنت بشعة ! » « انت بلا اسنان ! » انا اعرف جيداً اني فقدت اسناني . انا لم اعمل شيئاً . لقد قلت في نفسي : « إنه سيء يعبت ويلهو » . كنت محزنة معه . انا لم اكله قط . وفي هذه اللحظة بالذات وضع لي الثلج . مسيو جافير ، ياسيدي المفتش الطيب ! ألم يكن هناك شخص رأى الحادث ليقول لك ان هذا صحيح ؟ لعلي أخطأت باستلامي للغضب . انت تدري ان الانسان لا يستطيع ، في اللحظة الاولى ، ان يسيطر على نفسه . إنه يكون سريع الاحتياج . فما بالك اذا وضع شيء بارد الى هذا الحد في ظهرك حين لا تكون متوقفاً ذلك البتة ! لقد اخطأت في إتلافي قبعة ذلك السيد . لماذا ذهب ؟ سوف أتمس عفوه . اوه يا السّهي ، لن يضيرني ان أتمس عفوه . إرحمني هذه المرة ، يا مسيو جافير . على راسك ، انت لا تعرف هذا : إنهم في السجن لا يكسبون غير سبعة « سو » . هذه ليست خطيئة الحكومة ، ولكنهم يكسبون سبعة « سو » ؛ وتصور ان عليّ مئة فرنك ينبغي ان ادفعها وإلا قذفوا بابنتي الصغيرة الى الشارع . آه ، يا السّهي ! انا لا استطيع ان أبقها معي . إن ما أعلمه شنيع جداً . اوه ، كوزيت ، اوه يا ملاكاً صغيراً من ملائكة العذراء الطاهرة الطيبة ! ما الذي سوف يحلّ بتلك الطفلة المسكينة

الجامعة ! اقول لك ان تيناردية وزوجته صاحباً فندق . إنها جلفان ، لا يملكان شيئاً من الروية والتفكير . ينبغي ان يُرسل اليها مَالٌ . لا تُلقي في السجن ! أرايت ، إنها صغيرة سوف يُقذفون بها الى عرض الطريق لتعمل ما تستطيع ان تعمل ، في اشدّ ايام الشتاء برداً . ينبغي ان تشفق على هذه المحلقة الصغيرة ، يا سيدي الطيب جافير . لو كانت اكبر سناً لاستطاعت ان تكسب رزقها ، ولكنها لا تستطيع في هذه السن . أنا لستُ امرأة ساقطة بالفطرة . وليس الكسل والشراسة هما اللذان قاداني الى هذا . لقد شرّبت الخمر . ولكن ذلك كان بدافع من اليأس . أنا لا أحبها ، ولكنها تسلبني عن الموم . وحين كنت اكثر سعادة كانت نظرة واحدة يلقيها المرء على خزايني كافية لكي يتأكد أنني لم اكن فتاة محبة للزينة ، لا تعرف النظام . كانت عندي ملابس داخلية ، كثير من الملابس الداخلية . إرحمني ، يا مسيو جافير ! ، لقد تحدثت هكذا ، محبةً بالاعباء ، مرتعدةً بالزفراء ، مكفوفةً بالدموع ، عاربة الرقبة ، ملوبة الذراعين بالألم ، مرسلّة سعالاً جافاً قصيراً ، متجلجلة في وهن بالغ يصوت الحشرة . ان الألم العظيم شعاع إلهي وفظيع ينقل اليأس من صورة الى صورة . ففي هذه اللحظة بالذات عاود فانتين جمالها المفقود . لقد كفت عن الكلام في بعض الفترات وقبّلت ، في رفق ، ادنى معطف الشرطي . لقد كانت خليفة بان تلين قلباً من صوان . ولكن المرء لا يستطيع ان يُلين قلباً من خشب .

وقال جافير :

— « والآن ، لقد استمعت لك . ألم تنتهي بعد ؟ انطلقني في الحال ! امامك سنة اشهر تفضينها في السجن . إن الأب الازلي نفسه لا يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك . »

حتى اذا سمعت هذه الكلمات المسهبة « ان الأب الازلي نفسه لا

يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك » ادركت ان الحكم عليها قد صدر.
وخارت قواها وهي تتمتع :

- « الرحمة ! »

وادار جافير ظهره .

وأمسك بها الجند من ذراعيها .

وقبل ذلك ببضع دقائق كان رجل قد دخل من غير ان يلحظه
أحد . كان قد اغلق الباب ووقف مولياً اياه ظهره ، وكان قد سمع
توسلات فانتين اليانة .

وحين وضع الجند ايديهم على المخلوقة المسكينة التي أثبت ان تنهض ،
تقدم خطوة الى الأمام ، خارجاً من الظلمة ، وقال :

- « دقيقة واحدة ، من فضلكم ! »

ورفع جافير عينيه ، فتبين في ذلك الرجل مسيو مادلين . فما كان منه
إلا ان تزع قبعته ، وانحنى في ضرب من الارتباك المغضب :

- « عفوك ، يا سيدي العمدة »

وكان لهاتين الكلمتين « سيدي العمدة » اثر عجيب في نفس فانتين .
فوثبت على قدميها في الحال ، وكأنها شبح ينبثق من باطن الارض ،
وردت الجند بذراعيها الى الوراء ، واندفعت اندفاعاً مباشراً الى مسيو
مادلين قبل ان يستطيعوا وقفها ، وحدقت اليه على نحو موصول ،
بنظرة ضارية ، وصاحت :

- « آه ، فانت اذن السيد العمدة ! »

ثم إنها انفجرت بالضحك ، وبصقت في وجهه .

ومسح مسيو مادلين وجهه ، وقال :

« ايها المفتش جافير ، أطلق سراح هذه المرأة . »

واستشعر جافير وكأنه على وشك ان يفقد صوابه . لقد اصابته ،
في تلك اللحظة ، ضربة فوق ضربة ، وأحس في الرقت نفسه تقريباً

بأعنف الانفعالات التي قدّروا له ان يعرفها طوال حياته . لقد كان مشهد بنت من بنات الهوى تبصق في وجه عمدة شيناً شيناً خارجاً على الذوق الى حدّ كان خليقاً بأن يجعله يحسب - في اوهامه الاكثر انطلاقاً - ان من الحرق للقدسيات الاعتقاد بأنه ممكن . ومن ناحية ثانية ، فقد عقد في اعماق ضميره ، وعلى نحو مبهم ، مقارنة بشعة بين ما كانته هذه المرأة وما يمكن ان يكونه هذا العمدة . وعندئذ لمح في دعر شيناً بسيطاً الى حدّ لا يوصف في هذه الاهانة المدهشة . ولكن ما ان رأى الى هذا العمدة ، الى هذا الحاكم ، يمسح وجهه في هدوء وبقول : « أطلق سراح هذه المرأة . » حتى استبدّ به الدهول والانشداه ؛ وخانه التفكير والنطق جميعاً . كان قد تجاوز مجموع الدهش الممكن . وظلّ معتصماً بالصمت .

ولم تكن الضربة التي انزلتها كلمات العمدة بفاتنين اقلّ غرابة . لقد وقعت ذراعها العارية وبشّبت بلولب الموقد وكأنها تترنّح . وفي الوقت نفسه اجالت طرفها في ما حولها وبدأت تتكلم بدوت خفيض ، وكأنها تخاطب نفسها :

- « إطلاق سراحي ! سوف يسمحون لي ان اذهب ! انا لن اساق الى السجن لأقضي ستة اشهر فيه ! من الذي قال هذا ؟ ليس من الممكن ان يكون احد قد قال ذلك ! لقد اسأت الفهم . إنه لا يمكن ان يكون هذا العمدة الشبيه بالفول ! اكنّت انت ، يا سيدي الطيب جافير ، الذي اخبرتهم ان يطلقوا سراحي ؟ أوه ، انظر ! سوف اخبرك ، وسوف تعيد اليّ حريتي . ان هذا العمدة الفول ، ان هذا العمدة الجرو المعجوز هو السبب في كل شيء . تصوّر ، يا مسيو جافير ، انه طردني ، بسبب حزمة من الشحاذات اللواتي يروين القصص في المصنع ! ألم يكن مروّعاً ان تفصل فتاة مسكينة تؤدي عملها في اخلاص ! ومنذ ذلك الحين لم يعد في امكاني ان اكسب مقداراً كافياً من المال ، وجاء

الشفاء كله . قبل كل شيء ، ان هناك تغييراً يجب عليكم يا رجال الشرطة ان تحدثوه - وهو ان نحولوا بين مقاولي السجون وبين انزال الظلم بالفقراء . سوف اشرح لك ذلك ؛ اسمع . انت تكسب اثني عشر « سو » من صنع القمصان ، فاذا بذلك الرقم يبط الى تسعة « سو » ، وهو مبلغ لا يملك الرمح . ثم يتعين علينا ان نفعل ما نستطيع ان نفعله . أما أنا فكانت عندي صغيرتي كوزيت ، وكنت مجبرة على ان أصبح بنت هوى . انت تدرك الآن ان هذا العمدة الشحاذ قد فعل ذلك كله . وبعد ذلك دُست على قبعة هذا السيد امام مقهى الضباط . ولكنه كان قد ائلف فستاني كله بالثلج . إنا نحن النساء ، ليس عندنا غير فستان حريري واحد للسهرة . أنظر . انا لم اقصد في يوم من الايام ان اسمي الى احد قصداً . صدقني ، يا مسيو جافير . وانا ارى في كل مكان نساء اكثر خبثاً مني الى حد بعيد ومع ذلك فهنّ اسعد مني الى حد بعيد . اوه ، يا مسيو جافير ، إنك انت الذي قلت لهم ان يطلقوا سراحني ، اليس كذلك ؟ اذهب واستطلع . تحدثت الى صاحب الفرقة التي أسكنها . أنا ادفع أقساطي ، وسوف يقولون لك انني أمينة . اوه ، يا عزيزي ، انا التمس عفوك . لقد لمست ، من غير ان ادري ، لواب الموقد ، وهذا ما جعل الدخان ينبعث . »

واصفى مسيو مادلين في انتباه عميق . وفيما هي تتحدث ، كان قد بحث في صدره واخرج بحفظته وفتحها . كانت فارغة . وكان قد أعادها الى جيبه . وقال لفانتين :

- « ما المبلغ الذي قلت انك مدينة به ؟ »
 والتفتت فانتين نحوه ، وكانت لا تنظر من قبل إلا إلى جافير ، وقالت :

- « وهل كنت أوجه الحديث اليك ؟ »

ثم خاطبت الجند قائلة :

« قولوا ، انتم أيضاً ، رأيتم كيف بصقت في وجهه ؟ أوه ،
أيها العدة الوغد العجوز ، أنت تأتي الى هنا لتروّعني ، ولكنني لست
خائفة منك . أنا خائفة من مسيو جافير . أنا خائفة ، من سيدي الطيب
مسيو جافير ! »

حتى اذا قالت ذلك التفتت كرة اخرى الى المفتش :

« والان ، يا سيدي المفتش ، يجب ان تكون عادلاً . أنا
أعرف انك عادل ، يا سيدي المفتش . والواقع ان المألة بسيطة جداً :
رجل يلهو بوضع قليل من الثلج في ظهر امرأة ؛ ذلك ما جعلهم - اولئك
الضباط - يضحكون ، فالانسان ينبغي ان يتلهى بشيء ، ونحن الكائنات
الشقية لم نخلق إلا لأمتاع الناس ! ثم تأتي أنت ، اجل انت ، فتضطر
الى حفظ النظام ، فتعتقل المرأة التي أذنبت ، ولكنك ما تكاد تفكر
في الامر - وانت الرجل الطيب - حتى تأمرهم باطلاق سراحها ، وما
ذلك إلا من أجل بنتي الصغيرة ، لأن ستة اشهر في السجن سوف تحول
بيني وبين إعالة طفلي . على شرط ان لا تعود الى مثلها مرة أخرى ،
أيتها الوغدة ! أوه ، انا لن اعود الى مثلها مرة ثانية ، يا مسيو جافير ! في
استطاعتهم ان يفعلوا ما يشاؤون الآن ، فلن أحرك ساكناً على الاطلاق .
اليوم فقط - كما نرى - صرختُ لأن ذلك آذاني . انا لم اتوقع البتة
ان يضع ذلك السيد الثلج في ظهري . وفوق هذا ، فقد سبق ان قلت
إني مريضة بعض الشيء . انا اسعل . إن في صدري شيئاً مثل الكرة
يجرقني ، ولقد قال لي الطبيب : « إعتني بنفسك . » والان ، جُسي .
اعطني يدك . لا تخف . ها هي ذي . »

وكفّت عن البكاء ، وغدا صوتها ملاطفاً . لقد وضعت يد جافير
الضخمة الغليظة على صدرها الابيض الرقيق ، ونظرت اليه وهي تبسم .
وفجأة سارعت الى تسوية ما اضطرب من ملابسها ، وملست ثنيات

فستانها ، وكان قد ارتفع فيها هي تجرّ نفسها على الارض حتى يبلغ ركبتيها تقريباً . ومشت نحو الباب ، وخاطبت الجند في صوت خافت ، هازة رأسها هزة ودية :

— « أيتها العلمان ، إن السيد المفتش قال يجب ان تطلقوا سراحي . أنا ذاهبة . »

ووضعت يدها على مزلاج الباب . خطوة واحدة وتصبح في الشارع . وكان جافير قد ظل واقفاً ، حتى تلك اللحظة ، جامداً ، مسرّاً عينيه على الارض ، بادياً وسط ذلك المشهد وكأنه يمتال ينتظر ان يوضع في مكانٍ ما .

وأيقظه صوت المزلاج . فرفع رأسه وعلى وجهه انطباعة السلطة المطلقة ، وهي انطباعة تكون اكثر ترويعاً حين تُسند الى كائنات من الدرجة الدنيا . إنها وحشية عند الأطباء البرية ، شرسة عند العقاشة * من الناس .

وصاح :

— « أيتها الرقيب ، الا ترى هذه المشردة تقضي ليلها ؟ من قال لك ان تدعها تذهب ؟ »

فقال مادلين :

— « انا . »

وكانت فانتين قد ارتجفت لدن سماعها كلمات جافير وأفلتت مزلاج الباب كما يُفلت اللص المقبوض عليه ما كان قد سرقه . حتى اذا تكلم مادلين استدارت . ومنذ تلك اللحظة ، ومن غير ان تبس بكلمة ، ومن غير ان تجرّو حتى على التنفس في حرية ، نقلت طرفها من مادلين الى جافير ومن جافير الى مادلين مصغية الى من يتفق ان يكون هو المتحدث منها .

* العقاشة : من لا خير فيه .

كان واضحاً ان جافير قد استدير غضبه كما يقولون والا لما اجاز
لنفسه ان يخاطب الرقيب كما قد فعل بعد ان دعا العمدة الى اطلاق
سراح فانتين . أنسي ان العمدة هناك ؟ أقرر آخر الامر بينه وبين
نفسه ان من المستحيل على « سلطة » ما ان تصدر أمراً كهذا ، وان
العمدة من غير شك قد قال شيئاً وهو يعني نقيضه ؟ أم انه قال في
ذات نفسه ، نظراً للأعمال الفاحشة التي شهدا منذ ساعتين ، إن من
الضروري ان يلجأ الى الاجراءات القصوى ، وان من واجب الصغير
ان يكتب نفسه ، ومن واجب جاسوس الشرطة ان يحول نفسه الى
حاكم ، ومن واجب البوليس ان يصبح قاضياً ، وان النظام ، والقانون ،
والاخلاق ، والحكومة ، والمجتمع كله كانت تمثل - في هذه الحالة
الاستثنائية المروعة - في شخصه هو ، جافير ؟

وأياً ما كان ، فعين قال مسيو مادلين تلك الـ « أنا » التي سمعناها
منذ لحظة استدار مفتش الشرطة ، جافير ، نحو العمدة ، صاحب
الوجه ، بارداً ، ازرق الشفتين ، يالس النظرة ، مضطرب الجسم كله
بارتجاف غير ملحوظة ، وقال له - وذلك ما لم يُسمع به من قبل -
مطرق العين ، ولكن في صوتٍ كثبت :

- « سيدي العمدة ، هذا لا يمكن أن يُعمل . »

فقال مسيو مادلين :

- « لماذا ؟ »

- « هذه المرأة الشريرة قد اهانت احد المواطنين . »

فأجابه مسيو مادلين في نبوةٍ مصالحةٍ هادئة :

- « ايها المفتش جافير ، اسمع . انت رجل نزيه ، وليس عندي

ما يحول دون شرح وجهة نظري لك . تلك هي الحقيقة : كنت
ماراً بالساحة العامة حين اعتقلت هذه المرأة . كان لا يزال هناك حشد
من الناس . فعرفت ظروف الحادث . لقد علمت كل شيء . إن

المواطن هو الذي أذنب ، وهو الذي كان ينبغي - لو كان ثمة شرطة
صالحة - ان يُعقل . ،

فتابع جافير :

- « إن هذه الساقطة قد أهانت السيد العمدة ، منذ لحظة . ،

فقال مسيو مادلين :

- « هذه مسألة تتصل بي شخصياً . إن الإهانة الموجهة الي مرهونة

بحكمي أنا ، في ما أظن . في استطاعتي ان افعل بشأنها ما اشاء . ،

- « استمبح السيد العمدة عفواً . إن الإهانة ليست مرهونة بحكمه ،

ولكنها مرهونة بحكم العدالة . ،

فقال مسيو مادلين :

- « ايها المفتش جافير . العدالة العليا هي الضمير . لقد سمعتُ هذه

المرأة . أنا اعرف ما الذي أصنعه . ،

- « وأنا ، يا سيدي العمدة ، أعرف ما الذي اراه . ،

- « اذن ، فاكثف بالطاعة . ،

- « انا اطيع واجبي . إن واجبي يفضي بأن تُسجن هذه المرأة

سنة اشهر . ،

فاجابه مسيو مادلين في دمائه :

- « إسمع هذا جيداً . إنها لن تقضي هناك يوماً واحداً . ،

ولم يكذب مسيو مادلين ينطق بهذه الكلمات الحاسمة حتى جرؤ جافير

على ان يحدق النظر الى العمدة ، وان يقول له ولكن في نبرة ما تزال

ترشح بالاحترام العميق :

- « انا آسف جداً أن اعارض السيد العمدة . انا افعل ذلك لأول

مرة في حياتي ، ولكنه سوف يتفضل ويحيز لي ان الالحظ اني اتصرف

ضمن نطاق سلطتي . وسوف اتحدث عن مسألة المواطن ، ما دام السيد

العمدة راغباً في ذلك . لقد كنتُ هناك . إن هذه الفتاة هي التي انقضت

على مسيو بارماتابوا ، الذي هو ناخب ، ومالك ، لذلك البيت الجميل
ذي الشرفة ، القائم عند زاوية الساحة ، والمؤلف من ثلاثة ادوار ،
والشيد كله من حجر منحوت . والواقع ان في هذا العالم اشياء ينبغي
ان تؤخذ بعين الاعتبار . وعلى اية حال ، يا سيدي العمدة ، فهذه
المائة من خصائص شرطة الشارع . انها تتصل بي ، واني أحتجز هذه
المرأة .

وهنا صالب مسيو مادلين ذراعيه وقال في صوت قاسٍ لم يسمعه قط
احدٌ في المدينة من قبل :

– « إن المسألة التي نتحدث عنها من خصائص الشرطة البلدية . وانا
الذي أنفي فيها وفقاً لأحكام المادة التاسعة ، والحادية عشرة ، والخامسة
عشرة ، والسادسة والسبعين من قانون العقوبات . انا آمر باطلاق سراح
هذه المرأة . »

واراد جافير ان يقوم بمحاولة اخيرة .

– « ولكن ، يا سيدي العمدة ... »

-- « اني اذكرك بالمادة الحادية والثلاثين من قانون ١٣ كانون الاول
١٧٩٩ في ما يتصل بالسجن غير المشروع . »

– « سيدي العمدة ، اسمح لي ... »

– « لا تقل اي كلمة اخرى . »

– « ومع ذلك ... »

فقال مسيو مادلين :

« اخرج من هنا ! »

وتلقى جافير الضربة ، وهو واقف على قدميه بواجهها ب صدره كله ،
مثل جندي روسي . لقد انحنى حتى الأرض ، امام العمدة وخرج .
ووقفت قانتين الى جانب الباب ، ونظرت اليه في ذهول بينما هو
يمر امامهما .

ولكنها كانت هي أيضاً قريبة اضطراب عجيب . لقد رأت الى قوتين متعارضتين تتنازعانها بطريقة ما . رأت رجلين يصطراعان امام عينيها ، رجلين يملكان في ايديهما حريتها ، وحياتها ، ونفسها ، وابنتها . فأما احدهما فكان يشد بها نحو الظلام ، وأما الآخر فكان يقودها نحو النور . وفي هذا الصراع المنظر اليه من خلال تضخيات الذعر ، تراهي لما هذان الرجلان مثل عملاقين . كان احدهما يتكلم وكأنه شيطاناً ، وكان الآخر يتكلم وكأنه ملاكها الكريم . لقد قهر الملاك الشيطان ، ولقد كان في مجرد التفكير بذلك ما جعلها ترتعد من قمة رأسها الى اخمص قدميها . وكان هذا الملاك ، هذا المختص ، هو على وجه الضبط ذلك الرجل الذي ابغضته ، ذلك العمدة الذي اعتبرته منذ عهد طويل صانع بلاياها كلها ، مادلين هذا ! وفي تلك اللحظة عينا التي امسكته فيها على نحو بشع ، عمدة الى انقاذها ! هل كانت مخدوعة اذن ؟ هل يتعين عليها ان تغير قلبها كله اذن ؟ لم تكن تدري . لقد ارتعدت اوصالها ؛ لقد اصغت في انفعال ، واجالت طرفها حولها في هلع . ومع كل كلمة نطق بها ميو مادلين احست بظلمات بغضها المروعة نذوب في إهاجا وتجري منفصلة عنها ، على حين وُلد في فؤادها دفء يعجز البيان عن وصفه ، دفء البهجة ، دفء الثقة ، دفء الحب .

حتى اذا خرج جافير نفت ميو مادلين اليها ، وقال لها في تودة وفي عزم مثل رجل يناضل حتى لا تسيل عبوانه :

- « لقد سمعت كلامك . لم اكن اعرف شيئاً مما قلت . انا اعتقد انه صحيح ، وانا اشعر انه صحيح . بل اني كنت اجهل أنك تركت العمل في مصمي . لماذا لم تراجعيني في ذلك ؟ ولكن اسمي : سوف ادفع ديونك ؛ سوف آتيك بابنتك ، او اذهب بك اليها . سوف تعيشين هنا ، او في باريس ، او في اي مكان تختارين . سوف اتولى امر العناية

بك وبطفلك . إنك لن تشتغي بعد اليوم ، اذا شئت . سوف اقدم اليك كل ما تحتاجين اليه من مال . وسوف تصبحين امرأة فاضلة كره اخرى بأن تنعمي بالسعادة من جديد . وفوق هذا ، فأني اصرح امامك منذ هذه اللحظة قائلًا : اذا كان كل شيء كما وصفت ، ولست اشك في هذا ، فأنت ما زلتِ فاضلة طاهرة امام الله . اوه ! ايها المرأة الشقية ! ،

وكان ذلك أكثر مما استطاعت فائتين المسكينة ان تحمّل . ان تغوز بكوزيت ! ان تطلّقي هذه الحياة الشائنة ! ان تعيش حرة ، غنية ، سعيدة ، فاضلة مع كوزيت ! ان ترى الى حقائقي الجنة هذه كلها تنبثق فجأة وسط سقائنا ! لقد نظرت وكأنها يلها ، الى هذا الرجل الذي يخاطبها ، ولم تستطع ان ترسل غير زفرتين او ثلاث زفرات : « اوه ! اوه ! اوه ! » وخذلتها ساقاها ، فارقت على ركبتيها امام ميسو مادلين . وقبل ان يتمكن من منعها استشعر انها امسكت بيده ورفعتها الى شفتيها . ثم غابت عن الوعي .

الكتاب السادس

جاشير

١

بداية الراحة

ونقل مسيو مادلين فانتين الى المستشفى القائم في منزله نفسه . لقد عهد الى الراهبتين في أمر العناية بها ، فوضعتها في السرير . لقد عصفت بها حمى عنيفة ، فسلخت شطراً من الليل وهي تهذي وتتكلم بصوت عال . وأخيراً استلمت للرقاد .

وحد إلى الظهيرة من اليوم التالي استيقظت فانتين . لقد سمعت تنفساً قرب سريرها ، فأزاحت الستارة ، فرأت مسيو مادلين واقفاً يتحدث إلى شيء فوق رأسه . كانت نظراته مغممة بالالم النفسي الشفوق المتوسل . وتابعت

اتجاه نظرتة هذه فوجدت انها كانت مدّدة الى شمال المصلوب المسر على الجدار .

ومن تلك اللحظة 'خلق' مسير مادلين خلقاً آخر في عيني فانتين . لقد تراءى لها مكسوءاً بالضياء . كان مستغرقاً في ضرب من الصلاة . وحدّقت اليه فترة طويلة من غير أن تجرؤ على مقاطعته . وأخيراً قالت في خوف :

« ما الذي تفعله ؟ »

كان مسير مادلين قد سلخ ساعة في ذلك المكان . كان ينتظر فانتين حتى تفتي من سباتها . فأمكن يدها ، وجسّ نبضها ، وقال :

« كيف حالك ؟ »

فقلت :

« حسنة جداً . لقد نمت . أظن أنني أنحس . لن يكون هذا شيئاً . »

ثم إنه قال ، مجيباً عن سؤالها الذي وجهته اليه في البدء ، وكأنما سمعه 'اللحظة' :

« أنا أصلي للشهيد الذي في الاعالي . »

ثم أضاف بينه وبين نفسه :

« للشهيدة التي في هذا العالم . »

وقضى مسير مادلين الليل والصباح مستظلاً . لقد غدا عارفاً كل شيء . لقد غدا عارفاً قصة فانتين بكامل تفاصيلها الموحجة . وتابع كلامه :

« لقد كابدت كثيراً ، ابنتا الام المكينة . أوه ، لا تنسعي . لقد فزت الآن بنصيب الثناوين من الناس . وإنما بهذه الطريقة يصبح البشر ملائكة . إنها ليست خطيبتهم على الاطلاق . إنهم لا يعرفون كيف يبدأون على نحو آخر . إن هذا الجحيم الذي خرجت منه هو

الخطوة الأولى نحو الجنة . ينبغي ان نبدأ من هناك .
وأطلق زفرة عميقة . أما هي فابذمت تلك الابتسامة الرفيعة التي
تعوزها ستان .

وفي الليلة نفسها كتب جافير رسالة . وفي صباح اليوم التالي حمل
هذه الرسالة بنفسه الى مركز بريد مونتروي سور مير . كانت موجهة
الى باريس ، حاملة هذا العنوان : « الى مسيو شابوييه ، سكروير
السيد مدير الشرطة . »

واذ كانت حادثة مكتب الشرطة قد شاعت بين الناس فقد ظنت
مديرة مكتب البريد وغيرها من رأوا الرسالة قبل ان 'تحمل الى وجهتها ،
ومن عرفوا في العنوان خط جافير ، أن مفش الشرطة قد قدم بذلك
استقالته .

وسارع مسيو مادلين الى الكتابة الى تيناردييه . كانت فانتين مدينة
له بمئة وعشرين فرنكاً . ولقد ارسل اليه ثلاثمائة فرنك طالباً منه ان
يقطع ديونه منها ، وينقل الطفلة في الحال الى مونتروي سور مير لأن
أمها المريضة تريد ان تراها .

وأوقفت هذه الرسالة الدهش في نفس تيناردييه .
وقال لزوجته :

« يا للشيطان ! نحن لن نتخلي عن الطفلة . ان هذه الفتاة المهزولة
سوف تصبح بقرة حلباً . واحسب ان رجلاً أحق قد فُتن بالأم . »
وأجاب بأن أرسل فاتورة خمسمئة وبضعة فرنكات كتبت كتابته
حسنة . وقد تمثل في هذه الفاتورة بيانان لا ريب في صحتها بما يزيد على
ثلاثمائة فرنك ، أحدهما من طيب والآخر من صيدلي عاجل إيوني
وآزبلا وقدما الادوية اليها خلال مرضين طويلي الأجل . ذلك بأن
كوزيت لم تكن مريضة كما رأيت . ولم يكن ذلك غير تبديل طفيف في
الامعاء . وكتب تيناردييه في أدنى الفاتورة : « وصلنا ثلاثمائة فرنك

على الحساب . »

وفي الحال أرسل مسيو مادلين ثلاثمة فرنك أخرى وكتب قائلاً :
« عجل بأعادة كوزيت . »
فقال تينارديه :

- « يا للسبح ! نحن ان نتخلى عن الطفلة . »

ولم تشفع فانتين في غضون ذلك . كانت لا تزال في المستشفى .
ولم يكن استقبال الراهبتين ، لـ « هذه الفتاة » وعنايتها بها خلواً ،
أول الأمر ، من شيء من الاشتزاز . وكل من رأى نقش « ريمس »
ذا الصورة المرسمة البارزة بروزاً خفيفاً يذكر انتفاخ شفاة العذارى
الحكيمات لدى رؤية العذارى الحقاوات . والحق ان هذا الازدراء القديم
الذي تبدبه الفتيات الطاهرات نحو الفتيات الاقل حظاً غريزة من أهدى
غرائز الكرامة الانثوية . ولقد عرفت الراهبتان ذلك الاشتزاز قوياً
ضاعفه الدين . ولكن ما إن انقضت بضعة أيام حتى جردتها فانتين من
سلاحها . فقد حرّكت قلبها كلماتها الرقيقة المؤثرة ، وعاطفة الامومة
التي انطوت عليها . وذات يوم سمعتها الراهبتان نقول وهي بحمومة
تهذي : « كنت خاطئة ، ولكن حين افوز بابنتي فسوف يكون معنى
ذلك ان الله قد غفر لي . ويوم كنت منغمسة في الاثم لم اكن اريد ان
ارى صغيرتي كوزيت الى جانبي . أنا ما كنت قادرة على ان أحصل
نظراتها المتعجبة المحزونة . ومع ذلك فمن أجلها هي أنشئت ، وهذا هو
السبب الذي من أجله يغفر الله لي . سوف أحسن ببركة الله حين تأتي
كوزيت . سوف أنعم النظر فيها . إن مشهد براعتها سوف يعود عليّ
بالخير . إنها لا تعرف شيئاً من ذلك كله . انها ملاك ابتها الراهبتان .
ففي سنّها تلك تكون الاجنحة لما تسقط بعد . »

ورقد مسيو مادلين لرؤيتها مرتين يومياً ، وكل مرة كانت تسأله :
- « هل سارى كوزيت قريباً ؟ »

فيجبها :

« ربما ترينها غداً . أنا أتوقع مجيئها كل لحظة . »
وعندئذ يشرق وجه الام الشاحب .
وتقول :

« آه ، كم سأكون سعيدة ! »

لقد قلنا منذ لحظة انها لم تشف . على العكس لقد بدا أن صحتها
اخذت تتقهر أسبوعاً بعد أسبوع . ذلك بأن تلك الحفنة من الثلج التي
وضعت على جلدها العاري بين عظمي الكتف كانت قد سببت انقطاع
المرق على نحو مجاني ، فاذا بالداء الذي كان كامناً فيها منذ عدة سنوات
يهاجمها آخر الأمر في عنف . وكانوا قد شرعوا في ذلك العهد باتتباع
نظرية لايبنيك* الرائعة في دراسة امراض الصدر ومعالجتها . وفحص الطبيب
رئتئها وهز رأسه .

رساله مسيو مادلين :

« وبعد ؟ »

فقال الطبيب :

« أليس لها طفلة ترغب في أن تراها ؟ »

« نعم . »

« حسن . اذن عجلوا في الاتيان بها . »

وارتعد مسيو مادلين .

رسالته فانتين :

« ماذا قال الطبيب ؟ »

وحاول مسيو مادلين ان يبتسم :

« لقد قال لنا ان نأتي بابنتك في الحال . إن ذلك سوف يعيد

* Laennec طبيب فرنسي (١٧٨١ - ١٨٢٦) كانت له خدمات جليلة في مكافحة امراض
الصدر وتصنفها .

اليك صحتك . ،

فصاحت :

- « اوه . إنه على صواب . ولكن ما الذي يحمل تيناردييه وزوجته
هذين على إبقاء صغيرتي كوزيت بعيدة عني ؟ اوه ، إنها سوف تأتي !
وهكذا سأرى السعادة ، آخر الامر ، قريبة مني ! ،
بيد ان تيناردييه « لم يتخلَّ عن الطفلة » ، وقدم مئة من الاعذار
القييحة . كانت كوزيت متوجعة بمض الشيء فليس في امكانها أن تحتل
السفر في الشتاء ، ثم كانت هناك بضعة ديون صغيرة يعمل على جمع
فواتيرها الخ . الخ .

وقال ميو مادلين :

- « سوف أرسل شخصاً يجيئني بكوزيت . واذا اقتضى الامر
فسوف أذهب أنا نفسي . ،

وأملت عليه فانتين هذه الرسالة ثم وقعتها :

« ميو تيناردييه ،

« سوف تسلم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .

« إنه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة .

« لي الشرف ان أحبك في احترام .

« فانتين ،

وفي غضون ذلك اعتوضت مسألة خطيرة . فمهما 'نجده' تحت الكتلة
التي تتألف منها حياتنا فإن عرق القضاء الاسود يبرز فيها دائماً .

كيف يمكن لجان فالجان ان يصبح «شان»

و ذات صباح كان ميو مادلين في مكتبه يسوي مقدماً بعض شئون
وظيفته الملحة تخافة ان يضطرّ لاسفر الى مونفيرماي بنفسه عندما أبلغ
أن جافير ، مفتش الشرطة ، يريد أن يتحدث اليه . حتى اذا سمع ميو
مادلين هذا الاسم لم يستطع ان يكبت انطباعة كريمة . فمئذ حادثة
مكتب الشرطة وجافير يجنبه اكثر من ذي قبل ، فلم يره ميو
مادلين قط .

وقال :

- « دعه يدخل . »

ودخل جافير .

وظل ميو مادلين قاعداً قرب الموقد ، وفي يده قلم ، فهو يعين
النظر في ملفّ يقلّب صفحانه ويعلق عليها ؛ وكان ذلك الملفّ يحوي
محاضر مخالفات دورتها دوريات الشرطة . ولم يزعج نفسه قطّ من أجل
جافير . إنه لم يتمالك عن التفكير بفائتين المكيّة ، وكان من الملائم
ان يستقبله في برود كثير .

وفي احترام ، حتى جافير العمدة الذي كان يوليه ظهره . ولم يرفع
العمدة بصره ، بل واصل تدوين الملاحظات على اوراقه .
وتقدّم جافير خطوتين او ثلاث خطوات ، ثم وقف من غير ان يقطع
حبل الصوت .

ولو ان خبيراً في القراءة قدّر له أن يألف وجه جافير وان يدرس
طوال سنوات عديدة هذا الوحش العامل في خدمة الحضارة ، هذا
المركبّ العجيب من الروماني والاسباطي ، من الراهب والجندي

العزيز ، هذا الجاسوس العاجز عن ان يكذب كذبة ، هذا الشرطي السري البتول - لو ان خبيراً في الفراسة اطلع على كراهيته السرية القديمة لمسيو مادلبن ، وعلى خلافه مع العدة حول مسألة فانتين ، ورأى الى جافير في تلك اللحظة اذن لكان جديراً بان يقول : « ما الذي دهاه ؟ »

كان واضحاً لكل امرئ عرف هذا الضير المستقيم ، الصريح ، الجدي ، النزيب ، الكالنج ، الضاري أن جافير قد عانى اضطراباً داخلياً كبيراً . لم يكن في ذهنه شيء غير مرتسم على محياه . كان مثل اهل العنف جميعاً عرضة لتغيرات مفاجئة . ولم يكن وجهه في أيما وقت مضى أغرب ولا أدعى الى الدهش منه في تلك اللحظة . كان قد اغنى ، كدن دخوله ، لمسيو مادلبن في نظرة لم يكن فيها لا حقد ، ولا غضب ، ولا تحدٍ . ولقد وقف على بضع خطوات خلف الكرسي ، وها هو ذا الآن منتصب هناك على نحو يكاد يكون عسكرياً بالشراسة الطبيعية الباردة التي يتكشف عنها رجل لم يكن قط كريماً ، ولكنه كان دائماً صبوراً . لقد انتظر من غير ان ينطق بكلمة ، أو يأتي بحركة ، في ضراعة حقيقية وإذعان ساكن ، حتى يحلوا للسيد العدة ان يلتفت نحوه انتظر هادئاً ، جاداً ، مسكاً قبضته بيده ، مطرق العينين في انطباعه هي وسط بين سبا الجندي المائل بين يدي خابطه ، والمتهم المائل بين يدي قاضيه . لقد اختفت جميع المشاعر وجميع الذكريات التي يمكن للمرء ان يتوقع ظهورها في حاله تلك . ولم يبق على هذا الوجه المغلق البسيط كالصوان غير حزن كالنج . كان شخصه كله ينطق بالضعف والصلابة ، وبضرب غريب من الكتابة الباسلة .

واخيراً اطرح العدة قلعه واستدار على نحو جزئي .

« حسن . ماذا تريد ؟ ما المسألة ، يا جافير . »

وظل جافير صامتاً ، لحظة ، وكأنه يستجمع نفسه . ثم رفع صوته في خشوع حزين لم تعوزه البساطة ، برغم ذلك :

- « لقد اُقتَرِفَ عمل إجرامي » ، يا سيدي العمدة .
- « وما هو ؟ »
- « لقد أظهر أحد عمال الحكومة الثانويين قلة احترام ، على نحو خطير ، لحاكم من الحكام . ولقد جئت ، بجدوني واجبي ، لكي احبطك بذلك علماً . »

فأله مسيو مادلين :

- « ومن هو ذلك العامل ؟ »

فقال جافير :

- « أنا . »

- « انت ؟ »

- « أنا . »

- « ومن هو الحاكم الذي ينبغي أن يشكو هذا العامل ؟ »

- « انت ، يا سيدي العمدة . »

وتصدّر مسيو مادلين في كرسيه . وقابع جافير كلامه في انطباعة صارمة ، وعيناه ما تزالان مطرقتين الى الارض :

- « سيدي العمدة . لقد جئت لكي ارجوك ان تتلطّف غاية التلطّف وتعري السلطة بصرفي من الخدمة . »

وفي ذهول ، فتح مسيو مادلين فمه . فقاطعه جافير :

- « مستقول إن في استطاعتي ان اقدم استقالتي . ولكن هذا غير كافٍ . الاستقالة مشرّفة . ولكني قد أذنبت . ويجب ان أعاقب . يجب ان امرّح من الخدمة . »

وبعد ان تمهل لحظة ، أضاف :

- « سيدي العمدة ، لقد كنت قاسياً عليّ ، ذلك اليوم ، في غير حق . فكن قاسياً عليّ اليوم ، في حقّ . »
- « آه ، هكذا ! ولماذا ؟ ما هذا الهراء كله ؟ ما معنى هذا ؟ »

واي عمل إجرامي ارتكبتَه ضدي؟ ما الذي عملته لي؟ كيف اذنبتَ في حقِّي؟ انت تتهم نفسك . اريد ان نُسند منصبك الى رجل آخر؟ ، فقال جافير :

- « اريد ان أُمسح من الخدمة . »
- « فلتُسرَّحْ ، اذن . هذا غريب جداً . أنا لا أفهم . »
- « سوف تفهم ، يا سيدي العمدة . »
- وزهر جافير من اعماق صدره ، ثم اضاف في حزن وبرود :
- « يا سيدي العمدة ، منذ ستة اشهر ، عقب المشادة حول تلك الفتاة ، استبدتْ بي الغضب ، فشكوتك . »
- « شكوتني ! »
- « الى مديرية الشرطة في باريس . »
- وشرع مسيو مادلين يضحك ، وهو الذي كان مثل جافير لا يضحك الا نادراً :

- « بوصفي عمدةً اعتدى على صلاحيات الشرطة ؟ »
- « بوصفك رجلاً حُكِمَ عليه في ما مضى بالاشغال الشاقة . »
- وغدا وجه العمدة أزرق ضارباً الى السواد .
- وتابع جافير - ولم يكن قد رفع عينيه - قائلاً :
- « لقد اعتقدت ذلك . فمنذ عهد بعيد والظنون تساورني . فهناك الشبه ، والمعلومات التي جمعناها في فايفرول ، وقوتك الهائلة ، ومألة فوشلوفان المعبوز ، وبراعتك في الرماية ، ورجلك المتشاقة بعض الشيء ، وما لا ادريه من الحقايق الاخرى . ولكني حسبك ، في آخر الأمر ، رجلاً يدعى جان فالجان . »

- « يدعى ماذا ؟ كيف تلفظ ذلك الاسم ؟ »
- « جان فالجان . كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة رأيتَه منذ عشرين سنة عندما كنت نائب ضابط الحرس الخاص بسجن المحكومين »

عليهم بتلك الاشتغال في طولون . وبعد ان غادر فالجان هذا ، السجن سرق في ما يبدو قصر احد الاساقفة ، ثم قام بسرقة اخرى ، والسلاح في يده ، في طريق عام ، وكان المسروق غلاماً من علامات صافوا . ومنذ ثماني سنوات وهو متواير ، والسلطة تبحث عنه . لقد توهمت . - وبالاختصار ، تمت بهذا العمل . وإنما حملني الغضب على ان اقرر . لقد شكوتك الى مدير الشرطة .

واستأنف مسيو مادلين الكلام - وكان قد عاود الامساك بالملف قبل بضع ثوان - فقال في نبوة من اللامبالاة الكاملة :

- « وماذا اجابوك ؟ »

- « بأنني معنوه . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « انهم على صواب . »

- « من حسن الحظ ان تعتقد ذلك ! »

- « يجب أن أعتقد . لأن جان فالجان الحقيقي قد وُجد . »

وسقطت الورقة ، التي كان مسيو مادلين ممكاً بها ، من يده . ورفع رأسه ، ونظر الى جافير على نحو موصول ، وقال في نبوة لا سبيل الى وصفها :

- « آه ! »

وتابع جافير حديثه :

- « سوف اخبرك كيف كان ذلك ، يا سيدي العمدة . يبدو أنه كان ثمة في المنطقة ، قرب « آي - لو - هو - كلوشيه » رجل بسيط يدعونه الأب شانغايو . كان فقيراً جداً . ولم يكن احد يلتفت اليه . إن المرء يكاد لا يفهم كيف يعيش هؤلاء الناس . واخيراً ، في هذا الحريف ، اعتقل الاب شانغايو لسرقته شيئاً من التفاح الذي تصنع منه الخمر ، في ... ؛ ولكن هذا لا يهم . لقد وقعت سرقة ، وتسور

شخص ما جداراً ، وكسر أغصاناً . واعتقل صاحبنا شانتايو . كانت
يحمل حتى في ذلك الحين غصناً من اغصان التفاح بيده . والقي الرجل
الحقير في السجن . والى هنا لم تكن الحادثة غير مجرد جنحة . ولكن
العناية الالهية ما لبثت ان قدخلت . ذلك بأن السجن كانت في حال
سيئة فرأى رجال الشرطة ان من الخير ان ينقلوه الى آراس حيث سجن
المدنية . وفي ذلك السجن كان محكوم سابق بالاشغال الشاقة يدعي
بروفيه أدخل السجن لذنوب طفيف لا أدريه ثم جعل لحسن سلوكه
سجناً . ولم يكد المقام يستقر بشانتايو حتى صاح بروفيه : « ها ، ها !
انا اعرف هذا الرجل . إنه واحد من 'قذر' لهم ان يدخلوا سجن
الاشغال الشاقة . انظر الى 'جيد' ، ايها الرجل الطيب . انت جات
فالجان ! » فقال له الرجل : « جان فالجان ؟ ومن هو جان فالجان
هذا ؟ » وتظاهر شانتايو بالدهش . فقال له بروفيه : « لا تتجاهل .
انت جان فالجان . لقد كنت في سجن الاشغال الشاقة في طولوت .
كان ذلك منذ عشرين عاماً . وكنا هناك معاً . » وانكر شانتايو .
يا الهي ! أفهت ؟ وتعمقوا المسألة . وبحسوا ونقبوا ، فاكشفوا
ما يلي . لقد كان شانتايو هذا قبل ثلاثين عاماً ، مشذب اغصان في
اماكن متعددة ، وخاصة في فاڤيرول . وهناك نفتقد أثره . وبعد فترة
طويلة نجده في أوفيري ، ثم في باريس ، حيث يقال انه كان صانع
عربات ، وانه كانت له بنت عملت غالة ، ولكن ذلك شيء لم يقم
عليه دليل ، واخيراً وجدناه في هذه المنطقة . والآن ، قبل ان يساق
الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لارتكابه سرقة موصوفة ماذا
كان جان فالجان ؟ مشذب اغصان . أين ؟ في فاڤيرول . وشي آخر .
كان اسم العمودية عند فالجان هو جان ، وكان اسم اسرة أمه ماتيو .
وطبيعي جداً ان يكون عند خروجه من السجن قد اتخذ اسم امه
إخفاء لهويته ، وعندئذ يكون قد اصبح معروفاً بـ « جان ماتيو » .

ويذهب الى اوفيرني وهناك يتحول « جان » بحكم طريقة النطق الخاصة بتلك الديار الى « شان » فاذا به يدعى شان ماتيو . ويتبنى صاحبنا هذه التسمية ، فيصبح شانماتيو . انت تتابعني ، اليس كذلك ؟ ثم أجريت مباحث في فافيرول . ان اسرة جان فالجان لم تعد هناك . وليس ثمة من يعرف اين هي . وانت تدري ان اختفاء الأسر على هذا النحو كثيراً ما يقع عند امثال هذه الطبقات . ويستمر البحث ، ولكن على غير طائل . فحين لا يكون هؤلاء القوم وحلاً يكونون غباراً . واذ كانت بداية هذه القصة ترجع الى ثلاثين سنة خلت فليس في فافيرول الآن من يعرف جان فالجان . ولكن تحقيقات قد أجريت في طولون . فباستثناء بروفيه لم يكن ثمة غير محكومين اثنين بالاشغال الشاقة يعرفان جان فالجان . إنيها من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، ويدعيان « كوشاي » و « شونيلدو » . وجهي بهذين الرجلين من سجن الاشغال الشاقة ، ودعي شانماتيو المزعوم لمواجهتهما . فلم يترددا قط . لقد قالا ، كما قال بروفيه ، إنه جان فالجان . فالعمر واحد - اربع وخمسون سنة - والطول واحد ، والشكل واحد ، والاثنان في الواقع رجل واحد . إنه هو . وفي هذا الوقت بالذات ارسلت شكواي الى مديرية الشرطة في باريس ، فجاءني الجواب يقول اني فقدت صوابي ، وان جان فالجان بين يدي العدالة في آراس . وفي استطاعتك ان تتخيل كم ادهشني ذلك ، انا الذي اعتقدت اني امسكت هنا بجان فالجان نفسه . فكتبت الى قاضي التحقيق . فاستدعاني ، وجاء بشانماتيو ليثل امامي .

فقاطعه مسيو مادلين :

— « ثم ماذا ؟ »

فأجابه جافير ، بوجه عفيف محزون :

— « سيدي العمدة ، الحق هو الحق . انا آسف جداً ، ولكن

ذلك الرجل هو جان فالجان . لقد عرفتُ انا ايضاً .
فقال مسيو مادلين في صوت منخفض جداً :

– « اوائق انت من ذلك ؟ »

– وبدأ جافير يضحك تلك الضحكة المكبوتة التي تؤذن بالايام

العميق :

– « انا وائق . »

وظلّ شارد الذهن لحظةً ، رافعاً على نحو آلي قبضات من منشار
الحشب التي تصطنع لتجفيف الخبز كانت في صندوق على الطاولة ،
ثم أضاف :

– « والآن اذ ارى جان فالجان الحقيقي لا استطيع أن افهم كيف
جاز لي ان اعتقد غير ذلك . انا ألتبس عفوك يا سيدي العمدة . »
وفيا هو بوجه هذه الكلمات المتوسلة الرصينة الى ذلك الذي اهانه ،
قبل ستة اسابيع ، امام الحرس كلهم وقال له : « اخرج ! » كان جافير
– هذا الرجل المتكبر – مفعماً على غير وعي منه بالبساطة والوقار .
واجابه مسيو مادلين عن التماسه بهذا السؤال المفاجيء :

– « وماذا قال الرجل ؟ »

– « اوه ، عجباً ! المسألة قبيحة ، يا سيدي العمدة . اذا كان هو
جان فالجان ، فمعنى ذلك عودة الى الجريمة . إن تسوّر جدار ما ،
وكسر غصن من الاغصان ، وسرقة بعض التفاح لا تعدو ان
تكون – بالنسبة الى الطفل – ذنباً . وهي – بالنسبة الى الرجل –
جنحة . ولكنها – بالنسبة الى المحكوم عليه بالاشتغال الشاقة – جريمة .
إن التسوّر والسرقة بشلان كل شيء . إنما ليست قضية من قضايا
شرطة الجناح ، ولكنها قضية تنظر فيها محكمة الجنايات .
ان عقوبتها ليست السجن بضعة ايام ، ولكنها الاشتغال الشاقة مدى
الحياة . والى هذا ، فهناك قضية ذلك الغلام السافواني الصغير

الذي ارجو ان يُعثر عليه . بالشیطان ! هناك شيء ينبغي ان يُناضَلَ ضده ، ليس كذلك ؟ نعم ، من اجل اي امرى باستثناء جان فالجان . ان جان فالجان رجل ذو وجهين . وتلك عندي علامته الفارقة . لقد كان خليفاً باي انسان آخر ان يدرك أنه في وضع حرج حام فيضطرب . ويصرخ كما يصفر الاناء المعدني فوق النار . كان خليفاً به ان يقول إنه ليس جان فالجان ، الخ . ولكن هذا الرجل يتظاهر بأنه لا يفهم ان يقول : « انا شاتايو ، ليس عندي ما اقوله غير ذلك . » إنه يتظاهر بالدهش . إنه يمثل دور البهيمه . اوه ، إن الوغد داهية ! ولكن ، سيان . فهناك الدليل . لقد عرفه اربعة اشخاص ؛ وان النذل العجوز سوف يُدان . لقد رُفعت القضية الى محكمة الجنابات في آراس . وسوف امضي الى هناك لأدلي بشهادتي . لقد دُعيت من اجل ذلك . »

كان ميو مادلين قد ارتدت الى منضدته ، وانثأ يقلب اوراقه في هدوء ، فهو يقرأ حيناً وهو يكتب حيناً ، مثل رجل مثقل بالأعمال . ثم التفت الى جافير كره أخرى وقال :

— « كفى ، يا جافير . الواقع ان هذه التفاصيل كلها لا تهمني إلا قليلاً . نحن نضيع وقتنا ، ولدينا مهام ملحة ، يا جافير . اذهب في الحال الى منزل المرأة الطيبة بوزوبيه التي تباع الاعشاب في زاوية شارع سان سولف . وقل لها ان ترفع شكواها على سائق العربات بيير شينلون . إنه وحشي كاد ان يسحق هذه المرأة وطفلها . يجب ان يعاقب . ثم اذهب بعد ذلك الى ميو شارسيلي ، في شارع مونتر دو شاييني . انه يشكو من ان ثمة ميزاباً في احد البيوت المجاورة يقذف بيته بماء المطر ، على نحو يقوّض أساس البناء . وبعد ذلك ينبغي ان نتحقق في المحاللات التي رُفّع امرها اليّ ، والتي وقعت عند الارملة دوريس في شارع غيورغ ، وعند مدام رينيه لو بوسيه في شارع غارو - بلان ، وان

نضع تقريرك عنهما . ولكنني أثقل عليك بالعمل . ألم تقل لي انك ذاهب الى آراس ، خلال غائبة ايام او عشرة ايام ، لأمر يتصل بهذه المسألة ؟

- « أبكر من ذلك ، يا سيدي العمدة . »

- « في ايّ يوم اذن ؟ »

- « أحسب اني انبأت سيدي العمدة ان تلك القضية سوف تُنظر غداً ، وان عليّ ان أسافر بالعربة العمومية الليلة . »

وأتى مسيو مادلين بحركة لا تكاد تلاحظ .

- « وكَمْ ستستغرق هذه المسألة ؟ »

- « يوماً واحداً على الاكثر . وسوف يُلفظ الحكم غداً مساءً على الأبعد . ولكنني لن أنتظر صدور الحكم فهو راجح لا شك فيه . فما إن ادلي بشهادتي حتى ارجع الى هنا . »

فقال مسيو مادلين :

- « حسن . »

واذن له بالانصراف بحركة من يده .

ولكن جافير لم ينصرف . وقال :

- « عفواً ، يا سيدي العمدة . »

فسأله مادلين :

- « وماذا بعد ؟ »

- « سيدي العمدة ، هناك شيء آخر ارجب في أن ألفت نظرك

اليه . »

- « وما هو ؟ »

- « هو أنني يجب ان أشرح . »

ونفض مسيو مادلين .

- « جافير ، انت رجل شرف ، وأنا أقدرك . انك نبالغ في

تضخم غلطتك . والى ذلك ، فهذه مخالفة تعني اني انا . انت جدير بالتوقيع

لا بالاستقاط . انا اريد منك ان تحتفظ بمنصبك .
ونظر جافير الى مسيو مادلين ، بعينين هادئتين يُخَيِّل الى الناظر انه
يرى في اعماقها هذا الضير ، غير المستير ، وإن يكن صارماً طاهراً .
وقال في صوت هادي :
- « سيدي العمدة ، انا لا استطيع ان اوافق على ذلك . »
فقال مسيو مادلين :

- « أكرر ان هذه مسألة تتعلق بي شخصياً . »
ولكن جافير ، المستغرق في فكرته الوحيدة ، تابع الكلام :
- « أما المبالغة ، فأني لا ابالغ على الاطلاق . هذه هي الطريقة
التي افكر بها : لقد ارتبتُ بك في غير حق . وليس هذا شيئاً . إن
وظيفتنا قوامها الارتياب ، على الرغم من اننا قد نسيء استعمال حقنا
اذا ارتبنا في رؤسائنا . ولكن من غير يئس ، وفي سورة من
الغضب ، وبدافع من الانتقام الشخصي ، شكوكك بوصفك محكوماً سابقاً
بالاشغال الشاقة - انت ، الرجل المحترم ، العمدة ، الحاكم . هذه مسألة
خطيرة ، خطيرة جداً . لقد أهنتُ السلطة في شخصك ، انا العامل في
خدمة السلطة . ولو قد فعل احد رؤوسى ما فعلته اذن لاعتبرته غير
جدير بالعمل ، ولطرده من منصبه . ثم ماذا ؟ كلمة أخرى ،
يا سيدي العمدة . لقد كنت في معظم أيامي قاسياً على الناس ، وكان
ذلك عدلاً . لقد أحسنت في ذلك . والان ، اذا لم أكن قاسياً على
نفسي فان كل ما فعلته بعدل سوف يتقلب الى ظلم . هل يحسن بي
أن أتفق بنفسي اكثر من الآخرين ؟ لا . ماذا أقول ؟ اذا لم أحسن
إلا معاقبة الناس من دون نفسي فعندئذ اكون دينياً حقاً ! وعندئذ
يصبح أولئك الذين يقولون « هذا الوغد جافير » على حق . سيدي
العمدة ، انا لا اريد منك ان تعاملني في رفق . لقد كان اصطناعك
الرفق في معاملة الآخرين يهيج غضبي ، فأنا لا أبغيه لنفسي . ذلك الرفق

الذي قوامه الانتصار انت من بنات الهوى على مواطن من المواطنين ،
ولشرطي على عمدة ، ولرؤوس على رئيس - إنه ما أدعوه ، و الرفق
الموضوع في غير حمله . مثل هذا الرفق يشيع الفوضى في المجتمع .
يا الهي ، من البسير ان يكون المرء رفيقاً ، ولكن من العسير ان
يكون عادلاً . ولو أنك كنت كما ترهمنك ، لما كنت خليفاً بأن أرفق
بك . لا ، غيري الذي يرفق . ولقد كنت جديراً بأن ترى ، يا سيدي
العمدة . يتعين عليّ أن أعامل نفسي كما أعامل أي إنسان آخر . كثيراً
ما أقول لنفسي حين أزجر الاشرار ، وحين أعاقب الخالفين : « حذار
ان تَلي ، حذار أن أقض عليك متلبّة بخطيئة ! » لقد زلت . لقد
قبضت على نفسي متلبساً بخطيئة . لأمي المبجل ! يجب ان أقصى ، ان
أحطّم ، أن أسرع . هذا حسن . إن لي ذراعين . أنا لا أزال قادراً
على أن أفلح الارض ؛ ولست أجد في ذلك غشاة . إن المصلحة العامة
في حاجة الى مثل . وأنا لا أطلب غير تبريح المفتش جافير . »
وانما قيل ذلك كله في نبرة متضعة ، فخور ، يائسة ، جازمة خلعت
عظمة غريبة لا ميل الى وصفها على هذا الرجل التزيه الى حد عجيب .

فقال ميسو مادلين :

- « سنرى . »

وبسط يده نحوه .

وارتد جافير الى الوراء ، وقال في جرس خاد : :

- « عفواً ، يا سيدي العمدة . هذا شيء لا ينبغي ان يكون .

ان العمدة لا يبسط يده الى الجاسوس . »

وأضاف من بين أسنانه :

- « جاسوس ؛ أجل . فنذ اللحظة التي أسأت فيها استعمال سلطتي ،

لم أكن أكثر من جاسوس ! »

ثم انحنى الخنائة مغالى فيها ، ومضى نحو الباب .

وهناك استدار ، وعيناه ما تزالان مطرقتين الى الارض .
- « سيدي العمدة ، سوف استمرّ في الوظيفة حتى أصرّح . »
قال ذلك وخرج . واستغرق مسيو مادلين في تأملاته ، مصغياً الى
خطواته الثبّنة الراسخة فيما هي تتبعد متلاشية على ارض الرواق .

الكتاب السابع

قضية شانماتيو

١

الآخت سيمبليس

إن الاحداث التي سنقرأها لم 'تعرف كلها قط' في مونتروي سور مير . ولكن القليل الذي تسرّب منها قد ترك في تلك المدينة ذكريات 'يحدث إغفالها ، بتفاصيلها الدقيقة ، ثغرة في هذا الكتاب .

وبين تلك التفاصيل سيلقى القارئ حادثتين أو ثلاث حوادث غير ممكنة الوقوع 'نبتها احتراماً للحقيقة .

ففي الاصل الذي تلا زيارة جافير ، ذهب ميسو مادلين ليرى فانتين كالعادة .

وقبل ان ينتهي الى غرفة قانتين استدعى الاخت سيمبليلس .
كانت الراهبتان القانتان يعبد الخدمة في المستشفى ، وهما لعازارتان
مثل جميع راهبات المحبة هؤلاء ، تدعيان الاخت بيريتو ، والاخت
سيمبليلس .

وكانت الاخت بيريتو فتاة ريفية عادية انتت الى راهبات المحبة
في غير إبطاء . فتاة فظة دخلت في خدمة الله وكأنها تلتحق
بأيما عمل من الاعمال . كانت راهبة كما تكون غيرها طاهية . وليس هذا
الطراز نادراً . فالرهبانيات توحب بهذا الفخار الرقيق الثقيل الذي يسهل
تحويله الى « كبوشي » او « ارسولي » . * ومثل هذه الكائنات
الجلقة تُصطنع عادةً في مهام العبادة الأكثر خشونة . وليس ثمة خدمة
في انتقال المرء من راعي بقرة الى راهب كرملي . ان احد هذين
يستطيع ان يحل محل الآخر من غير كبير عناء . فالجهل ، وهو
الاساس المشترك الذي تقوم عليه القرية والدير ، هو في ذاته إعداد
مُنجز ، وهو بضع الريفي ، في الحال ، على مستوى واحد مع الراهب .
وسمع القميص قايلاً ، تحصل على ثوب الرهبانية . وكانت الاخت
بيريتو راهبة شديدة البأس ، من مارين ، قرب بونتواز ، تكثر
من استعمال التعابير الاقليمية ، وتتلو المزامير على نحو رتيب . وكانت
تؤاخذ الى التدمير ، تضع السكر في الدواء ، وفقاً لتطرف المريض في
التوى أو في الرباء ، جلقةً مع المرضى ، خشنة مع الموتى تكاد ان
تقذف بهم في وجه الرب قذفاً ، راجمة حشرجاتهم بصلوات مغضبة ، وقد
شاع الدم في وجهها وبدأت عليها أمارات الجسارة والطهارة .

اما الاخت سيمبليلس فكانت بيضاء شمعية اللون . وكانت اذا ما
قورنت بالاخت بيريتو اشبه ما تكون بشمعة طويلة عسكية المادة الى
جانب شمعة مُصنعت من شمع . ولقد سبق للقديس فنان دو بول ان

* الكبوشية والارسولية رهبانان مروجتان .

رسم أكمل ما يكون الرسم صورة لراهبة المحبة في هذه الكلمات الرائعة التي يمزج فيها كثيراً من الحرية بكثير من العبودية : « إن ديرها الأوحـد سوف يكون بيت المرضى ، وفـلـيـتـها « الوحيدة غرفة « متـأجـرة . ولن يكون لها معبد غير كنيسة الابـرشيـة ، ولا محبس غير شوارع المدينة أو غرف المنـشـى . ولن يكون سياجها غير الخضوع ، وحاجزها المقصـب غير خوف الله ، وخمارها غير الحياء . » وإفـنـا نجـتـد هـذا المثل الأعلى حيّاً في الأخت سيمبليس . إن أحداً ما كان قادراً على أن يحزر عمر الأخت سيمبليس . إنها لم تكن شابة في يوم من الأيام ، ولقد بدا وكأنها لن تشيخ في يوم من الأيام . كانت شخصاً – فنحن لا نجرؤ على أن نقول امرأة – هادئاً ، عابساً ، حسن العشرة ، بارداً لم تكذب طوال عمرها مرة واحدة . كانت من اللطف البالغ بحيث تبدو قصيدة سريعة الانكسار ، ولكنها في ما عدا ذلك أشدّ صلابة من الصوّان . كانت تمسّ البائسين بأصابع فاتنة ، رفيعة ، طاهرة . كان ثمة – إذا جاز التعبير – صمتٌ في كلامها . كانت تقول ما هو ضروريّ ليس غير ، وكان لها جرس قادر على أن يثير كرميّ اعتراف ، وعلى أن يفتح صالوناً من الصالونات ، في وقت معاً . وكانت هذه الرقة تكبف نفسها مع الثوب الصوفي الاسمر الحشن واجدة في لمسة الجافية مذكراً دائماً بالجنة وبالله . ولتؤكد مسألة واحدة : أن كونها لم تكذب قط ، ولم تقل قط – لأي غرض مهما يكن ، بل ولغير ما غرض – كلمة واحدة ليست هي الحقيقة ، الحقيقة المقدسة – إن هذه الواقعة كانت هي شبة الأخت سيمبليس الميزة . كانت آية فضيلتها . وقد كادت تكون شهيرة في الرهبانية بسبب من هذا الصدق الثابت الخنان . وإفـنـا تـحدـث الراهب سيكارد عن الأخت سيمبليس في رسالة بعث بها إلى « ماسيو » الاسم الأبكم . إننا مهما نكون مخلصين ، أمناء ، طاهرين نحمل كلنا طابع كذبة صغيرة برؤسـة . أما هي فلا . كذبة صغيرة ، كذبة

• الغاية : شبه الصومعة .

بريئة ، هل يوجد شيء مثل هذا ؟ الكذب هو الشر المطلق . والكذب قليلاً ليس شيئاً مكنياً . إن ذلك الذي يكذب ، يكذب كذبة كاملة . الكذب هو وجه الشيطان نفسه . إن لابلوس إسمين ، فهو يدعى إبليس ، وهو يدعى الكذاب . تلك كانت افكارها . وكما كانت تفكر ، كانت تعمل . ومن هنا هذا البياض الذي تحدثنا عنه ، البياض الذي يغطي بأشعاعه حتى شفيتها وعينها . كانت ابتسامتها بيضاء ، وكانت نظرتها بيضاء . لم يكن ثمة نسيج عنكبوت ، او ذرة من الغبار على زجاج ذلك الضمير . وحين نذرت نفسها للعمل تحت لواء القديس فنان دو بول اتخذت اسم سيمبلوس باختيار خاص . وسيمبلوس الصقلية هي ، كما هو مشهور ، تلك القديسة التي آثرت ان يُقتلع ثدياها الاثنان على ان تجيب - وهي التي ولدت في سيراكيوس - بقولها انها ولدت في سيجيستا ، وتلك كذبة كان جديراً بها ان تنقذها . كانت هذه القديسة الشفيعة ، تلاثم هذه النفس .

وكانت للاخت سيمبلوس ، حين دخلت الرهبانية ، علتان تحررت منهما شيئاً بعد شيء . كانت تحب الحلويات ، وتحب ان تتلقى الرسائل . اما الان فلم تعد تقرأ غير كتاب صلاة ضخيم الحروف لانيني اللغة . لم تكن تفهم اللاتينية ، ولكنها فهمت الكتاب .

وانعطف قلب المرأة التقية على فانتين ، ولعلها ان تكون قد لمست فيها فضيلة كامة ما ، ووقفت نفسها وقفاً كاملاً تقريباً على العناية بها . وانتفى ميسو مادلين بالاخت سيمبلوس مكاناً ، وأوصاها بفانتين في نبرة غريبة تذكرتها الاخت في يوم نال .

حتى اذا فارق الاخت ، اقترب من فانتين .

كانت فانتين تنتظر كل يوم ظهور ميسو مادلين كما ينتظر المراهقة شعاعاً من الدفء ومن البهجة . وكانت تقول للراهبتين :

- « أنا لا أحيا إلا حين يكون السيد العمدة هنا . »

وفي ذلك اليوم اشتدت عليها وطأة الحمى . فلم تكـد ترى مسيو
مادلين حتى سأله :

— « كوزيت ؟ »

فأجابها في ابتسامة :

— « قريباً جداً . »

وبدا مسيو مادلين ، وهو الى جانب فانتين ، في حالة المعتادة .
بيد أنه أقام عندها هذه المرة ساعة بدلاً من نصف ساعة ، موقفاً بذلك
اعظم الرضا في نفس فانتين . ولقد ألح ألف مرة على كل امرئ بأن
تلبس مطالب المريضة كلها . ولقد لوحظ أن محبته بدا ، في لحظة من
اللمحات ، قائماً جداً . ولكن تفسير ذلك ما لبث ان اتضح عندما عرف
ان الطبيب قال له بعد ان انحنى فوق اذنها :

— « إن قواها تتلاشى في سرعة . »

ثم انه رجع الى مكتب العدة ، فرآه الخادم يدرس في دقة خريطة
من خرائط الطرق في فرنة تتدلى على جدار غرفته . ولقد صور بعض
الارقام بقلم رصاصي على قصاصة من الورق .

٢

ذكاء المعلم سكوفليو

ومن مكتب العدة مضى الى ضواحي المدينة قاصداً الى وجـل
فلنكي * يدعي المعلم سكاوفلر — وقد فرُنِسَتْ قَامَت سكوفليو —
وكان يؤجر الحبل ويؤجر « العربات الخفيفة لمن يشاء » .
وكانت اقصر الطرق للذهاب الى سكوفليو هذا تقضي بسلوك شارع

* الفلنكيون : أبناء بلاد الفلاندر .

نادراً ما تطأه الأقدام ، حيث كان بيت كاهن الابرشية التي يعيش فيها
 ميو مادلين . وكانت الكاهن ، كما قيل ، رجلاً جليلاً عتوماً ، ذا
 رأي ونصيحة . وفي اللحظة التي انتهت فيها ميو مادلين الى بيت
 الكاهن لم يكن في الشارع غير عابر سبيل واحد . ولقد لاحظ عابر
 السبيل هذا ما يلي : أن العمدة ، بعد ان تخطى منزل الكاهن ، وقف
 لحظة ، ثم ارتدت على آثاره حتى باب ذلك المنزل ، وكان باباً ضخماً ذا
 قارعة حديدية . وأمسك بتلك القارعة بقوة ، ورفعها ، ثم وقف من جديد ،
 متمهلاً لحظة وكأنه يفكر ؛ وبعد بضع ثوانٍ اعاد القارعة في تلاتطف
 الى مكانها بدلاً من ان يقرع الباب بها في صخب ، واستأنف سيره بضرب
 من العجلة لم يصطنعه من قبل .

ووجد ميو مادلين المعلم سكوفليز في بيته منهكاً في إصلاح جهاز
 من أجهزة الخيل .
 وسأله :

- « ايها المعلم سكوفليز ، هل عندك جواد أصيل ؟ »
 فقال الرجل الفلمنكي :

- « سيدي العمدة ، إن جميع جيادي اصائل . ماذا تعني بالجواد
 الأصيل ؟ »

- « اعني جواداً يستطيع ان يقطع عشرين فرسخاً في اليوم . »
 فقال الفلمنكي :

- « يا للشيطان ! عشرين فرسخاً ! »

- « نعم . »

- « مقروناً الى عربة ؟ »

- « نعم . »

- « وكم سوف يستريح بعد الرحلة ؟ »

- « يجب ان يكون قادراً على ان يعود في اليوم التالي اذا

اقتضت الحال . »

- « ليقطع المائة نفسها مرة اخرى ؟ »

- « نعم . »

- « يا للشيطان ! يا للشيطان ! وهي عشرون فرسخاً ايضاً ؟ »

واخرج مسيو مادلين الورقة التي سبق له ان دوّن عليها بعض
الارقام بقلم رصاصي . وأطلع الرجل الفلمنكي على تلك الارقام . فاذا
هي ٥ و ٦ و ١/٢ و ٨ .

وقال :

- « ترى ، المجموع تسعة عشر ونصف ، وبكلمة ثانية عشرون
فرسخاً . »

فاستأنف الفلمنكي كلامه :

- « سيدي العمدة ، عندي ما تطلبه تماماً . إنه جوادي الابيض
الصغير . ولا ريب انك رأيت في بعض الطريق احياناً . إنه بهيمة
صغيرة من « بولونيه الدنيا » . إنه مفعم بالنار . لقد حاولوا اول الامر
ان يتخذوا منه حصاناً للركوب ، ولكنه اخذ في الرفس ، وأزلّ عن
صهوته كل من حاول امتطائه . وظنوا انه حرون ، ولم يدروا ما الذي
ينبغي ان يفعلوه . واشترتته وقرنته الى عربة خفيفة . ذلك ما كانت
يريده ، يا سيدي . إنه رفيق الحاشية ، مثل فتاة من الفتيات . إنه
ينطلق كالرياح . آه ، مثلاً ، ينبغي ان لا يمتطي المرء صهوته . ليس
من رأيه ان يكون فرس ركوب . إن لكل فرد طموحه الخاص .
اريد ان اجرّ ، لا أن أحمل : ينبغي ان تؤمن بأنه قال ذلك لنفسه . »

- « وسوف يقوم بالرحلة ؟ »

- « اجل سوف يقطع العشرين فرسخاً التي تتحدث عنها ، وسوف
يقطعها تحسباً ، وفي أقلّ من ثلثي ساعات . ولكن ثمة بعض الشروط . »

- « ما هي ؟ »

- « أولاً ، يجب ان تدعه يتنفس ساعة حين تبلغ منتصف الطريق .
وعندئذ يأكل ؛ وينبغي ان يقف الى جانبه بينما هو يأكل شخصٌ ما
لكي يمنع صبي الحان من مرقعة شوفانه . لاني لاحظت ان الشوفان
يشربه صبية الحانات اكثر مما تأكله الخيل . »

- « ان شخصاً ما ، يجب ان يكون هناك . »

- « ثانياً ... اريد سيدي العمدة العربية لنفسه ؟ »

- « نعم . »

- « هل يعرف سيدي العمدة كيف يسوقها ؟ »

- « نعم . »

- « حسن . اذن فيسيدي العمدة سوف يرتحل وحده من غير ائتمنة .

لكي لا يرهق الجواد . »

- « موافق . »

- « ولكن لما كان سيدي العمدة سيسافر وحده ، فسوف يُضطر

الى أن يتجشم عناء حراسة الشوفان بنفسه . »

- « لا بأس . »

- « اريد ثلاثين فرنكاً يومياً . على ان تُدفع ايام الراحة ايضاً .

ولست أَرْضَى اقلّ من ذلك بربع « سو » . وعلى سيدي العمدة ان

يتحمل نفقة العليق . »

واخرج ميو مادلين من كيس نقوده ثلاث ليرات ذهبية نابوليونية

ووضعها على الطاولة قائلاً :

« هذه اجرة يرمين ، مقدّماً . »

- « رابعاً ، إن العربية قد تكون ثقيلة جداً بالنسبة الى رحلة

كهذه ، وقد ترهق الجواد . لذلك ينبغي ان يوافق سيدي العمدة على

السفر في عربية صغيرة ذات دولابين موجودة عندي . »

- « اوافق على ذلك . »

- « إنها خفيفة ، ولكنها مكشوفة . »
- « كل ذلك سواء عندي . »
- « هل فكر سيدي العمدة اثنا في فصل الشتاء ؟ »
- ولم يجب مسيو مادلين . وتابع الفلمنكي كلامه :
- « وأن الجو بارد جداً ؟ »
- وظلّ مسيو مادلين معتصماً بالصمت .
- وتابع المعلم سكوفليو :
- « وأنا قد نظرت ؟ »
- فرجع مسيو مادلين رأسه وقال :
- « إن الجواد والعربة المكشوفة سوف يكونان أمام بابي غداً في الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »
- فأجاب سكوفليو :
- « اتفقنا . »
- قال ذلك ، وأنشأ يحدش بظفر إبهامه لطخة كانت على خشب الطاولة ليستأنف بعد حديثه بتلك الانطباع اللامبالية التي يحسن أبناء الفلاندر مزجها بدهائهم :
- « ولكن يا عجباً ! أنا لم افكر بذلك إلا الآن . ان سيدي العمدة لم يخبرني الى اين يعتزم أن يذهب . الى اين سيذهب سيدي العمدة ؟ »
- ولم يكن قد فكر بشيء آخر منذ بدء المحادثة ، ولكنه لم يجزؤ - من غير ان يدري لماذا - على أن يطرح هذا السؤال .
- فقال مسيو مادلين :
- « هل لجوادك قائمتان اماميتان قويتان ؟ »
- « نعم ، يا سيدي العمدة . يجب ان تكعب جاحه قليلاً حين تهبط الكتيب . هل ثمة منحدرات كثيرة من هنا الى المكان الذي تعتزم

الذهاب اليه ؟

فأجابه مسيو مادلين :

- « لا تنسَ ان تكون عند باب داري في تمام الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »
وخرج .

وغرد الرجل الفلمنكي « مصعوقاً » ، كما عبّر هو نفسه في ما بعد .
ولم تكده نغضي على ذهاب العمدة دقيقتان او ثلاث دقائق حتى قُتِح الباب من جديد . كان القادم هو السيد العمدة .
كانت نعلو وجهه سياه المعتادة الممتعة على التأثر ، الشاردة الذاهلة .
وقال :

- « مسيو سكوفليز ، بكم تقيم الجواد والعربة المكشوفة اللذين ستزودني بهما ، حاملاً أحدهما الآخر ؟ »

فقال الفلمنكي في ضحكة عالية :

- « جاراً أحدهما الآخر . »

- « كما نحب . بكم ؟ »

- « اريد سيدي العمدة ان يشتريها ؟ »

- « لا ، ولكنني اريد ان اضمنها لك على أية حال . حتى اذا

رجعت كان في إمكانك ان تعيد اليّ المبلغ . بكم تقيم الجواد والعربة المكشوفة ؟ »

- « بمخمسة فرنك ، يا سيدي العمدة ! »

- « ها هي ذي . »

ووضع مسيو مادلين ورقة نقدية على الطاولة ، ثم خرج ، ولكن من غير ان يعود هذه المرة .

وندم مسيو سكوفليز اعظم الندم لأنه لم يقل ألف فرنك . والواقع ان الجواد والعربة المكشوفة لم يكن ثمنها ليزيد - معاً - على مئة

ريال .

وفادي الرجل الفلمنكي زوجته وروى لها المسألة . يا للشيطان ! ولكن الى أين يمكن للعمدة ان يذهب ؟ وتحدث في ذلك . فقالت الزوجة : « انه ذاهب الى باريس . » فقال الزوج : « لست اعتقد ذلك ، وكان مسيو مادلين قد نسي الورقة التي دون عليها الارقام ، تاركاً ايهاا على الموقد . فتناولها الفلمنكي وراح يدرسها . » خمسة ، ستة ، ثمانية ونصف ؟ لا شك في ان هذه الارقام تشير الى محطات البريد . ، والتفت الى زوجته قائلاً : « لقد اكتشفتها . » - « كيف ؟ » - « هناك خمسة فراسخ تفصل بيننا وبين هسدين ؛ وستة من هسدين الى سان بول ؛ وثمانية ونصف من سان بول الى آراس . إنه ذاهب الى آراس . »

وفي غضون ذلك كان مسيو مادلين قد انتهى الى منزله . ولقد اتخذ عند عودته من منزل المعلم سكوفليو ، الطريق الطويلة ، لكأنّ باب دار الكاهن كان ضرباً من الاغواء ، فهو يريد ان يجتنبه . وصعد الى غرفته ، واوحد من دونه الباب ، وهو امر لم يكن يلفت النظر ، إذ كان من عادته ان يأوي الى الفراش باكراً . وابتأ ما كان فأن حارسة المصنع ، التي كانت في الوقت نفسه خادمة مسيو مادلين الوحيدة ، لاحظت ان ضوءه قد انطفأ في الساعة الثامنة والنصف ، فذكرت ذلك لامين الصندوق الذي رجع ادراجه ، مضيفاً :

- « هل السيد العمدة مريض ؟ أحسب ان هيئته كانت غريبة بعض الشيء . »

وكان امين الصندوق يجتلي غرفة تقع تحت غرفة مسيو مادلين قاماً فلم يلتق بالاً الى كلام البوابة ، وآوى الى فراشه ، ونام . وحوالى منتصف الليل استيقظ من رقاذه فجأة . كان قد سمع ، فيها هو نائم ، ضجة فوق رأسه . واصفى . فاذا خطى تروح ونجى ، وكان شخصاً

ما ، يشي في الغرفة التي فوقه . واصفى في ابتداء أشد ، فتبين وقع خطي مسيو مادلين . وبدأ ذلك غريباً في نظره . فما كانت لتسمع ، عادةً ، أي ضجة في غرفة مسيو مادلين قبل نهوضه من النوم . وبعد لحظة ، سمع امين الصندوق شيئاً كأنه صوت خزانة 'تفتح وتغلق' . ثم ان قطعة من الالاث 'حركت' ، وتبع ذلك فترة صمت اخرى ، وانشأت الخطي 'روح وتجي' . واستوى امين الصندوق قاعداً في فراشه ، ونفض عنه النعاس ، ونظر . ومن خلال زجاج نافذته رأى على الجدار المقابل انعكاس النور من نافذة مضادة انعكاساً ضارباً الى الحمرة . ومن اتجاه الأشعة لم يكن في الامكان أن تكون تلك النافذة غير نافذة غرفة مسيو مادلين . وارتعش الانعكاس وكأنه صادر من نار ساطعة لا من نور من الانوار . ولم يكن في الامكان ان 'يؤي ظل' اطار النافذة المزعج ، وذلك ما دل على ان النافذة كانت مفتوحة على مصراعها . واذ كان البرد قارساً ، فقد كانت هذه النافذة المشرعة مدعاة الى العجب . واستلم امين الصندوق للرقاد ، كرة اخرى . وبعد ساعة او ساعتين استيقظ من جديد . كانت الخطي نفسها ، بطيئةً ونظاميةً ، 'روح وتجي' على نحو موصول فوق رأسه . وظلّ الانعكاس مرتسماً على الجدار ، ولكنه غدا الآن شاحباً شيئاً مثل ضوء مصباح او شمعة . كانت النافذة ما تزال مفتوحة . فلنر ما الذي كان يجري في غرفة مسيو مادلين .

٣

عاصفة في دماغ

لا ريب في ان القاري قد حزر ان مسيو مادلين لم يكن غير جان فالجان .

ولقد سبق لنا ان نظرنا الى اعماق ذلك الضير . وها قد آرف
الوقت لتعاود النظر اليها من جديد . ولست نفعل ذلك من غير انفعال ،
ومن غير ارتجاف ، فليس ثمة ما هو ادعى الى الرعب من هذا الضرب
من التأمل . فالعين العقلية لا تستطيع ان تجد في ايما مكان شيئاً اعظم
إذهاً وأحلك ظلاماً مما تجده في الانسان . إنها لا تستطيع ان تحدق
الى شيء أرهب ، أو أعقد ، أو أدهش ، أو أكثر لانهايةً . هناك
مشهد واحد اعظم من البحر ؛ ذلك هو مشهد السماء . وهناك مشهد واحد
اعظم من السماء ؛ ذلك هو باطن النفس البشرية .

إن نظم قصيدة الضير الانساني ، ولو كان ضمير رجلٍ كفرد ، بل
ولو كان ضمير اسفل الناس وأحطهم ، يقتضيها اذابة جميع الملاحم في
ملحمة عليا ونهاية . الضير هو هيرلى الاوهام ، والشهوات ،
والاغراءات ؛ هو بوقعة الاحلام ؛ هو مفارقة الافكار التي نستحي بها . إنه
وكر المغالطات ، وساحة الحرب التي تصطرع فيها الاهواء . إخترق في
بعض الساعات حجاب الوجه الازرق المسود الذي يحمله كائن بشري مستغرق
في التفكير ، وانظر الى ما وراءه . انظر الى تلك النفس . انظر الى تلك
الظلمة . ان هناك ، تحت الصمت الخارجي ، صراعاً بين العرافة كالذي نجده
عند هوميروس ، ومعارك بين الثنائين والهدريات * وحشوداً من الاشباح
كالتي تقع عليها عند ميلتون ، ومتاهات مخيفة كالتي نلقاها عند دانتي .
اي شيء مظلم هي تلك اللانهاية التي يحملها كل امريء في ذات نفسه ،
والتي يقبس بها في يأسر وغياب دماغه ، وافعال حياته !
لقد انتهى آليغيري ** ذات يوم الى باب مشؤوم وقف أمامه مترددآ ،
وها نحن اولاء امام باب آخر نقف على عتبة متددبن . ومع ذلك
فلندخل .

* hydre وهي في البيولوجيا اسمى ذات سبعة رؤوس .

** يقصد الشاعر دانتي آليغيري صاحب « الكوميديا الالهية » .

وليس عندنا غير القايل نضيفه الى ما سبق للقاري. ان عرفه عما وقع لجان فالجان منذ حادث جيوفيه الصغير . كان منذ تلك اللحظة - كما رأينا - رجلاً آخر . وكان قد حقق ما أرادته الاسقف له . كان ذلك اكثر من تحوّل ؛ كان خلقاً جديداً .

لقد 'وفى' الى الغياب عن الميان ، وباع آنية الاسقف الفضية ، محتفظاً بالشعدانين فقط للذكرى ، مناسباً في هدوء من مدينة الى مدينة ، عبر فرنسة ، وافداً على مونتروي سور مير ، حيث النعت في ذهنه الفكرة التي وصفنا ، وحقق ما سبق ان وويناه ، وبلغ غاية من الرفعة جعلته أمنع ما يكون ، وأعزّ ما يكون ؛ ومن ذلك الحين استقرّ في مونتروي سور مير ، سعيداً بأن بحسّ بأن ضميره المحزون بماضيه ، وبالنصف الاول من حياته ، قد نعيم بالارتياح الى ما حقق في النصف الاخير . لقد عاش في أمن ، وطأئينة ، وأمل ، وليس يشغل باله غير امرين اثنين : ان يخفي اسمه ، وأن يطهر حياته . أن يجتنب الناس ، وان يرجع الى الله .

وكانت هاتان الفكرتان تترجان في ذهنه امتزاجاً قوياً جعل منهما كلاً واحداً . كانتا كلتاهما على مقدار واحد من القدرة على شغل البال ، وعلى فرض الارادة ، وكانتا تتحكمان بأضال اعماله واقلها بشأناً . وكانتا في الاحوال العادية متناهتين في تنسيق سلوكه في الحياة . لقد وجهته نحو الجانب المظلم من الحياة . لقد جعلته عطوفاً بسيط الفؤاد . لقد ارشدها الى الاشياء نفسها . بيد ان تعارضاً كان ينشأ بينها في بعض الاحيان . وفي مثل هذه الأحوال ، كما نذكر ، كان الرجل الذي عرفته المنطقة كلها المحبطة بمونتروي سور مير باسم ميو مادلين لا يتردد عن التضحية بالاولى في سبيل الثانية ، عن تضحية سلامته من اجل فضيلته . وهكذا احتفظ ، برغم كل احتراس وتبصّر ، بشعداني الاسقف ، وليس ثوب الحداد عليه ، واستدعى جميع غلات سافوا

الصغار ووجه اليهم الاسئلة ، وجمع المعلومات عن أسر فامبول ،
وانقاذ حياة فوشلوفان العجوز ، برغم ضروب التلميح المطلق التي قدّمها
جافير . لقد بدا ، كما لاحظنا من قبل ، وكأنه كان يعتقد - أسرة
بجميع اولئك الذين تحقّقوا بالحكمة ، والقداسة ، والعدل - ان واجبه
الاسمي لم يكن نحو نفسه هو .

ولكنّ اباً من هذه المناسبات - وهو أمرٌ ينبغي ان ننصّ عليه -
لم تكن لتشبه هذه التي عرّضت الآن .

إن الفكرتين اللتين هبنتا على هذا الرجل البائس الذي نزوي آلامه
لم يُقدّر لهما ان تخوضا مثل هذا الصراع الخطير من قبل . لقد ادرك
ذلك على نحو غامض ، ولكنه صيق ، من أولى الكلمات التي نطق بها
جافير عند دخوله مكتبه . فلم يكّد ذلك الاسم الذي دفعه تحت تلك
الظلمات كلها يُلفظ على ذلك النعور العجيب حتى استبدّ به الذهول ،
وكأنما أسكرته غرابية قدره المشؤومة . ومن خلال ذلك الذهول
استشعر الرعدة التي تسبق الصدمات الكبرى . لقد انحى مثل سندبانة
عند اقتراب العاصفة ، مثل جندي عند اقتراب القارة المعادية . لقد
استشعر ان ثمة سحائب مفعمة بالرعد والبرق تجتمع فوق رأسه . وحتى
وهو يصغي الى جافير كان اول ما خطر له أن يمضي ، ان يركض ،
ان يعلن عن هويته ، ان يسحب شاتاغيو هذا من السجن ، أن يضع
نفسه محله . كان ذلك أليماً ممخّاً مثل طعنة في اللحم الحي ، ولكنه
ما لبث ان تقضى ، وعندئذ قال في ذات نفسه : « دعني ارى !
دعني ارى ! » وكبت ذلك الحافز الاول الكريم ، وتراجع أمام مثل
هذه البطولة .

ولا ريب في أنه كان يكون من الجليل - بعد كآلمات الاسقف
القدسية ، وبعد سنوات متعددة من التوبة وإنكار الذات ، وفي خمرة
من ندامة استهلت استهلاً رائعاً - ان لا يتعثر هذا الرجل لحظة حتى

أمام حدرس وظيع الى هذا الحد ، وان بواصل سيره بخطى مطردة نحو تلك الهاوية الفاغرة فاعا ، والتي تقوم الجنة في قصرها . اجل ، كانت ذلك يكون جيلاً ، ولكن الامور لم تجر على هذا النسق . وينبغي علينا ان نتحدث في تفصيل عما اعتل في تلك النفس ، وليس في استطاعتنا ان نقول غير ما كان هناك . لقد علت عليه اول الأمر غريزة حفظ الذات فسارع الى جمع شتات افكاره ، وكبت انفعالاته ، واخذ بعين الاعتبار وجرد جافير ، ذلك الخطر الكبير ، وارجأ اتخاذ اي قرار بمثل رموخ الذعر ، ونفى من ذهنه كل تفكير بالسبل التي يتعين عليه سلوكها ، واستعاد هدوءه كما يتودد المقاتل ترسه .

وسلخ بقية اليوم على هذه الحال : عاصفة في باطنه ، وهدوء كامل في ظاهره . إنه لم يتخذ غير ما يمكن ان يدعى إجراءات احتياطية . كان كل شيء لا يزال مختلطاً متلاطماً في دماغه . وكان من الاضطراب بحيث تعذر عليه ان يتبين شكل أبما فكرة على نحو واضح ، وبحيث تعذر عليه ان يقول شيئاً عن نفسه ما خلا انه تلقى اللحظة ضرباً قوياً . ومضى وفقاً لعادته الى سرير فانتين المرّخي ، وأطال زيارته هذه ، بغريزة الطيبة ، قائلًا لنفسه إن عليه ان يفعل ذلك ، وأن يوصي الراهبتين بضرورة العناية الفائقة بها ، في حال اضطرابه الى العيبة . لقد أحسن إحساساً غامضاً بأنه قد يتعين عليه ان يذهب الى آراس . ومن غير ان يعقد النية بحال من الاحوال على القيام بهذه الرحلة قال لنفسه ان في استطاعته ، ما دام في نجوة كاملة من الارتباب ، ان يشهد ما سوف يحدث ، فحجز عربة سكوتلير المكشوفة ، استعداداً لايمّا طارياً . يطراً .

وتناول طعام العشاء في شبة حنة .

حتى اذا انقلب الى غرفته جمع شتات افكاره .

لقد درس الوصف فوجد أنه شيء لم 'يسع' بثله من قبل . كانت

شيئاً لم يُسمع بثله الى درجة دفعته - في غمرة هواجسه ، وبدافع غريب من قلق يكاد يمنع على التغير - الى ان ينفض عن كروسيه ، ويفلق باب غرفته بالحديد . لقد خشي ان يدخل عليه شيء آخر . لقد تحصن دون الاحتمالات جميعاً .

وبعد لحظة أطلق ضوء مصباحه . كان ذلك الضوء يزعجه .

اقد بدا له ان في مبسور المرء ان يراه .

من ؟ المرء ؟

والأفء ! إن ما أراد أن يرصد الباب دونه قد دخل . إن ما

أراد ان يُعصيه كان ينظر اليه . ذلك هو ضميره .

ضميره ، يعني الله .

ومع ذلك ، فقد خدع نفسه في اللحظة الاخيرة . لقد استشعر

الأمن والعزلة . واعتقد . إذ اوصد الباب بالحديد - أنه في حرز

حريز . ومملك نفسه . لقد اسند مرفقيه الى الطاولة ، وأراح رأسه

على يده ، وانشأ يتأمل في الظلام :

- أين أنا ؟ - ألت في حلم ! - ما الذي سمعته ؟ أصبح

حفاً اني رأيت جانيرو هذا وانه تحدث إليّ هكذا ؟ - من يمكن ان

يكون شاتاغير هذا ؟ هو يشبهني اذن ؟ - هل هذا ممكن ؟ -

حين افكر اني كنت أمس على مثل ذلك الهدوء ، وكنت ابعد ما

اكون عن الارتياح بشيء ! - اي شيء كنت أعمله أمس في مثل

هذا الوقت ؟ ما الذي تنطوي عليه هذه المسألة ؟ - إلام سوف

تؤدي ؟ ما الذي يجب ان يُعمل ؟

ذلك كان الاعصار الذي عصف به . كان عقله قد فقد القدرة على

أن يكبح جماح افكاره . كانت تندفع كالأمواج ، وكان يملك رأسه

بيده الاثنين لكي يوقفها .

ومن هذه الجلبة التي اطلقت إرادته وعقله ، والتي حاول ان ينتزع

منها يقيناً وعزماً لم ينبعث شيء غير الألم النفسي المبرح .
كان دماغه يغلي . لقد مضى الى النافذة ، ففتحتها على مصراعها ، لم
يكن ثمة نجم واحد في السماء . ورجع ، وجلس قريباً من الطاولة .
وهكذا تقضت الساعة الاولى .

وشبهاً بعد شيء ، بدأت بعض الخطوط العامة تتشكل ، برغم ذلك ،
وتركز نفسها في تأملاته . وامسى في ميسوره ان يلح ، بدقة الحقيقة ،
لا الوضع كله ، ولكن بعض تفاصيله .

لقد شرع يدرك أنه كان سيداً مطلقاً على ذلك الوضع ، مهما يكن
حرجاً ، ومهما يكن قائماً للمادة .
ولم يزدد ذهوله إلا عمقاً .

فبصرف النظر عن الغاية الزهدية والدينية التي استهدفتها اعماله لم يكن
كل ما فعله حتى ذلك اليوم غير قبر كان يحفره ليدفن فيه اسمه . وكان
أخوف ما خافه دائماً ، كلما خلا الى نفسه ، في لياليه الأرقه ، هو أن
يسمع احداً يتلفظ بذلك الاسم في يوم من الايام . لقد استشر ان
ذلك خلق بأن يكون ، بالنسبة اليه ، نهاية كل شيء ؛ وأن اليوم الذي
يعود فيه ذلك الاسم الى الظهور سوف يشهد زوال حياته الجديدة من
حوله . ومن يدري ، فلعلة ان يشهد زوال روحه الجديدة من ذات
نفسه . وارتعد لمجرد التفكير بأن ذلك ممكن . ولو ان امرأ قال له في
مثل تلك اللحظات ان ساعة قد تأتي فترجع ذلك الاسم في أذنه ؛ وأن
هاتين الكلمتين البشتين ، جان فالجان ، سوف تنبئان فجأة من قلب
الظلام وتنفان أمامه ؛ وان هذا الضياء الخفيف المقدّر له ان يبدد السر
الذي أحاط به نفسه سوف يلتصع فجأة فوق رأسه ؛ وان هذا الاسم
لن يتوعدده ؛ وأن هذا الضياء لن يزيد الظلام الذي يكتنفه الا حلكة ؛
وأن تمزيق ذلك الحجاب سوف يزيد الفزع إبهاماً ؛ وأن هذا الزلزال
سوف يثبت صرحه ؛ وأن هذه الحادثة المعجبة لن يكون من نتائجها ،

بالنسبة اليه ، وقد بدت له جيدة جداً ، غير جعل وجوده اكثر اشراقاً ،
في الحال ، وأبعد مثلاً ؛ وأن المواطن الطيب الحليل ، مسير مادلين ،
سوف يخرج من لقائه مع شبح جان فالجان ، وهو ينعم بتشريف اكبر
وأمن أوفر ، واحترام أعظم مما تمتع به في أي وقت مضى لو ان
امراً قال له ذلك إذن لهز رأسه ، واعتبر هذه الكلمات هراء . حسناً !
لقد وقع ذاك على وجه الضبط . كان تجمع المستحيل هذا كله قد أمسى
حقيقة ، الآن ، وكان الله قد اجاز لهذه الحقايق كلها ان تصبح أشياء
واقعية .

وازداد تفكيره وضوحاً ، على نحو موصول . لقد صار أقدر على
ان يلقي نظرة أرحب على وضعه .

لقد بدا له وكأنه استفاق اللحظة من سبات عجيب ، وأنه وجد
نفسه ينزلق فوق منحدر ، في جوف الليل ، واقفاً ، مرتجفاً ، مرتدّآ
الى الوراء على غير طائل ، وعلى قيد شجرة من هاوية . ولمح على نحو
واضح ، في غمرة الظلام ، رجلاً مجهولاً ، رجلاً غريباً ، ظنه القدر إياه ،
فهو يدفعه الى الهوة بدلاً منه . كان ضرورياً ، لكي تنفلق تلك الهوة ،
ان يقع فيها شخص ما ، هر او الرجل الغريب .

ولم يكن عليه الا ان يترك المسألة وشأنها .

وغدا الضياء كاملاً . وادرك هذا : - أن مكانه في سجن المحكوم
عليهم بالاشغال الشاقة كان شاعراً ، وأنه مهما يفعل فإن مكانه داك
ينتظره دائماً ، وان سرقة مال جرفيه الصغير قد أعادته الى هناك ،
وان هذا المكان الشاعر سيظل ينتظره ويجذبه حتى يثوب اليه ، وان
هذا امر محتوم لا مفر منه . ثم قال لنفسه : إن له في هذه اللحظة
بالذات بدلاً ، وان رجلاً يدعى شانتايو قدّر عليه ان يتحمل هذا
الطالع السيء ، أما هو . هو الذي سيدخل سجن المحكوم عليهم
بالاشغال الشاقة في شخص شانتايو هذا ، والذي يجبا في المجتمع تحت

امم مسير مادلين - وليس له ما يخشاه بعد ، شرط ان لا يحول بين الناس وبين ان يُثقلوا رأس شاتانيو هذا بجحر العار الذي يوضع مرة ، مثل حجر القبر ، ثم لا يُرفع ابداً .

وكان ذلك كله من العنف والغرابة بحيث استشعر فجأة ذلك الضرب من الحركة التي لا سبيل الى وصفها والتي لا يعرفها المرء اكثر من مرتين او ثلاث مرات طوال حياته - استشعر ضرباً من اختلاج الضمير الذي يثير كل ما يرتاب فيه القلب ، وهو يتأفف من التهمك والبهجة والبأس ، والذي نستطيع ان ندعوه انفجار الضحك الباطني .

وسارع الى إثارة سمعته من جديد .

وقال :

- د حسناً ، ماذا ! ممّ أنا خائف ؟ لماذا افكر في هذه الاشياء ؟
ها أنا ذا قد سلمت . لقد انتهى كل شيء . لم يكن ثمة غير باب مفرد نصف مفتوح يمكن لماضي ان يعترض من خلاله سبيل حياتي ، وها قد أوصد ذلك الباب الآن ! أوصد الى الأبد ! ان جافير هذا الذي ازعجني منذ عهد بعيد - تلك الغريزة الخفية التي يبدو وكأنها اكتشفت الحقيقة ، بل التي اكتشفت الحقيقة فعلاً جافير الذي تعقبتني في كل مكان ، وطاردني مثل كلب من كلاب القنص ، جافير هذا قد مُضلل ، وشغل في مكان آخر ، وُختم ختماً كاملاً . لقد داخله الرصاص منذ اليوم ؛ انه سوف يتروكني وشأني ؛ لقد ألقى القبض على جان فالجانة ! ومن يدري ؟ بل ان من المحتمل ان يرغب ، في غدٍ ، في مغادرة المدينة ! وكل ذلك إنما يتم من غير مساعدتي ! وليس لي به ايما علاقة ! آه ، نعم ، ولكن اين العنصر المحزن في هذا كله ؟ ان من يراني ليحسب - وأقسم بشرفي - أن كارثة قد حلت بي ! وعلى اية حال فاذا كان احد قد أصيب باذى ما فليست تلك غلطتي . إن العناية الالهية هي التي فعلت ذلك كله . تلك هي رغبتها في ما يبدو . وهل أملك انا الحق في نقض ما تدبره ؟

ما الذي اطلبه الآن ؟ لماذا احاول ان ادخل ؟ ذلك شيء لا علاقة لي به . كيف ! انا لست قانعاً ! ولكن ما الذي يعوزني اذن ؟ لقد فزت' بالغاية التي طمعت اليها منذ سنوات عديدة ، فزت' بحلم ليالي' ، بهدف صلواتي الى السماء ، بالامن والسلامة . إنها مشيئة الله . وبتعبين عليّ ان لا اعمل شيئاً يتعارض ومشية الله . ولماذا شاء الله ذلك ؟ لكي أستطيع ان اتابع ما بدأت به ؛ لكي اتمكن من ان اعمل صالحاً ؛ لكي اكون ذات يوم مثلاً عظيماً ومشجعاً ؛ لكي عسي في الامكان ان يقال إنه نشأ آخر الامر بعض' العادة عن هذا العذاب الذي احتملته وهذه الفضيلة التي عدت' الى حظيرتها ! والواقع اني لا افهم لماذا خفت ذلك الخوف كله من ان اقصد الى هذا الكاهن الصالح وأعترف له بالقصة كلها ، وأسأله نصيحته ؛ ذلك من غير ريب ما كان يجدر به ان يقوله لي . لقد قضي الامر ؛ دع المألة وسأئنها ! حذار ان تتدخل في شأن من شؤون الله ! ،

هكذا تحدثت في أعماق ضميره ، وهو متدلّ فوق ما يمكن ان ندعوه هاويته الخاصة . ونخض عن كرسيه ، وشرع بذرع الفرفة وقال : وهذا ، فلأقنع عن التفكير في ذلك بعد الآن . لقد تمّ اتخاذ القرار . ، ولكنه لم يستشعر بهجةً ما . على العكس تماماً .

إن المرء لا يستطيع بعد' ان يمنع العقل من العودة الى فكرة ما إلا بقدر ما يستطيع منع البحر من العودة الى شاطئه ما . إن ذلك يدعى في مثل الملاّح مدّاً ؛ وإن ذلك يدعى في مثل المذنب نبكيت الضمير . إن الله ليثير' النفس كما يثير' الاوفيانوس ، سواء بسواء .

وبعد بضع لحظات - ولم يكن في ميسوره ان يفعل شيئاً غير ذلك استأنف هذا الحوار الكالحي ، الذي كانت نفسه هي التي تتحدث

فيه ، وهي التي تصفي ، قائلاً ما كان يريد أن يُخرسه ، مصفياً لما كان غير راغب في سماعه ، مستنداً الى تلك القوة الخفية التي قالت له : « فكثر ! » كما قالت لرجل آخر لفظ القضاء حكمه فيه ، منذ الفتي عام : « سر ! »

وقبل ان نذهب الى أبعد ، ولكي يفهمنا القاري فهماً وافياً ، يتعين علينا أن نبدي ، مع شيء من التوكيد ، ملاحظة واحدة .

من الثابت اننا نتحدث الى أنفسنا ؛ وليس ثمة كائن مفكر لم يمارس ذلك . بل ان في ميسورنا أن نقول إن الكلمة لا تكون ذلك المفزع الرائع إلا حين تمضي ، في باطن الانسان ، من فكره الى ضميره ، وتعود بعدُ من ضميره الى فكره . وبهذا المعنى وحده ينبغي ان تُفهم هذه الكلمات التي نكثر اصطناعها في هذا الفصل : قال ؛ صاح . نحن نقول لانفسنا ؛ نحن نخطب انفسنا ؛ نحن نصيح في داخل انفسنا ، من غير ان يُقطع السكوت الخارجي . إن ثمة جلبة قوية في داخلنا . كل شيء في باطننا يتكلم ، ما عدا اللسان . واذا كانت حقائق النفس غير منظورة وغير ملموسة فليس ينقص ذلك من قيمتها كحقائق .

اقد سأل نفسه اذن ابن هو . واستجوب نفسه حول هذا « القرار الذي اتخذه » . ولقد اعترف لنفسه بأن كل ما كان يهيئه في ذهنه بغيض شنيع ؛ وان « ترك المسألة وشأنها » وعدم التدخل في شؤون الله ، شيء فظيع حقاً ؛ وان السماح لغلطة القدر هذه وغلطة الناس بأن تتم ، وعدم الحؤول دون ذلك ، ومساعدته على اتمامها بالاعتصام بالصمت ، والاحجام عن القيام بعمل ما آخر الامر لا تعدو ان تكون في الواقع إقداماً على عمل كل شيء . كانت ذلك هو غاية الغايات في الحسة المرآئية ! كان جريمة بشعة ، دنيئة ، مُداجية ، جبانة ، وضيعة . ولأول مرة ، طوال ثلثي سنوات ، ذاق الرجل النفس ذلك الطعم المرير الذي يكون لفكرة شريرة ، وعمل شرير .

ولفظ ما ذاق في اشتمزاز .

وواصل استنطاقه الذاتي . لقد سأل نفسه ، في صرامة ، ما الذي فيه من هذا الكلام : « لقد حققتُ هدفي . » ؟ فأعلن انه كانت حياته ، في الواقع ، غاية . ولكن ما تلك الغاية ؟ ان يحظى اسمه ؟ ان يجتدع الشرطة ؟ أمن اجل شيء ضئيل كهذا فعل كل ما فعله ؟ ألم تكن له غاية اخرى ، كانت هي الغاية العظمى ، وكانت هي الغاية الحقيقية ؟ أن ينقذ ، لا جده ، ولكن نفسه . أن يصبح صالحاً وخيراً كرهة ثانية . ان يكون رجلاً مستقيماً ! ألم يكن ذلك ، فوق كل شيء ، ذلك وحده ، هو الذي رغب فيه دائماً ، والذي أمره الأسقف به ؟ - ان يغلّق الباب على ماضيه ؟ ولكنه لم يكن ليفلّقه بحال من الاحوال . كان يعاود فتحه بارتكابه عملاً شائناً ! ذلك بأنه عاد لصاً من جديد ، بل لقد أمسى أشنع اللصوص وادعاهم الى الاشتمزاز . لقد مرق من رجل آخر وجوده ، وحياته ، وأمنه ، ومكانه تحت الشمس ! لقد أمسى سفاكاً ! لقد قَتَلَ ، لقد قتل معنوياً رجلاً بائساً ! لقد انزل به ذلك الموت الحيّ المروّع ، ذلك الدفن في الحياة ، الذي يدعى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ! على العكس ، فلأن ينقذ نفسه ، ولأن ينقذ هذا الرجل المبتلى بمنزل هذه الغلطة الرابعة ، ولأن يحمل اسمه من جديد ، ولأن يصبح كرهة اخرى بدافس من الواجب جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة فذلك في الواقع هو أنبعاته الخلق ، وهو الاغلاق الابدي لباب الجحيم الذي خرج منه ! وإن العودة اليه ، في الظاهر ، هي النجاة منه ، في الحقيقة ! يجب ان يفعل ذلك ! إن كل ما عمله حتى الآن ليس شيئاً اذا لم يفعل ذلك ! إن حياته كلها كانت غير ذات غناء ، وان آلامه كلها ذهبت ادراج الرياح ، ولم يكن عليه غير ان يأل هذا السؤال : « ما الفائدة ؟ » واستشعر أن الاسقف كان هناك ، ان الاسقف كان حاضراً اكثر مما كان ميباً ،

ان الاسقف كان يحدق اليه تحديقاً موصولاً ، وان مادلين العبد ،
 بفضائله جميعاً ، سوف يكون منذ اليوم بغيضاً اليه ، وان جان فالجان
 العبد الرقيق المحكوم عليه بالاشتغال الشاق سوف يكون باهراً وطيهاً
 في عينيه . واستشعر أن الناس كانوا يرون قناعه ، اما الاسقف فكان يرى
 وجهه ؛ ان الناس كانوا يرون حياته ، اما الاسقف فكان يرى ضميره .
 واذن فيجب ان يذهب الى آراس ، وان ينقذ جان فالجان الزائف ،
 ويقيم جان فالجان الحقيقي . وأسفاً ! تلك كانت اعظم التضحيات
 شأناً ، وأشد الانتصارات إبلاماً ، والخطوة النهائية التي ينبغي ان
 'تخطى' ؛ ولكن عليه ان يفعل ذلك . يا له من قدر فاجع ! إنه لا
 يستطيع ان يبلج باب القداسة في عيني الله ، إلا بالعودة الى العار في
 أعين الناس !
 وقال :

— « حسن . فلنسلك هذه السبيل ! فلنقم بواجبنا ! فلننقذ هذا الرجل ! »
 ونطق بهذه الكلمات في صوت عال ، من غير ان يلحظ أنه كان
 يتكلم جهاراً .

وتناول كتبه ، وتحقق منها ، ونظمها . ثم القى في النار رزمة
 من السندات المالية كانت له على بعض المعوزين من صفار التجار . وكتب
 رسالة ، وختنها ؛ وكان في ميسور المرء ان يقرأ على ظاهر ظرفها —
 لو كان في الغرفة أحدٌ آنذاك : الى ميسو لافيت ، مصري ، شارع
 آرتوا ، باريس .

وسحب من احد المكاتب محفظة تحتوي على بعض الاوراق المالية
 وعلى الجواز الذي استعمله في ذلك العام نفسه للاشتراك في الانتخابات .
 ولو ان امرأً رآه فيما كان يقوم بهذه الاعمال المختلفة بمنل ذلك التأمل
 الوقور اذن لما ارتاب في ما كان يعتل في ذات نفسه . ومع ذلك فقد
 كانت شفتاه ترتعشان بين الفينة والفينة . وكانت يرفع رأسه في بعض

الاحيان ويستّر نظره على نقطة ما من الجدار ، وكأننا وجد هناك بالضبط شيئاً يريد ان يجلوّه او ان يستنطقه .

واتمّ الرسالة الى مسير لافيت ، فوضمها هي والمحفظة في جيبه ، وشرع يذرع الغرفة من جديد .

ولم يكن مجرى تفكيره قد تغيّر . كان لا يزال يرى واجبه مكتوباً على نحو واضح باحرف ساطعة كانت تتوهج امام عينيه ، وتنعرك مع نظرتة : « اذهب ! اعترف باسمك ! إتهم نفسك ! »

ورأى كذلك ، وكأننا انتصبتا أمامه عاريتين وفي شكلين محوسين ، الفكرتين اللتين كانتا حتى ذلك الحين دستور حياته المزدوج : ان يُخفي اسمه ، وان يطهر نفسه . ولأول مرة بدنا له مستقلتين ، إحداهما عن الاخرى ، تمام الاستقلال ، ورأى الفرق الذي يفصل ما بينهما . لقد ادرك ان احدى هاتين الفكرتين خيرة بالضرورة ، على حين ان الاخرى قد تصبح شريرة ؛ أن الاولى عبادة والاخرى اناية ؛ أن احدهما تقول : « الجار » وثانيتهما تقول « انا » ؛ ان واحدة تنبثق من النور وواحدة تنبعث من الظلام .

كانتا تتقاتلان . لقد رآهما تتقاتلان . وفيما هو ينظر ، تضخمتا امام عينه العقلية . لقد اصبعتا الآن هائلتين جداً . ولقد بدا انه رأى الى إلهة وماردة تصطرعان في ذات نفسه ، في نك اللانهاية التي تحدثنا الآن عنها ، وسط الظلمات والبوارق .

كان مفعماً بالذعر ، ولكن بدا له ان التفكير الحثيث في سبيله الى الانتصار .

لقد استشعر انه بلغ حركة ضميره وقدره الثانية الحاسمة . وان الاسقف كان قد طبع الوجه الاول من حياته الجديدة ، وان شأغباته هذا طبع الوجه الثاني . وبعد الازمة الكبرى ، تأتي المحنة الكبرى . وفي غضون ذلك عاودته الحمى ، شيئاً بعد شيء ، وكانت قد خمدت

لحظة . والتمتع في ذهنه ألف خاطر ، ولكنها لم تزد عزمه الا رسوخاً .
وكان قد قال لحظة : لعلي انظر الى القضية ، باكثر مما تستحق من
الحماسة . وان شائتم لم يكن على اية حال جديراً بالاهتمام ، وانه قد
سرق ، فعلاً .

واجاب نفسه بقوله : و اذا كان هذا الرجل قد سرق ، فعلاً ، يضع
نفاحات فمعنى ذلك انه سوف يُسجن شهراً . وثمة شقة واسعة بين هذا وبين
سجن المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة . ولكن من بدري ؟ هل سرق ؟
هل قام الدليل على ذلك ؟ ان اسم جان فالجان يُثقل كاهله . ويبدو
وكأنه في غير حاجة الى الدلائل والبيّنات . اليس من عادة النواب
العامين ان يتصرفوا على هذا النحو ؟ إنهم يجسونه لصاً ، لانهم يعرفون
انه كان ذات يوم في سجن المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة .

وفي لحظة اخرى خطر له انه اذا ما اتهم نفسه فمن الجائز أن تشفع
به بطولة موقفه هذا ، والحياة الصالحة التي عاشها منذ سبع سنوات ،
والخدمات التي اداها الى المنطقة ، فيُعفى عنه .

ولكن هذا الفرض ما ليث ان ثلاثى . وابتسم في مرارة حين
فكّر ان سرقة الاربعين د سراً من جيوفيه الصغير قد جعلته ذا
سابقة ، وان هذه المسألة سوف تظهر ثانية ، من غير شك ، وانه
سوف يُحكم عليه ، وفقاً لنصوص القانون الحرفية ، بالاشتغال الشاقة
مدى الحياة .

واساح بوجهه عن الالهام كلها ، فاصلاً نفسه اكثر فاكثرو عن هذه
الارض ، ملتصقاً العزاء والقوة في مكان آخر . لقد قال لنفسه إن عليه
ان يقوم بواجبه ، بل انه من الجائز ان لا يكون اكثر تعاسة بعد
قيامه بواجبه منه بعد التهرب من القيام بهذا الواجب ؛ وانه اذا ترك
المسألة وشأنها ، اذا ظلّ في مونتروي سور مير ، فان وجاهته ،
وشهرته الحميدة ، وأعماله الحيرة ، والاحترام والاجلال اللذين يتمتع بهما ،

وإحسانه الى الفقراء ، ونزوه ، وشعبيته ، وفضيلته - كل هذه سوف
تلوث بجمرة . وايّ متعة سوف تكون في جميع هذه الاشياء المقدسة
حين توتق بذلك الشيء البشع ! على حين انه اذا اقدم على التضحية
المطلوبة منه فعندئذ غمازجه فكرة سماوية برغم وجوده في سجن المحكوم
عليهم بالاشغال الشاقة ، وبرغم قيده ، وغلته ، وقلنسوته الخضراء ، وعمله
الذي لا يعرف الانقطاع ، وعاره الذي لا يعرف الرحمة !

واخيراً قال لنفسه إن تلك ضرورة ، وان قدّره قد صيغ على هذا
الشكل ، وانه لا يستطيع أن ينقض تديير الله ، وان عليه ان يختار ،
مهما تكن الاحوال ، احدى خطبتين : إما الفضيلة الظاهرية والحجانة
الباطنية ، وإما الطهارة الباطنية والعار الخارجي .

ولم تضعف شجاعته فيما هو يُدير في ذهنه هذه الأفكار الفارقة كلها ،
ولكن دماغه تعب . وعلى الرغم منه شرع يفكر في اشياء اخرى ، في
اشياء قليلة الفناء .

واندفع الدم عنيفاً الى صدغيه . وذرع الغرفة جيئة وذهوباً على
نحو موصول . واعلنت ساعة كنيسة الرعية انتصاف الليل ، اولاً ، ثم
اعلنته بعدها ساعة دار البلدية . وعدّ الضربات الاثنتي عشرة التي أطلقته
كل من الساعتين ، وقارن ما بين صوت الجرسين . ولقد ذكره ذلك
بأنه كان قد رأى ، قبل بضعة ايام ، عند احد تجار الحدائد العتيقة ،
جرساً قديماً معروضاً للبيع ، وقد كتب عليه هذا الاسم : انطوانات
آلين دو رومينفيل .

وسرى البرد في اوصاله . وأوقد ناراً . ولم يخطر بباله ان يوصد
النافذة .

وفي غضون ذلك استغرق في ذهنه ، كرةً اخرى . ولم يكن
الجد الذي احتاج اليه لكي يذكر ايّ شيء كان يفكر فيه قبل ان
تدقّ الساعتان ، جهداً بسيطاً . ووفق الى ذلك ، آخر الامر .

وقال :

« آه ! اجل . لقد اتخذت قراراً يقضي بأن أنهم نفسي . »
ثم إنه فكّر ، فجأة ، بفائتين .

وقال :

« وقف ! وهذه المرأة المسكينة ! »
ونشأت منها ازمة جديدة .

كانت فائتين ، وقد برزت فجأةً في هواجسه ، شبه شيء بشعاع من ضياء مجهول . لقد بدا له وكأن كل شيء من حوله قد تغير مظهره .
وصاح :

« آه ! نعم ، حقاً ! أنا لم أفكر حتى الآن إلا بنفسي ! أنا لم أنظر إلا الى ما يوافقني ! لقد درست ما اذا كان يتعين عليّ ان أعتمد بالصمت أم اشكو نفسي الى السلطة ، أن أوارى جسدي أم أنقذ روحي ، أن اكون حاكماً حقيراً ومحترماً أم ان اكون سجيناً مرفوئلاً وموقراً . وكلها اسئلة تدور حول نفسي . نفسي دائماً . ونفسي ليس غير . ولكن ، يا الهي ، هذا كله اثنان ! اشكال مختلفة من الانانية ، ولكنها اثنان على كل حال ! هلا فكرت قليلاً في غيري ؟ فلننظر ، فلندرس ! لنفرض اني ولّيت ، اني 'حييت' ، اني شجيت ، فما الذي يشأ عن ذلك كله ؟ - اذا اتهمت نفسي واسلمت للقضاء ؟ إنهم سوف يعتقلوني ؛ إنهم سوف يطلقون مراح شائغين هذا ؛ إنهم سوف يعيدوني الى سجن المحكوم عليهم بالاستعمال الشاقة . حسن جداً . ثم ماذا ؟ ما الذي سوف يحصل هنا ؟ آه ، هنا ، حيث يوجد منطقة ، ومدينة ، وصناعة ، وعمال ، ورجال ، ونساء ، وأجساد عجايز ، واطفال ، وأناس مساكين ! لقد خلقت هذا كله ؛ لقد أعلت هذا كله . فحيثما ينطلق الدخان من مدخنة كنت أنا الذي وضع الحطب في النار ، واللحم في القِدْر . لقد أحدثت الرخاء ، والنشاط ، والثقة . قبلي لم

يكن شيء . لقد رفعت ، وأعمرت ، وأنعمت ، وأخسبت ، وأنمضت ،
وأغشيت البلاد كلها . اذا ذهبت انا فقدت روح البلاد . واذا زلت
انا مات كل شيء . وهذه المرأة التي قاست كثيراً ، الفاضلة في سقوطها ،
والتي سببت على غير وعي مسني بلاءها كله ! وتلك الطفلة التي كنت
ذاهباً اليها ، والتي وعدت الأم بأعادتها اليها ! ألسنت مديناً ايضاً لهذه
المرأة بشيء ، تعويضاً عن الاذى الذي أنزلته بها ؟ فاذا تواريت عن
مرح الاحداث ، فما الذي يحدث ؟ ان الأم سوف تموت . وإن
الطفلة سوف تصبح ما تستطيع ان تصبحه . ذلك ما سوف يجري اذا
ما شكوت نفسي الى القضاء . واذا لم أشك نفسي ؟ فلأدرس هذا الوضع -
اذا لم أشك نفسي ؟

ونهل بعد ان طرح هذا السؤال . لقد تردّد لحظةً وارتحف .
ولكن تلك اللحظة كانت وجيزة ، ولقد أجاب في هدوء :

- « حن ، إن هذا الرجل سوف يُساق الى سجن المحكوم عليهم
بالاشغال الشاقة . هذا صحيح . ولكن ابيّ بأس في ذلك ؟ لقد سرق !
ومن العيب الذي لا طائل نحته ان ازم انه لم يسرق ؟ لقد سرق !
اما أنا فأبقى هنا ؛ سوف أتابع سبيلي . وما هي الا عشر سنوات حتى
اوفقى الى ان اكسب عشرة ملايين . وسوف انثر هذه الملايين في
البلاد . انا لن أبقى شيئاً لنفسي . وماذا يضيرني ذلك ؟ إن ما أعمله
ليس لنفسي ! إن رفاهية الجميع سوف تزداد تعاضداً ؛ وإن الصناعات
سوف تنهض وتتسابق ؛ وإن المصانع والمعامل سوف تتضاعف ؛ وإن
الأسر ، مئات الأسر ، آلاف الأسر ، سوف تسعد . إن المنطقة
ستصبح آهلة بالسكان ؛ وإن القرى ستنبثق حيث لم يكن يوجد غير
المزارع ؛ وإن المزارع سوف تنبت حيث لم يكن يوجد شيء . ان
الفقر سيؤول ؛ وبزوال الفقر ستزول الدعارة ، والبطالة ، والسرقة ،
والقتل ؛ ستزول جميع الرذائل ، وجميع الجرائم ! وسوف يكون في

ميسور هذه المرأة المسكينة ان تربي طفلتها ! وتصبح المنطقة كلها غنية وفاضلة ! آه ، اجل ! ما كان اشد بلاهتي ، وما كان اعظم حماقتي ! ما هذا الكلام الذي كنت اقوله حول اتهام نفسي ؟ يجب ان اصطنع الروية ، وأن لا أتهوّر . ماذا ؟ أقدم على هذا لأن بما يوقع الرضا في نفسي أن اعمل العمل العظيم السخي ! - إن ذلك شيء مثير على أية حال ! - لأنني لم أفكر إلا في ذاتي ، في ذاتي وحدها ! ماذا ؟ ألكي أنفذ من عقوبة قد تكون مغالىً فيها بعض الشيء ، ولكنها في الاساس عادلة - ألكي أنفذ من هذه العقوبة رجلاً لا يعرفه احد ، لصاً من اللصوص ، وغداً من الاوغاد ، على كل حال ، أدفع ببلاد بكاملها الى الحراب ! ويتعين على امرأة مسكينة أن تموت في المستشفى ! ويُقضى على بُنية بائسة ان تلاقى حتفها في الشارع ! مثل الكلاب ! آه ، ذلك خليق بأن يكون مقيناً ! بل ومن غير ان يكون في ميسور الأم ان ترى ابنتها من جديد ؟ ومن غير ان تعرف الطفلة أمها او تكاد ! وكل ذلك من اجل سارق التفاح الجرو المعجوز هذا ، الذي يستحق من غير ريب ان يساق الى سجن الاشغال الشاقة لجريمة اخرى ، إن لم يستحق ذلك من اجل هذه الجريمة ! إنما لوساوس جميلة هذه التي نذمت محرماتاً ونضحتي بأبرياء ، والتي تنفذ متشرداً عجوزاً لم يبق له على كل حال غير بضع سنوات يعيشها ولن يكون أنسى حالاً في سجن الاشغال الشاقة منه في مكته الحفير ، والتي نضحي بأهل منطقة بكاملها ، وبالامهات ، والزوجات ، والاطفال ! وكوزيت الصغيرة المسكينة التي ليس لها في هذا العالم احد غيري ، والتي يزرق وجهها في هذه اللحظة ، من غير شك ، بسبب ما تقاسيه من البرد في كوخ تبناردييه وزوجته ! وهذان وغدان بائسان أيضاً ! ومع ذلك اقصر في القيام بواجباتي تجاه هذه الكائنات البائسة كلها ! ومع ذلك يتعين عليّ ان اذهب واشكو نفسي الى القضاء ! ومع ذلك يجب ان ارتكب هذه

الحاقة البلهاء ! ولنفرض اسوأ الاحتمالات . لنفرض اني اقترفت ، من طريق الصمت ، سيئة ما وان ضميري سوف يخزني في يوم من الايام . فان قبولي - لمصلحة الآخرين - بهذا الوخر الذي لا يُنقل كاهل احد غيري ، وهذه السيئة التي لا تصدّع غير روحي ، هو التقاضي عنهُ ، وهو الفضيلة عينها .

ونفض واستأنف سيره . وهذه المرة ، بدا له انه اقتنع .
إن الماس لا يكون إلا في المواطن المظلمة من الارض ؛ وكذلك الحقائق لا تكون إلا في أعماق الفكر . لقد بدا له أنه بعد أن غاص الى تلك الاعماق ، وبعد ان بحث طويلاً في اسدّة هذه الظلمات حلكت ، عثر آخر الأمر على قطعة من ذلك الماس ، على واحدة من تلك الحقائق ، وأنه يمسك بها بيده . ولقد أعشاه النظر اليها .

وفكّر : « أجل ، تلك هي ! إني اسلك الطريق الصحيحة . لقد وجدتُ الحلّ . يجب ان انتهي بالتشبث بشيء . لقد اخترتُ سبيلي . دع المائلة وشأنها ! كفى تردّداً . كفى تراجعاً ! هذا في مصلحة الجميع ، لا في مصالحتي الشخصية . أنا مادلين ؛ ولوف ابقي مادلين . والويل لمن هو جان فالجان ! انا وهو لم نعد شيئاً واحداً . انا لا اعرف هذا الرجل ؛ انا لم أعد اعرف ما هو . واذا وجدت السلطة ان شخصاً ما هو جان فالجان في هذه الساعة فليدبر أمره بنفسه . هذا شيء لا علاقة لي به . إنه امم مشؤوم يطفو في الظلام ، فاذا ما وقف واستقر على رأس رجل ما فلأمّ ذلك الرجل الهبل ! »

ونظر الى نفسه في المرآة المعلقة فوق موقفه وقال :

- « أجل ! إن الوصول الى قرار قد ازال عني الغم . أنا الآن شخص آخر بالكلية ! »

وخطا بضع خطوات اخرى ، ثم وقف فجأة .

وقال :

د ها ! يجب ان لا أتردد امام ايّ من نتائج القرار الذي اتخذته . إنه لا تزال ثمة بعض الحيلولة التي تشدني الى جان فالجان هذا . هذه الحيلولة يجب ان تقطع . إن ثمة ، في هذه الغرفة بالذات ، اشياء يمكن ان تهمني ، اشياء خرساء يمكن ان تشهد عليّ . لقد سُويت هذه المسألة ، وينبغي ان تختفي تلك الاشياء كلها .
وبحث في جيبه ، وسحب كبس نقوده ، قفّعه ، واخرج منه مفتاحاً صغيراً .

وادخل هذا المفتاح في قفل كاد ثقبه ان يكون غير منظور ، بعد ان غاب في الظلال القاتمة الى حدّ بعيد والتي ألقها التصاوير المرسومة على الورق الذي يغطي الجدار . وفتح باب سرّي ، فاذا خلفه ضرب من الحزاة الزائفة المقامة بين زاوية الجدار وبوقع المدخنة . ولم يكن في ذلك الخبأ غير بعض الحرق البالية : قميص من نسيج ازرق خشن ، وينظلون عنق ، وجراب قديم ، وعصاً زعرورية ضخمة طوّق طرفاها بالحديد . إن اولئك الذين شهدوا جان فالجان يوم اجتاز بمدينة د في تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، كان خليقاً بهم أن يتبينوا ، في بسر ، بقايا هذا الزي البائس المضحك .

كان قد احتفظ بها ، كما احتفظ بالشمعدانين الفضيّين ، لتذكره دائماً بنقطة انطلاقه . ولكنه أخفى ما حمله من سجن الاشغال الشاقّة ، وأظهر الشمعدانين اللذين حملهما من لدن الاسقف .

وألقى نظرة خفية على الباب ، وكأنما كان يخشى ان ينفث برغم الحديد الذي يورده . وبحركة نشيطة مفاجئة طوّق هذه البقايا كلها بذراعيه ، دفعة واحدة ، من غير ان يلقي ولو نظرة عليها وهو الذي احتفظ بها بكثير من التقديس معروضاً نفسه للمخاطر طوال عدة سنوات - وقذف بها جميعاً ، الأسمال والعصا ، والجراب ، الى النار .

وأغلق الحزاة الزائفة ، وضاعف احتياطاته ، التي أمست منذ ذلك

الحين غير ذات غناه بعد أن أفرغها من محتوياتها ، وخبأ الباب خلف قطعة ضخمة من الاثاث دفعها نحوه .

وفي ثوان قليلة ، أضيئت الغرفة والجدار المقابل بانعكاس نور قوي أحمر مرتعش . كان كل شيء يشعل . وفرقت العصا الزعرورية ، وقذفت بالشرر حتى وسط الغرفة .

واذ احترق الجراب بما انطوى عليه من الحرق الراحبة فقد خلف شيئاً غريباً التسع في الرماد . ولو قد انحنى أحدٌ فوق ذلك الشيء إذت لتبين ، في بسر ، قطعة فضية . كانت هي من غير شك قطعة الاربعين « سو » التي سُلبت من الغلام السافواني الصغير .

ولكنه لم ينظر الى النار . لقد واصل ذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، محافظاً دائماً على المبرعة نفسها .

وفجأة وقعت عيناه على الشمعدانين الفضيّين اللذين التمعا ، على نحو باهت ، فوق الموقد ، بسبب من انعكاس الوهج عليها .
وفكر :

« قف ! إن جان فالجان لا يزال ضمن هدين أيضاً . ينبغي ان يُنقلا مثل غيرهما . »
وتناول الشمعدانين .

كان ثمة نار كافية لاذابتها الى ضرب من السبيكة لا تُعرَف إلا بشقّ النفس .

وانحنى فوق النار ، وتدفأ لحظة . واستشعر المنة حقاً .
وقال :

« يا للدفء العذب ! »

وأثار الجمرات بأحد الشمعدانين .

وما هي إلا دقيقة حتى يكونا في اللهب .

وفي تلك اللحظة ، بدا له أنه سمع صوتاً يصبح في داخله :

« جان فالجان ! جان فالجان ! »
وقفت شعر رأسه . كان أشبه برجل يسمع شيئاً فظيماً .
وقال الصوت :

« أجل . هكذا . أتمّ ، أكلّ ما أنت فاعله ! أتلّف هذين الشمعدانين !
أمحُ هذا التذكار ! إنس الأسقف ! إنس كل شيء ! إقصِر على شافانين
هذا ! حسن جداً . حقّقْ نفسك ! وهكذا 'سوي الأمر ، واتخذ
فيه قرار ، وانتهى كل شيء . هوذا رجل ، هوذا رجل عجوز لا يدرى
ما الذي ينهونه به ، ولعله ان لا يكون قد فعل شيئاً ؛ هوذا بريء
انزل اسمك به ذلك الشقاء كله ، وأنقص اسمك ظهره مثل جريئة من
الجرائم ؛ هوذا بريء سوف يؤخذ بدلاً منك ، سوف يُدان ، سوف
يقضي أيامه في الذلّ والذعر ! حسن جداً . كن أنت رجلاً مبعلاً .
إبقَ السيد العمدة ؛ إبقَ شريعاً ومُشرّفاً ؛ أغنِ المدينة ؛ أطعم الفقراء ؛
نشيء الايتام ؛ عِشْ - بعيداً ، فاضلاً ، محوطاً بآيات الاعجاب . وطوال
هذه الفترة التي ستعتم فيها هنا بالبهجة والنور سوف يكون هناك رجل
يرتدي قميص الأحمر ، ويحمل اسمك في الحزبي والعار ، ويجرّ أغلاك
في سجن المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة ! أجل ! لقد سويت المسألة
نسوية حسنة ! آه ! ممكن ! »

وتحدّر العرق من جبينه . ونظر الى الشمعدانين بعين شاردة . ولم
يكن الصوت الذي تكلم في باطنه قد انتهى ، فهو يتابع حديثه :
« جان فالجان ! سوف تحيط بك اصوات كثيرة 'تحدث ضجة
كبيرة ، وتتكلّم بنبرة عالية جداً ، وتطربك وتباركك ، وصوت
واحد لن يسمعه احد ، صوت مفرد سوف يلعنك في الظلام . حسن ،
إسمع ، أيها الرجل المزدول ! إن هذه البركات كلها سوف تسقط قبل
ان تبلغ باب السماء . وان اللعنة وحدها هي التي منصعد حتى تنتهي
الى الله ! »

وما لبث هذا الصوت الذي كان واضحاً جداً اول الامر ، والذي انبعث من أعماق اعماق ضميره - ما لبث ان غدا عالياً خفيفاً ، شيئاً بعد شيء ، فهو يضحج الآن في اذنيه . لقد بدا له ان ذلك الصوت قد فارقه ، وانه كان يتكلم اللعظة من الخارج . ولقد خيل اليه انه سمع الكلمات الاخيرة في كثير من الوضوح جعله يجيل بصره في الفروسة بضرب من الذعر .

وتساءل في صوت مرتفع ، وفي شرود :

- « هل يوجد احد هنا ؟ »

ثم استطرد في ضحكة كانت اشبه بضحكة رجل أبله :

- « يا لي من مجنون ! لا يمكن ان يكون أحد هنا . »

كان ثمة واحد . ولكن ذلك الذي كان هناك لم يكن من اولئك الذين تستطيع العين البشرية ان تراهم .

ووضع الشمعدانين على الموقد .

ثم استأنف سيره ذاك الرتيب الكئيب ، الذي ازعج الرجل النائم تحت غرفته ، المستغرق في احلامه ، فاستيقظ راجعاً .

وروح هذا السير عنه وأثاره في آن معاً . والذي يبدو أننا في المناسبات الخطيرة نأخذ أنفسنا بالحركة لكي نلتصم النصيح من ابما شيء قد نلتقيه نتيجة لتغيير المكان . وبعد بضعة لحظات ، لم يعد يدري اين هو .

وتراجع الآن ، في دعر متكافئ ، أمام كل من القراوين اللذين اتخذهما واحداً إثر واحد . لقد بدت الفكرتان اللتان قدمتا النصيحة اليه وخيبتني العاقبة على حد سواء . يا له من قدر ! يا لها من مصادفة تلك التي جعلت السلطة تتوهم ان شائتابو هو جان فالجان ! أيترودى في الهاوية بدافع من الوسيلة نفسها التي بدا ، في اول الامر ، وكأنه العناية الالهية قد سخرتها لتوطيده ؟!

وغبوت لحظة تأمل خلالها المستقبل . أن يتهم نفسه ! يا السهي ! أن
يستلم ! لقد نجلى له في يأس هائل ، كل ما يتعين عليه ان يجره ،
وكل ما يتعين عليه ان يستأنفه . يجب عليه اذن ان يودع هذا الوجود الجيد
الى ابعد حد ، الطاهر الى ابعد حد ، المشرق الى ابعد حد ؛ وان يودع
احترام الجميع ، ويودع الشرف ، ويودع الحرية ! انه لن يخرج للزفة في
الحقول منذ اليوم ! انه لن يسمع الطير تغني في شهر نوار منذ اليوم ! انه
لن يوزع الصدقات على الاطفال الصغار منذ اليوم ! انه لن يستشر حلاوة
نظرات الحب والاعتراف بالجميل المدة اليه ، منذ اليوم ! ولسوف
يضطر الى ان يغادر هذا البيت الذي بناه ، هذه الغرفة الصغيرة ! لقد
بدا كل شيء فاتتاً في عينه الآن . انه لن يطالع بعد اليوم في هذه
الكتب . انه لن يكتب بعد اليوم على هذه الطاولة الصغيرة ذات الخشب
الايض ! إن حاجبته المعجوز ، وهي الخادم الوحيدة التي كانت عنده ،
لن تحمل اليه قهوته ، بعد اليوم ، في الصباح . يا السهي ! وبدلاً من
هذا كله سيكون ثمة جمهور السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ،
وطوق العنق الحديدي ، والرداء الاحمر ، والاصفاد التي تكبل القدم ،
والاعياء ، والحجيرة المظلمة ، والسريр النقال ، وكل هذه الاهوال التي
يعرفها جيداً ! ومنى ؟ في مثل منه هذه ، وبعد ان صار الى ما صار
اليه ! لو كان لا يزال شاباً ! ولكن أن يكون شيخاً ، وأن يات
من قبل أول وافد ، ويخاطب بضيق المفرد من جانب حرس السجن ،
ويضرب بهراوة السجن ! ان توضع قدماء عاريتين في حذاء موثق
بالحديد ! ان يسلم رجله صباحاً ومساء الى مطرقة كبير رجال الحرس
ليفحص الاغلال ! ان يحمل فضول الغرباء الذين سوف يقال لهم :
« هذا هو جان فالجان الشهير الذي كان عمدة مونتروي سور مير ! »
أن يرتقي من جديد في موهن من الليل ، وتحت سوط الرقيب ، درجات
سلم السجن العائم ، اثنتين اثنتين ، وقد سال منه العرق ، وهذه

التعب ، وانخرقت قلنسوته فوق عينيه ! اوه ، ايّ حقاء هذا !
هل في ميسور القدر اذن أن يكون خبيثاً مثل وجل ذكي ، وان
يصبح راعباً كالقلب البشري ؟

كان مها عمل يعود الى السقوط دائماً في هذه الورطة الحادة التي كانت
في اعماق تفكيره والتي تفرض عليه ان يحذر احدي خطين كتابهما بغضه
الى نفسه : ان يبقى في الجنة ليصبح هناك شيطاناً ، وان يعاود
الدخول الى جهنم ليصبح هناك ملاكاً !

ما الذي ينبغي ان يُعمل ، يا الهي ! ما الذي ينبغي ان يُعمل ؟
كان العذاب العاصف الذي تغلب عليه في كثير من العمر قد آذنه
بهدم باطني جديد . واختلطت فكراته ككرة أخرى . لقد اتخذت
ذلك الشكل الداهل الميكانيكي الذي يتمتع على الوصف ، والذي هو من
خصائص اليأس . وتمثل له اسم رومينفيل على غير انقطاع ، مع يئنين
من انشودة سمعها من قبل . وقال في ما بينه وبين نفسه ان رومينفيل
غابة صغيرة قرب باريس حيث يذهب العشاق الشباب ليجمعوا زهرات
البلنج في شهر نيسان .

وترنح ظاهرياً ، كما ترنح باطنياً . لقد مشى مثل طفل صغير
أجيز له ، أول مرة ، ان يسير وحده .

وبين الفينة والفينة ، وفي غمرة من كفاحه ضد الالقاء ، بذل جهداً
جديداً لكي يوقظ فكره . لقد حاول ان يجدد ، نهائياً وعلى نحو
قاطع ، المشكلة التي سقط أمامها ، بمعنى من المعاني ، 'جهداً خائراً
القوى . أيتعين عليه ان يشكو نفسه ؟ أيتعين عليه ان يعتصم بالصمت ؟
لقد عبّز عن ان يرى أيما شيء في وضوح . لقد ارتجفت الاشكال
الغامضة لجميع الحُجج التي رسمها عقله ، وتبددت واحدة اثر اخرى في
دخان . بيد انه استشعر ان شيئاً من نفسه - مهما يكن قراره -
سوف يموت ، وسوف يكون موته بالضرورة ،

ومن غير ان يكون ثمة سبيل الى النجاة منه ؛ وانه سوف يدخل قبرا
سواء جنح الى اليمين او جح الى الشمال ؛ وانه كان يعاني حشرة
موت ، حشرة موت سعادته ، او حشرة موت فضيلته .
واسفاه ! لقد عاوده تردده كله . إنه لا يزال حيث بدأ ، لم يتقدم
خطوة واحدة .

كذلك ناضت هذه النفس النعسة الراوحة تحت وطأة الغم . وقبل
هذا الرجل البائس بألف وثمانيئة عام كان الكائن المجلبب بالاسرار ، الذي
تختصر فيه قداسات الانسانية كلها وعذابات الانسانية كلها ، قد اطرح
هو ايضا منذ عهد بعيد ، وفيما كانت شجرات الزيتون ترتجف أمام
إعصار الانهيار الضاري ، كأس العشاء الرباني الخفيفة التي تراءت له سائلة
بالظلال ، فائضة بالظلمات ، في الأعماق الخافتة بالنجوم .

٤

اشكال يتخذها العذاب

خلال النوم

وأعلنت الساعة الثالثة . كان قد سلخ خمس ساعات وهو يمشي على
هذا النحو ، ومن غير انقطاع تقريباً ، عندما انطرح على كرسيه .
واستسلم للوقاد ، وانشأ يحلم .

ولم يكن ثمة صلة بين هذا الحلم - شأن معظم الاحلام - وبين
وضع صاحبه غير طابعه الفاجع المروع . ولكنه كان ذا وقع في
نفسه . والحق ان هذا الكابوس أثار فيه تأثيراً قوياً حمله في ما بعد
على ان يدورنه . وهذه احدي الاوراق التي كتبها بخط يده ، وخطفها

من بعده . ونحن نعتبر ان من واجبتنا ان نذسخها ههنا بالحرف الواحد .
وأياً ما كان هذا الحلم ، فإن قصة تلك اليلة تكون ناقصة اذا ما
أغفلناه . إنه المغامرة المظلمة تقوم بها روحٌ ربيضة .
وما هو ذا . إننا نجد مكتوباً على الطرف هذا السطر : « الحلم
الذي رأيته تلك اليلة . »

« كنتُ في حقل . حقلٍ واسع محزون ليس فيه عشب . ولم يبدُ
أن ذلك كان نهاراً ، أو أنه كان ليلاً .
« كنتُ أمشي مع اخي ، اخي صباي . هذا الاخ الذي يتعين
عليّ ان اقول اني لا افكر فيه ابداً ، واني لا اتذكره إلا نادراً .
« كنا نتحدث ، ولقد التقينا غيرنا مائلاً أيضاً . كنا نتحدث عن
جارية كانت لنا في ما مضى ، وكانت منذ ان سكنت في ذلك الشارع
تعمل ونافذتها مفتوحة ابداً . وحتى فيما نحن نتكلم ، استشعرنا البؤس
بسبب من تلك النافذة المفتوحة .

« ولم يكن في الحقل أشجار .
« لقد رأينا رجلاً يمر بقربنا . كان عارياً عرياناً كاملاً ، وكان بلون
الرماد ، وكان بمتطياً جواداً بلون التراب . ولم يكن لذلك الرجل شعر .
لقد رأينا جمجمته وأوردة في جمجمته . ويده كان يمسك عصاً لدنة مثل
غصن من اغصان الكرمة ، ثقيلة كالحديد . واجتاز بنا هذا الفارس ،
ولم يقل شيئاً .

« وقال لي اخي : فلنسلك الطريق المهجورة .
« كان ثمة طريق مهجورة لم نَرَ فيها لا عُليقة ولا علوج طحلب .
كان كل شيء بلون التراب . حتى السماء كان لونها هكذا . وبعد بضع
خطوات لم يُجبني احد حين تكلمتُ . لقد شعرت ان اخي لم يعد معي .
« ودخلتُ قريةً رأيته . لقد ظننتُ أنها ينبغي ان تكون

رومينفيل (لماذا رومينفيل ؟) *

« كان اول شارع اجتزته مهبوراً . ومنه انتقلت الى شارع آخر .
وخلف الزاوية التي شكلها التقاء الشارعين كان رجل واقفاً بجذء الجدار .
وقلت لهذا الرجل : ما هذا الاقليم ؟ اين انا ؟ فلم يحب الرجل بشيء .
ورأيت باب بيت ينفتح . فدخلته .

« كانت الغرفة الاولى مهله . فدخلت الثانية . وخلف باب هذه
الغرفة وجدت رجلاً واقفاً بجذء الجدار . فسألت هذا الرجل : لمن
هذا البيت ؟ اين انا ؟ فلم يحب الرجل بشيء . كانت للبيت حديقة .
« وغادرت البيت الى تلك الحديقة . كانت الحديقة مهبورة .
وخلف اول شجرة رأيت رجلاً واقفاً . فقلت لهذا الرجل : ما هذه
الحديقة ؟ اين انا ؟ فلم يحب الرجل بشيء .

« وطوّفت في القرية ، وادركت انها كانت مدينة . كانت
الشوارع كلها مهبورة ، وكانت الابواب كلها مفتوحة . لم يكن ثمة
كائن حيّ يمرّ بالشوارع ، أو يمشي في الغرف ، أو يتنزه في الحدائق .
ولكن خلف كل زاوية جدار ، خلف كل باب ، خلف كل شجرة ،
كان يقف رجل معتصم بالصمت . ولكن لم يكن في مبدوري ان
أرى هؤلاء الرجال الا منفردين : واحداً في كل مرة . ونظروا اليّ
فما كنت أجتازهم .

« وغادرت المدينة ، وشرعت أمشي في الحقول .
« وبعد فترة قصيرة ، التفتّ فرأيت جمهرة كبيرة من الناس تلحق
بي . لقد عرفت جميع الرجال الذين رأيتهم في المدينة . كانت رؤوسهم
غريبة . لقد بدا وكأنهم لا يسرعون ، ومع ذلك فقد ساروا بأسرع
ما سرت . ولم يحدّثوا في سيرهم صوتاً ما . وما هي الا لحظة حتى
أدركتني هذه الجمهرة وأحاطت بي . كانت وجوه هؤلاء الرجال بلون

* هذه الملاحظة المقيمة بهلاين هي بخط جان فالان .

التراب .

« ثم إن الرجل الأول الذي سبق أن رأيته وسأله لدن دخولي المدينة قال لي : الى اين انت ذاهب ؟ ألا تدري انك مِيت منذ عهد طويل ؟
« وقتحت في لأجيب ، وأدركت انه لم يكن ثمة أحد من حواري . »

واستيقظ . كان مثلوجاً . وكانت ربيع باردة كريح الصباح قد جعلت أطرُ النافذة ، التي ما تزال مفتوحة ، تدور على رزاتها . كانت النار قد خمدت ، وكانت الشمعة قد اوشكت ان تلفظ آخر انفاسها وكان الليل لا يزال حالكماً .

ونخض ، ومضى الى النافذة . كانت السماء لا تزال عاطلة عن النجوم . ومن نافذته ، كان في ميسور المرء ان يطلّ على فناء البيت وعلى الشارع . وانبعثت من جانب الارض ضجة مجلجلة تؤذي الاذن ، فغفص بصره .

لقد رأى نخته كوكبين احمرين كانت اشعتها تتراقص جيئة وذهوباً ، على نحو عجيب ، في الظلام .
كان عقله ما يزال نصف مغيب في ضباب هواجسه . وقال في ذات نفسه :

« .. اجل ! ليس ثمة شيء منها في السماء . إنما على الارض الآن . »
بيد أن هذا الاختلاط ما لست ان تبدّد . وايقظت ضجة أخرى شبيهة بالأولى إيقاظاً كاملاً . ونظر ، فرأى ان هذين الكوكبين كانا مصباحي عربة . وعلى هدي الضوء الذي انبعث منها كان في ميسوره ان يتبين شكل عربة . كانت عربة مكشوفة يحورها جواد صغير أبيض . وكانت الضجة التي مسمعا هي وقع حوافر الجواد على حصباء الطريق .

وقال في ذات نفسه :

- « ايّ عربية هذه ؟ ومن الذي وفد فيها في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ »

وفي تلك اللحظة قُرع باب غرفته قرعاً خفيفاً .
وارتعد من قمة رأسه الى اخمص قدميه . وصاح في صوت فظيع :
- « مَنْ هناك ؟ »

واجابه شخص ما :

- « انا يا سيدي العمدة . »

وتبيّن صوت المرأة العجوز ، صوت بوابته .
وقال :

- « حسن ، وماذا تريدن ؟ »

- « سيدي العمدة ، إنّها الساعة الخامسة على وجه الضبط . »

- « وماذا يعني ذلك ؟ »

- « سيدي العمدة ، إنّها العربية . »

- « أية عربية ؟ »

- « العربية المكشوفة . »

- « أية عربية مكشوفة ؟ »

- « ألم يطلب سيدي العمدة ان توافيه الى هنا عربية مكشوفة ؟ »

فقال :

- « لا . »

- « يقول السائق إنه جاء نزولاً عند إرادتك . »

- « ايّ سائق هذا ؟ »

- « إنه سائق مسيو سكوفليير . »

- « سائق مسيو سكوفليير ؟ »

وأجفله هذا الاسم ، فكان يرقاً أومض أمام وجهه .

وقال :

- « آه ، نعم ! مسيو سكوفليو . »

ولو قد كان في امكان المرأة العبوز ان تراه في تلك اللحظة اذن لعصف بها الذعر .

وران صمت طويل . وتأمل لمبّ الشمعة ، في انطباعة بلهاء ، واخذ بعض الشمع المحرق من حول القليل وأداره بين اصابعه . وانتظرت المرأة العبوز ، ومع ذلك فقد غامرت فرفعت الصوت مرة أخرى :

- « سيدي العمدة ، بمّ ينبغي ان أجيب ؟ »

- « قولي ان ذلك حسن ، وانني أهبط السلم . »

٥

عصيّ في الدواليب

كان البويد من آراس الى مونتروي سور مير لا يزال يجري ، في ذلك العصر ، بركبات بريديّة ترقى الى عهد الامبراطورية . وكانت هذه المركبات البريديّة عربات خفيفة ذات دولابين ، تُفرش داخلها بجلد أصهب ، وزوّدت بنوابض ذات مقاصل ، وليس فيها غير مقعدين اثنين احدهما للسائق ، والآخر للسافر . وكانت الدواليب ملّحة بتلك المحاور الطويلة المشاكسة التي تختلف العربات الاخرى وراها ، والتي لا تزال تُرى على طرق ألمانيا . وكانت الرسائل تُحمل في صندوق متطيل ضخم قائم خلف العربّة الخفيفة ، فهو يؤلف جزءاً منها . وكانت هذا الصندوق مدهوناً باللون الاسود ، على حين كانت العربّة مدهونة باللون الاصفر .

وكانت هذه العربات ، التي لا يشبهها اليوم شيء ، شائعة جداً ،

فاذا ما رآها المرء من مسافة بعيدة زاحفة فوق طريق ما عند الافق خالها تلك الحشرات التي يدعونها الأرضة ، في ما اظن ، والتي تسحب بأجسادها الهزيلة قطاراً طويلاً يمتد خلفها . بيد انما كانت تنطلق في سرعة بالغة . كانت مركبة البريد التي تغادر آراس كل ليلة ، في الساعة الواحدة ، بعد تسليم البريد الوارد من باريس ، تبلغ مونتروي سور مير قبل الساعة الخامسة صباحاً بقليل .

وتلك الليلة اصطدمت مركبة البريد الهابطة الى مونتروي سور مير ، من طريق هدين ، لحظة دخولها الى المدينة ، عند احد المنعطقات ، بعربة مكشوفة صغيرة شدة اليها جواد ابيض . كانت تلك العربة تنطلق في اتجاه معاكس ، ولم يكن فيها غير شخص واحد ، رجل متلفع برداء فضفاض . واصيبت عجلنا العربة المكشوفة بصدمة قاسية . وصاح سائق مركبة البريد طالباً من الرجل ان يقف ، ولكن المسافر لم يصغ لكلامه ، وواصل انطلاقه في سرعة عظيمة . وقال سائق مركبة البريد :

- « هوذا رجل متعجل الى حد شيطاني ! »

وكان الرجل المنطلق هكذا على عجل هو ذلك الذي شهدناه يناضل في غمرة من القلق العنيف المثير للشفقة .

الى اين كان ذاهباً ؟ إنه ما كان قادراً على ان يجيب . لماذا كان ينطلق في سرعة ؟ لم يكن يدري . كان يندفع الى امام ، كيفما اتفق . الى اين ؟ الى آراس ، من غير ريب . ولكن لعله كان ذاهباً الى مكان آخر ايضاً . وفي بعض اللحظات ، استشعر ذلك ، فارتعدت اوصاله . لقد غاص في تلك الظلمة وكأن يغوص في لجة فائقة قاهما . كان شيء يستحته ، كان شيء يجذبه . ما الذي كان يعتل في ذات نفسه ؟ ذلك ما لا يستطيع احد ان يصفه ، وذلك ما يفهمه كل انسان . فمن ذا الذي لم يدخل ، ولو مرة واحدة في حياته ، في كهف الجهول المظلم هذا ؟ ولكنه لم يعترض شيئاً ، لم يقرر شيئاً ، لم يُبزم شيئاً ، لم يفعل

شيئاً . إن أباً من أفعال ضميره لم يكن نهائياً . كان ، أكثر من أبنا
وقت مضى ، عند نقطة الابتداء .

لم كان ذاهباً الى آراس ؟

وكرر ما سبق ان قاله لنفسه حين حجز عربة سكوفليز ذات العجلتين
من انه - مهما تكن النتيجة - فليس ثمة بأس في ان يوى بعينه ؛ وان
يحاكم الاشياء بنفسه ؛ وان ذلك نفسه عملٌ حفيف ؛ وأن عليه ان
يعرف ما الذي يجري ؛ وانه ليس في ميسوره ان يقرر شيئاً من غير
انه يلاحظ ويبحث ؛ وان الامر للضئيل يبدو ، على البعد ، شبه
بالجبل الكبير ؛ وان ضميره قد يطحن على كل حال ، اذا ما رأى الى
شائغتيه هذا ، وهو بانس من البائسين ، اطمئناناً كبيراً فيرتضي ان يترك
هذا الرجل يمضي الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مكانه ؛ وان
ما لا ريب فيه ان جافير سوف يكون هناك ؛ وان بروفيه هذا ،
وشونيلديو هذا وكوشباي هذا ، وهم من تزلأ سجن الاشغال الشاقة
القديماء ، سوف يكونون هناك ايضاً ؛ ولكنهم لن يتعرفوه من غير شك .
هراء ! بالها من فكرة ! وأن جافير كان على بعد مئة فرسخ عن
الحقيقة ؛ وان جميع الظنون والافتراضات منصبة على شائغتيه هذا ؛
وانه لم يكن ثمة ، اذن ، خطرٌ على الاطلاق .

واضاف قائلاً لنفسه انها ساعة قاتمة من غير ريب ، ولكنه يجب أن
يجتازها ؛ وانه على أية حال يملك قدرته - مهما يكن شيئاً - بيده ؛
وأنه هو سيد هذا القدر . وتشبث بهذه الفكرة .

ولكي نقول كل شيء ، ننص هنا على أنه كان ، في أعمن اعماقه ،
يؤثر ان لا يذهب الى آراس .

ومع ذلك ، فقد كان في طريقه اليها .

وعلى الرغم من استغراقه في التفكير ، فقد ألهم بسوطة الجواد ،
الذي كان ينهب الارض في ذلك الحجب النظامي ، التبت ، الكامل ،
الذي يجتاز فرسخين ونصف في الساعة الواحدة .

وكلما اندفعت العربية المكشوفة الى أمام ، امتشعر في ذات نفسه شيئاً يرتد الى وراء .

وعند الفجر بلغ الارضَ الفضاء . كانت مدينة موثروي سور ميرقد خلقت وراءه على مسافة بعيدة . ورأى الى الافق بشرق . وبصر - ولكن من غير ان يراها - بجميع صور الضحى الشتوي الباردة تمر أمام عينيه . إن للصباح أشباحه ، مثل الليل . انه لم يرها . ولكن على غير وعي منه ، وفي ضرب من النفاذ يكاد يكون مادياً ، أضاف ظلال الاشجار والتلال السوداء تلك الى وضعه النفسي المضطرب شيئاً لت أدريه ، شيئاً كالحلم مشووماً .

وكلما اجتاز بواحد من تلك المنازل المنعزلة القاعة هنا وهناك على جانب الطريق ، قال في ذات نفسه :

« ولكن في داخل هذا المنزل اناساً نائمين ! »

وكان خب الجواد ، وجلجلة جهازه ، ودووان العجلتين على حصاه الطريق تحدث صوتاً رقيقاً رتيباً . إن هذه الاشياء لتكون قاتنة حين يكون المرء مبتهجاً ، وفاجعة حين يكون محزوناً .

كان النور غامراً حين انتهى الى هسدين . ووقف أمام احد الحانات لكي بدع جواده يتنفس ، ولكي يعمل على ترويده بشيء من الشوفان . وكان هذا الجواد ، كما ذكر سكوفليز من قبل ، من سلالة جياد « يولونيه » الصغيرة ، فهو ذو رأس كبير اكثر مما ينبغي ، وبطن ضخم اكثر مما ينبغي ، وعنق قصيرة ، ولكنه ذو صدو عريض ، وكفل ضخم ، وقاعة مهزولة رفيقة ، وقدم ثابتة . سلالة بشعة ولكنها قوية سليمة . كان الجواد الممتاز قد اجتاز خمسة فراسخ في ساعتين ولم تعمل مؤخرته قطرة واحدة من العرق .

ولم يغادر العربية المكشوفة . وفعلةً انحنى خادم الحان الذي حمل الشوفان ، وأنشأ يفحص الدولايب الأيسر .

وقال هذا الرجل :

- « هل اجتزت مرحلة واسعة على هذا النحو ؟ »

فأجاب ، وهو ما يكاد يقطع حبل تفكيره :

- « لماذا ؟ »

فقال الخادم :

- « هل أقبلت من مكان بعيد ؟ »

- « من نقطة تبعد خمسة فراسخ عن هذا المكان . »

- « آه ! »

- « لماذا تقول : آه ؟ »

وانحنى الخادم كرة اخرى . واعتصم بالصمت لحظةً ، مستمراً بصره

على الدولار ، ثم انتصب قائلاً :

- « من الممكن ان يفكر المرء ان هذا الدولار قد فرغ اللحظة

من اجتياز خمسة فراسخ . ولكن من الثابت انه لن يستطيع اجتياز

ربع فرسخ بعد الآن . »

ووثب من العربة الى الارض .

- « ماذا تقول ، يا صديقي ؟ »

-- « اقول إنها لمعجزة ان تكون قد اجتزت خمسة فراسخ من غير

ان تسقط أنت وجوادك في حفرة ما ، على الطريق . من الخير لك

ان تلزم الحذر . »

كان اذئذٍ بالغٌ قد اصاب الدولار حقاً . ذلك بأن الاصطدام

بمركبة البريد كان قد كسر اثنين من انصاف محاوره ، وحلّ وثاق

المركز ، فليس في وسع ثقب اللولب ان يُمسكه بعد .

وقال مخاطباً خادم الاصطبل :

- « ايها الصديق ، الا يوجد صانع عجلات هنا ؟ »

- « من غير شك ، يا سيدي . »

- « تكررتم عليّ باستدعائه . »
- « إنه هنا ، عليّ بُعد خطوتين . هاي ! ايها المعلم بورغايار ! »
وكان المعلم بورغايار ، صانع العجلات ، واقفاً على عتبة دكانه . فاقبل
وفحص العجلة ، وغضن وجهه كما يغضن الجراح وجهه عند رؤيته رجلاً
مكسوة .

- « هل تستطيع ان تصلح هذه العجلة ، في الحال ؟ »
- « نعم يا سيدي . »
- « متى تستطيع ان استأنف الانطلاق ؟ »
- « غداً . »
- « غداً ! »
- « ان إصلاحها يقتضي عمل يوم بكامله . هل أنت مستعجل جداً يا سيدي ؟ »
- « أجل ، أنا مستعجل جداً . يجب ان انطلق بعد ساعة ،
علي الاكثر . »

- « مستعجل ، يا سيدي . »
- « سوف ادفع لك ما نشاء . »
- « مستعجل . »
- « حسن . بعد ساعتين . »
- « ذلك مستحيل ، اليوم . يجب ان أصلح اثنين من انصاف
المهاور ، ومركز الدولاب . إن سيدي لا يستطيع ان يستأنف المسير
قبل غد . »

- « إن مهتي لا تستطيع ان تنتظر حتى الغد . اليس في إمكاننا
ان نستعيز عن هذا الدولاب بغيره ، بدلاً من ان نصلحه ؟ »
- « كيف ذلك ؟ »
- « انت صانع عجلات ؟ »
- « من غير شك ، يا سيدي . »

- « ليس عندك دولاب تبغني إياه ؟ عندئذ يكون في ميسوري
أن انطلق في الحال . »

- « دولاب للاستبدال ؟ »

- « نعم . »

- « ليس عندي دولاب بلام عربتك تماماً . انت كل دولابين
يشكلان زوجاً . وان الدولابين لا ينسجم احدهما مع الآخر كيفما
اتفق . »

- « اذا كان الامر كذلك فبغني زوجاً من الدوليب . »

- « يا سيدي ، ليس كل الدوليب تلائم كل المحاور . »

- « ولكن جرب . »

- « لا فائدة ، يا سيدي . ليس عندي ما ابيعه غير دوليب
عربات ائقال . نحن نعيش هنا في منطقة صغيرة . »

- « هل عندك عربية ذات دولابين تعبرني اياها ؟ »

وكان صانع العجلات قد ادرك ، من اللعة الاولى ، ان العرببة
المكشوفة كانت عربية مستأجرة . فبرز كتفيه .

- « انت ثغني عذابة حنة بالعربات التي تستأجرها ا واني خليق بان
احتفظ باحداها فترة طويلة قبل ان أعيرك إياها . »

- « حسن ، بعني اياها . »

- « ليس عندي واحدة . »

- « ماذا ؟ حتى ولا عجيبة ذات غطاء ؟ أنا لست منعناً ،

كما ترى . »

- « نحن هنا نعيش في بلد صغير . » قال صانع العجلات ذلك ، ثم

اضاف : « ولكن عندي ، تحت السقفة العتيقة هناك ، عربية قديمة

مكشوفة ذات اربع عجلات هي ملك لمواطن من مواطني المدينة

عهد الي في حفظها ، مواطن يستعملها في التاسع والعشرين من شباط

دائماً . سوف اعيرك ايهاا . إنها ليست لي طبعاً . ويجب ان لا يراها
المواطن تجري . والى هذا ، فهي عربة مكشوفة ذات اربع عجلات ،
وهي تحتاج الى جوادين .

- « سوف آخذ جوادين من جياد البريد . »

- « الى اين يقصد سيدي ؟ »

- « الى آراس . »

- « ويريد سيدي ان يصل الى هناك اليوم ؟ »

- « أجل . »

- « بأن تأخذ جياد البريد ؟ »

- « ولم لا ؟ »

- « هل يرضى سيدي بأن يصل هذه الليلة في الساعة الرابعة
صباحاً ؟ »

- « لا ، طبعاً . »

- « اعني ، كما ترى ، ان هناك شيئاً ينبغي ان يقال في ما يتعلق
بأخذ جياد البريد ... هل يحمل سيدي جوازه ؟ »

- « نعم . »

« حسن . اذا اخذ سيدي جياد البريد فإنه لن يصل الى آراس
قبل غد . نحن هنا مفرق طرق . إن المحطات لا تُخدم الا خدمة وديئة ،
والخيل في الحقل . لقد بدأ موسم الحراثة منذ ايام ، والحاجة ماسة
الى كثير من الدواب المقرونة . والجياذ تؤخذ من كل مكان ، ومن
مراكز البريد ايضاً . وسوف يتعين على سيدي ان ينتظر ثلاث ساعات
او اربع ساعات ، على الاقل ، في كل محطة . وفوق هذا ، فأن
على المرء ان يمشي على قدميه . ان هناك كثيراً من الهضاب يجب ان
تورق . »

- « حسن ، سوف أنطلق على صهوة الجواد . نحلّ وثاق الفرس

واقفل ما بينه وبين العربة . في استطاعة شخص ما في هذا المكان ان
يبيعني سرجاً ، من غير شك . »

- « طبعاً . ولكن هل يحتمل هذا الجواد السرج ؟ »

- « صحيح . لقد نسيت ذلك . انه ان يحتمله . »

- « واذن ... »

- « ولكنني سوف اجد في القرية ، من غير شك ، جواداً

أستأجره . »

- « جواداً يذهب الى آراس في انطلاقة واحدة ؟ »

- « نعم . »

- « ينبغي ان يكون ذلك جواداً ليس في منطقتنا نظيره . ويجب ان

تشتريه قبل كل شيء ، لأن احداً لا يعرفك هنا . ولحكك لن تجد

مثل هذا الجواد ، سواء لكراء ام للاستعارة ، وسواء أدفعت فيه

خمسة فرنك او دفعت فيه الف فرنك . »

- « ماذا يجب أن أعمل ؟ »

- « خير ما تعمله ، كرجل ذي ادراك ، هو ان أصلح الدولا ب ،

وان تستأنف رحلتك غداً . »

- « غداً يفوت الاوان . »

- « لعنها الله ! »

- « أليس ثمة مركبة بريـد قاصدة الى آراس ؟ متى تصل

الى هنا ؟ »

- « الليلة . كلتا المركبتين تقوم بالرحلة ليلاً . مركبة البريد الصاعدة

ومركبة البريد الهابطة . »

- « كيف ! أو تحتاج الى يوم كامل لاصلاح هذا الدولا ب ؟ »

- « يوم كامل ، بل يوم طويل ! »

- « ولو جرّدت عاملين لاصلاحه ؟ »

- « ولو جرّدت عشرة عمال . »
- « واذا شددت انصاف المحاور بالحبال ؟ »
- « انصاف المحاور يستطيع ان اشدها بالحبال . أما مركز الدولار فلا . ثم إن إطار الدولار الحديدي في حال غير حسنة ، ايضاً . »
- « أليس في المدينة مؤجّر عربات ؟ »
- « لا . »

.. « ألا يوجد فيها صانع عجلات آخر ؟ »
وأجاب خادم الاصطبل وصانع العجلات في آن معاً ، وبهزة من رأسها :
- « لا . »

واستشر بهجة غامرة .

كان واضحاً ان العناية الالهية تدخلت في الامر . إنها هي التي كسرت دولار العربية المكشوفة ، وصدّته عن سبيله . وهو لم يستلم لذلك لأول وهلة ؛ بل بذل كل جهد ممكن لاكمال رحلته . لقد استنفد ، في اخلاص وتدفيق ، جميع الوسائل . وهو لم يتراجع لا في وجه الشتاء ، ولا في وجه التعب ، ولا في وجه النفقات ؛ وليس ثمة ما يؤنب نفسه من اجله . واذا لم يستطع ان يذهب الى أبعد من هذا فليس ذلك من شأنه . الذنب لم يعد ذنبه . إن ذلك لم يكن من عمل ضميره . ولكن من عمل العناية الالهية .

وتنفس . تنفس في حرية وبإل الصدر للمرة الاولى منذ زيارة جافير . لقد بدا له ان اليد الحديدية التي اعتصرت فؤاده طوال عشرين ساعة قد تراخت .

لقد تراءى له ان الله كان في جانبه الآن ؛ كان في جانبه على نحو جلي .

وقال في ذات نفسه إنه فعل كل ما في وسعه ان يفعله ، وأنه لم

يبقى عليه الآن الا ان يرتدّ على آثاره ، في هدوء .

ولو ان حديثه مع صانع العجلات جرى في احدى غرف الخان اذن لما شهد احد ، ولما سمعه امرؤ على الاطلاق ، واذن اظلم هناك ، ولكان من المحتمل ان لا تُضطر الى رواية اية من الاحداث التي سوف نقرأ نأها بعد . ولكن ذلك الحديث جرى في الشارع . وخلق بكل محاورة في الشارع ان تنشيء حتماً حلقةً من الناس . فهناك دائماً قوم لا يطلبون اكثر من ان يكونوا نظارة . ففما كان يجاور صانع العجلات تحلّق حولهما نفر من القادين والرائحين . وبعد ان استمع احد الفلمان الصغار الى الحديث الدائر بضع دقائق - ولم يكن احد قد انتبه اليه - انفصل عن الحشد واطلق ساقه للريح .

وفي اللحظة التي وطن فيها المسافر عزمه - بعد المذاكرة الباطنية التي اشرنا اليها - على ان يرجع من حيث اتى ، عاد هذا الغلام الصغير ، تصحبه امرأة عجوز .

وقالت المرأة :

- « سيدي ، يقول لي ولدي انك راغب في استئجار عربية ذات دولابين . »

وكان في هذا الكلام البسيط ، تنطق به امرأة عجوز قادها الى هناك غلام صغير ، ما جعل العرق يتصبب من ظهره . لقد خيل اليه انه رأى اليد التي تحرّر منها اللحظة تعاود الظهور ، خلفه في الظل ، وهي على اتم الاستعداد لأن تقبض عليه من جديد .

واجاب :

- « أجل ، ايها المرأة الطيبة ، أنا أنبحث عن عربية ذات دولابين أستأجرها . »

ثم سارع الى القول مضيقاً :

- « ولكن ليس ثمة واحدة في هذه المنطقة . »

فقلت العجوز :

- « اجل . هناك واحدة . »

فتدخل صانع العجلات قائلاً :

- « اين هي اذن ؟ »

فأجابت العجوز :

- « في بيتي . »

وارتعدت اوصاله . كانت اليد المشؤومة قد اطبقت عليه كرة اخرى .
وكان لتلك المرأة العجوز ، في الواقع ، ضربٌ من عُجْبِيَّة ذات
غطاء مصنوعة من خيزران ، وكانت قائمة تحت سقيفة ما . وتدخل
الحداد وخادم الحان ، وقد اغضبها ان يفلت المسافر من بين ايديها :
- « انها عربية وديئة مخيفة . - إنها خالية من النوايض . - صحيح
ان المقعد قد عُلق في الداخل بسيور جلدية . - إن المطر ينفذ
اليها . - إن دواليبها صدئة ثلثتها الرطوبة . - انها لا تستطيع ان
تذهب الى أبعد بكثير من العربية المكشوفة . - إنها عربية سخيفة حقاً -
وان هذا السيد ليخطيء اعظم الخطأ اذا امتطاها . » الخ . الخ .
كل ذلك كان صحيحاً . ولكن هذه العربية الرديئة ، هذه العربية
السخيفة ، هذا الشيء ، كائناً ما كان ، كانت تجري على دولابين ، وكان
في استطاعتها ان تذهب الى آراس .

ودفع ما سُئل ان يدفعه ، وعهد الى صانع العجلات في إصلاح
العربية المكشوفة على ان يستلمها حين يعود ، وقرن الجواد الابيض الى
العُجْبِيَّة ذات الغطاء ، وامتنى متبهاً ، واستأنف السير في الطريق التي
ملكها منذ الصباح .

ولم تكذ العجبة تنطلق به حتى اعترف بأنه استشعر ، قبل لحظة ،
ابتهاجاً ما لدن خطر له انه لن يذهب بعدُ الى حيث كان ذاهباً .
وفحص ذلك الابتهاج في ضرب من الغضب ، فوجد أنه احمق . ولماذا

يستثمر الفرح اذا ارندت على عقبه ؟ وعلى اية حال ، فهو يقوم بهذه
الرحلة بطَوَّعِهِ . إن احداً لم يُكرهه عليها .
ولا ريب في ان شيئاً ما لن يقع إلا اذا اراد هو ان يقع .
وفيما هو يغادر هدين ، سمع صوتاً يصيح :
- « قف ! قف ! »

وارقف العُجْبيلة بحركة عجلى كان لا يزال فيها شيء لا أدريه من الحتمي
والتشنج هو اقرب ما يكون الى الأمل .
وكان الصائح غلام المرأة المعجوز .
وقال :

- « سيدي ، اني أنا الذي جئتك بالمعجيلة . »
- « ثم ماذا ؟ »
- « إنك لم تعطيني شيئاً . »

واستثمر - وهو الذي كان يعطي الجميع ، ويعطيهم في كثير من
السواء - أن هذا المطلب مغالى فيه ، وأنه يكاد يكون بغيضاً .
وقال :

- « آه ، أنت الذي جئت بها ، أيها الشعاذ ! انك لن تتال
شيئاً ! »

وألمب الجواد بالسوط ، واستأنف انطلاقه في خبيبٍ خاطف .
كان قد أضع كثيراً من الوقت في هدين ، وكان يريد ان يعرض
ما أضعه . وكان هذا الجواد الصغير باسلاً ، وكان يحير المعجيلة بقوة
فرسين اثنين . ولكن الناس كانوا في شهر شباط ، وكان المطر قد
هطل ، وكانت الطرق وديئة . وفوق هذا فلم يعد هو على متن عربته
الأولى . كانت المعجيلة تقضي في عسر ، وكانت ثقيلة جداً . وإلى هذا
فقد كانت ثمة مرتفعات شديدة الانحدار .

واقضاه الانتقال من هدين الى سان بول أربع ساعات . أربع

ساعات لكي يجتاز حمة فراسخ .
وفي سان بول تقدّم الى أول خان ، وقاد الجواد الى الاصطبل ،
بعد ان فصله عن العجبة . وكما وعد سكوفلير ، وقف قرب المعلق
بينما كان الجواد يتناول طعامه . كان يفكر في أشياء محزونة مشوّنة .
ووفدت زوجة صاحب الخان الى الاصطبل .
- « الا يريد سيدي أن يتناول طعام الصباح ؟ »
فقال :

- « ولكن ، هذا صحيح . إن لي شهية حنة ايضاً . »
وتبع هذه المرأة ، وكانت ذات وجه تضرّ طروب . وقادته الى
قاعة منخفضة حيث كانت بضع طاولات مغطاة بقماش مشمع .
وقال :

- « عجلي . يجب أن استأنف السير . أنا مستعجل . »
وسارعت خادم فلنكية ضغطة الى إعداد المائدة له . ونظر الى هذه
الفئة وقد داخلته الارتياح .
وفكّر فيما بينه وبين نفسه :

- « ذلك ما أوجعني . أنا لم اتناول طعام الصباح . »
كان فطوره قد أعدّ . فانقضّ على الرغيف ، ونهش قطعة منه ، ثم
أعاده في تودة الى الطاولة ، ولم يمسه بعد ذلك قط .
وكان سائق عربات يتناول الطعام على طاولة اخرى . فقال لهذا الرجل :
- « ما الذي يجعل خبزهم مريراً الى هذا الحد ؟ »
وكان سائق العربات ألمانيا ، فلم يفهم كلامه .
ورجع الى الاصطبل لكي يكون الى جانب جواده .
وبعد ساعة ، كان قد غادر سان بول ، واتجه نحو « تانك » التي لا
تبعد عن آواس غير حمة فراسخ .

ما الذي كان يعمله اثناء هذه الرحلة ؟ لم كان يفكر ؟ لقد رأى

الى الاشجار تمرّ به ، شأنه في الصباح ، والى الطروح المبنية من طين وقش ، والى الحقول المروثة ، والى مشاهد الريف الذائب بعضها في بعض ، والمتغيرة عند كل منعطف من منعطفات الطريق . ومثل هذه المشاهد تشبع النفس في بعض الاحيان ، وتكاد ان تطرد التفكير . واي شيء يمكن ان يكون اشدّ كآبة وأعمق حسرة من رؤية الف شيء للمرة الاولى وللمرة الاخيرة ؟ وغير بعيد ان يكون قد عقد ، في أحلك جزء من عقله ، مقارنة بين هذه الآفاق المتغيرة وبين الوجود الانساني . إن حقائق الحياة كلها لا تفتأ تفرّ من وجهنا على نحو موصول . وإن الظلمات والنور لتتداخل وتتمازج . فبعد الجهر * الكسوف . إتنا ننظر ؛ إتنا نستعجل ؛ إتنا نعدّ ايدينا لنمسك بالذي يحدث ؛ إن كل حادثة هي منعطف من منعطفات الطريق ؛ ونجأة ننتهي الى الشيخوخة . نحن نشعر صدمة طفيفة ، فاذا كل شيء اسرد ، واذا بنا تقيّنت بآباً مظلماً . وينفج جواد الحياة القائم هذا الذي كان يُقلّتنا ، ونرى شعباً محبباً مجهولاً يُطلقه في الظلمات .

وهبط الفسق لحظة شاهد الاطفال المنصرفون من المدرسة هذا المسافر يدخل الى تانك . صحيح أن النهار كان ما يزال قصيراً . ولم يقف في تانك . وفيها هو ينطلق خارجاً من القرية رفع ريفي كان يصلح الطريق رأسه وقال :

- « ان جوادك متعب جداً . »

كانت البهية ، في الواقع ، تعدو عدواً هو الى المشي أقرب .
واضاف الريفى :

- « أذهب انت الى آراس ؟ »

- « نعم . »

* تجرّت العين : لم نمر في الشمس .

« اذا ذهبت بهذا البطء فلن تصل باكراً . »
ووقف فرساً وسأل الريفي :

« ما المسافة التي تفصل آراس عن هذا المكان ؟ »

« سبعة فراسخ طويلة ، تقريباً . »

« كيف ذاك ؟ إن كتاب البريد لا يشير الى اكثر من خمسة

فراسخ وربع . »

فأجابه الريفي :

« آه ! اذن ، فانت لا تعرف ان الطريق قيد الاصلاح ؟

سوف نجدها منقطعة بعد مسيرة ربع ساعة من هنا . وليس ثمة وسيلة

للذهاب الى ابعد من ذلك . »

« حقاً ؟ »

« سوف تتعطف نحو الشمال ، ونسلك الطريق التي تقود الى

كارانسي ، ثم نعبّر النهر . وبعد أن تصل الى كامبلين تتعطف نحو

اليمين ؛ تلك هي طريق مون - سان - إيلوا التي تقود الى آراس . »

« ولكن الليل قد هبط . ولسوف اضلّ سبيلي . »

« ألت من ابناء هذه المنطقة ؟ »

« لا . »

« والى ذلك ، فهذه كلها طرق ضيقة اكثر مباشرة من الطريق

العامة . »

قال الريفي هذا ثم اضاف :

« إسمع ، يا سيدي . اريد ان اقدم اليك نصيحة ؟ إن جوادك

متعب ؛ فارجع الى ثالك . إن فيها منزلاً حَسناً . ثم هناك . ولسوف

يكون في إماكنك ان تذهب الى آراس غداً . »

« ولكن يجب ان اكون هناك الليلة . »

- « هذه مسألة أخرى . اذن فارجع على ابة حال الى الحان وخذ جواداً إضافياً . وفي ميسور الغلام الذي سينطلق مع الجواد ان يديك سبيلك عبر الطرق الضيقة . »

وعمل بنصيحة الريفي ، فارتدت على آثاره ، وبعد نصف ساعة كانت يجتاز بالمكان نفسه ، ولكن في خبب تام ، ومع جواد إضافي جيد . وكان غلام من غلمان الامطبات ، دعا نفسه سائق عربات ، قد جلس على ساق العربة .

ومع ذلك ، فقد استشعر أنه يضيع كثيراً من الوقت . كان الظلام قد امسى حالماً .

وانتهيا الى احدى السبل الضيقة . وغدت الطريق مروعة . ومقطت العُجبة في ثلم إثر ثلم . وقال للسائق :
- « اأزوم الحطب اضعف لك العطاء . »

واثر احدى الرجات ، انكسرت قطعة الحطب الامامية المعلق بها سَيْرُ الجرة .

وقال سائق العربة :

- « سيدي ، لقد انكسرت قطعة الحطب الامامية ، ولست ادري كيف أقوم جوادي الآن . وهذه الطريق رديئة جداً في الليل ، فاذا رغبت في ان توجه الى ثالك وتبيت فيها فعندئذ يكون في إمكاننا أن نصل الى آراس في ساعة مبكرة من صباح غد . »
فأجابه قائلاً :

- « هل عندك قطعة من حبل وسكين ؟ »

- « نعم ، يا سيدي . »

وقطع غصن شجرة واستعاض به عن الاداة الخشبية المكسورة . وهكذا ضاعت عشرون دقيقة أيضاً . ولكنها ما لبثا ان انطلقا

خبياً .

كان السهل مظلماً . وكان ضباب منخفض ، أسود كثيف ، يزحف فوق المضاب ، ويطفو متلاشياً كالدهان . وانبتت من السحاب وميض ضئيل . وملأت ريحٌ عفيفة مقبلة من جانب البحر أوجاء الاقن كله بصوت شبه ما يكون بذلك الذي يحده شخصٌ بحرك بعض الاثات . ورائت سباً الذعر على كل ما لحته عيناه . عجباً ، كيف ترتعد جميع الاشياء تحت انفاس الليل القظيمة !

وعصف به البرد . إنه لم يأكل شيئاً منذ الليلة البارحة . واسترجع ، على نحو غامض ، ذكرى مسيره الليلي الآخر في ذلك السهل الواسع المنبسط قرب ه ... كان ذلك منذ ثمانية أعوام ، ولقد بدا له وكأنه لم يكن إلا أمس .

ودق جرس ساعة بعيدة . فسال الغلام :

« كم الساعة الآن ؟ »

« الساعة ، يا سيدي . وسوف تبلغ آراس في الساعة الثامنة .

لم يبق أمامنا غير ثلاثة فراسخ . »

وفي تلك اللحظة خطر له لأول مرة - ولقد بدا عجبياً في نظره أن لا يفكر في ذلك من قبل - أن كل المناء الذي ينتجته قد يكون غير ذي غناء ، وأنه ما كان يعرف حتى موعد الهاكمة ، وأنه كان من واجبه ان يستعلم عن ذلك على الاقل ، وان من البلاهة ان ينطلق في مثل هذه السرعة من غير ان يعرف ما اذا كان لذلك فائدة ما . ثم تمثل في ذهنه بعض الاعتبارات : ان جلسات محاكم الجنایات تستمل عادة في الساعة التاسعة صباحاً ، وان هذه الدعوى لن تستغرق وقتاً طويلاً ، وان سرقة التفاح هذه سوف تكون موجزة جداً ، وان المسألة كلها سوف تكون مسألة تحقيق الهوية ، وأنه لن يكون ثمة غير أربعة

شهود أو حجة وشيء من الكلام قليل يقوله المحامون ؛ وإنه قد يصل
إلى هناك بعد أن ينتهي كل شيء !
والهيب السائق الجواهري بسوطه . كنا قد عبرنا النهر ، وخلفنا مون
- سان - إيلي وراءهما .
واحلوك الأيل أكثر فأكثر .

انتهى الجزء الثالث
وبليه الجزء الرابع وبه يتم المجلد الاول
من البؤساء

البؤساء

لِسَاءِ فَرَسَةِ الْعَظِيمِ
فِي كُتُورِ هَيْجُو

٤

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
مُسَيِّرُ الْعَبَّاسِي

دار العلم للملايين
ببيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الآنسة سيمبليس تجرّب

وفي غضون ذلك ، في تلك اللحظة بالذات ، كانت فانتين في جدل . كانت قد قضت ليلة سيئة جداً . سعالٌ مروع ، وحُمى متضاعفة ، واحلام مزعجة . وفي الصباح ، حين أقبل الطبيب ، كانت نهذي . كان قلقاً ، وكان قد طلب ان يحاط علماً بجميعه . ميو مادلين حالما يتم ذلك . كانت طوال الصباح مفتحة كتيبة . انها لم تتكلم إلا قليلاً ، ولقد راحت تثني غطاء سريرها منتمة ، في صوت منخفض ، ببعض الحسابات التي بدت أشبه ما تكون بحساب المسافات . كانت عيناها غائورتين مـحترقـتين . ولقد تراءتا كأن النور كاد يفارقهما ، ولكنها كانتا تلتصقان ، في بعض اللحظات ، وتتوهجان ، وكأنهما كوكبان . لكنّ ضياء السماء يلاً — عند اقتراب ساعة مظلمة — اولئك الذين يغادرون ضياء الارض .

وكما سألتها الآنسة سيمبليس عن حالها كانت تجيبها جواباً لا يتغير .

— هـ بخير . اريد ان ارى ميو مادلين . هـ

قبل بضعة اشهر ، حين فقدت البقية الباقية من حشمتها ، البقية الباقية من حياتها ، البقية الباقية من سعادتها ، كانت خيال نفسها . اما الآن فقد أمت شبح نفسها . كان الألم الجسدي قد أتم عمل الألم المعنوي . فاذا بهذه المخلوقة البالغ عمرها خمسة وعشرين ربيعاً ذات جبين متجمد ، وخدين متوهلين ، ومنخرين مقروصين ، ولثة متقلصة ، وبشرة

رصاصية ، وعنق عظيمة ، وتوتوتوتان * فانتان ، واوصال مهزولة ،
وجلد ترابي شاحب ، وشعر وخطه المشيب . والأسفاه ! كيف يرتجل
المرض' الشيخوخة !

وعند الظهيرة ، اقبل الطيب ككرة اخرى ، وترك بعض الصفات ،
وسأل عن العدة أوفد على المستشفى ام لا ، وهز رأسه .
كان من عادة مسير مادلين ان يفد في الساعة الثالثة ليرى المرأة
المريضة . وإذا كانت الدقة من الرفق ، فقد كان دقيقاً في المواعيد .
وحوالى الساعة الثانية والنصف نبا الفراش بفانتين . وفي مدى عشرين
دقيقة سألت الراهبة اكثر من عشر مرات :

- وكم الساعة ، ايها الاخت ؟

وأعلنت الساعة الثالثة . ولم تكد تستكمل دقائقها حتى انتصبت فانتين
في فراشها ، وهي التي كانت لا تستطيع في العادة ان تنقلب على جنبها
إلا في عسر ، وشابكت يدها العجفاوين الصغراوين في ضمة تشبعية ،
وسمعتها الراهبة تطلق من صدرها احدى تلك الزفرات العميقة التي تبدو
وكأنها ترفع ثقلاً ثقيلاً . ثم إن فانتين التفت ونظرت الى الباب .

إن أحداً لم يدخل . إن الباب لم ينفج قط .

وقعدت هكذا طوال ربع ساعة ، مسرة عينها على الباب ، غير
مبدية حراساً ، وكأنها كانت تحبس أنفاسها . ولم تجرؤ الراهبة على
الكلام . وأعلنت ساعة الكنييسة الثالثة والربع . وانطرحت فانتين على
وسادتها .

ولم تقل شيئاً ، وشرعت تثني غطاء فراشها من جديد .

وانقضى نصف الساعة ، ثم انقضت الساعة ، ولكن أحداً لم يأت .
وكلما دقت الساعة ، كانت فانتين تنهض ، وتنظر الى الباب ، ثم تنطرح
على فراشها ككرة اخرى .

* التوتوتوت : العظم الذي بين ثغرة النحر والمناق . وجما تراف .

كان في ميسور المرء ان يطّلع على افكارها في وضوح ، ولكنها لم تلفظ امياً ما . انها لم تتشكّ . إنها لم تلتئم . لقد سمعت على نحو فاجع ، ليس غير . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يزعم ان شيئاً مظلماً كان يُسِفّ فوقها . كان لونها أزرق ضارباً الى السواد ، وكانت شفها زرقاوين . وابتسمت بين الفينة والفينة .

واعلنت الساعة الخامسة . وعندئذ سمعتها الراهبة تقول في صوت منخفض جداً ، وفي وفق :

— « ولكن ما دمت انا ذاهبة غداً ، فأن من الخطأ ان لا يأتي اليوم ! »

واستولى العجب على الاخت سيبيليس لتأخر ميسو مادلين . وفي غضون ذلك حدثت فانتين الى مظلة سريرها . لقد بدت وكأنها تحاول ان تتذكر شيئاً . وفجأة انشأت تنفي في صوت واهن شبه بالهمس . وأصفت الراهبة . كانت هذه هي الاغنية التي أنشدتها فانتين :

سوف تشتري أشياء جملة جداً ،
ونحن ننزه في الضواحي .
ان البنفسج أزرق ، وإن الورد حمراء ،
إن البنفسج أزرق ، وأنا أحب أحبتي .

أمس وهدت مريم العذراء ،
الى فراشي في رداء موسى ،
وقالت لي : « ههنا تحت حجائي ،
يتنزه الطفل الذي سألتني لياه يوماً . »
أسرعني الى المدينة ، واشتري نسيجاً طلياً ،
اشتري خبوطاً ، واشتري كشتبان .

سوف تشتري أشياء جملة جداً ،
ونحن ننزه في الضواحي .

أيها العذراء المقدسة الطيبة ، لقد وضعت

الى جانب فراشي مهداً مزينا بالصائب .
ولو ان الله اعطاني اجل كوكب من كواكبه
اذن لاحتبت الطفل الذي اعطيتني اياه اكثر .
- « سيدتي ، ما الذي أصنعه بهذا النسيج القطني ؟ »
- « اصني جهازاً لمولودتي الجديدة . »

إن البنفسج ازرق ، وإن الورود حمراء .
إن البنفسج ازرق ، وأنا أحب احبتي .

- « اغني هذا القماش القطني . » - « اين ؟ » - « في النهر . »
لأجعلي منه ، من غير ان تلتفيه او تلويحه ،
تنورة جبلة ، تنورة طويلة جداً
اريد ان اوتئبها واملأها بالازهار .
- « إن الطفل لم يد هناك ، يا سيدتي ، فاعمل ؟ »
- « أجعلي منه كمناء أدفن به . »

سوف نشري اشياء جبلة جداً ،
وغن ننزه في الضواحي .
إن البنفسج ازرق ، وإن الورود حمراء ،
إن لنبفسج ازرق ، وأنا أحب احبتي .

كانت تلك اغنية قديمة من اغاني هدهدة الاطفال تعودت في ما مضى
ان تنشدها لصغيرتها كوزيت قبيل النوم ، ولم تخطر لها ببال منذ ان
فارقت طفلتها خمس سنوات خلت . لقد غنتها في صوت جدّ محزون ،
وفي لحن جدّ عذب بحيث لم يكن في ميسورها الا ان تستدر الدموع
حتى من عيني راهبة واستشعرت الأخت ، برغم تعودها الصرامة ، ان
عبوة تنهد على خديها .

واعلنت الساعة السادسة . وبدأت فانتين وكأنها لم تسمع . لقد بدت
وكانها لا تلقي بعداً بالاً لأبما شيء حولها .

ووجهت الأخت سيمبليس فتاة لتسأل بوابة المصنع هل عاد ميسو

مادلين ، وما اذا كان يعتزم المجيء الى المستشفى وشيكاً ، ام لا ؟
ورجعت الفتاة بعد بضع دقائق .

كانت فانتين لا تزال جامدة لا تتحرك ؛ ولقد بدت مستغرقة في
أفكارها الخاصة .

وفي خمس ، روت الفتاة للاخت سيبليلس ان العدة ارتحل ذلك
الصباح نفسه ، قبل الساعة السادسة ، على متن عربة صغيرة مكشوفة
يقودها جواد ابيض ، على الرغم من شدة البرد ؛ وانه ارتحل وحده
من غير ان يصطحب حتى سائقاً ؛ وان احداً لم يعرف الطريق التي
سلكها ؛ وان بعضهم قال انه شوهد ينعطف متخذاً طريق آراس ؛
وان آخرين كانوا واثقين من انهم التقوا به في الطريق المؤدية الى باريس ؛
وانه حين ارتحل بدا ، كمعاده ، لطيفاً جداً ، وانه اكنى بأن قال
للبواية ان لا ينتظروا عودته تلك الليلة .

وفما المرأتان تنهماسان ، موليتين ظهرهما سرير فانتين - الراهبة
تستجوب ، والحادمة غمغن - نهضت فانتين في سريرها على
الركبتين ، بذلك النشاط الحثوي المرافق بعض الامراض العصبية
والذي تختلط فيه حركة الصخرة الطلقة بهزال الموت المروع ، واستندت
قبضتها المنشجبتين على الوسادة ، مُطلعةً رأسها من فتحة الستارة ،
وانشأت تصفي . وفجأةً صاحت :

- و انتما تتحدثان هناك عن مسيو مادلين ! لماذا تتكلمتان بصوت
منخفض جداً ؟ ما الذي فعله ؟ لماذا لا يجيء ؟ ،

كان صوتها أجشّ خشناً الى حد خيل للمرأتين انهما سمعتا صوت
رجل . والفتتا نحوها مذعورتين .

وصاحت فانتين :

- و لماذا لا نجيان ؟ ،

فتلجلجت الحادمة :

— « لقد قالت لي البوابة انه لن يستطيع المجيء اليوم . »
وقالت الراهبة :

« الزمى الهدوء ، يا ابنتي . اضطجعي من جديد . »
ومن غير ان تغير فانتين وضعها ، استأنفت الكلام في صوت
مرتفع ، وفي نبرة ثابتة وآمرة في آن معاً :

— « إنه لا يستطيع المجيء ؟ ولم لا ؟ انما تعرفان السبب . كننا
تتهامسان به فيما بينكما . اريد ان اعرف السبب . »
وامرعت الخادمة الى الممس في اذن الراهبة :

— « أجيئها بقولك إن اعمال المجلس البلدي تشغل . »
واحمرت الاخت سببليس احمراراً طفيفاً . كان ما اقترحته عليها
الخادمة كذبة . ومن ناحية ثانية ، فقد بدا لها ان إعلام المريضة
بالحقيقة جدراً به أن يكون ، من غير شك ، ضربة فظيمة ، وأنه كان
خطراً في مثل حال فانتين . ولم يستمر هذا الاحمرار طويلاً . لقد
رفت الاخت عنها المائدة المحزونة نحو فانتين ، وقالت :

— « إن السيد العمدة قد ذهب . »
ووثبت فانتين وقعدت على قدميها . والتفت عيناها . لقد أشرق
فوق ذلك الوجه الموجه الموجه ابتهاج خارق .
وصاحت :

— « ذهب ! لقد ذهب ليأبني بكوزيت ! »
ثم انها بسطت يديها نحو السماء ، وغدا حياها كله بمتعة على الوصف .
ونحركات شفتها . كانت تصلي في صوت خفيض .
حتى اذا انتهت صلاتها قالت :

— « ايها الاخت ، انا شديدة الرغبة في ان اضطجع من جديد ،
ولسوف أفعل كل ما تطلين مني . لقد كنت شكة في هذه اللحظة ،
وانا أنس عفوك لأني تكلمت بمثل ذلك الصوت العالي . إن من الفبيح

جداً ان يتحدث المرء بصوت عالٍ . انا اعرف ذلك جيداً ، ايتها
الاخت الصالحة ، ولكن انظري كم انا سعيدة . انت الرب لطيف .
وان مـيرو مادلين طيب . نصوري انه ذهب الى مونفيرماي لكي
يجيئني بصغيرتي كوزيت . »

واضطجعت من جديد ، وساعدت الراهبة على تسوية الوسادة ،
وقبلت الصليب الفضي الصغير الذي يطوق جيدها ، والذي كانت
الاخت سيمبليس قد منعتها إياه .

وقالت الراهبة :

- وحاولي ، يا ابنتي ، ان تسترخي الآن ، ولا تنطقي بعدُ بكلمة .
وأمسكت فانتين بيديها النديتين يد الراهبة التي آلمها ان تستشعر
هذا العرق .

- « لقد ذهب هذا الصباح قاصداً الى باريس . الراقع انه ليس في
حاجة حتى الى المرور بباريس . ان مونفيرماي تقع الى اليسار بعض
الشيء ، في طريق المسافر القادم الى هنا . انت تذكرين ما قاله لي ،
امس ، عندما حدثته عن كوزيت : قوياً جداً ، قوياً جداً ! تلك
مفاجأة يريد ان يقدمها اليّ . هل تعرفين ؟ لقد طلب اليّ ان اوقع
على رسالة لاسترجاعها من تيناردييه وزوجته . ان يكون عندهما
ما يقولانه ، اليس كذلك ؟ سوف يرجعان كوزيت اليّ . لأنها نالا
اجورهما . إن السلطات ان تسمح لهما بأن يحجزوا طفلة بعد ان تدفع
اليها اجورهما . ايتها الأخت ، لا تؤمئي اليّ بضرورة الامتناع عن
الكلام . انا سعيدة جداً ، انا في صحة حسنة جداً . لم اعد احسن
بألم على الاطلاق ، وسوف ارى كوزيت من جديد . بل انني جائعة
جداً . لقد انقضت خمس سنوات لم أرها خلافاً . إلك لا تتصورين ،
إنك لا تستطيعين ان تتصورتي ، أي سلطان يفرضه الاطفال عليك . والى
هذا ، فسوف تكون جميلة جداً ، سوف ترين ! وإن لها ، لو عرفت ،

اصابع وردية صغيرة فاتنة جداً ! أولاً ، سوف يكون لها يدان جميلتان جداً . يومَ كان عمرها سنة كانت لها يدان مضحكتان . - هكذا ! يجب ان تكون قد كبرت الآن . إنها في السابعة من عمرها . انها سيده صغيرة . انا ادعوها كوزيت ، ولكن اسمها أوفرازي . اسمي . هذا الصباح كنت انظر الى الفبار الذي كانت يملو الموقد ، فخطر لي انني لا بدّ سأرى كوزيت كرةً اخرى في وقت قريب جداً ! يا الهي ! ما أفدحه من خطأ ان يبلغ الانسان سنوات عديدة من غير ان يرى اولاده ! يجب علينا ان نذكر ان الحياة ليست ابدية . اوه ! كم كان جميلاً من السيد العمدة ان يذهب ! هل صحيح ان الجو بارد جداً ؟ هل ارتدى معطفه على الاقل ؟ سوف يكون هنا غداً ، اليس كذلك ؟ هذا ما سيجعل يوم غدٍ عيداً . وغداً صباحاً ، ايها الاخت ، سوف تذكريني بأن أعتمر قلنسوتي الصغيرة المصنوعة من الوشي . ان مونفيرماي بلدة ريفية . لقد اجتزت هذه الطريق ، مرةً ، على قدمي . كانت الرحلة طويلة جداً بالنسبة الي . ولكن العربات العمومية تنطلق في سرعة بالغة ! إنه سوف يكون هنا ، غداً ، مع كوزيت . كم تبعد مونفيرماي عن هذا البلد ؟

فأجابت الراهبة ، ولم تكن لديها أيما فكرة عن المسافات :
 « اوه ! أعتقد اعتقاداً قوياً بأنه يستطيع ان يكون هنا غداً . »

فقلت فانتين :

- « غداً ! غداً ! سوف ارى كوزيت غداً ! انظري ، يا راهبة الرب الصالحة ، أنا لم اعد مريضة . انا مريحة . واني جديرة بأن أرقص اذا سألتني امرؤ ان افعل . »

وما كان في ميسور من 'قدر له ان يراها قبل ربع ساعة ان يفهم هذا . كان لوئها كلها وردياً الآن ، وكانت تتكلم في نبوة طبيعية تمور

بالنشاط . ولم يكن وجهها غير بسة . وبين الفينة والفينة كانت تضعك فيما هي تخاطب نفسها في صوت خفيض . إن ابتهاج الأم بكاد يكون مثل ابتهاج الطفل .

وأستأنفت الراهبة كلامها :

« حسن ، أنت سعيدة الآن ، فأطيعني . لا فتكلمي أكثر مما

فعلت . »

وألفت فانتين رأسها على الرصادة وقالت في صوت كالمس :

« أجل . اضطجعي كرة أخرى . كوني حكيمة ما دمت

ستفوزين بابتك . إن الاخت سيمبليس على صواب . كل من في هذا المكان على صواب . »

ثم انها شرعت تنظر بعد ذلك - من غير أن تتحرك او تدبر رأسها - الى ما حولها ، بعينين مقتوحتين الى اقصى مدى ، وبانطباعة بهيجة . ولم تنطق بكلمة اضافية .

وأغلقت الراهبة الستارة ، وجاءة ان تسلم المريضة للرقاد .

وبين الساعة السابعة والساعة الثامنة اقبل الطبيب . واذ لم يسمع صوتاً ، فقد حسب ان فانتين نائمة . فدخل الغرفة في تؤدة ، واقترب من سريرها على رزوس أصابعه . وفتح الستارة ، وعلى ضوء الفئيديل الباهت رأى عيني فانتين الواسعتين الحادثتين نظران اليه .

وقالت له :

« سيدي ، سوف تسبح لها بأن ترقد الى جانبي في سرير صغير ،

أليس كذلك ؟ »

وظنّ الطبيب انها تهذي . وأضامت :

« انظر . إن هنا مكاناً يتسع لها تماماً . »

وانتهى الطبيب بالاخت سيمبليس جانباً ، فأعلمته ان ميرو مادلين

غادر البلدة في رحلة تستغرق يوماً أو يومين ، وأنها رأت من الخير -

وقد أعوزها اليقين - ان لا تخدع المربضة التي اعتقدت ان العبدَة قصدَ الى مونفيرماي ، وان من الجائر ، على اية حال ، ان يصدقَ ظنّها . وأقرّ الطبيب ذلك .

وانقلب الى سرير فائتين كرة أخرى . فأضافت :

- « وفي الصباح ، عندما تستيقظ ، سوف يكون في إمكاني أن أقول صباح الخير لهذه المرة الصغيرة المسكينة . وفي المساء سوف يكون في إمكاني ، انا التي لا تنام ، ان أسممها وهي نائمة . ان انقاسها الصغيرة هي من العذوبة بحيث تردّ اليّ العافية . » وقال الطبيب :

- « أعطيني يدك . »

وبسطت ذراعها ، وصاحت ضاحكة :

- « آه ! روبدك ! في الواقع ، هذا صحيح ، إنك لا تدري . ولكنني قد شفيت . كوزيت سوف تأتي غداً . » ودُهِش الطبيب . كانت في حال خيرٍ من ذي قبل . كانت تُعسر التنفس قد خفّت ، وكان نبضها قد قوي . إن ضرباً من الحياة الجديدة قد دبّ فجأةً في جسد هذه المخلوقة المسكينة المنهكة القوى . وثابتت :

- « ايها الطبيب ، هل اخبرتك الراهبة ان ميسو مادلين ذهب ليجيء بالطفلة الصغيرة ؟ »

واوصاها الطبيب بالصمت ، وباجتناب كل انفعال أليم . ووصف لها نعيم الكينا الخالصة ، ناصحاً ، اذا عاودتها الحمى ليلاً ، بأن تُسقى دواءً مسكناً . وفيما هو يمضي لسبيله ، قال للراهبة :

- « انما احسن حالاً . واداء شاء حسن الطالع ان يرجع العبدَة بالطفلة الصغيرة في غدٍ فعلاً ، فمن يدري ؟ إن ثمة نوباتٍ تدعو الى الدهش . وكثيراً ما رأينا الجذل العظيم يشفي من الامراض في الحال . »

انا اعلم جيداً ان هذا مرض عضويّ ، وانه قد انتهى الى مراحل الخطيرة ، ولكن هذا كله لغز عجيب ! إننا قد نوفق الى انقاذها .

٧

المسافر يصل ويعد العدة للرجوع

كانت الساعة الثامنة مساءً ، تقريباً ، عندما بلغت العُجيلة التي تركناها على الطريق فناء دار البريد في آراس . وترجّل الرجل الذي تبعناه حتى هذه اللحظة ، وردّ على مجاملات المشرفين على الفندق في ذهول ، وأعاد الجواد الاضافي ، وقاد الجواد الصغير الابيض بنفسه الى الاصطبل ؛ ثم دفع باب غرفة البليارد القائمة في الدور الاول ، وجلس على كرسيّ ، وأسند مرفقيه الى الطاولة . كان قد أنفق اربع عشرة ساعة في هذه الرحلة ، التي توقع أن يقوم بها بستّ ليس غير . وأقرّ نفسه على ان الغلطة ليست غلطته ؛ أما في أعماقه فلم يكن غاضباً لذلك . ودخلت ربة الفندق .

— « اريد سيدي ان ينام ، اريد سيدي ان يتعشى ؟ »
وهز رأسه .

— « يقول صبيّ الاصطبل ان جواد سيدي متعب جداً ! »
وهنا قطع حبل الصمت :

— « ألن يكون الجواد قادراً على العودة صباح غد ؟ »
— « اوه ، يا سيدي ؟ إنه في حاجة الى يومي راحة على الأقل . »
وسأل :

— « اليس مكتب البريد هنا ؟ »

— « نعم يا سيدي . »

وقادته صاحبة الفندق الى المكتب . وابرز جواز سفره وسأل ما اذا كان في إمكانه ان يعود تلك الليلة الى مونتروي سور مير على متن مركبة البريد . ولم يكن قد بقي غير مقعد واحد ، هو المقعد المحاذي للسائق . فاحتجزه ودفع أجر السفر .

وقال رئيس المكتب :

« لا تنسَ ان تكون على أهبة السفر ، هنا ، في تمام الساعة الواحدة صباحاً . »

حتى اذا تمّ ذلك غادر الفندق وشرع يتشّى في المدينة . كان لا يعرف آراس ، وكانت الشوارع مظلمة ، فراح يذوعها كيفما اتفق . ومع ذلك فقد بدا وكأنه يُججم في عناد عن اثّ يسأل عابري السيل ان يدلّوه على الطريق . وعبرَ نهر كرينشوت الصغير ، فوجد نفسه في تيّ من الشوارع الضيقة ما لبث ان ضلّ فيها السيل . وأقبل مواطن يحمل فانوساً . وبعد شيء من التردد وطّن العزم على ان يتحدث الى هذا الرجل ، ولكن بعد أن نظر الى امام والى وراءه وكأنما كان يخشى ان يسمع احدّ السؤال الذي كان على وشك ان يطرحه . وقال :

« سيدي ، أين يقع قصر العدل من فضلك ؟ »

فأجاب المواطن ، وكان رجلاً عجوزاً :

« انت لست من أبناء هذه المدينة ، يا سيدي ؟ حسن ، إتبعني .

انا ذاهب الى قصر العدل على وجه الضبط ، يعني الى دار البلدية ، ذلك لأنهم يصلحون القصر في هذه اللحظة ، فالمحاكم تعقد جلساتها في دار البلدية مؤقتاً . »

فأله :

« وهل تنعقد محكمة الجنايات هناك ؟ »

« من غير شك ، يا سيدي . ان دار البلدية ، كما ترى ، كانت قصر

الاستغف قبل الثورة . فقد شيد مسيو دو كونزويه ، الذي كان اسقفاً عام اثنين وثمانين ، قاعة رحبة . وهناك في هذه القاعة تجري المحاكمات . وفيما كانا يتخذان سبيلهما نحو تلك الدار قال له المواطن :
- « اذا كان ما يرغب فيه سيدي هو ان يشهد محاكمة فاحسب انه قد جاء متأخراً بعض الشيء . ان الجلسات تُفتح عادة في الساعة السادسة . »

ومع ذلك ، فحين بلغا الساحة العامة اراه المواطن اربع نوافذ طويلة مضامة ، عند واجهة بناية واسعة مظلمة
- « قساً ، يا سيدي ، لقد وصلت في الوقت المناسب ؛ انك ذو حظ سعيد . ترى هذه النوافذ الاربع ؟ تلك هي محكمة الجنابات . إن ثمة نوراً . وإذن فهم لما ينتهوا . لا بد ان القضية قد تطاولت ، فهم يعقدون جلسة مساءية . هل تهلك هذه القضية ؟ أهى قضية جنائية ؟ هل انت شاهد من شهودها ؟ »
فأجابه :

- « انا لم أقبل لغرض ما . انا اريد ان انحدث الى احد المحامين ليس غير . »
فقال المواطن :

- « هذه مسألة اخرى . قف يا سيدي ! هوذا الباب . وهوذا الحاجب هناك . وليس عليك إلا ان ترتقي السلم الكبيرة . »
واتبع ارشادات المواطن . وما هي الا بضعة دقائق حتى وجد نفسه في قاعة احتشد فيها خلق كثير ، وتناثرت جماعات من المحامين في اروابهم يتهايمون ههنا وهناك .

ان بما يقبض النفس دائماً ان يرى المرء الى هذه الجموع من الرجال المتشعبين بالسواد يتجادبون اطراف الحديث في ما بينهم ، بصوت خفيض ، على عتبة قاعة المحكمة . ومن النادر ان تنطلق المحبة والشفقة من

تلك الاقوال كلها . ان ما ينطلق منها في الاغلب أحكام تُلَفَظ سلفاً .
وكل هذه المجموع تبدو في عين الملاحظ الذي يمرّ ويفكر أشبه بجمهرة من
الحلايا القائمة حيث تنصرف صنوف من الارواح المصادرة الآزّة الى
انشاء مختلف ضروب الابنية المظلمة ، على نحو مشترك .

وكانت هذه القاعة المضادة ، على رجليها ، بمصباح مفرد ، قاعة قديمة
من قاعات القصر الاسقي ، وكانت بمثابة غرفة انتظار . كان باب ذو
مصراعين - وكان مغلقاً في تلك اللحظة - يفصلها عن القاعة الكبرى
حيث عُقدت محكمة الجنايات .

وكانت الظلمة من الشدة بحيث لم يستشعر ايّ خوف من مخاطبة
أول محامٍ التقاه ، قائلاً :

- « سيدي ، الى اين حارت المحاكمة ؟ »

فأجابه المحامي :

- « انتهت . »

- « انتهت ! »

ورُودت هذه الكلمة في نبوة جعلت المحامي يستدير .

- « عفواً يا سيدي ، لعلك احد انباء المتهم ؟ »

- « لا . انا لا اعرف احداً هنا . وهل يُحكم على المتهم ؟ »

- « طبعاً . إن شيئاً غير ذلك لم يكن ممكناً . »

- « بالاستغال الشاقة ؟ »

- « مدى الحياة . »

وتابع في صوت واهن الى درجة جعلته لا يكاد يُسمع :

- « لقد اثبتوا هويته ، اذن ؟ »

فأجاب المحامي :

- « أية هوية ؟ لم يكن ثمة هوية ينبغي ان تثبت . كانت المسألة

بسيطة . كانت هذه المرأة قد قتلت طفلها ؛ ولقد اقيم الدليل على انها

اوتكبت هذه الجريمة ، ولم يقتنع المحكمون بأنه كان ثمة سابق تصور وتصميم ؛ فعُكِّم عليها بالسجن مدى الحياة .
فقال :

- « هي امرأة اذن ؟ »
- « طبعاً . انها الفتاة اليموسينية . فمن كنت تحدثني اذن ؟ »
« عن لا شيء . ولكن ما دامت الجلسة قد انتهت فعلام لا تزال القاعة مضاءة ؟ »

- « تلك قضية اخرى بدىء النظر فيها منذ ساعتين تقريباً . »
- « اية قضية اخرى ؟ »
- « اوه ! وهذه قضية واضحة ايضاً . إنه لص من نوع ما ؛ ذو سوابق ؛ عبد من عبيد الاشغال الشاقة الارقاء . إنها دعوى سرقة . لقد نسيت الاسم . إنه يبدو اشبه بقاطع طريق . ولو لم يكن له من ذنب غير حمل مثل هذا الوجه لبعث به الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »
وسأله :

- « سيدي ، هل ثمة وسيلة ما للدخول الى القاعة ؟ »
- « اظن ذلك غير ممكن ، حقاً . إن ثمة حشداً كبيراً . وعلى اية حال ، فقد رُفعت الجلسة الآن للاستراحة . ولقد غادر بعض النظارة المكان ، وفي إمكانك ان تحاول عندما يُستأنف النظر في القضية . »
- « من اين يُدخل الى القاعة ! »
- « من ذلك الباب الكبير . »

وفارقه المحامي . وفي بضع ثوانٍ اجتاحته ، في وقت واحد تقريباً ، وعلى نحو متنازع تقريباً ، جميع الانفعالات الممكنة . كانت كلمات هذا الرجل اللامبالي قد ثقت قلبه ، بالتناوب ، مثل إبر من جليد ، او مثل نصل من نار . وحين علم ان الامر لم ينقصر بعدُ اخذ نفساً .

ولكنه لم يكن قادراً على ان يجزو أكان شعوره ذاك اوتباحاً
أم كان ألماً .

واقترب من بعض الجماعات واصفى الى ما يقولون . واذا كان جدول
الدعوى مثقلاً فقد رأى القاضي ان ينظر في دعوتين بسيطتين قصيرتين
في يوم واحد . كانوا قد بدأوا بمحاكمة قاتلة ابنها ، وهما هم الآن
ينظرون في دعوى المحكوم عليه بالاستغلال الشاقة ، دعوى المجرم ذي
السوابق ، دعوى « المنرس الحيرو » . هذا الرجل سرق شيئاً من
التفاح ، ولكن يبدو ان الدليل لم ينهض على ذلك . ان الذي نهض
عنه الدليل هو انه كان من قبل من نزلاء سجن الاستغلال الشاقة في
طولون ، وهذا ما أفسد قضيته . لقد أنجز استنطاق الرجل ، وأخذت
إفادات الشهود ، ولكن بقيت ثمة مرافعة الخامس ، ومطالبة النيابة العامة ،
ومن المثير ان يتم ذلك قبل منتصف الليل . واغلب الظن ان الرجل
سوف يُدان ؛ فقد كان النائب العام طيباً جداً ، وما كان ليخطيء احداً
من متهميه . كان رجلاً ذا موهبة ، وكان ينظم الشعر .
ووقف حاجب قرب الباب المؤدي الى قاعة المحكمة . وسأل هذا
الحاجب :

« سيدي ، هل سيفتح الباب قريباً ؟ »

فقال الحاجب :

« الباب لن يُفتح . »

« كيف ! ان يُفتح عند استئناف الجلسة ؟ ألم ترفع الجلسة

للاستراحة ؟ »

فاجابه الحاجب :

« لقد استؤنفت المحاكمة ، ولكن الباب لن يُفتح ككرة اخرى . »

« لم لا ؟ »

« لأن القاعة مملأى . »

— « ماذا ؟ ألم يبق ثمة مقعد ؟ »
— « لم يبق مقعد واحد . الباب مقفل . وليس في استطاعة أحد أن يدخل . »

وبعد صمت ، أضاف الحاجب :
— « الواقع انه لا يزال ثمة مقعدان او ثلاثة خلف السيد رئيس المحكمة ، ولكن السيد رئيس المحكمة لا يجيز لغير موظفي الحكومة ان يجلسوا عليها . »

قال الحاجب ذلك ، وولاة ظهره .
وانحسب مطأطأة الرأس ، واجتاز الغرفة المخاذية ، وهبط السلم في ببطء ، وقد بدا متردداً عند كل خطوة . ولعله كان يشاور نفسه ، فالصرع العنيف الذي كان دائراً في ذات نفسه منذ الليلة البارحة لم يكن قد انتهى . وفي كل لحظة كان يشهد تحوُّلاً جديداً ؛ حتى اذا بلغ منبسط السلم انحنى على الدرابزون ، وطوى ذراعيه . وفجأة ، فتح ستونه ، واخرج محفظته ، وتناول قلماً ، وترع ورقة ، وكتب عليها في عجل — على ضوء باهت منبثق من مصباح ذي سُرّاة عاكسة — هذا السطر : مسيو مادلين ، عمدة مونتروي سور مير . ثم ارتقى السلم من جديد في خطوات واسعة ، واخترق الجمرع ، وتقدم نحو الحاجب مباشرة ، وقال له في نبرة ذي السلطان :

— « إحمل هذه الى السيد رئيس المحكمة . »
وتناول الحاجب الورقة ، وألقى نظرة عليها ، وامتلئ الامر .

دخول بامتياز

ومن غير ان يحسب هو ذلك ، كان لعمدة مونتروي سور مير ضرب من الشهرة . فطوال سبع سنوات طبقت شهرة فضيلته آفاق « بولونية الدنيا » كلها ، لتنتهي بعد ذلك الى ان تتخطى حدود الاقليم الصغير وتذيع في مديريتين او ثلاث من المديريات المجاورة . فالى جانب الخدمات الجليلة التي أسداها الى البلدة الرئيسية من طريق إحياء صناعة الحرز الاسود ، لم يكن ثمة قضاء من أقضية اقليم مونتروي سور مير البالغ عددها مئة وواحداً واربعين ليس مديناً له بنعمة ما . بل لقد سبق له ان عمل ، عند الاقتضاء ، على إنعاش الصناعة في المناطق الاخرى ومد يد العون اليها . وهكذا عاخذ باعتباره ورأسماله ، حين مسّت الضرورة الى ذلك ، مصنع النسيج الرقيق في بولوني ، ومصنع غزل الصوف في فريفان ، والمصنع المائي للمنسوجات القطنية في « بوبر سور كانش » . وفي كل مكان كان اسم مسيو مادلين يُلفظ في إجلال . ولقد حسدت « آراس » و « دوويه » مدينة مونتروي سور مير الصغيرة المحظوظة على عمدتها .

وكان مستشار محكمة دوويه الملكية الذي رئس جلسة محكمة الجنايات هذه في آراس يألف - شأن كل امريء - هذا الاسم الذي بنعم بأعظم التبجيل وأكثره شهراً . فما إن فتح الحاجب ، في هدوء ، ذلك الباب الموصل ما بين غرفة المذاكرة وقاعة المحكمة ، راغنى خلف كرسيّ الرئيس مقدماً الى الورقة التي «خط» عليها السطر الذي قرأناه اللحظة ، مضيفاً : « هذا السيد يرغب في ان يشهد الجلسة » حتى

انى بمجرة عجلى تنضح بالاحترام ، وتناول قلماً ، وخط بضع كلمات في
ادنى الورقة ، واعادها الى الحاجب قائلاً :

« دعه يدخل . »

كان الرجل العرس الذي نروي قصته قد ظل واقفاً قرب باب القاعة ،
في المكان نفسه ، حيث تركه الحاجب من قبل ، وبالوضع نفسه الذي
غادره عليه . لقد سمع ، من خلال هواجسه ، شخصاً يقول له : « هل
يرغب سيدي في ان يشرفني بالحقاق بي ؟ » . كان هو ذلك الحاجب عينه
الذي ولاه ظهوره منذ لحظة ، والذي انحنى له ، الآن ، حتى الارض .
وفي الوقت نفسه قدّم اليه الحاجب قصاصة الرق فنشرها . واذا اتفق ان
كان موقفه قرب المصباح ، فقد استطاع ان يقرأ :

« إن رئيس محكمة الجنابات يقدم احترامه الى مسير مادلين . »
وسحق الورقة بين يديه وكان هذه الكلمات القليلة خلقت في ذات
نفسه طعناً غريباً مريباً .

وتبع الحاجب .

وبعد بضع دقائق وجد نفسه منفرداً في شبه ردهة مطوّقة بالخشب ،
ذات مظهر صارم ، مضاءة بشمعين اثنتين وضعتا على طاولة منطاة
بقماش اخضر . كانت الكلمات الاخيرة التي قالها الحاجب وهو يفارقه
لا تزال تَوَلّ في أذنه : سيدي ، انت الآن في غرفة المذاكرة وليس
عليك إلا ان تدير بمك هذا الباب النحاسي لتجد نفسك في قاعة المحكمة
خلف كرسيّ الرئيس . « وفي ذهنه اختلطت هذه الكلمات بذكرى
غامضة للاروقة الضيقة والسلام القائمة التي اجتازها منذ لحظة .

وكان الحاجب قد تركه وحيداً ، وكانت اللحظة الحاسمة قد أزفت .
وحاول ان يجمع افكاره ، ولكنه لم يوفق الى ذلك . ففي تلك
الساعات ، بخاصة ، حين نكون في أمس الحاجة الى ان نلّم بحقائق
الحياة الموجعة نتقطع خيوط الفكر في الدماغ . كان في قلب تلك

الغرفة التي يتشاور فيها القضاة ويصدرون أحكامهم . لقد رأى في سكينه بلهاء الى تلك الغرفة الصامتة الرابعة التي أزهقت فيها ارواح كثيرة ، والتي سيدوي اسمه فيها في الحال ، والتي كان قد رآه يجتازها في هذه اللحظة . لقد نظر الى الجدران ، ثم نظر الى نفسه وقد اذهله ان تكون هذه هي تلك الغرفة ، وان يكون هذا هو إياه .

وكان قد سلخ ما يزيد على اربع وعشرين ساعة لم يذق خلالها طعاماً ما . كانت رجات العجيلة قد رقت جسده ، ولكنه لم يستشعر ذلك . لقد بدا له انه لا يحس بشيء .

واقترب نحو إطار اسود معلق على الجدار كانت يشتمل خلف لوح زجاجي على رسالة قديمة خطتها يد جان نقولا باش ، عمدة باريس ، الذي تولى منصب الوزارة ايضاً ، وكانت مؤرخة ، نتيجة خطأ من غير شك ، هكذا : « ٩ حزيران السنة الثانية » * وقد وجهها « باش » الى رجال البلدية مضمناً ايهاا ثبناً بالوزراء والنواب الذين اعتقلوا ضمن حدود منطقتهم . ولو ان امرأاً شاهده وراقبه آنذاك إذن لحيل اليه من غير ريب ان تلك الرسالة بدت غريبة جداً في نظره ، إذ لم يرفع عينيه عنها ، وإذا قرأها مرتين أو ثلاث مرات . لقد قرأها من غير ان يلقي اليها بالاً ، ومن غير ان يدري ما الذي كان يفعله . كان يفكر بفانتين وكوزيت .

وحين فيها هو يفكر استدار على غير وعي منه فوقعت عيناه على المسك النعامي الخاص بالباب الذي يفصل ما بينه وبين قاعة محكمة الجنابات . كان قد نسي ذلك الباب تقريباً . واضطرب بحياه ، وكانت

* أي السنة الثانية من الجمهورية ، ويتجلى الخطأ في كلمة « حزيران » على اعتبار ان الثورة الفرنسية ألفت هذه الشهور وأحلت محلها تقويماً خاصاً . والشهر الذي يوافق حزيران في تقويم الثورة هو شهر بريرال Prairial (من ٢٠ نوار الى ١٨ حزيران) وشهر ميسيدور Messidor (من ٢٠ حزيران الى ١٩ تموز) .

من قبل ساكناً . وستمرت عيناه على ذلك المسك النعاسي ، ثم غدا
منشدهتين محدقتين ، وامتلاًتا بالذعر شيئاً بعد شيء . وتصيبت من رأسه
قطرات العرق ، وتحذرت على صدغه .

وفي إحدى اللحظات أوماً ، في ضرب من السلطان مزوج بالتمرد ،
تلك الأيماة التي لا سبيل الى وصفها والتي تعني وتقول بأفصح لسان :
حسن ! ومن ذا الذي يَكْوهني على ذلك ؟ ثم إنه استدار في سرعة ،
فرأى امامه الباب الذي دخل منه ، فتقدم نحوه ، وفتحه ، وخرج .
إنه لم يعد في تلك الغرفة . لقد أمسى خارجها ، في احد الاروقة -
في رواق طويل ضيق تجزئه الدرجات والابواب الفرعية التي تشكل
مختلف ضروب الزوايا ، كانت تنيره ههنا وهناك مصابيح معلقة على
الجدران هي اشبه بقنديلات المرضى . كان الرواق الذي دخل منه .
وأخذ نفساً ، واصفى . لم يكن ثمة صوت ما خلفه ، ولم يكن ثمة
صوت ما امامه . وركض وكان احداً كان يطارده .

حتى اذا اجتاز عدداً من منعطفات هذا المجاز ، اصفى كرة ثانية .
كان لا يزال محوطاً بالصمت نفسه ، والظل نفسه . وضاق نفسه ،
وترنح ، واستند الى الجدار . كان الجبر بارداً ، وكان المرق مثلوجاً
على جبينه . وتصدر وهو يرتعد .

وهناك ، في غمرة من الوحدة ، وقد وقف وسط هذه الظلمة ،
وارتجف من البرد وربما من شيء آخر ايضاً ، أنشأ يفكر .

كان قد فكر طوال الليل . وكان قد فكر طوال النهار . ولم
يسمع الآن ، في ذات نفسه ، غير صوت واحد يقول : « وأسفاه ! »
وانقضت ربع ساعة على هذا النحو . واخيراً حتى رأسه ، وزفر في
كرب ، وأرخی ذراعيه ، وارندت على آثاره . لقد مشى في بطنه ،
وكانه يحمل ثقلاً ثقيلاً . لقد تراءى وكانا ألقي القبض عليه فيما هو يفر
وأعيد ادراجيه .

ودخل غرفة المذاكرة من جديد . كان مقبض الباب هو اول ما وقعت عليه عيناه . والتمتع ذلك المقبض ، المستدير المصنوع من نحاس مصقول ، أمامه مثل نجم مشؤوم . ونظر اليه كما ينظر حَمَلٌ الى عين نمر .

ولم تتمكن عيناه من مفارقة ذلك المقبض .
وبين آونة واخرى ، كان يخطو خطوة نحو الباب .
ولو قد ألقى اذن اسع ، كضربٍ من الدممة المختلطة ، الضجة المنبعثة من القاعة المجاورة ، ولكنه لم يُصغ ولم يسمع .
وفجأة ، ومن غير ان يدري كيف ، وجد نفسه قرب الباب .
وأمسك بالمقبض في نشيج ؛ وفتح الباب .
كان في قاعة المحكمة .

٩

موطن تسكون فيه الينيات

ونخطا خطوة ، واغلق الباب خلفه على نحو ميكانيكي . وظل واقفاً متأملاً ما يراه .

كانت قاعة فسيحة ، مضاءة اضاءةً باهتةً جداً ، يغمرها الضجيج حيناً ويبرن عليها الصمت حيناً ، حيث كانت آلية الدعوى الجنائية كلها معروضة ، برزانتها الحقيمة الجدادية ، على انظار الجمهور .

ففي احد اطراف القاعة ، ذلك الذي وجد نفسه فيه ، كان قضاة غافلون مرتدون أرواباً متهرئة يقضون اظافرم ، أو يطبقون اجفانهم . وفي الطرف الاخر كانت جبهة في أسمال بالية ؛ ومحامون في مختلف الاوضاع ؛ وجنود أولو وجوه محشمة وصارمة ، والواح خشبية عتيقة ملوثة نطوق الجدران ،

وسقف قذر ؛ وطاولات منطاة بنسج صوفي غليظ هو الى الصفرة اقرب منه الى الحضرة ؛ وأبواب مودنة من أثر الايدي ؛ ومصاييح حافات توصل الدخان اكثر ، توصل النور معلقة الى مسامير دقت في خشب الجدران ؛ وشموع في شمعدانات نحاسية موضوعة على الطاولات ؛ وظلمة وبشاعة ، وكآبة ، ومن ذلك كله انبعثت انطباعة كالحة وجليظة . ذلك ان الناس استشعروا انهم في حضرة ذلك الشيء الانساني العظيم الذي ندعوه القانون ، وذلك الشيء الالهي العظيم الذي ندعوه العدالة .

ولم يلتفت احد من افراد ذلك الحشد اليه . كانت الأعين كلها مصوَّبة الى نقطة واحدة : مقعد خشبيّ مسند الى باب صغير في محاذاة الجدار القائم الى يار الرئيس . وعلى هذا المقعد الذي أضاءته عدة شموع ، كان رجل يحيط به اثنان من رجال الدرك . كان ذلك الرجل هو المتهم .

إنه لم يبحث عنه ؛ لقد رآه . لقد مضت عيناه نحوه على نحو طبيعيّ وكأنما كانتا تعلمان سلفاً أين هو .

وحيل اليه أنه يرى نفسه ، وقد تقدمت به السن ، وعلى شيء من النباين في الهيئ من غير شك ، ولكن في شبه كامل من حيث الهيئة والمظهر . رأى نفسه بهذا الشعر المنفوش ، وبهاتين الحدقتين الذهباوين المحزونتين ، وبهذا القميص الذي يشبه ذاك الذي كان يرتديه يوم دخل مدينة د ... ، بلاه الحقد ، حاجباً في ذات نفسه تلك الذخيرة البشعة من الافكار المروعة التي سلخ تسعة عشر عاماً في جمعها فوق ارض السجن .

وقال لنفسه وهو يرتعد :

— يا الهي ! هل سأصبح هكذا مرة ثانية ؟

لقد بدا هذا المخلوق في الستين من عمره ، على الأقل . كان قه في مظهره شيء جاف ، أبله ، مروَّع على نحو لا يحيل الى وصفه .

وعلى صوت الباب ، كان الناس قد اصطفوا ليفسحوا له في مجال
الدخول ، وكان الرئيس قد التفت . وإذا افترض ان الداخل هو عمدة
مونتروي سور فقد حتى رأسه تحية له . وكان النائب العام قد
رأى ميو مادلين في مونتروي سور حيث استدعي غير مرة بحكم وظيفته ،
فعرفه وحتى رأسه تحية له ايضاً . أما هو فكاد ان لا يلحظها . كان
فريسة لضرب من الهلوسة . وتأمل في ما حوله .

قضاة ، كاتب محكمة ، درك ، حشد من الرؤوس الفضولية الى
حد وحشي - لقد شهد ذلك مرة في ما مضى ، منذ سبع وعشرين
سنة . هذه الاشياء المروعة - لقد وقع عليها كرة اخرى . لقد كانت
هناك ؛ لقد كانت تتحرك ؛ لقد كانت كائنات ذات حياة . إن ذلك لم
يَعُدْ جهداً من جهود ذاكرته أو وهماً من اوهام خياله ، ولستكنهم
درك حقيقيون ، وقضاة حقيقيون ؛ وحشد حقيقي ، واناس حقيقيون
من لحم ودم . لقد قضي الأمر . لقد رأى مشاهد ماضيه الميخنة ،
بكل ما في الحقيقة من فظاعة ، تعاود الظهور وتحييا من حوله كرة
اخرى .

كان ذلك كله فاغراً فيه امامه .

واستبد به الذعر ، وانغض عينيه ، وصاح من اعق اعماق روحه :
« ابدأ ! »

وبلعبة فاجعة من اعب القدر التي كانت تثير افكاره كلها وتكاد ان
تذهب بعقله كانت نسخة اخرى عن نفسه تجلس هناك ! لقد كان القوم
كاهم يدعون هذا الرجل الذي يحاكمونه جان فالجان !
كان امام عينيه رؤيا لم يُسَمَّع بها من قبل . ضرب من التنبيل
لأرعب لحظة في حياته يقوم به طيفه .

كان كل شيء هناك : الاداة نفسها ، والساعة نفسها من الليل ،
ووجوه القضاة والجنود والنظارة نفسها تقريباً . الفرق الوحيد انه كان

يوقع فوق هامة الرئيس نثال للمصوب ، وهو شيء لم يكن يُرى في قاعات المحاكم يوم صدر الحكم عليه . فحين حاكموه ، لم يكن الرب هناك .

كان خلفه كرسيّ ، فألقى بجسده عليه وقد عصف به الذعر إذ خطر له ان القوم قد يرونه . حتى اذا جلس أفاد من ركّام من الاوراق كان على منصة القضاة لكي يخفي وجهه عن القاعة كلها . أمسى في ميسوره ان يرى من غير ان يُرى . وشيئاً بعد شيء استعاد سكينة . لقد انعس في روح الواقع . لقد بلغ من الهدوء ذلك المبلغ الذي يمكن المرء من الاصغاء .

كان ميرو باماتابرا محلفاً بين المحلفين .

وبحث عن جافير ، ولكنه لم يره . كان مقعد الشهود مجرباً عنه بطاولة كاتب المحكمة . والى هذا فقد كانت قاعة المحكمة مضامة اخامة جدّ باهتة ، كما قلنا منذ لحظة .

وحين دخل كان محامي المتهم يختم مرافعة . واستثير انتباه القوم كلهم الى اقصى درجات الاستنارة . كانت المحاكمة قد استغرقت ثلاث ساعات ؛ وطوال هذه الساعات الثلاث كان النظارة قد شاهدوا رجلاً - كائناً مجهولاً ، مخلوقاً بانساً ، ابله الى ابعد الحدود او داهية الى ابعد الحدود يزرع شيئاً بعد شيء تحت ثقل احتمال رهيب . وكان هذا الرجل ، كما سبق منا القول ، متشرداً عُثر عليه في احد الحقول حاملاً غصناً مثقلاً بالتفاح الناضج ، كان قد انتزع من شجرة في مزرعة مسيحة تدعى مزرعة بيريون . من كان هذا الرجل ؟ لقد أُجري تحقيق ؛ وُسمِع الى شهود ؛ ولقد أُجمعوا كلهم على رأي واحد ؛ وانبثقت اضواء من المناقشة كلها . وقال الانهام : « ليس بين ايدينا هنا مجرد لص من لصوص الفاكهة ، مجرد سارق من سُراق القنلات قبل ان نحصده . إن بين ايدينا هنا قاطع طريق ، مجرمّاً ذا سوابق لم يلتزم المكان الذي

فُرضت عليه الإقامة فيه بعد خروجه من السجن ؛ تزيلاً قديماً من نزلاء
سجن الاشغال الشاقة ؛ فاتكماً من اخطر الفُتاك ؛ شريراً يدعى جان
فالجان تطارده العدالة منذ دهر طويل ، وكان قد ارتكب لثاني سنوات
خلت ، لدنْ خروجه من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في
طولون ، سرقة في الطريق العام ، والسلاح في يده ، ضد غلام
من صافوا يدعى جيوفيه الصغير ، وهي الجريمة المنصوص عليها في
المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، والتي نحتفظ من اجلها بحق المطالبة
بانزال أقصى العقوبة عندما تُثبت الهوية قضائياً . لقد ارتكب الان
سرقة جديدة . إنها قضية من قضايا العودة الى الجريمة . أحكموا عليه
لسرقته الجديدة . أما جريمته السابقة ف سوف يقاضى من اجلها في ما بعد . ،
وأمام هذا الاتهام ، وأمام إجماع الشهود ، كان الانفعال الذي غلب على
المتهم هو الانشدهاء . كان يقوم بحركات وإشارات تقيده الانكار ، أو
يحدق الى السقف . لقد تكلم في عسر ، وأجاب في ارتباك ، ولكن
شخصه كله - من قمة رأسه الى اخص قدميه - انكر التهمة . قد بدا
اشبه بأبله في حضرة هؤلاء الرجال الاذكياء المتألمين لمقاتلته ، واشبه
بغريب وسط هذه الجماعة التي أمكت به . ومع ذلك فقد كان ينتظره
غدٌ منذر بأعظم الشر ، وكانت الاحتمالات تتزايد كل لحظة ؛ وكانت
كل فرد من افراد النظارة ينتظر في قلق أشد من قلقه هو ، ذلك
الحكم الفاجع الذي بدا متأرجحاً فوق رأسه اكثر فأكثر . وكانت ثمّة
احتمال يومي ، وراء سجن الاشغال الشاقة ، الى عقوبة الموت اذا ما
أثبتت هويته . وانتهت قضية جيوفيه الصغير الى إدانته . من كان هذا
الرجل ؟ من اي نوع كانت غفلته ؟ أكانت بلاهة أم مكرراً ؟ أكان
يعرف اكثر بما ينبغي أم كان لا يعرف شيئاً على الاطلاق ؟ تلك كانت
اسئلة اختلفت فيها آراء القوم وبدت وكأنها تقسم المحلفين الى شيع .
كان ثمّة شيء مخيف وشيء خفي في المحاكمة . إن الفاجعة لم تكن قاتنة

وحسب ؛ لقد كانت غامضة .

وكان محامي الدفاع قد رافع مرافعة جيدة بتلك اللغة الاقليمية التي طالما كانت قوام بلاغة المحاماة ، والتي اصطنعها من قبل جميع المحامين سواء في باريس أو في رومورانتين أو مونبيريون ، والتي لم بعد يتكلم بها اليوم - بعد ان اصبحت كلاسيكية - غير خطباء النيابة العامة الرسميين الذين تلافهم تلك اللغة ، بطنطنتها الوقور وجلها المهية . لغة يدعى فيها الزوج بعلًا ، والزوجة بعله ، وباريس مركز الفنون والحضارة ، والملك العاهل ، وصاحب السيادة الاسقف الحبر المقدس ، والنائب العام الشارح البليغ لانتقام القانون ، والمرافعة النبرات التي سمعناها لحظة ، وعصر لويس الرابع عشر العصر العظيم ، واحد المسارح هيكلم ملبومين ، * والاسرة المالكة دم ملوكنا الفخيم ، واحدى الحفلات الموسيقية عيداً احتفالياً موسيقياً ، والجنرال الذي يقود قوات المديرية المحارب اللامع الذي ، الخ ؛ وتلاميذ اللاهوت هؤلاء الاكليركيين الناضري العود ، والاعطاء المنسوبة الى الصحف الكاذبة التي تقطو سمها في أعمدة هذه النواطق بألسنة الاحزاب . الخ . الخ . وكان محامي الدفاع قد أسهب في الكلام على سرقة التفاح - وهو شيء لا يتلاءم والاسلوب الفخيم ، ولكن بيني بوسووبه ** نفسه اضطر ذات مرة الى ان يشير الى دجاجة ما في صميم موعظة تأيينية له ، فنصرف في أبهة وجلال . وكان المحامي قد قرر ان سرقة التفاح لم يقع عليها دليل مادي . ذلك بأن موكله ، الذي يصّر هو بوصفه محامياً على دعوته شافاتيرو ، لم يشاهد قط متسوراً الجدار أو قاصفاً الغصن . لقد قبض عليه وفي حوزته هذا الغصن (الذي آثر

* Melpomène وهي في الميثولوجيا ربة التراجيديا .

** Bossuet الخطيب الفرنسي الشهير ، وقد سبق التعريف به في هامش ماض .

(ص ٨٠) .

المحامي ان يدعو قَتناً) ، ولكنه قال إنه وجد على الأرض فالنقطة .
 أين الدليل على العكس ؟ لا ريب في ان هذا الغصن كان قد كُسر
 وسُرق بعد تسوُّر الجدار ، ثم اطرحت على الأرض يد السارق المهدد
 بالخطر . لا ريب في انه كان قة لصّ ، ولكن ما الذي يُثبت ان
 هذا اللص كان شاتاتيو ؟ شيء واحد ليس غير . هو انه كان في ما
 مضى من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . والمحامي لا ينكر ان هذه
 الصفة تبدو مع الاسف مُثبتة إثباتاً يقينياً . فقد مكن المتهم في فايفرول ،
 ولقد كان المتهم مثذب اغصان ، ومن الجائز ان يكون امم شاتاتيو
 محرّقاً عن جان ماتيو ؛ كل ذلك كان صحيحاً ؛ واخيراً فأت اربعة
 شهود قد أجمعوا على نحر اكيد ، ومن غير ما تردد ، ان شاتاتيو هو
 جان فالجان نفسه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ؛ وليس عند المحامي ما
 يعارض به هذه الادلة وهذه الشهادات غير إنكار موكله ، وهو انكار
 تقتضيه مصلحته . ولكن حتى اذا افترضنا أنه جان فالجان المحكوم عليه
 بالاشغال الشاقة فهل ينهض هذا دليلاً على انه سارق التفاح ؟ ذلك لا
 يعدو ان يكون حدثاً على الاكثر ، ولكنه ليس برهاناً . صحيح ان
 المتهم - وعلى المحامي ان يقرّ بذلك - بسلامة نية - قد اصطنع
 د اسلوباً وديناً في الدفاع . ه لقد أصرّ على انكار كل شيء ، انكار
 السرقة ، وانكار انه كان قد حُكم قبل بالاشغال الشاقة . ولو قد اعترف
 بالنقطة الاخيرة اذن لكان ذلك خيراً له من غير شك ، واذن لضمن
 له ذلك تساهل قضاة . ولقد نصحه المحامي بأن يسلك هذه السبيل ،
 ولكن المتهم رفض في عناد ، معتقداً من غير شك ان عدم الاعتراف
 بشيء يكفل له النجاة من العقوبة كلها . كان ذلك خطأ منه ، ولكن
 ألا ينبغي لنا ان نأخذ قصور عقله بعين الاعتبار ؟ ان هذا الرجل
 معتوه ، بلا خلاف . فالعذاب الطويل الذي قاساه في سجن الاشغال
 الشاقة ، والبؤس الموصول الذي عاناه خارج سجن الاشغال الشاقة قد

أصابه بالحبل ، الخ . الخ . انه لم يحسن الدفاع عن نفسه ، ولكن
 أياكون هذا سبباً لآدائه ؟ اما مسألة جبريه الصغير فلم يكن عند المحامي
 ما يقوله فيها . إنها غير واردة في الدعوى على الاطلاق . ونتم المحامي
 دفاعه بأن توصل الى المحلفين والى المحكمة ، اذا ما بدت هوية جان
 فالجان واضحة لديهم ، ان يُنزلوا به العقوبات البوليسية التي 'تنزل عادة'
 باولئك الذين لا يلتزمون المواطن المعينة لهم بعد الخروج من السجن ،
 لا العقوبة الخفيفة التي 'تنزل' بالمحكوم عليه بالاستقال الشاه حين يرتكب
 جريمة جديدة .

وردَ النائب العام على محامي الدفاع . كان غنياً منسّق الاسلوب ،
 مثل معظم النواب العامين .

لقد صأ محامي الدفاع على « صراخه » ، وأفاد من هذه الصراحة
 في براعة . لقد هاجم المتهم من خلال جميع النقاط التي حلّم بها محاميه .
 قد بدا المحامي وكأنه يسلّم بأن المتهم كان جان فالجان فارنسي هذا
 التسليم . واذن ، قد كان هذا الرجل هو جان فالجان . واعتبر
 الاتهام هذه النقطة حقيقة مقروءة ، فلا سبيل بعدُ الى المجادلة فيها .
 وهنا - وبأسلوب مجازي بارع ، رقي الى منابع الجريمة وأسبابها - أوعد
 النائب العام ضدّ لا أخلاقية المدرسة الرومانتيكية ، وكانت آنذاك في
 فجرها ، مشيراً اليها بوصفها المدرسة الشيطانية ، وهو الاسم الذي خلعه
 عليها نقّاد صحفيي « كوتيديين » و« أوريفلام » . وعزا - ولم
 يكن ذلك خلواً من عنصر الاحتمال - الى هذا الادب الداعر جريمة
 شاتناتيو ، أو على الاصح جان فالجان . حتى اذا استنفذ هذه التأملات
 انتقل الى جان فالجان نفسه . من كان جان فالجان ؟ تلك هي صفة
 جان فالجان : غولٌ 'متميّناً' ، الخ . إنا نجد نموذجاً لهذه الضروب من

الاورصاف في حكاية تيرامين* التي لا غناء فيها ، من وجهة النظر المسرحية التراجيدية ، ولكنها تسدي خدمات جليلة ، كل يوم ، الى البلاغة القضائية . و « ارتعد ، النظارة والمخلفون . حتى اذا تمّ هذا الوصف استأنف النائب العام كلامه في اندفاع خطابي قصيدته الى أن يثير حماسة « جريدة الولاية » الى اقصى غاياتها في صباح غد . « وانه لرجل بمائل الخ . الخ . الخ . متشرد ، منسول ، لا يملك من اسباب العيش شيئاً ، الخ . الخ . - تعود طوال حياته الماضية الاعمال الاجرامية ، ولم يُفد غير قليل من أيامه التي قضاها في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كما تثبت الجريمة التي ارتكبها ضد جيفيه الصغير ، الخ . الخ . إن مثل هذا الرجل الذي أمسك به على الطريق العام في جرم السرقة المشهود ، على بضع خطوات من جدار كان قد تسوّره ، وهو لا يزال يحمل بيده الشيء الذي سرقه - مثل هذا الرجل يُنكر الجرم المشهود ، يُنكر السرقة ، ينكر تسوّر الجدار ، ينكر كل شيء ، ينكر حتى اسمه ، ينكر حتى هويته ! وبالإضافة الى مئة اخرى من الأدلة التي لن نرجع اليها عرفه اربعة شهود : جافير - جافير ، مفتش الشرطة العفّ النزيه ، وثلاثة من رفاقه القدماء في العار ، هم بروفيه ، وشونيلديو ، وكوشباي المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وبمّ يردّ على هذا الاجماع الصاعق ؟ بالانكار . يا له من تصلب ! انتم سوف تقيمون العدل ، ايها السادة المخلفون ، الخ . الخ . وفيما النائب العام يتكلم ، اصغى المتهم فاغراً فاه بضرب من الذهول الذي لا يخلو من بعض الاعجاب . كان واضحاً انه ما كان قادراً على ان يصدق ان في إمكان رجل ما ان يتكلم هكذا . وبين الفينة والفينة ، عند المقاطع الاكثر

* Thérémène رجل دولة أثيني وخطيب بليغ ، ولكنه كان ذا خلق متقلب متلون . وقد أسهم سنة ٤١١ ق.م في قلب النظام الديموقراطي في أثينا ، ثم اتهم بالخيانة فحكم عليه بشرب الشوكران السام عام ٤٠٣ . وتيرامين ايضاً أحد شغوص راسين في تراجيديته « فبدر » Phèdre .

« قوة » ، من مطالعة النيابة ، وفي تلك اللحظات التي كانت الفصاحة فيها تعجز عن ان تملك نفسها فتفيض في سيل من التعفوت الفاضحة وتحيط بالمتهم وكأنهم عاصفة - كان يحرك رأسه في تودة من اليقين الى الشك ، ومن الشك الى اليقين ، ضرب من الاحتجاج الكتيب الاخرى قنع به منذ بدء المناقشة . ومرتين أو ثلاث مرات سمعه النظارة الاشد قرباً منه يقول في صوت كالهمس : « كل ذلك ناشئ عن انه لم يسألوا مسيو بالو ! » ولفت النائب العام نظر المحلفين الى هذا الوضع الابله - وهو مدبر من غير شك - الذي لا يدل على الغباء ولكن على البراعة ، والمكر ، وتعوذ بخادعة العدالة ، والذي يُظهر في ضوئه الاقوى « فساد هذا الرجل الحلقى العتيق الجذور . » وختم مطالعته بأن أدلى بتحفظاته حول مسألة جيوفيه الصغير ، طالباً بإزالة اقصى العقوبة بالمتهم

وكان اقصى العقوبة بالنسبة الى هذه الجريمة ، كما نذكر ، الاشغال الشاقة مدى الحياة .

ونفض محامي الدفاع ، فبدأ بتهنئة « السيد النائب العام » على « مطالعته لرائعة » ، ثم ردة عليه على قدر ما استطاع ، ولكن في نبرة اضعف . كان واضحاً ان الارض مادت تحت قدميه .

٩٠

طراز الانكار

وأزفت لحظة اختتام المحاكمة . فأصدر الرئيس امره الى المتهم بأن ينهض ، ووجه اليه السؤال المؤلف :
- « هل عندك ما تضيفه الى دفاعك ؟ »

ونفض الرجل وهو يطوي بين يديه قلنسوة رهيبة كانت معه . وبدأ وكأنه لم يسمع .

وكرر رئيس المحكمة السؤال .

وهذه المرة سمع الرجل ، وبدأ أنه فهم . لقد أجفل مثل امرئ يفتق من الرقاد ، وأجال عينيه في ما حوله ، ونظر الى الجمهور ، والى الدرك ، والى محاميه ، والى المحلفين ، والى هيئة المحكمة ، ووضع قبضتي يديه الضخمتين على الحاجز القائم أمامه . ونظر كرة اخرى . وفجأة ستمر عينيه على النائب العام وبدأ يتكلم . كان ذلك اشبه بثورة بركان . ولقد بدا من الطريقة التي نددت فيها الكلمات من بين شفّته متقطعة ، عاصفة ، متصادمة ، مختلطة ، أنها كانت كلها تريد ان تنطلق في آن معاً . قال :

« احب ان اقول هذا : اني كنت صانع عجلات في باريس ؛ وأن ذلك كان في محلّ مسيو بالو ايضاً . كانت حياة قاسية حياة صانمي العجلات تلك . فأنت مضطر دائماً الى ان تعمل في الهواء الطلق ، في أفتية الدور ، تحت السقائف حين يكون معلّمك رجلاً طيباً ، ولكن ليس داخل جدران المحلّ ، لأن العمل يقتضي سعة من الارض ، كما ترى . وفي الشتاء كان البرد من القسوة بحيث يتعين على المرء ان يضرب كفّاً بكفّ لكي يستشعر الدفء ، ولكن معلّمينا ما كانوا يميزون لنا ذلك ، فائلين انه كمضيعة للوقت . إنه لمن اصعب الاشياء ان تمسك بالحديد حين يكون الجليد مغطياً حصباء الطريق . إنه يهزّي الانسان في سرعة . وهكذا تشيخ وانت بعد فتى في هذه الصناعة ، وما تكاد تبلغ الاربعين حتى تكون قد انتهيت . اما انا فكنت في الثالثة والخمسين . كنت مريضاً مرضاً شديداً ، وفوق هذا فقد كانت العمال خبثاء جداً ! إنهم حين يتجاوز الرجل الساذج مرحلة الشباب يسمونه « الطائر العجوز » ، و « البهيمة العجوز » ! ولم اكن أكب

غير ثلاثين « سر » في اليوم ؛ فقد كانوا يدفعون اليّ اقلّ ما يستطيعون من أجر ، وكان اصحاب العمل يُفيدون من شيخوختي . والى هذا فقد كانت عندي ابنتي التي حملت غسالةً على خفة النهر . وكان ما تكسبه قليلاً ، ولكن دخلي ودخلها كانا يمكّناننا من العيش . وكان عملها مرهقاً ايضاً . كانت تسليخ النهار كله غائصةً حتى خصرها في طبق الغسيل الخشبي ، تحت المطر ، تحت الثلج ، وفي قلب الريح التي تقصّ الوجه ، وفي غمرة الصقيع . لا فرق ، فالغسل ينبغي ان يتمّ . إنّ ثمة أناساً ليس عندهم كثير من الملابس الداخلية ، فهم ينتظرون هذه الملابس . واذا لم تغسل نخسر زبائنك . وألواح الطبق غير متماكة جيداً ، فقطرات الماء تنصبّ عليك من كل مكان . وتبلل المياه ثيابك وتغور فيها أبعد فأبعد . إنها تنفذ . ولقد استغلت ايضاً في مصبغة « الاطفال الحر » حيث تصل المياه بالانابيب . وهناك لا يتعمّ عليك ان تعمل في قلب الطبق الخشبي . إنّك تغسل الثياب قدّامك تحت الانبوب ، وتنظفها بعد الغسل خلفك في الحوض . واذا كانت تقوم بهذا العمل ضمن اربعة جدران فلم تكن تبرّد كثيراً . ولكن كان ثمة بخار ماء حارّ الى حد فظيع ، وكان ذلك يُبْلف العينين . كانت ترجع الى بيتها في الساعة السابعة ليلاً ، فتأوي الى فراشها سريعاً . كانت الأعياء يهدّ قواها . وكان زوجها يضربها . لقد ماتت . إنها لم تكن سعيدة جداً . كانت فتاةً فاضلة لا تذهب الى المراقص ابداً ، فتاة هادئة جداً . واذكر أنّها آوت الى فراشها في « ثلاثاء المرفع » من احد الاعوام في الساعة الثامنة . إنّته . انا اقول الحقيقة . وليس عليك إلا ان تسأل . آه ، أجل ، إسأل ! ما أشدّ بلاهتي ! إنّ باريس واسعة جداً . ومن ذا الذي يعرف الاب شاتانويو فيها ؟ ولكن هناك مسيو بالو . اذهب الى محل مسيو بالو . ولست ادري ما الذي تريدونه مني بعد هذا ؟

وكفّ الرجل عن الكلام ، ولكنه لم يجلس . كان قد نطق بهذه الكلمات في صوت مرتفع ، سريع ، خشن ، قاسر ، أبحّ ، وبضرب من السداجة الغاضبة الضاربة . ومرة واحدة قطع كلامه لكي ينهني نهية لأحد افراد النظارة . وكانت ضروب التوكيدات التي كان يلقيها أمامه كيفما اتفق تنطلق منه وكأنها شهقات ، وكان يضيف الى كل منها ايماءة حطّاب يقطع الحشب . حتى اذا انتهى انفجر النظارة بالضحك . فنظر اليهم ؛ واذا رآهم يضحكون ، ومن غير ان يعرف لماذا ، شرع هو نفسه يضحك .

وكان ذلك نذيراً بشراً .

ورفع الرئيس صوته ، وكان رجلاً يقطاً رفيقاً .

لقد ذكر « السادة المخلفين » بأن « السيد بالو » صانع العجلات القديم الذي قال المتهم إنه كان يعمل في خدمته ، قد استدعي ولكنه لم يحضر . كان قد أفلس ، ولم يكن في الامكان العثور عليه . ثم إنه التفت الى المتهم وحسّه على الاصغاء الى ما سيقوله له ، وأضاف :

- « انت في وضع يتطلّب التفكير . إن اثقل الفرائض التي توهق كاهلك ، وقد تقودك الى عواقب مشؤومة . ايها المتهم ، إني أسألك - اصلحك الشخصية - مرة أخيرة ان نجيبني في وضوح عن هذين السؤالين : اولاً ، هل تسوّرت ، حائط مزرعة بيرون ، وكسرت الفصن وسرقت التفاح ، يعني هل ارتكبت جريمة السرقة بالاضافة الى التسوّر ام لم تفعل ؟ ثانياً ، هل انت جان فالجان المحكوم بالاشغال الشاقة والمطلق سراحه ، ام لا ؟ »

وهزّ المتهم رأسه في انطباعة ذكية ، مثل رجل فهم ما قيل جيداً وعرف بأي شيء يعتزم ان يجيب . وفتح فمه ، والتفت نحو الرئيس ، وقال :

- « قبل كل شيء ... »

ثم نظر الى قلنسوته ، ورفع بصره الى السقف ، واعتصم بالصمت .

وقال النائب العام في صوت فظ :

- « ايها المتهم ، انتبه ! انت لا تجيب عن شيء مما سئلت انت
تجيب عنه . ان اضطرابك يدينك . من الواضح ان اسمك ليس ماثاتيو ،
وانك جان فالجان المحكوم عليه بالاستغال الشاقة المنتزعة بآديء الامر
نحت اسم جان ماثيو ، الذي كان اسم أمه ؛ وانك عشت في أوفيري ،
وانك ولدت في فافيرول ، حيث كنت مشدب اغصان . ومن الواضح
انك سرفت تقاحاً ناضجاً من مزرعة يبيرون بالاضافة الى تورك الجدار .
إن السادة المحلفين سوف ينظرون في هذا . »

كان المتهم قد عاود الجلوس آخر الأمر . ولكنه ما لبث ان نهض
فجأة ، حين أتم النائب العام كلامه ، وصاح :

- « انت رجل رديء جداً ، أنت ! ذلك ما كنت أريد أن
أقوله . أنا لم اعثر على هذه الكلمة بآديء الامر . إني لم امرق شيئاً
قط . إني رجل لا اجد ما آكله كل يوم . كنت قادماً من آبي ،
وكنت امشي إثر وابل من المطر جعل الارض كلها صفراء بالوحل ،
حتى لقد فاضت المستنقعات ، فكنت لا ارى غير طلائع الاعشاب
منبثقة من الرمل على حافة الطريق . ووجدت على الارض غصناً يحمل
بعض التفاح ، فالتقطت القصن من غير ان ادري انه سوف يرثني يوماً .
فمنذ ثلاثة اشهر وأنا طريح السجن ، أنقل من مكان الى مكان . أنا لا
استطيع ان اقول اكثر من ذلك . انهم يتكلمون ضدي ، ويقولون
لي : « اجب ! » وإن الدركي ، الذي هو رجل طيب ، يدفع مرفقي
ويهمس : « اجب الآن ! » أنا لا احسن التعبير عن نفسي ؛ أنا لم
أنلق العلم قط ؛ أنا رجل فقير . انكم جميعاً مخطئون لعدم رؤيتكم
ذلك . أنا لم امرق ، لقد رفعت عن الارض أشياء كانت موجودة
هناك . انت تتحدث عن جان فالجان ، جاث ماثيو ! أنا لا أعرف
هذين الشخصين . لا ريب انها رجلان قرويان . لقد اشتغلت عند

مسيو بالو في « جادة المستشفى » . انا ادعى شائعاتي . ينبغي ان تكون ذكياً حتى نخبرني اين 'ولدت' . انا نفسي لا ادري . فليس لكل الناس بيوت يولدون فيها . ولو كان لكل الناس مثل هذه البيوت اذن لكان ذلك مريحاً باكثر مما ينبغي . انا اعتقد ان ابي وأمي كانا يمان على وجهيهما في الشوارع ؛ ولكنني لست واثقاً . حين كنت طفلاً كانوا يدعونني « الصغير » أما الآن فأنا ادعى « العجوز » . هذان هما اسما معبودتي . خذ ذلك كما تشاء . لقد كنتُ في اوفيري ، وكنت في فافيرول . عجباً ! الا يستطيع الانسان ان يكون في اوفيري وفافيرول من غير ان يكون من نزلاء سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ اقول لك اني لم اسرق ، واني الاب شائعاتي . كنت اعمل عند مسيو بالو ؛ لقد عشتُ في منزله . لقد تعبتُ من هرائك الذي لا نهاية له ! لماذا يطاردني الناس كلهم كالكلاب المسهورة ؟ ،

كان النائب العام لا يزال واقفاً . فوجّه الخطاب الى الرئيس :

- « سيدي الرئيس ، امام الانتكارات المشوشة ، ولكن الحاذقة جداً ، التي يعتصم بها المتهم الذي يحاول ان يوقع في روع المحكمة انه معتوه ، والذي لن ينجح في ذلك - فنعن سوف نحول بينه وبين النجاح - نلتبس ان تتمدعوا الى هذه القاعة كرهة اخرى ، اذا شئتم وشاءت هيئة المحكمة ، كلاً من المحكوم عليهم بروفه ، وكوشباي ، وشونيلدير ، ومفتش الشرطة جافير ، وتستجوبرم للمرة الاخيرة حول هوية المتهم وانه هو وجان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شخص واحد . »

فقال الرئيس :

- « احب ان اذكر السيد النائب العام ان مفتش الشرطة جافير الذي دعت واجباته الى التوجه الى حاضرة احدى المديريات المجاورة ، قد غادر هذه القاعة ، بل غادر المدينة ، بعد ان ادلى بشهادته مباشرة .

لقد منحناه هذا الاذن بموافقة السيد النائب العام ومحامي المتهم .
فاجاب النائب العام :

- « هذا صحيح . وفي غيبة ميو جافير ارى من الواجب ان اذكر السادة المحلفين بالذي قاله هنا منذ ساعات قليلة . ان جافير رجل محترم يشرف ، بنزاهته القاسية الصارمة ، المهام الدنيا ولكن الهامة في وقت معاً . وهذه هي التعابير التي انطوت عليها شهادته : « لست في حاجة حتى الى حذر معنوي وأدلة مادية لكي أنقض إنكارات المتهم . انا اعرفه معرفة تامة . ان اسم هذا الرجل ليس شائغاً . انه مجرم قديم حكم عليه بالاشغال الشاقة ، شرير جداً وخيف جداً ، يدعى جان فالجان : ان سراحه لم يُطلق عند انتهاء اجل عقوبته إلا في أسفٍ بالغ . لقد قضى تسعة عشر عاماً في سجن الاشغال الشاقة بسبب من سرقة موصوفة . وخمس مرات او ست مرات حاول ان يفر من السجن . وبالإضافة الى سرقة جيفيه الصغير ومزرعة بيرون يخيل اليّ ايضاً انه هو الذي قام بسرقة منزل صاحب العظمة اسقف د ... المتوفى . لقد رأيته كثيراً يوم كنت نائباً لضابط حرس سجن الاشغال الشاقة في طولون . اعود فأقول إليّ اعرفه معرفة تامة . »

وبدا هذا التصريح ، المصوغ في عبارات بالغة الاليجاز والدقة ، وكلفنا ترك اثره قوياً في نفوس النظارة والمحلفين . وختم النائب العام كلامه بأن اصرّ ، ما دام جافير غائباً ، على ضرورة الاستماع مرة ثانية للشهود الثلاثة بروفيه ، شونيلديو ، وكوشباي ، واستجوابهم في مهابة .

واصدر الرئيس امره الى احد الحجاب . وبعد لحظة فُتح باب حجرة الشهود ، وقاد الحجاب - يصعب دركي على اتم الاستعداد لأسداء العون . بروفيه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . وجلس النظارة أنفاسهم ، وخفتت القلوب جميعاً وكأنما كانت لها نفس واحدة ليس غير . وكان بروفيه هذا يرتدي السترة السوداء والرماية الخاصة بالسجون .

المركزية . كان في نحو الستين ، وكان له وجه رجل من رجال الاعمال وسما وغد من الاوغاد . إنها في بعض الاحيان يسيران جنباً الى جنب . وكان قد اصبح شيئاً أشبه بسجان في ذلك المحبس الذي أعادته اليه آثام جديدة . كان واحداً من اولئك الرجال الذين يقول فيهم رؤساؤهم : « إنه يحاول ان يجعل من نفسه عنصراً مفيداً . » وشهد كهنة السجن شهادة طيبة في ما يتصل بعاداته الدينية . ويجب ان لا ننسى ان ذلك لما جرى في العهد الذي شهد عودة آل بوربون الى العرش .

وقال الرئيس :

— « بروفيه ، لقد أزلت بك عقوبة شائنة ، وليس في استطاعتك

ان تقسم اليمين . »

وخفض بروفيه عينيه .

وتابع الرئيس كلامه :

— « ومع ذلك ، فقد يظل » - حتى في الرجل الذي أذله القانون -

اذا صمحت العدالة الالهية بذلك ، إحساساً بالشرف والانصاف . الى هذا الاحساس أتوجه ، مناشداً ، في هذه اللحظة الحاسمة . فاذا كان لا

يزال حياً فيك ، وهو ما ارجوه ، ففكر قبل أن تجيبني . فكر ، من ناحية ، بهذا الرجل الذي قد تقضي عليه كلمة منك ، ومن ناحية

ثانية ، بالعدالة التي قد تنير سبيلها كلمة منك ايضاً . إن اللحظة هببية ، ولا يزال امامك مدسع للتراجع اذا اعتقدت انك كنت مخطئاً . اها

المتهم ، قف ! بروفيه ، انظر جيداً الى المتهم ؟ اجمع شتات ذكرياتك وفل لنا ، بذمتك وضميرك ، ما اذا كنت نصر على ان هذا الرجل

هو جان فالجان رفيقك القديم في سجن الاشغال الشاقة ؟ »

ونظر بروفيه الى المتهم ثم التفت كرة ثانية نحو هيئة المحكمة :

— « نعم ، يا سيدي الرئيس . لقد كنت أول من عرفه ، واذا

أصر على ذلك . هذا الرجل هو جان فالجان . دخل سجن طولوز

سنة ١٧٩٦ وخرج منه سنة ١٨١٥ . لقد خرجت انا في العام الذي تلا .
إن سيا الحبل تبدو على وجهه الآن ، ولكن لا ريب في ان الشيخوخة
هي التي خبئته . أما في سجن الاشغال الشاقة فقد كان مرانياً ذا وجهين .
أنا أعرفه ، على وجه التأكيد . »

فقال الرئيس :

« إجلس ! ايها المتهم ، إبتقر واقفاً . »

وجيء بشونيلديو ، وهو محكوم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، كما
بدا من رداءه الاحمر وقلنسوته الخضراء . كان ينحمل عقوبته في سجن
طولون الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ولقد اقتيد من هناك
لهذه المناسبة . كان رجلاً ضئيل الجسم ، في نحو الخمسين من العمر ،
نشطاً ، متجعد البشرة ، مهزولاً ، أصفر ، وقحاً ، قلقاً . وكان في
اوصاله كلها وفي شخصه كله ضرب من الضعف المرخي ، وفي نظراته
قوة هائلة . كان رفاقه في سجن الاشغال الشاقة قد لقبوه بـ « جو - في »
- ديو ، * .

ووجه الرئيس اليه الكلمات نفسها التي وجهها الى يروفيه تقريباً .
وحين ذكرته بأن عاره قد حرمه الحق في ان يُقسم مينا ، رفع شونيلديو
رأسه ونظر الى الجمهور في وجوههم . ودعاه الرئيس الى ان يجمع شئنا
أفكاره ، وسأله ، كما سأل يروفيه من قبل ، ما اذا كان لا يزال بصر
على انه يعرف المتهم .

وانفجر شونيلديو ضاحكاً :

« يا الهي ! ما اذا كنت أعرفه ! لقد سلخنا خمس سنوات
مشدودين الى السلة الحديدية نفسها . انت متاء مني ، اليس كذلك ،
ايها الفلام العجوز ؟ »
فقال الرئيس :

* Je - nie - Dieu : « أنا أنكر وحرد الله . »

- « اجلس . »

واقفاد الحاجب كوشباي . وكان هذا المحكوم عليه ايضاً بالاستغال الشاقة مدى الحياة ، والمذوق من سجن الاشغال الشاقة ، واللابس رداء احمر مثل شونيلديو ، فلاحاً من لورد ، ونصف دبّ من البيرينيه . كان يرعى الماشية في الجبال . ولقد انزلت به قدمه من راعٍ الى قاطع طريق . وما كان كوشباي اقل فظاظَةً من المتهم ، ولقد بدا اكثر بلاهة منه . كان واحداً من اولئك الرجال التعمين الذين ترممهم الطبيعة رسماً خفيفاً وحوشاً كامرة ، ثم يأتي المجتمع فيتم عمله فيهم جاعلاً منهم عبيداً أرقاء في سجن الاشغال الشاقة .

وحاول رئيس المحكمة ان يحرك عواطفه ببضع كلمات جديّة مؤثرة ، وسأله كما سأل زميليه الآخرين ، ألا يزال يصرّ ، من غير ما تردد أو عسر ، على انه يعرف الرجل الواقف أمامه .

فقال كوشباي :

- « إنه جان فالجان . انه هو نفسه الذي كانوا يدعونه « جان

رافعة الانتقال » بسبب قوته الهائلة . »

وكان كل من التوكيدات التي أرسلها هؤلاء الرجال الثلاثة ، في إخلاص ونية حسنة من غير شك ، قد أثار في صفوف النظارة مهمة من التنبؤ الغاضب ضدّ المتهم ، مهمة كانت تردّد قوةً وتطاولاً كلما أضيف الى التوكيد السابق تركيدٌ جديد . وأصغى إلتهم نفسه اليها في تلك السيا المزدحمة التي كانت ، في زعم الاتهام ، وسيلة دفاعه الرئيسية . ولقد سمع رجال الدرك المجاورون له ينفخون من بين أسنانه عقب التوكيد الاول : « آه ، حسناً ! هذا واحد منهم ! » ، وإثر التوكيد الثاني قال في صوت أعلى وفي سيا من الارتياح تقريباً : « حسن ! » . حتى اذا سمع التوكيد الثالث صاح : « عظيم ! »

وخاطبه الرئيس قائلاً :

- « ايها المتهم ، لقد سمعت . هل عندك ما تقوله ؟ »
فأجاب :

- « أقول : عظيم ! »
وسرت في صفوف النظارة ضجة او شكت ان تغزو المحلفين . كانت
واضحاً أن الرجل قد هلك .
وقال الرئيس :

- « ايها الحجاب ، أقرتوا النظام . اريد أن أختم القضية . »
وفي هذه اللحظة أتى بعضهم بحركة على مقربة من رئيس المحكمة .
وُسمع صوت بصيح :

- « بروفيه ، شونيلديو ، كوشباي ! أنظروا الى هذه الجهة ! »
كان ذلك الصوت فاجعاً وفظيئاً الى حد جعل جميع الذين سمعوه
يحسّون وكأن الدم قد جمد في عروقهم . وصوتت الأعين كلها نحو
النقطة التي انبعث منها الصوت . كان رجل من أولئك الذين احتلوا
مقاعد الشرف خلف هيئة المحكمة قد نهض ، ودفع الباب المنخفض الذي
يفصل المحكمة عن مجلس القضاة ، ففتحه ، ووقف في وسط القاعة . وعرفه
الرئيس ، والنائب العام ، ومسيرو إماراتلوا ، وعشرون شخصاً آخرون ،
وصاحوا في آنٍ معاً :
- « مسيرو مادلين ! »

١١

شانماتيو يزداد دهشاً على دهش

كان هو في الواقع . لقد اضاء مصباح كاتب المحكمة وجهه . كان
يمسك قبعته بيده . ولم يكن ثمة اي اضطراب في ملابسه ؛ فقد كانت

مقوته الطويلة المشقوقة الذيل (الريدنغوت) مزودة في غناية . كانت
شاحباً جداً ، وكان يرتعد ارتعاداً طفيفاً . اما شعره الذي كان اشيب
عند وصوله الى آراس فقد امسى الآن أبيض تماماً . كان قد ابيض
خلال الساعة التي قضاها هناك .

وأُتِلعت نحوه الاعناق كلها . كان الاثر الذي تركه هذا الموقف في
نفوس الناس ممتعاً على الوصف . وعبرت بالنظارة لحظة تزدد . كانت
الصوت موجعاً جداً ، وكان الرجل الواقف هناك يبدو هادئاً جداً الى
حد جعل الناس لا يفهمون شيئاً أول الامر . وتساءلوا من الذي صاح .
إنهم لم يستطيعوا ان يصدقوا ان هذا الرجل الهادي قد اطلق تلك
الصيحة المروعة .

ولم تستمر هذه الحيرة غير بضع ثوانٍ . وحتى قبل ان يستطيع
الرئيس والنائب العام ان يقولوا كلمة ، وقبل ان يستطيع رجال الدرك
والحجاب ان يأتوا بإماعة ، كان الرجل الذي دعاه القوم كلهم حتى تلك
اللحظة مسير ماداين قد تقدم نحو الشهود كوشباي ، وبروفيه ،
وشونيلدير .

وقال :

— « ألا تعرفونني ؟ »

وظل الثلاثة ذاهلين ، ولم يشيروا بحركة من الرأس الى انهم لم
يعرفوه . وأدى كوشباي ، وقد استبد به الرعب ، النحية العسكرية .
واستدار مسير ماداين نحو الخلفين وهيئة المحكمة ، وقال في صوت
رخيم :

— « ايها السادة المحلفون ، اطلقوا سراح المتهم . سيدي الرئيس ،
أصدر امرى باعتقالي . انه ليس الرجل الذي تبحثون عنه . انا ذلك
الرجل . انا جان فالجان . »

ولم يتنفس ايمانم . كان صمت اشبه بصمت القبور قد تحجب الانشداد

الأول . كان في ميسور المراء ان يستشعر في القاعة ذلك الضرب من الهول الديني الذي يعصف بالجمهور حتى يُنَجَزَ عملٌ عظيم .
ومع ذلك فقد كان وجه الرئيس موسوماً بالحزن والمشاركة الوجدانية .
لقد تبادل نظرة خاطفة مع النائب العام ، وبضع كلمات مهسوسة مع مساعديه من القضاة . ثم التفت الى النظارة وسأل في نبوة فبهما الجميع :
- « هل يوجد طبيب هنا ؟ »

وانبرى النائب العام للقول :

- « سادتي المحلفين ، إن الحادثة الغريبة غير المرتقبة التي تقلق النظارة لتوقع في نفوسنا ، كما توقع في نفوسكم ، شعوراً لا حاجة بنا الى التعبير عنه . فأنتم جميعاً تعرفون ، من طريق الشهرة على الاقل ، ميسو مادلين الميجل ، عمدة مونتروي سور مير . فاذا كانت بين النظارة طبيب فتحن نضمّ صوتنا الى صوت السيد الرئيس فترجوه ان يتلطف ويمد يد العون الى ميسو مادلين ، ويقوده الى مقربه . »

ولم يدع ميسو مادلين النائب العام يتم كلامه ، بل اعترضه في جرس مفعم بالوداعة والسلطان . وهذه هي الكلمات التي لفظها . هذه هي بالحرف الواحد كما دونتها حال اختتام الجلسة واحد من الذين شهدوا هذا الموقف ، وكما لا تزال تترنّ في آذان اولئك الذين سمعوها قبل اربعين سنة من هذا التاريخ تقريباً .

- « اشكرك ، يا سيدي النائب العام ، ولكنني لستُ مجنوناً . سوف ترى . لقد كنتُ على وشك ان ترتكب غلظةً كبيرة . أطلقُ مراح هذا الرجل . إني اقوم بواجب . انا ذلك المحكوم التمس . انا الشخص الوحيد الذي يرى بوضوح في هذا المكان ، وإني لاقول لك الحقيقة . إن ما عمله في هذه اللحظة يراه الله الذي في الاعالي ، وهذا يكفي . في استطاعتك ان تلقي القبض عليّ ، ما دمتُ موجوداً هنا . ومع ذلك ، فقد بذلتُ غاية جهدي . لقد استترتُ تحت اسم

آخر ؛ لقد غدوتُ غنياً ؛ لقد غدوت عمدةً ؛ لقد أودت ان اعاود
الدخول الى دنيا الرجال الفاضلين . يبدو ان هذا غير ممكن .
وبالاختصار ، فهناك اشياء كثيرة لا استطيع ان اقولها ؛ انا لن اووي
لك قصة حياتي ، ولسوف تعرفها في يوم من الايام . لقد سرقت صاحب
السيادة الاسقف ؛ هذا صحيح . لقد سرقت جيرفيه الصغير ؛ هذا صحيح .
لقد كانوا على صواب حين قالوا لك ان جان فالجان كانت وجلاً نكساً
خبثاً جداً . ولكن الغلطة كلها قد لا تكون غلطته . اسمعوا ، ايها
السادة القضاة ، إن وجلًا يسر به الذلّ بقدر ما يسرلني لبس لديه احتياج
يوجهه الى العناية الالهية ، او نصيحة يقدمها الى المجتمع . ولكن
انتبهوا . إن العار الذي حاولت ان اخرج من حضيتيه مفسدٌ للرجال .
إن سجون الاشغال الشاقة تصنع المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . خذوا
هذا مثلاً ، اذا شتم . فقبل ان ادخل سجن الاشغال الشاقة كنت فلاحاً
بسيطاً ، قليل الحظ من الذكاء ، شبه معتوه . ولكن سجن الاشغال
الشاقة غيّرني . كنت ابله ، فاصبحت شريراً . كنتُ حطبةً ،
فأصبحت جذوة ناور . وفي ما بعد انقذتني الحكمة والطيبة كما سبق
للقسوة ان اضاعتني . ولكن ، عفواً ، انتم لا تستطيعون ان تفهموا ما
أقوله . سوف تجدون في منزلي ، بين رماد الموقد ، قطعة الاربعين
« -و » التي سرقتها لسبع سنوات خلت من جيرفيه الصغير . ليس
عندي ما اقوله غير هذا . ألقوا القبض عليّ ! يا الهي ! إن النائب
العام يهزّ رأسه . أنت تقول : « مسيو مادلين قد اصاب بالجنون . »
أنت لا تصدقي ! هذا شيء محزن . لا تدينوا هذا الرجل ، على
الاقل ! ماذا ؟ هؤلاء الرجال لا يعرفونني ! ليت جافير ذاك كانت
هنا . لقد كان خليقاً به هو ان يعرفني ! »

وليس في ميسور شيء ان يعبر عن الكتابة الرفيعة الكالحة التي انطوت
عليها النبرة المصاحبة لهذه الكلمات .

والتفت الى الثلاثة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة :

« حسنأ ، أنا أعرفك ، يا بروفيه ! هل تذكر ... ؟ »

وعُهِل ؛ وتردّد لحظةً ، ثم قال :

« هل تذكر رحالة البطلون تلك ، المزروعة ، ذات الرقع ،
التي كانت لك في سجن الاشغال الشاقة ؟ »

وأجفل بروفيه إجفالة دهش ، وحدّق اليه من قبة رأسه الى اخص
قدميه بنظرات مروّعة . أما هو فتابع كلامه :

« وانت يا شونيلديو الذي لقبت نفسك بـ « جو-ني-ديو » ،
لقد احترقت كتفك اليسرى احتراقاً حقيقاً لانك القيتها ذات يوم على
كانون مليء بالجر لكي تمحو هذه الاحرف الثلاثة T.F.P. التي لا تزال
تُرى على تلك الكتف برغم ذلك . أجبني ، هل هذا صحيح ؟ »

فقال شونيلديو :

« هذا صحيح ! »

ثم انه التفت الى كوشباي :

« كوشباي ، ان لك قربَ مَعْطِفِ ذراعك اليسرى تاريخاً
نُقش بأحرف زرقاء بواسطة الذرور المحترق . انه تاريخ هبوط الامبراطور
الى البرّ ، عند مدينة « كان » ، ١ آذار ١٨٩٥ . ارفع رُذْنَكَ ،
ورفع كوشباي رُذْنَه . وصوّبت جميع الاعين المحيطة به الى ذراعه
العارية . وجاء دركيّ بمصباح . كان التاريخ هناك .

والتفت الرجل الثمن الى النظارة والى هيئة المحكمة وعلى شفتيه
ابتسامة لا تزال دكراها غزق قلوب الذين شاهدوها . كانت ابتسامة
النصر ؛ وكانت كذلك ابتسامة اليأس .

وقال :

« انتم ترون جيداً أنّي أنا جان فالجان . »

ولم يبقَ في تلك القاعة لا قضاة ، ولا متهمون ، ولا رجال دوك ؛

لم يبقَ فيها غير عيون مسددة ، وقلوب خائفة . ولم يعد احدٌ يذكر الدور الذي كان يتعين عليه القيام به . لقد نسي النائب العام أنه إننا 'وجد هناك ليدعي' ، ونسي الرئيس أنه إننا 'وجد هناك ليرثس الجلسة' ؛ ونسي محامي الدفاع أنه إننا 'وجد هناك ليدافع' . ومن عجب ان سؤالا ما ، لم يُسأل ؛ وان سلطة ما ، لم تتدخل . إن من خصائص المشاهد الرفيعة الذرى أن تستولي على كل نفس ، وان تجعل من كل شاهد 'مشاهداً' . ولعل احداً من القوم لم يكن يعي ، بجلاء ، تلك الخبرة التي تمت له . وليس من ريب في ان احداً منهم لم يقل في ذات نفسه إنه رأى ، ثقةً ، نالقي ضياء عظيم . ومع ذلك فقد احتسوا جميعاً ، احصاءاً باطنياً ، أنهم قد بُهروا .

كان واضحاً ان جان فالجان مائلٌ أمام أعينهم . لقد أطلقت تلك الواقعة شعاعها . ولقد كان بروز ذلك الرجل كافياً لكي يغمر بالضياء تلك القضية التي كان النموض يكتنفها من اقطارها ، قبل لحظة . ومن غير ما حاجة الى تفسير اضافي فهم الحشد في الحال ومن اللذة الاولى ، وكأننا كان ذلك بضرب من الكشف الكهربائي ، هذه القصة البسيطة الرائعة ، قصة الرجل الذي استسلم الى العدالة لكي لا يُجكم على رجل آخر مكانه . اما التفاصيل ، أما ضروب التردد ، أما صنوف المقاومة الصغيرة الممكنة فقد ضاعت في هذه الحقيقة الضخمة الساطعة .

كانت انطباعة ما لبثت ان تلاشت ، ولكنها كانت في تلك اللحظة أقوى من أن تقاوم .

وتابع جان فالجان كلامه :

— « انا لا اريد ان أعطل الجلسة اكثر مما فعلت . أنا ذاهب ، ما دمت لم أعتقل . أن عندي اشياء كثيرة يجب ان أقوم بها . واليد النائب العام يعرف من أنا ، ويعرف الى أين سأذهب ، ولسوف يصدر أمره باعتقالي حين يشاء . »

ومشى نحو الباب الخارجى . ان صوتاً ما ، لم يرتفع . وان ذراعاً ما ، لم تمتد لتمنعه . لقد تنحّوا كلهم عن سبيله . كان يعمر نفسه في تلك اللحظة شيء السهى لا يوصف يجعل الحشود تنكص على أعقابها وتخلي الطريق لرجل ما . واتخذ سبيله من خلال الجمع في خطى وثيدة . ولم يُعرف قط من الذي فتح الباب . ولكن الثابت أنه كان مفتوحاً حين انتهى اليه . وعندئذ استدار وقال :

« سيدي النائب العام ، انا دائماً تحت تصرفك . »

ثم وجه الخطاب الى النظارة قائلاً :

« انتم جميعاً ، انتم الذين نضّمكم هذه القاعة جميعاً ، تعتبرون اني جدير بالرحمة ، اليس كذلك ؟ يا السهى ، حين أفكر بالذي كنت على وشك ان أفعله بخيل اليّ أني جدير بالحسد . ومع ذلك ، فقد كنت اتمنى لو ان هذا كله لم يحدث . »

وخرج . وأغلق الباب كما قد فتح من قبل ، لأن اولئك الذين يقومون بأعمال عظيمة سامية هم ابدأ على ثقة من ان شخصاً ما من افراد الحشد سيخدمهم .

وبعد اقل من ساعة صدر حكم المحلفين مبرئاً المدعو شافاتيو من اي تهمة . وأطلق سراح شافاتيو في الحال فاتخذ سبيله مشدوهاً ، معتقداً ان الناس جميعاً قد أصيبوا بالجنون ، غير فاهم شيئاً من هذه الرؤيا .

الكتاب الثامن

ضَرْبَةُ مُعَاكِسَةٍ

١

بأية امرأة ينظر مسيو مادلين

الى شعره

وآذن الصبح بالانبلاج . لقد فُضت فانتين ليلةً محمومة ، أرقنة ،
ملينة - مع ذلك - بالرؤى السعيدة . ومع القجر استسلمت للرقاد .
واغتصمت الاخت سيمبلِس التي سهرت على راحتها هذه الفرصة لتذهب
وتعدّ مقداراً جديداً من سائل الكينا . ولم تكد الراهبة الطيبة تُنضي
بضع لحظات في مختبر المستشفى ، منكبّة على عقايرها وزجاجاتها ، محدّقة
اليها عن كتب بسبب الضباب الذي يلقيه الضحى على الاشياء كلها ،
حتى ادارت رأسها فجأة ، وأطلقت صيحة واهنة . كان مسيو مادلين

واقفاً امامها . كان قد دخل عليها ، اللحظة ، في صمت .
وصاحت :

— « هذا انت ، يا سيدي العمدة ! »

فأجابها في صوت خفيض :

— « كيف حال المرأة المسكينة ؟ »

— « إنها احسن ، الآن . ولكن القلق كان قد استولى علينا حقاً . »

وقصّت عليه ما جرى ، وأن فانتين كانت مريضة جداً الليلة البارحة

ولكنها الآن احسن حالاً لأنها اعتقدت أن السيد العمدة ذهب الى

مونفيرماي ليجيئها بابنتها . ولم تجرؤ الراهبة على ان تسأل السيد العمدة ،

ولكن سيّاه أنباتها ، في وضوح ، انه ليس قادماً من هناك على الاطلاق .

وقال :

— « هذا كله حسن . لقد أحسنت صنعاً حين احجبت عن خداعها . »

فالت الراهبة :

— « اجل ، ولكن الآن ، يا سيدي العمدة ، حين تراك ولا ترى

ابنتها معك ، ما الذي سنقوله لها ؟ »

وفكر لحظة ثم قال :

— « ان الله سوف يلهينا ما نقول . »

فقبضت الأخت في صوت كاهن :

— « ولكننا لا نستطيع أن نكذب عليها . »

وتدفقت اشعة النهار على الغرفة ، فأضاءت وجه مسيو مادلين .

واثقت أن رفعت الأخت عينها ، فصاحت :

— « يا الهي ! ايها السيد ! ما الذي اصابك ؟ إن شعرك أبيض كله ! »

فقال :

— « أبيض ! »

ولم تكن عند الاخت سيميليس مرآة . فبحثت في صندوق يجنوي

على بعض الادوات واخرجت منه مرآة كان طيب المستشفى ينسب
بواسطتها من ان مريضاً ما قد مات فهو لا يتنفس البتة .
وتناول مسيو مادلين المرآة ، ونظر الى شعره وقال :
« حقاً ! »

ونطق بهذه الكلمة في لا مبالاة وكأنما كان يفكر في شيء آخر .
واستشمرت الاخت فشريرة اوقعها في اوصالها شيء مجهول لحته في
هذا كله .

وسألها :

« هل أستطيع أن أراها ؟ »

فقات الاخت وهي ما تكاد تجرؤ على أن تغامر بطرح السؤال :

« ألن يعيد اليها سيدي العمدة ابنتها ؟ »

« طبعاً . ولكن ذلك يحتاج الى يومين او ثلاثة ، على الاقل . »
فاستطردت الاخت في خشية :

« اذا لم ترَ سيدي العمدة هنا فلن نعلم أنه قد رجع . وعندئذ
يكون من اليسير عليها ان تتصبر . حتى اذا جاءت الطفلة اعتقدت
بصورة طبيعية ، ان السيد العمدة قد جاء بها اللحظة . وهكذا لا
ننظر الى ان تكذب عليها . »

وبدا مسيو مادلين وكأنه يفكر بضع لحظات ، ثم قال في رصانه
الهادئة :

« لا ؛ ايها الاخت ، يجب ان اراها . لعل أن لا يبقى لديّ
متسع من الوقت . »

ولم يبدُ ان الراهبة قد لاحظت « لعل » هذه التي خلعت مغزى
غامضاً وفريداً على كلمات السيد العمدة . فأجابت خافضة رأسها
وصوتها في احترام :

« اذا كان الامر كذلك فهي نائمة . ولكن في استطاعة سيدي

أن يدخل . »

وأبدى بعض الملاحظات عن باب لا يُغلق في 'بسر فهو يطلق ضجة قد توقف المريضة .

ثم دخل غرفة فانتين ، واقرب من سريرها ، وفتح الستارة . كانت نائمة . وكان نفسها يخرج من صدرها بذلك الصوت الفاجع المميز لهذه الامراض ، والذي يمزق قلوب الامهات التعمسات وهن يشهدن رقاد اولادهن المشرفين على الموت . ولكن هذا التنفس المرهق قليلاً ما عكّر ذلك الضرب من احفاء الذي يعزّ على الوصف والذي شاع في حياتها ، وغير هيتها اثناء الرقاد . كان شعوبها قد غدا بياضاً ، وكان خداهما فرمزين . واختلجت اجفانها الطويلة الشقراء - الجمال الوحيد الذي بقي لها من بتوليتها وحبها - فيما هي ما تزال مُغمضة 'مسدلة . وارتمد شخصها كله ، وكأنما كان ذلك الارتعاد برفرة الجناحين السلذين كان يُشعر بها ولكنها لا يُريان ، واللذين كانا على وشك ان ينتشرا ويحملاها . ولو قد رآها المرء على هذه الحال اذن لما كان في ميسوره ان يظنّ مطلقاً أنها كانت مريضة شبة ميتوس منها . لقد بدت وكأنها على اهبة الطيران لا على اهبة الموت .

إن الفصن ليرتجف حين تمتد يده اليه لتقطف الزهرة ، وانه ليبدو وكأنه يرتدّ الى الوراء ويقدم نفسه في آن معاً . والجسم البشري ينكشف عن شيء من هذا الاختلاج في اللحظة التي تمتدّ فيها اصابع الموت الحفية لاختطاف الروح .

وظل مسير مادلين فترة من الوقت جامداً لا يتحرك امام هذا السرير ، ناظراً الى المريضة حيناً والى نثال المصلوب حيناً ، كما قد فعل منذ شهرين يوم وفد للمرة الاولى لكي يراها في هذا المأوى . كانا لا يزالان كلاهما هناك في الوضع نفسه ، هي نائمة وهو مصلياً . كل ما في الأمر ان شعرها الآن ، بعد ان نقضى هذان الشهران ، أمسى أشيب

وان شعره أبيض .
ولم تكن الراهبة قد دخلت معه . لقد وقف الى جانب السرير ،
واصبه على شفتيه وكأنما كان في الغرفة شخص ما ، يريد ان يسكنه .
وفتحت عينيها ، ورأته ، وقالت في سكون ، وبابتسامة :
- « وكوزيت ؟ »

٢

فاتنين سعيدة

إنها لم تجفل بالدهش ولا بالابتهاج . لقد كانت هي الابتهاج عنه .
وكان هذا السؤال البسيط : « وكوزيت ؟ » قد طرح بايمان عميق
جداً ، وثقة مكينة جداً ، ونجوة كامنة من الفلق والشك بحيث لم
يستطع أن يجد كلمة يجيب بها عنه .
وتابعت :

- « لقد عرفت انك كنت هناك . كنت نائمة ، ولكني رأيتك .
لقد رأيتك فترة طويلة من الزمن . لقد تتبعتك بعيني طوال الليل .
كانت تحيط بك هالة من المجد ، وكانت ترفرف حولك مختلف الوجوه
الساوية ! »

ورفع عينيه نحو شمال المصلوب .
واستطردت :

- « ولكن قل لي ، ابن كوزيت ؟ لماذا لا نضعها في سريري
لكي يكون في إمكانني ان اراها لحظة أستيقظ ؟ »
واجابها على نحو آلي بشيء ما ، لم يوفّق بعدد الى تذكره قط .
وكان الطبيب قد اقبل لحسن الحظ ، وكان قد احيط علماً بذلك ،

وتقدم لنجدة مسيو مادلين ، قائلاً :

- « إلزمي الهدوء يا ابنتي ، إن طفلك هنا . »

وسمعت عينا فانتين بالجذل ، وأضاءتا محبتاهما كله . وشبكت ذراعيها في سباً
مفعمة بكل ما يمكن ان تنطوي عليه الصلاة من أعنف العنف والطف اللطف .
وصاحت :

- « اوة ، إحملوها اليّ ! »

وهمّ مؤثر من اوهام الأمّ . كانت كوزيت لا تزال ، في نظرها ،
تلك الطفلة الصغيرة التي تحمل بين الذراعين .
وتابع الطبيب كلامه :

- « ليس الآن . ليس في هذه اللحظة . انت لا تزالين محمومة
بعض الشيء . وان رؤيّة ابنتك قد تشرك وتسيء الى صحتك . ينبغي
ان نشفيك أولاً . »
فقاطعت في حدة :

- « ولكنني شفيت ! اقول لك إنني شفيت ! هل هذا الطبيب
مجنون ؟ انا اريد ان ارى ابنتي ، انا ! »

فقال الطبيب :

- « أرايت كيف عصف بك الانفعال ؟ ما دمت في هذه الحال
فلن استطيع ان اسمع لك برويّة ابنتك . ليس يكفي ان تريها ؛ يجب
أن تعيشي من أجلها . ونحن نعلمين العقل اجيئك بها أنا بنفسي . »
وحنّت الأم المسكينة رأسها :

- « سيدي الطبيب ، ألتمس عفوك . ألتمس عفوك باخلاص . في
الماضي ما كنت لأتكلم كما تكلمت الان ولكنني ابتليت بعدد كبير
من المصائب جعلني لا ادري ، في بعض الاحيان ، ما أقول . انا
افهم ، انت تخشى الانفعال . سوف أنتظر ما شئت لي ان أنتظر . ولكنني
اقسم لك ان رؤيّة ابنتي لن تؤذيني . أنا اراها الآن ؛ انا لم أرفع عيني عنها منذ

الليلة البارحة . دعهم يحملونها الى الآن ، فلن أكلمها إلا في رفق .
هذا كل شيء . أليس طبيعياً جداً ان ارغب في رؤية ابنتي التي قصدوا
الى مونفيرماي خصيصاً لكي يأتوني بها ؟ انا لست غاضبة . انا ادري
اني سوف اكون سعيدة جداً . فطوال الليل ، رأيت اشياء بيضاء
ووجوهاً تبسم لي . وحين يحلو للسيد الطبيب ، سوف يحبل اليّ صغيرتي
كوزيت . لقد فارقتني الحمى ، لأنني قد شفيت . انا احس جيداً أنني
لم اعد اشكو شيئاً على الاطلاق ، ولكنني سوف أعمل وكأنني مريضة
ولن اتحرك لكي أدخل السرور على افئدة السيدات في هذا المستشفى .
وعندما يَرَيْنَ اني بخلة الى السكينة يفلن : يجب ان نعطيها ابنتها . »
كان مسير مادلين جالساً في كرسي الى جانب السرير . والتقت
نحوه ، وبذات جهداً واضحاً لكي تبدر هادئة و « عافاة جداً » كما
قد قالت في وَّهْن الداء ذاك الذي يشبه الطفولة ، لكي يروها لينتـه
الجانب الى حد بعيد ، فلا يكون ثمة عقبة تحول دون رؤيتها كوزيت .
بيد انها ، على الرغم من كبحها جماح نفسها ، لم تتألك عن ان توجه الى
مسير مادلين ألف سؤال .

- « هل كانت رحلتك سعيدة ، يا مسير مادلين ؟ اوه ! كم
كنتَ كريماً في ذهابك لكي تأتيني بها ! ولكن قل لي كيف حالها ؟
هل استطاعت ان تحتل الرحلة في سهولة ؟ وأسفاه ! لأنها لن تعرفني .
لقد نسيتني الصغيرة المكيـة بعد هذه الغيبة كلها ! ان الاطفال لا ذاكرة
لهم . لانهم مثل العصافير . اليوم يرون شيئاً ، وغداً يرون شيئاً
آخر ، ثم لا يذكرون شيئاً . ولكن قل لي هل كانت ثيابها الداخلية
بيضاء ؟ هل كان تيناردييه وزوجته يعنيان بنظافتهما ؟ كيف كانا
يفغذيانها ؟ اوه ! لو كنت تعرف كم قاسيت في طرح هذه الامثلة
كها على نفسي أيامَ شفائي ! اما الآن ، فقد انقضى ذلك . انا سعيدة .
اوه ! ما اشدّ شوقي الى رؤيتها ! سيدي العمدة ، هل وجدتها جميلة ؟

ليست ابنتي جميلة حقاً ؟ لا شك في انك احسنت بالبود الشديد في تلك
العربة العمومية ! اليس في إمكانهم ان يجيئوا بها الى هنا لحظة صغيرة
فقط ؟ في استطاعتهم بعد ذلك ان يرجعوها ثانية في الحال . قل !
أنت الذي تتمتع بالسلطة هنا ، هل ترغب في ذلك ؟
وأمسك بيدها قائلاً :

« كوزبت جميلة . كوزبت في حال حسنة . سوف تزينها عما
قريب ، ولكن الزمى الهدوء . أنت تشككين بسرعة اكثر مما ينبغي .
والى هذا فأنت تخرجين ذراعيك من السرير ، وهذا ما يملك
تعلنين . »

والواقع ان نوبات سعال شديدة كانت تقاطع فانتين عند كل كلمة
تقريباً .

ولم تذمر فانتين . لقد خشيت ان تحزن قد اضعفت ، بتوسلاتها
المملوكة اكثر مما ينبغي ، تلك الثقة التي رغبت في إيجائها ، وشرعت
تتحدث في موضوعات ليست ذات أهمية .

— « مونفيرماي جميلة ، اليس كذلك ؟ في الصيف يذهب الناس
الى هناك التماساً للمتعة . هل يكسب تيناردويه وزوجته كسباً حسناً ؟
ان قليلاً من الناس يمرّون بتلك المنطقة . ان قدقها ليس اكثر من
مطعم حقير . »

وظل مسيو مادلين ممسكاً بيدها ، ونظر إليها في قلق . كانت
اضحاً انه اقبل ليخبرها أشياء كان عقله يتردّد الآن أمامها . وكانت
الطبيب قد عادها وانسحب . ولم تبقى الى جانبها غير الاخت سيمبليس .
ولكن في غمرة الصمت ، صاحت فانتين :

— « انا اسمعها ؟ اوه ، يا الهي ! انا اسمعها ! »

كان ثمة طفل يلعب في الفناء — ابن البوابة او عاملة ما . كانت
احدى تلك المصادفات التي يلتقيها المرء ، والتي تبدو وكأنها تؤلف

جزءاً من الوضع المسرحي الخفي للاحداث الفاجعة . ولم يكن ذلك
الطفل غير فتاة صغيرة تروح وتجيء وترقص ، لكي تنعم بالدفء ، وتغني
وتضحك في صوت مرتفع . وأسفاه ! بأي شيء لا يمتزج لـعيب الاطفال
ومرحهم ! كانت هذه الطفلة هي التي سمعتها فانتين تغني .
وقالت :

- « اوه ، هذه كوزيتي ! أنا اعرف صوتها ! »
وانصرفت الطفلة كما اقبلت ، وتلاشى الصوت ، وأصفت فانتين فترة
أخرى . ثم اكفهرت وجهها ، وسمعا ميسو مادلين تهمس :
- « ينبغي ان يكون هذا الطبيب شريراً جداً حتى لا يسمح لي
برؤية ابنتي ! ان لهذا الرجل وجهاً مشؤوماً ! »
ومع ذلك فقد عاودها اتجاه أفكارها البهيج . واستمرت تتحدث
الى نفسها ، ورأسها على الوسادة :

- « كم سنكون سعيدتين ! سوف يكون عندنا حديقة صغيرة
قبل كل شيء . ان ميسو مادلين قد وعدني بذلك . ان طفلي سوف
تلعب في الحديقة . يجب ان تعرف الاحرف الابدعية الآن . سوف
أعلمها كيف تهجي الحروف . انها ستطارد الفراشات في الاعشاب .
ولسوف اراقبها . وبعد ذلك نحتفل بنناولها القربان اول مرة . آه ، متى
سيكون تناولها الاول ذاك ؟ »
وبدأت تعدّ على اصابعها .

- « ... واحد ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ... » انها في السابعة من
عمرها . بعد خمس سنوات . سوف ترتدي خماراً ابيض ، وجوارب
ذات ثقوب ، وسوف تبدو مثل سيدة صغيرة . اوه ، ابنتها الاخت
الطيبة ، انت لا تعرفين مبلغ حماقتي ؛ انا افكر الآن في تناول
ابنتي الاول ! »
واخذت في الضحك .

كان قد أفلت يد فانتين . واصل الى هذه الكلمات كما يصفي المرء الى ربيع نهب ، فعيناه مطرقتان الى الارض ، وروحـه غائصة في تأملات لا يُسر لها غور . وفجأةً كفت عن الكلام ورفعت رأسها على نحو آلي . كانت فانتين قد غدت بخيفة .

ولم تتكلم بعد ، ولم تتنفس بعد . كانت قد جلست في سريرها نصف جلسة وقد خرجت كتفها الممزولة من قميصها . وغدا وجهها ، الذي كان مشرقاً قبل لحظة ، شديد الشحوب ؛ وبدأت وكأنها تصوب عينها المتسعة بالذعر الى شيء مروّع واقف أمامها في الطرف الآخر من الغرفة .

وصاح :

« يا الهي ! ماذا دهاك ، يا فانتين ؟ »

ولم تجب ؛ ولم ترفع عينها قط عن الشيء الذي بدت وكأنها تنظر اليه ، ولكنها مشّت ذراعه بأحدى يديها ، وأشارت اليه بالآخرى ان ينظر خلفه .
والفت ، فرأى جافير .

٣

جافير منشرح الصدر

فَلَنَرَّ ما الذي كان قد حدث .

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عندما غادر ميو مادلين قاعة محكمة الجنايات في آراس . وكان قد رجع الى فندقه في اللحظة التي حان فيها موعد انطلاق عربة البريد التي احتجز فيها ، كما نذكر ، مقعداً له . وقبل الساعة السادسة صباحاً كانت قد بلغت

مونتروي سور مير حيث كان أول ما عمله ان حمل البريد وسأله الى مسيو لافيت ، ليقتصد بعدد الى المستشفى ويرى فالتين .

وفي غضون ذلك كان النائب العام قد وجه الخطاب الى هيئة المحكمة - بعد أن زايه تأثير الصدمة الاولى بعيد مغادرة مسيو مادلين القاعة - آسفاً للخيل الذي اصاب عمدة مونتروي سور مير المبجل معلناً ان يقينه لم يطرأ عليه تعديل ما نتيجة لهذه الحادثة الغريبة التي سوف تنجلي في ما بعد ، طالباً - في انتظار ذلك - دانة شاتانيو هذا الذي كان واضحاً انه جان فالجان الحقيقي . وكان جلياً ان إصرار النائب العام كان مناقضاً لعاطفة الجميع : النظارة ، وهيئة المحكمة ، والحلفين . ولم يجد محامي الدفاع كبير عسر في أن يدحض هذا الخطاب وان يقرر ان وجه القضية قد تغير ، بعد الذي اعلنه مسيو مادلين ، يعني جاث فالجان الحقيقي ، وان هذا التغير كان كلياً ، وانه لم يكن امام الحلفين الا الآن غير رجل بوي . وخلص المحامي من ذلك الى اطلاق بعض الحكم ، غير الجديدة كثيراً مع الأسف ، حول الاخطاء القضائية ، الخ . الخ . وفي تلخيصه للدعوى أيد رئيس المحكمة محامي الدفاع . وبعد بضع دقائق كان المحلفون قد برأوا ساحة شاتانيو .

ومع ذلك فقد كان النائب العام في حاجة الى جان فالجان ما ، واذا خسر شاتانيو فقد استولى على مادلين .

وبعيد اطلاق سراح شاتانيو مباشرة خلا النائب العام الى رئيس المحكمة . وكان موضوع حديثها يدور على « ضرورة القاء القبض على شخص السيد عمدة مونتروي سور مير . » وكانت هذه العبارة الحافطة بالاضافات هي تلك التي كتبها النائب العام بخط يده في التقرير الذي رفعه الى كبير الثواب العامين .

واذ انقضى أثر الانفعال الاول فلم يبد رئيس المحكمة غير اعتراضات قليلة . يجب ان تتخذ العدالة مجراها . والى هذا فيتعبن علينا ان

نعترف ، لكي لا نكتم شيئاً ، ان الرئيس - على الرغم من كرم نفسه وذكاء قلبه - كان في الوقت نفسه ملكياً متحمساً ، بل ملكياً يكاد يكون متأججاً ، وكان قد اصاب بصدمة عندما كان عمدة مونتروي سور مير يتحدث عن غزو الارض الفرنسية عند « كات » فقال « الامبراطور ، بدلاً من *Buonaparte* »

وهكذا صدر الامر بالاعتقال . وبعث النائب العام به الى مونتروي سور مير بواسطة رسول انطلق على جناح السرعة فدفعه الى مفتش الشرطة جافير .

ونحن نذكر ان جافير كان قد رجع الى مونتروي سور مير بعد ادلائه بشهادته مباشرة .

وكان جافير قد نهض ، وما كاد ، من فراشه حين حمل اليه الرسول الأمر بالاعتقال ومذكرة الجلب .

وكان الرسول هو نفسه شرطياً ، وكان رجلاً ذكياً استطاع ، بكلمتين ، أن يحيط جافير علماً بكل ما جرى في آراس .

وكان الأمر بالاعتقال ، الحامل توقيع النائب العام ، مفرغاً في هذه العبارات : -

« ان المفتش جافير سوف يلقي القبض على جسد السيد مادلين ، عمدة مونتروي سور مير الذي ثبت خلال جلسة اليوم انه هو المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان . »

ولو ان امراً لا يعرف جافير رآه حين دخل رواق المستشفى لما كان في ميسوره ان يحزر شيئاً مما كان يجري ، ولحسب ان سجاية طبيعية الى ابعد حد يمكن تخيله . كان غائباً ، هادئاً ، رزيناً ، وكان شعره الاشبب صقيلاً أملس ، على نحو كامل ، وكان قد ارتقى السلم في بطئه المعتاد أما من قدر له ان يعرفه معرفة عميقة ، وان يتأمله في انتباه ، فقد كان خليقاً به أن يرتعد . كان ابزيم طوق قميصه

الجلدي تحت أذنه اليسرى بدلاً من ان يكون على رقبته . وكان ذلك يتم عن احتياج لم يسع بثله من قبل .

كان جافير شخصية كاملة لا تغضن في واجبه او في ستورته العسكرية . وكان مدققاً مع الآثمين ، قاسياً على اذرار ستورته .

ولكي ينصرف ايزم طوق قيصره عن موضعه لا بد ان يكون قد عصف به انفعال من الانفعالات التي نستطيع ان ندعوها زلازل النفس . كان قد اقبل في غير مبالاة ، وكان قد اصطحب من أحد مراكز الجند المجاورة عريقاً واربعة أنفار ، وترك الجنود في الفناء ، وسأل البوابة ان تدله على غرفة فانتين ، ففعلت من غير ان ترتاب في امره ، اذ كانت متعوده ان ترى بعض الرجال المسلحين يسألون عن السيد العمدة .

حتى اذا بلغ جافير غرفة فانتين ، ادار المفتاح ، ودفع الباب في لطف مبرضة او جاسوس من جواسيس الشرطة ، ودخل .

ولو اردنا ان نصطنع الدقة في التعبير لقلنا انه لم يدخل . لقد ظل واقعاً لدى الباب نصف المفتوح ، وقبعته على رأسه ، ويده اليسرى في معطفه المزرر حتى ذقنه . وفي انثناء مرفقه كان في ميسور المرء ان يرى رأس عصاه الضخمة الرصاصي ، وكانت قد اخفت وراءه .

وظل هكذا نحواً من دقيقة لم يحس بوجوده احد . وفجأة ، رفعت فانتين عينها ، ورأته ، ودعت مسير مادلين الى الالتفات .

وحالما التقت عينا مادلين بعيني جافير غدا جافير - من غير ان يتحرك ، ومن غير ان يبدل مكانه ، ومن غير ان يقترب - مروّعاً فظيماً . ان اياً من المعاطف الانسانية لا يمكن ان تكون مخيفة كالاحتياج .

كان وجهه شيطان عثر على ضحيته من جديد . وكان يقينه بأنه قد ألقى القبض ، آخر الامر ، على جان فالجان قد اظهر

على بحياه كل ما كان في ذات نفسه . لقد ارتفعت أعماقه المضطربة الى السطح . وكان الحزبي الذي استشره بسبب من انه خل الاثر وخدع عن ذات نفسه ، بضع دقائق ، في مسألة شانغايو - كان هذا الحزبي قد ضاع في الغرور الذي استشره بسبب من انه وفق الى أن يحزر ، منذ البدء ، على هذا النحو البارع ؛ ومن انه احتفظ منذ دهر طويل بغريزة لا تكذب صاحبها . ونجلى اوتياح جاهير في مسلكه المغمم بالسلطان والجبروت . لقد انتشرت بشاعة الانتصار فوق جبينه الضيق . كان ذلك أكمل صورة من صور الهول يمكن لوجهه جذلات ان يتكشف عنها .

كان جافير ، في تلك اللحظة ، في السماء . ومن غير أن يجدد احساسه على نحو واضح ، ولكن في حدس مشوش أشعره بضرورته وبنجاحه ، مثل ، هو جافير ، العدالة والنور والحقيقة في مهنتها السماوية كدمثة للشر . كانت من ورائه ومن حوله أعماق لا نهاية لها من اللطة ، والعقل ، والابقة ، والضير القضائي ، وانتقام القانون ، وجميع النجوم التي في القبة الزرقاء . لقد صان النظام ؛ لقد أطلق وعود القانون ؛ لقد انتقم المجتمع ؛ لقد مد يد العون الى المطلق . لقد وقف منتصب القامة وسط هالة من المجد . لقد كان في انتصاره بقية من تحدٍ ومن صراع . كان في وقفته المتفطرسة ، المتألفة ، يعرض في جلال كامل البهيمة فوق البشرية الجديرة برئيس ملائكة ضار . وكان الظل الرهيب للعمل الذي يقوم به يُبدي ، في جمع كفه المتشجج ، بوارق السيف الاجتماعي الغامضة . كان يدوس بعقب قدمه ، في سعادة وفي حق ، على الجريمة ، على الرذيلة ، على التمرد ، على الهلاك الابدي ، على الجحيم . كان يتألق ، وكان يُبدي ، وكان ينسم . كان ثمة عظمة لا يمكن إنكارها في هذه الصورة الفظيعة من صور القديس ميشيل . *

• كبير الملائكة ، وقائد جند السماء .

لم يكن جافير ، رغم انه مخيف ، خسيباً قط .
إن النزاهة ، والاخلاص ، وسلامة النية ، واليقين ، وفكرة الواجب
هي اشياء قد تصبح بشعة ، حين تخطىء ، ولكنها تظل برغم بشاعتها
عظيمة . إن جلالها الخاص بالضمير الانساني ، ليسمر في هولها . إنها
فضائل ذات رذيلة واحدة : الخطأ . فالابتهاج الصادق الذي لا يعرف
الرحمة والذي ينكشف عنه التعصب في عمل من أعمال القسوة يحتفظ
بإشعاع فاجع لا تقدر على وصفه ، إشعاع يوقع في نفوسنا الأجلال .
ومن غير ان يشعر بذلك ، كان جافير في سعادته التي توحى بالذعر
يستمتع الرثاء ، مثل كل رجل جاهل يكسب معركة . إن شيئاً لا
يمكن ان يكون أوجع او أظع من هذا الوجه الذي تكشف مما
يمكن ان ندعوه شرّ الخير .

٤

السلطة تسترد حقوقها

لم تكن فانتين قد رأت جافير من يوم ان اختطفها العدة من هذا
الرجل . ولم يأخذ دماغها المريض بأيّ تحليل ؛ إلا انها لم تشك في أنه
اقبل لالقاء القبض عليها . وما كان في ميسورها ان تتعمل هذا الوجه
الرهيب ؛ لقد امتشعرت وكأنها تحتضر ؛ وأخفت وجهها يديها الاثنتين ،
وصاحت في ألم نفسي مبرح :

« ميسو مادلين ، أنقذني ! »

وكان جان فالجان - ونحن لن ندعوه منذ اللحظة بغير هذا الاسم -
قد نهض . وقال لفانتين في جرس ليس ألطف منه ولا أكثر هدوءاً :
« إليهي السكينة . إنه لم يأت من اجلك . »

ثم التفت الى جافير وقال :

- « انا اعرف ماذا تريد . »

فاجاب جافير :

- « هيا ، أسرع ! »

كان في الطريقة التي نطقت بها هاتان الكلمتان شيء لا يمكن التعبير عنه ، شيء يذكر كرك بوحش صار ورجل مجنون . إن جافير لم يقل : « هيا ، أسرع ! » ولكنه قال : « هيا ... أسرع ! » ، وليس في إمكان علم الاملاء ان يعبر عن النبوة التي أطلق فيها هذا الكلام . إنه لم يكن كلاماً بشرياً قط ؛ كان زئيراً .

ولم يجر على مألوف عاداته ، ولم يدخل قط في الموضوع ، ولم يبرز أيما مذكرة جلب . كان جان فالجان ، في نظره ، ضرباً من المقاتل الحقي الذي لا سبيل الى فهمه ؛ كان مصارعاً غامضاً سلخ خمسة اعوام وهو يغالبه من غير أن يظنهر عليه . إن هذا الاعتقال لم يكن بداعة ، لقد كان خاتمة . واكتفى بالقول :

- « هيا ، أسرع ! »

وفيا هو يقول ذلك لم يخط خطوة واحدة ، ولكنه ألقى على جان فالجان نظرة اشبه بالكلاب المعدني كان من عاداته أن يجذب بها البؤساء نحوه ، بالقوة .

كانت هي النظرة نفسها التي استشعرت فانتين أنها نفذت الى نخاع عظامها قبل شهرين اثنين .

وكانت فانتين قد فتحت عينيها عندما أطلق جافير صيحته . ولكن العدة كان هناك ، فمن اي شيء يمكن أن تخاف ؟
وتقدم جافير الى منتصف الغرفة ، صائحاً :

- « هيا ، هناك ! ألن تأتي ؟ »

ونظرت المرأة المكيبة الى ما حولها . لم يكن ثم احد غير الراهبة

والعمدة . الى من يمكن ان يكون هذا الكلام الاستغفاني المحتر
موجهاً ؟ اليها وحدها ليس غير . وارتعدت اوصالها .

ثم انها رأت شيئاً عجباً ، شيئاً عجباً لم يتمثل لها نظيره حتى في
احلك لحظات الحى وهذيانها .

لقد رأت جاموس الشرطة جافير يمسك بجناق السيد العمدة ؛ لقد
رأت السيد العمدة يحني رأسه . وبدا لها وكأن العالم يتلاشى امام ناظرها .
كان جافير قد أخذ بجناق جان فالجان فعلاً .

وصاحت قائتين :

- « سيدي العمدة ! »

وانفجر جافير بالضحك . وكشف ضحكه الرهيب هذا عن اسنانه كلها .
وقال :

- « لم يُعدْ هنا شيء اسمه سيدي العمدة ! »

ولم يحاول جان فالجان ان يزجج اليد القابضة على طوق ستونه الطويلة
المشقوقه الذيل .

وقال :

- « جافير »

وقاطعه جافير :

- « نادني ايها السيد المفتش ! »

فتابع جان فالجان كلامه :

- « ايها السيد ، اريد ان اقول لك كلمة على انفراد . »

فقال جافير :

- « تكلم بصوت عال ! تكلم بصوت عال ! ان الناس يتكلمون

معي بصوت عال ! »

وتابع جان فالجان كلامه ، خافضاً صوته :

- « انما اريد ان اتقدم اليك بوجاء »

- « اقول لك تكلم بصوت عالٍ . »

« ولكن هذا شيء ينبغي ان لا يسمعه احد غيرك . »

« وما يعني ذلك ؟ لن اصني لكلامك ! »

واستدار جان فالجان نحوه ، وقال في سرعة وفي صوت منخفض جداً :

- « أمهلني ثلاثة ايام ! ثلاثة ايام لكي اذهب وأجيء بطفلة هذه

المرأة المسكينة ! سوف ادفع كل ما هو ضروري في سبيل ذلك . وفي

استطاعتك أن ترافقني اذا شئت . »

فصاح جافير :

- « اتضحك عليّ ؟ هاي ؟ ما كنت اعتقد انك ابلة الى هذا الحد !

انت تطلب مهلة ثلاثة ايام لكي تفرّ ثم تزعم انك تريد ان تذهب

لكي تأتي بطفلة هذه الفتاة ! ها ! ها ! هذا جيل ! هذا جيل ! »

وارتعدت فانتين .

وصاحت :

- « ابنتي ! تذهب لكي تجيئي بابنتي ! واذن ، فهي ليست هنا !

أيتها الاخت اجيبي ، اين كوزيت ؟ انا اريد ابنتي ! مسير مادلين !

سيدي العبدة ! »

وخطب جافير الارض بقدمه .

- « ها هي الاخرى ، الآن ! اخري ، اينها الفتاة الخالعة العذار !

مسكينة هذه البلاد التي يكون فيها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ولادة ،

والتي يمرّص فيها بنات الهوى مثل الكونتيسات ! ها ! ولكن هذا كله

سينتغير . لقد آن الاوان ! »

وحدّق الى فانتين تحديقاً موصولاً ، ثم اضاف مسكناً ككرة اخرى

بعقدة رقبة جان فالجان ، وقبضه ، وطوق سترته :

- « اقول لك انه لم يبق هنا شيء اسمه مسير مادلين ، ولم يبق شيء

اسمه سيدي العبدة . إن هناك لهما ؛ ان هناك قاطع طريق ؛ ان هناك

وجلاً محكوماً عليه بالاشغال الشاقة يدعى جان فالجان ! انه هذا الذي امك به اذلك ما يوجد هنا !

وانتصبت فانتين في جلستها ، معتمدة على ذراعيها المتوترتين وعلى يديها . ونظرت الى جان فالجان ، ونظرت الى جافير ، ونظرت الى الراهبة . وفتحت فيها وكأنها تريد ان تتكلم ، وانطلقت من جنبها حشرة ، واصطكت اسنانها ، ومدت ذراعيها في ألم نفسي مبرح ، وفتحت يديها في تشنج ، منحسرة ما حولها مثل مشرف على الفرق . ثم انقلبت فجأة على ظهرها ، فوق الوسادة .

واصطدم رأسها بمقدم السرير ، فارتدت منقلباً على صدرها . كان فيها فاعراً وكانت عيناها مفتوحتين خامدتين .
لقد ماتت .

ووضع جان فالجان يديه على يد جافير المسكة به ، وفتحها وكأنه يفتح يد طفل . ثم قال لجافير :
- « لقد قتلت هذه المرأة . »

فصاح جافير في حنق :

- « كفى هراء ! انالم اجيء الى هنا لأستمع الى مواظ . وفتر هذا كله . الحرس تحت . امش في الحال ، وإلا وضعت يدك في الحديد ! »
وكان في زاوية الغرفة سرير حديدي عتيق متهدم كانت كل من الراهبتين تتخذ منه سريراً نقلاً حين تسهر على خدمة المرضى . فما كان من جان فالجان إلا ان مضى الى ذلك السرير ، وانتزع في طرفة عين مقدمه الواهن - وما كان ذلك بعسير على عضلات كمضلاته - ونظر الى جافير ، والقضيب الحديدي في قبضة يده .

وارتدت جافير نحو الباب .

وفي ببطء ، تقدم جان فالجان ، متشبهاً بالقضيب الحديدي ، نحو سرير فانتين . حتى اذا انتهى اليه ، استدار وقال لجافير في صوت لا يكاد يُسمع :

- أنصحك بأن لا تزعجني الآن .

وارتعد جافير ؛ ذلك شيء لا يتطرق إليه الشك .

وخطر له أن يمضي ليستدعي الحرس ، ولكن جان فالجان قد يغتم هذه الفرصة فيفتر . وهكذا ظلّ معتمصاً بعقب عصاه ، وأسند ظهره إلى إطار الباب ، من غير أن يرفع عينيه عن جان فالجان .

وأراح جان فالجان مرفقه على القضيب الحديدي ، وأراح رأسه على يده ، وحدّق إلى فانتين وقد تمدّدت أمامه وليس بها حراك . وظلّ هكذا ذاهلاً ، أنكم ، غير مفكر من غير شك بأيّ شيء في هذه الحياة . ولم يبق على حياه ، وفي هيئته ، غير شفقة تمنع على التعبير .

وبعد بضع لحظات من الابتغراق في التفكير انحنى فوق فانتين ، وخاطبها في صوت خفيض .

ماذا قال ؟ ما الذي يستطيع أن يقوله هذا الرجل المالك لهذه المرأة الميتة ؟ ما كانت تلك الكلمات التي نطق بها ؟ إن أحداً على ظهر هذه الأرض لم يسمعها . هل سمعتها المرأة الميتة ؟ إن ثمة أوهاماً مؤثرة ربما كانت حقائيق سامية . والشيء الذي لا سبيل إلى الشك فيه هو أن الأخت سيمبليس - الشاهدة الوحيدة لما قد جرى - كثيراً ما روت أنها لحظةً همس جان فالجان في أذن فانتين رأت في وضوح ، ابتسامةً يعجز البيان عن وصفها تُشرق على هاتين الشفتين الشاحبتين وفي هاتين العينين القاتنتين ، المنفتحتين بدهشة القبر .

وأمسك جان فالجان رأس فانتين بيديه ، وقوّاه على الوسادة ، ففعل الأم برأس طفلها ، ثم عقد وثاق منامتها ، وأدخل شعرها تحت قلنسوتها . حتى إذا تمّ له ذلك أغمض عينها .

وفي تلك اللحظة بدا وجه فانتين مشرقاً على نحو عجيب .

إن الموت هو المدخل إلى النور العظيم .

وتدلّت يد فانتين على جانب السرير . وركع جان فالجان أمام

هذه اليد ، ورفعها في رفق ، وقبلها .
ثم انه نهض ، والتفت الى جافير قائلاً :
- « والآن ، انا تحت تصرفك . »

٥

قبر ملائيم

ووضع جافير جان فالجان في سجن المدينة .
وأثار اعتقال ميو مادلين خواطر الناس في مونتيوي سور ميو ،
بل الاصح ، ان نقول إنه احدث هزة فوق العادة . ويؤسفنا ان لا
نستطيع كتمان هذه الحقيقة : وهي أنه ما كادت تذيع تلك الجملة
المفردة : كان عبداً وقيماً من عبيد سجن الاشغال الشاقة حتى انقضت
من حوله الناس كلهم تقريباً . وفي اقل من ساعتين نسي جميع الخير
الذي اسداء الى البلد والناس ، ولم يعد هو « غير محكوم عليه بالاشغال
الشاقة » ، ومن الانصاف ان نقول ان تفاصيل الحادث كما وقع في
آراس لم تكن قد عرفت بعد . وطوال النهار كانت احاديث مثل
هذه تسمع في كل جزء من اجزاء المدينة :

- « الا تعرف ؟ لقد كان محكوماً بالاشغال الشاقة أطلق سراحه ! »

- « من هذا ؟ »

- « العمدة . »

- « عجباً ، ميو مادلين ؟ »

- « نعم . »

- « حقاً ؟ »

- « ان اسمه ليس مادلين . إن له اسماً خفياً : باجان ، بوجان ، بيجان ! »

— « آه ، يا الهي ! »
— لقد ألقى القبض عليه .
— « التقي القبض عليه ! »
— « ووضع في سجن المدينة ريثما يُنقل . »
— « ريثما يُنقل ؟ الى أين سوف ينقل ؟ »
— « سوف يساق الى محكمة الجنايات لسرقة في الطريق العام كان قد ارتكبها في ما مضى . »

— « حسناً ! لقد ارتبت فيه دائماً . لقد كان هذا الرجل طيباً أكثر مما ينبغي ، كاملاً أكثر مما ينبغي ، لطيفاً أكثر مما ينبغي . لقد رفض ان يتقاضى اجراً ، وكان يبيع الدراهم لكل من يلتقيه من هؤلاء الاوباش الصفار . لقد فكرت دائماً بأنه لا بد ان يكون ثمة قصة رديئة خلف هذا كله . »

واخذت « الصالونات » كلها - على الخصوص - بهذا الرأي .
واطلقت سيدة عجوز ، مشرقة بصحيفة « الراية البيضاء » ، هذه الملاحظة التي يكاد يتعذر على المرء ان يسبر غورها :
« انا لست آسفة . ان ذلك سوف يلقي درساً على البونابرتين ! »
وهكذا تبدد في مونتروي سور مير ذلك الطيف الذي كان يُدعى فيها مسيو مادلين . إن ثلاثة اشخاص او اربعة اشخاص من اهل المدينة كلها ، لبس غير ، ظلوا اوفياء لذكراه . وكانت البوابة العجوز التي عملت في خدمته واحدة من هؤلاء .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه كانت هذه العجوز الفاضلة جالسة في كوخها ، وهي ما تزال مشدوهة ، وقد غرقت في تفكير حزين . كان المصنع قد أغلق طوال النهار ، وكان الباب الكبير الذي تدخل منه العربات قد أوصد بالحديد ، وكان الشارع مقفراً . ولم يكن في المنزل احد غير الراهبين ، الاخت بيوريتو والاخت سيبيليس ، وكانتا ماهرتين

امام جثمان فانتين .

وحوالى الموعد الذي تعود مسيو مادلين العودة فيه الى منزله نهضت البوابة الامينة على نحو آليّ ، واخذت مفتاح غرفة مسيو مادلين من احد الادراج ، والشعدان الذي اعتاد ان ينير به سبيله ليلاً وهو يرتقي السلم ، ثم علقت المفتاح بمسار كان من دأبه أن يتناوله منه ، ووضعت للشعدان الى جانبه ، وكانما كانت تتوقع عودته . ثم انها عاودت الجلوس في الكرسي ، واستأنفت تأملاتها . لقد عملت العجوز المسكينة ذلك كله من غير ان نعي .

وانقضى على ذلك اكثر من ساعتين . وفجأةً أجفلت حاشية :
- « ولكن ، يا الهي ! لاني انا التي وضعت مفتاحه في المسار ! »
وفي تلك اللحظة ، فتحت نافذة كوخها . وامتدت يدٌ من خلال تلك الفرجة ، واخذت المفتاح والشعدان ، وأخأته بالشمعة المشتعلة . ورفعت البوابة عينها فافرة الفم . ووثبت الى شفتيها صيحة ، ولكنها خففتها .
لقد عرفت اليد ، والذراع ، وُردن الريدينغوت .
كان مسيو مادلين .

وظلت حاشيةً بضع دقائق ، قبل ان توفق الى الكلام ، مصعوقةً كما عبرت هم نفسها في ما بعد حين روت الحادثة .
واخيراً صاحت :

- « يا الهي ! السيد العمدة ! لقد حسبتُ انك ... »
وصحمت . كان من الجائز ان تأتي خائفةً جملتها وقد أعوزها الاحترام لمطلعها . فقد كان جان فالجان هو دائماً - في نظرها - السيد العمدة .
وانتم فكرها ، قائلاً :

- « في السجن . لقد كنت هناك . لقد كسرت قضيباً حديدياً من احدى النوافذ ، وقهرت من أعلى سطح ما ، وها أنا ذا . لاني ذاهب الى غرفتي . فولي لالاخت سيمبليس إتني اودّ ان اراها . انها من

غير شك الى جانب تلك المرأة المسكينة .

وامثلت العجز الأمر في سرعة بالغة .

ولم يوصها بشيء . كان وانقأ من انها خليفة بان تحرسه أحسن مما يحرس نفسه .

وما عرف احد قط كيف وُفِّق الى ان يدخل الى فناء الدار من

غير ان يفتح الباب الكبير الخاص بالعربات . كان لديه مفتاح بحمله

ابداً في جيبه ، مفتاح عمومي يفتح باباً جانبياً صغيراً . ولكنهم قد

قتشوه من غير ريب ، وانتزعوا منه ذلك المفتاح الذي تعنونه الأبواب

كلها . إن هذه النقطة لما تُجمل حتى الآن .

وارتقى السلم التي تقود الى غرفته . حتى اذا بلغ الدور الأعلى ترك

شمعدانه على درجات السلم الأخيرة ، وفتح باب غرفته في رفق ، وتلمس

سيبله نحو النافذة فأغلقها وأغلق مصراعها ، ثم ارتد على آثاره ، فحمل

الشمعدان ، ومضى الى غرفته ككرة أخرى .

ولم يكن الحذر غير ذي غناء . فنحن نذكر ان نافذة غرفته يمكن

ان تُوى من الشارع .

وألقي نظرة على ما حوله ، على طاولته ، على كرسيه ، على سريره

الذي لم يضطجع فيه منذ أيام ثلاثة . لم يكن ثمة ايما اثر من فوضى

الليلة التي قبل البارحة . ذلك بأن الخادمة كانت قد رتبت الغرفة ؛ بيد

أنها كانت قد التقطت من الرماد عقي العصا الحديديتين وقطعة الاربعين سر

التي سوتها النار . ووضعها جميعاً ، بعد تنظيفها ، على الطاولة .

وتناول ورقة وكتب : هاهما عقيب عصاي الحديديتين وقطعة الاربعين

سوا المسروقة من جيبه الصغير ، والتي تحدثت عنها في حكمة الجنايات .

ثم وضع القطعتين الحديديتين والقطعة الفضية على الورقة بحيث تكون أول

شيء يراه الداخل الى الغرفة . وأخرج من احدى الخزائن قيصاً له عتيقاً

ومزقه . وهكذا حصل على بضع قطع من القماش لف بها الشمعدانين

الفضيين . وفي ذلك كله لم يكن ثمة تعجل أو احتياج . وحتى فيما هو

يلفّ شمعداني الاسقف انشأ بضم قطعة من الخبز الاسود . ولعلّ ذلك كان من خبز السجن الذي حمله معه حين فرّ .
ولمّا نهض الفئات الذي وُجد على ارض الغرفة ، حين أجرت العدالة في ما بعد تفتيشاً دقيقاً ، دليلاً على ذلك .
وخفق شخصٌ ما الباب خفقتين رفيفتين .
وقال : « ادخل . »

كانت هي الاخت سيبيليس .
كانت شاحبة الوجه ، محمّرة العينين ؛ وكانت الشمعة التي تحملها ترتجف في يدها . إن لصدّات القدر هذه الحاسة ، وهي اننا مهما تكن أحاسيسنا مكبّوحة أو حسنة الانضباط فان تلك الصدّات تنزع الطبيعة البشرية من أعماق نفوسنا ، ونكرهنا على ان نبديها للناس . ففي غمرة من اتصالات ذلك اليوم كانت الراهبة قد عادت امرأة ككرة اخرى .
كانت قد ذرفت الدمع ، وكانت ترتجف .
وكان جان فالجان قد كتب بضعة اسطر على قصاصة من ورق ،
فقدّمها الى الراهبة قائلاً :

« ايها الأخت ، سوف تقدمين هذه الى الكاهن . »
ولم تكن الورقة مطوية . فألقت نظرة عليها .
وقال جان فالجان : « في استطاعتك ان تقرأها . »
وفرات : « لاني أرجو سيدي الكاهن ان يتولى أمر العناية بكل ما أتوكة هنا . وأرجو أن يدفع من ثمن ذلك نفقات محاكمتي ونفقات دفن هذه المرأة التي توفيت اليوم . أما الباقي فيوزع على الفقراء . »
وحاولت الراهبة ان تتكلم ، ولكنها تلعجبت فلم تنطلق من فمها سوى اصوات غير مُبينة . بيد أنها ما لبثت ان وفّقت الى القول :
« ألا يريد السيد العمدة ان يرى هذه البائسة المسكينة للمرة الاخيرة ؟ »
فقال :

— « لا . إنهم بطاردوني . ولست أحب ان يلقوا القبض عليّ في
غرفتها . ذلك خليق به ان يزعمها . »

ولم يكذب كلامه حتى أقبلت من جانب السلم ضجة شديدة . لقد
مما جلّية أقدام ترتقي السلم ، والبوابة المعجوز تقول في نبوات مرتفعة
الى أبعد الحدود ، ثاقبة الى أبعد الحدود :

— « يا سيدي الطيب ، أقسم لك بالله ان أحداً لم يدخل الى هنا
طوال النهار وطوال الليل ، وأنا لم أغادر باب كوخه ولوسرة واحدة ! »
فأجابها رجل :

— « ومع ذلك فهناك نور في هذه الغرفة . »

وتبين في ذلك الكلام صوت جافير .

كانت الغرفة منظمة على نحو يجعل الباب محجب ، حين يُفتح ، زاوية
الجدار القائم الى اليمين . وأطفاً جان فالجان الشمعدان ، وحشر نفسه في
تلك الزاوية .

وخرت الاخت سيبليس على ركبتيها قرب الطاولة .

وفتح الباب .

ودخل جافير .

وسمع خمس عدة رجال واحتجاجات البوابة في الرواق .

ولم ترفع الراهبة عينها . كانت نصلي .

كانت الشمعة فوق الموقد ، وكانت لا ترسل غير ضوء باهت .

ولمح جافير الراهبة ، ووقف مرتبكاً .

وبذكر القراء ان جوهر جافير ، وعنصره ، والوسط الذي يتنفس
فيه كان اجلال السلطة كلها . كان متجانساً اكمل التجانس ، وكان لا
يرتضي اعتراضاً او تقييداً . وينبغي ان نعلم ان السلطة الاكبركية كانت
عنده اسمى السلطات . كان تقياً ، سطحياً ، دقيقاً في هذه البتطة شأنه في
النقاط جميعاً . ففي نظره كان الكاهن روحاً ليس تخطيء ابداً ، وكانت

الراهبة مخلوقة لا تأثم ابداً . كانوا ووحين يعزلها عن هذا العالم باب مفرد لا يفتح ابداً إلا لكي يسمح للحقيقة بالانطلاق .
وهكذا لم يكده يلمح الراهبة حتى كان حافزه الاول يدعوه الى الانسحاب .
ولكن كان ثمة واجب آخر يمك به ، ويدفعه بصلف في طريق معاكس . كان حافزه الثاني يقتضيه ان يبقى وان يغامر فيطرح سؤالاً واحداً على الأقل .

كانت هذه هي الاخت سيبليلس التي لم تكذب في حياتها قط . كان جافير يعرف ذلك ، وكان يجلبها على نحو خاص بسبب من ذلك .
وقال : « ايها الاخت ، هل انت وحدك في هذه الغرفة ؟ »
وانقضت لحظة رهيبة استشعرت البوابة المسكينة خلاها وكأنها على وشك ان تصاب بالاغواء . ورفعت الراهبة عينها ، واجابت :
- « نعم . »

وتابع جافير :
- « اعذريني اذا اصررت ، فهذا واجبي : ألم تري هذا المساء شخصاً ، رجلاً ، كان قد فرّ ، ونحن نلاحقه - هذا الرجل ، جان فالجان ، ألم تَرّيه ؟ »
فأجابت الراهبة : « لا . »

لقد كذبت . كذبت كذبتين متعاقبتين ، احداها اثر الاخرى ، ومن غير ما تردد ، وفي سرعة ، وكأنها متضلعة من ذلك .
- « ألتس عفوك . »

قال جافير ذلك ، وانسحب منحنياً في احترام .
ايه ايها الفتاة المقدسة ! انت لم تعودى من اهل هذا العالم منذ سنوات عديدة . لقد التحقت باخوانك - العذارى - وباخوتك - الملائكة - في الضياء . فلئذ كثر لك هذه الكذبة في الجنة !
كان توكيد الراهبة لجافير شيئاً حامماً عنده الى درجة جعلته لا يلحظ

حتى غرابة هذا الشعدان ، المطفأ منذ لحظة ، المرسل دجانه على الطاولة .
وبعد ساعة ، كان رجل يمشي عبر الاشجار والظلمات مبتعداً في
سرعة عن مونتروي سور مير موجهاً وجهه شطر باريس . كانت هذا
الرجل هو جان فالجان . ولقد ثبت ، بشهادة اثنين أو ثلاثة من سائقي
العربات الذين التقوا به ، أنه كان يحمل صرة ، ويرتدي دراعة . من
اين جاء بهذه الدراعة ؟ إن احداً لم يدّر . ومع ذلك ، فإن عاملاً
عجوزاً كان قد توفي في مستشفى المصنع قبل ايام قليلة ، غير مختلف
شيئاً خلا هذه الدراعة . فلعلّ هذه ان تكون تلك التي ارتداها جان فالجان .
بقيت كلمة اخيرة عن فانتين .

إن لنا جميعاً أمّاً واحدة : الارض . لقد أُعيدت فانتين الى هذه الأم .
وارتأى الكاهن ، ولعله أحسن في ذلك صنعاً ، ان يحتفظ باكبر
قدر ممكن من ثمن ما خلفه جان فالجان ليوزعه على الفقراء . وعلى اية
حال ، فبمن كان يتصل ذلك ؟ برجل محكوم عليه بالاشغال الشاقة ،
وبيئت من بذات الهوى . وهذا هو السبب الذي من اجله بسّط الاحتفال
بدفن فانتين ، وقصره على الكفاف الذي يدعى حقل الفقاري *
وهكذا دُفنت فانتين في هذه الزاوية المجانية من المقبرة ، الزاوية
التي هي لكل فرد وللناس جميعاً ، والتي يضيع فيها الفقراء . ولكن
الله يعرف حسن الحظ أين يجد النفس . لقد أضجعت فانتين في الظلام ،
بين الرمم التي ليس لها اسم . لقد تحملت فوضى وفات الموتى
واختلاطه . لقد طرحت في الجذث العمومي . إن قبرها كان مثل سريرها .

* اي مقبرة الفقراء والغرياء . جاء في انجيل متى (٢٧ : ٧) : « قشاوروا واشتروا بها حقل الفقاري مقبرة » .

فهرست القسم الاول : « فانتين »

ص	
•	مقدمة
١٧	كلمة اولى
	الكتاب الاول : رجل مستقيم
٢١	١ . مسيو ميريل
٢٥	٢ . مسيو ميريل يصبح مونسينيور بينفينو
٣٢	٣ . اسقف صالح - اسقفية جافية
٣٦	٤ . الاعمال تتكافأ مع الاقوال
	٥ . كيف جعل مونسينيور بينفينو ثوبه
٤٤	الكنيوتى يعمر طويلاً
٤٧	٦ . كيف كان يجمي بيته
٥٤	٧ . كراغات
٥٩	٨ . فلسفة ما بعد الغداء
٦٤	٩ . الاخ كاتصوره الاخت
٦٩	١٠ . الاسقف في حضرة ضياء مجهول
٨٦	١١ . تحفظ
٩٢	١٢ . عزلة مونسينيور بينفينو
٩٧	١٣ . منتقداته
١٠٢	١٤ . افكاره

الكتاب الثانى : السقوط

١٠٧	١ . بعد مسيرة يوم بكامله
١٢٣	٢ . النقطة تسلم للحكمة
١٢٨	٣ . بطولة الطاعة المياء
١٣٥	٤ . تفاصيل حول مجانب بوتارليه
١٤٠	٥ . سكون
١٤٧	٦ . جان فالجان

٧	. أعماق القنوط	١٥٤
٨	. الموج والظل	١٦٤
٩	. مظالم جديدة	١٦٧
١٠	. الرجل يستيقظ	١٦٩
١١	. ما الذي يندب	١٧٢
١٢	. الاسقف يعمل	١٧٧
١٣	. جيرانه للصغير	١٨٢

الكتاب الثالث : في عام ١٨١٧

١	. سنة ١٨١٧	١٩٤
٢	. رباعية مزدوجة	٢٠٦
٣	. اربعة ازاء اربع	٢١٢
٤	. تولوميس ينتج الى درجة عمله على انشاد اغنية اسبانية	٢١٩
٥	. في حانة بومباردا	٢٢٣
٦	. فصل من محبة الذات	٢٢٧
٧	. حكمة تولوميس	٢٢٩
٨	. موت فرس	٢٣٨
٩	. نهاية الابتهاج البهجة	٢٤٣

الكتاب الرابع : الايداع يعني التخلي احياناً

١	. امّ تلتقي أمّا	٢٤٨
٢	. رسم اعدادي اول لوجين مبين	٢٦١
٣	. القبرة	٢٦٤

الكتاب الخامس : الانحدار

١	. قصة تحبين في صناعة الزجاج الاسود	٢٦٩
٢	. مسيو مادلين	٢٧١
٣	. اموال مودعة عند لاهيت	٢٧٦
٤	. مسيو مادلين في ثياب الحداد	٢٨٣
٥	. بوارق غامضة في الاق	٢٨٦
٦	. الاب فوشلوفان	٢٩٣
٧	. فوشلوفان يصبح بستانياً في باريس	٢٩٨
٨	. مدام فيكتورين تنفق خمسة وثلاثين فرنكاً على الاخلاق	٣٠٠

- ٩ . نجاح مدام فيكتورين ٣٠٤
 ١٠ . عاقبة النجاح ٣٠٨
 ١١ . المسيح هو غلمانا ٣١٦
 ١٢ . بطالة مسيو باماتابوا ٣١٧
 ١٣ . حل لبعض مشكلات الشرطة البلدية ٣٢١

الكتاب السادس : جافير

- ١ . بداية الراحة ٣٣٥
 ٢ . كيف يمكن لجان فالجان ان يصبح « شان » ٣٤١

الكتاب السابع : قضية شانتاتيو

- ١ . الاخت سيمبليس ٣٥٤
 ٢ . ذكاه المعلم سكوفلير ٣٥٨
 ٣ . عاصفة في دماغ ٣٦٥
 ٤ . اشكال يتخذها الذباب خلال النوم ٣٩١
 ٥ . عصي في الدواليب ٣٩٦
 ٦ . الاخت سيمبليس مخرب ٤١٩
 ٧ . المسافر يصل ويعد المدة للرجوع ٤٢٩
 ٨ . دخول بامتياز ٤٣٦
 ٩ . موطن تكون فيه البيئات ٤٤٠
 ١٠ . طراز الانكار ٤٤٩
 ١١ . شانتاتيو يزداد دماً على دهش ٤٥٩

الكتاب الثامن : ضربة معاكسة

- ١ . بأية مرآة ينظر مسيو مادلين الى شعره ٤٦٦
 ٢ . فانتين سيدة ٤٧٠
 ٣ . جافير منشرج الصدر ٤٧٥
 ٤ . السلطة تتردد حقوقها ٤٨٠
 ٥ . قبر ملائم ٤٨٦

انتهى المجلد الاول

ويليه المجلد الثاني